



هُنَّوَعَتِ

شُعَبِ الْأُمَّانِ

ح) جمعية خدمة المحتوى الإسلامي باللغات ، ١٤٤٦ هـ

جمعية خدمة المحتوى الإسلامي باللغات
موسوعة شعب الإيمان. / جمعية خدمة المحتوى الإسلامي
باللغات - ط ١. - الرياض ، ١٤٤٦ هـ
٥٥٥ ص : ..سم

رقم الإيداع: ١٤٤٦/١٤٢٦٠
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٥١٧-٩٥-٦

شركاء التنفيذ:



يتاح طباعة هذا الإصدار ونشره بأي وسيلة مع
الالتزام بالإشارة إلى المصدر وعدم التغير في النص.

-  Tel: +966 50 244 7000
-  info@islamiccontent.org
-  Riyadh 13245- 2836
-  islamiccontent.org

هُوسُوْعَتِ

شُعَبِ الْأُمِّيَّانِ

إعداد القسم العلمي

جمعية خدمة المحتوى
الإسلامي باللغات



جمعية الدعوة
وتوعية الجاليات بالربوة





المقدمة

الحمد لله الذي هدى عباده إلى صراطه المستقيم، وجعل الإيمان التقوى حصناً منيعاً من عذابه الأليم، وسبباً لدخول جنة النعيم، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد جاءت النصوص الشرعية من الكتاب والسنة مبينة الإيمان وشعبه، والأثر المترتب على العمل بها في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۖ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون - شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» [رواه البخاري: ٩، ومسلم: ٣٥، واللفظ له].

من أجل ذلك؛ جاء هذا الكتاب ليبين حقيقة الإيمان وشعبه وأثاره وفوائده، مستنداً إلى نصوص القرآن والسنة، مع بيان الأسباب والوسائل المعينة على تحقيقه. وقد أعد هذا العمل اللجنة العلمية بجمعية خدمة المحتوى الإسلامي باللغات بالتعاون مع جمعية الدعوة وتوعية الجاليات بالربوة، حرصاً منهم على نشر هذا العلم القيم، مع مراعاة مناسبته للترجمة لغير الناطقين بالعربية، إيماناً بأهمية إيصال رسالة الإسلام للجميع.

نسأل الله تعالى أن يكتب هذا الجهد في ميزان الحسنات، وأن ينفع به جميع الناس.

وصلّى الله وسلم على نبينا محمد

مقدمة

مكانة الإيمان في الشرع:

لا يخفى على كل مسلم أهمية الإيمان وعظم شأنه وكثرة عوائده وفوائده على المؤمن في الدنيا والآخرة، بل إن كل خير في الدنيا والآخرة متوقف على تحقق الإيمان الصحيح، فهو أجل المطالب وأهم المقاصد وأنبل الأهداف، وبه يحيا العبد حياة طيبة سعيدة، وينجو من المكاره والشرور والشدائد، وينال ثواب الآخرة ونعيمها المقيم وخيرها الدائم المستمر الذي لا يحول ولا يزول.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَتْ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا فَدَعِمِلْ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف]. والآيات في هذا المعنى في القرآن الكريم كثيرة.

بيان معنى الإيمان وأركانه:

الإيمان في اللغة: الإقرار بالشيء عن تصديق به. فالإيمان يتضمن معنىً زائداً على مجرد التصديق، ألا وهو الإقرار والاعتراف المستلزم للقبول للأخبار والإذعان للأحكام. [ينظر: «شرح العقيدة الواسطية» لابن عثيمين (١/ ٥٤، ٥٥)].

أما الإيمان في الشرع: فهو قول باللسان والقلب، وعمل بالقلب واللسان والجوارح.

أما قول اللسان؛ فالأمر فيه واضح، وهو النطق.

وأما عمله؛ فحركاته، وليست هي النطق، بل النطق ناشئ عنها إن سلمت من الخرس.

وأما قول القلب؛ فهو اعترافه وتصديقه.

وأما عمله؛ فهو عبارة عن تحركه وإرادته؛ مثل الإخلاص في العمل؛ فهذا عمل قلب، وكذلك التوكل والرجاء والخوف والمحبة؛ فالعمل ليس مجرد الطمأنينة في القلب، بل هناك حركة في القلب.

وأما عمل الجوارح؛ فواضح؛ ركوع، وسجود، وقيام، وقعود، فيكون عمل الجوارح إيماناً شرعاً؛ لأن الحامل لهذا العمل هو الإيمان. والدليل على أن الإيمان يشمل هذه الأشياء:

قال النبي ﷺ: «الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره» [رواه مسلم: ٨]؛ فهذا قول القلب.

أما عمل القلب واللسان والجوارح؛ فدليله قول النبي ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة: أعلاها: قول: لا إله إلا الله، وأدناها: إمطة الأذنى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» [رواه البخاري: ٩، ومسلم: ٣٥ واللفظ له]؛ فهذا قول اللسان وعمله وعمل الجوارح، والحياء عمل قلبي، وهو انكسار يصيب الإنسان ويعتريه عند وجود ما يستلزم الحياء. فتبين بهذا أن الإيمان يشمل هذه الأشياء كلها شرعاً.

ويدل لذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ قال المفسرون: أي: صلاتكم إلى بيت المقدس؛ فسمى الله تعالى الصلاة إيماناً؛ مع أنها عمل جوارح وعمل قلب وقول لسان. هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة.

وشموله لهذه الأشياء الأربعة لا يعني أنه لا يتم إلا بها، بل قد يكون الإنسان مؤمناً مع تخلف بعض الأعمال، لكنه ينقص إيمانه بقدر ما نقص من عمله [ينظر: «شرح العقيدة الواسطية» للعثيمين (٢/ ٢٣٠)].

أما أركان الإيمان؛ فستة أركان، وهي:

- ١- الإيمان بالله تعالى؛ ويشمل: الإيمان بوجود الله تعالى، وبربوبيته، وبألوهيته، وبأسمائه الحسنی وصفاته العليا.
- ٢- الإيمان بالملائكة.
- ٣- الإيمان بالرسول.
- ٤- الإيمان بالكتب المنزلة على الرسل.
- ٥- الإيمان باليوم الآخر.
- ٦- الإيمان بالقدر خيره وشره.

زيادة الإيمان ونقصانه:

من أصول أهل السنة والجماعة: أن الإيمان يزيد وينقص؛ يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، وهم مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر، بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي.

ويستدلون لذلك بأدلة من الكتاب والسنة:

فمن الكتاب: قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ ءِيمَنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾

[التوبة: ١٢٤].

وقوله سبحانه: ﴿لَيْسَتِ يَمَنُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ءِيمَنًا﴾ [المدثر: ٣١].

وقوله ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا ءِيمَنًا مَعَ ءِيمَنِهِمْ﴾

[الفتح: ٤]، وهذا صريح في ثبوت زيادة الإيمان.

وأما النقص: فقد ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول

الله ﷺ وعظ النساء وقال لهن: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل

الحازم من إحداكن» [رواه البخاري: ٣٠٤، واللفظ له، ومسلم: ٧٩].

فأثبت نقص الدين، وكذلك فإن إثبات الزيادة مستلزم للنقص؛ فكل نص يدل

على زيادة الإيمان؛ فإنه متضمن للدلالة على نقصه. [ينظر: «شرح العقيدة الواسطية» لابن عثيمين (٢/ ٢٣٣، ٢٣٤)].

الأسباب التي تؤدي إلى زيادة الإيمان:

- معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته؛ فإنه كلما ازداد الإنسان معرفة بالله وأسمائه وصفاته ازداد إيمانه.

- النظر في آيات الله الكونية والشرعية: قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآيَاتِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۖ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۚ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۚ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١].

وكلما ازداد الإنسان علماً بما أودع الله تعالى في الكون من عجائب المخلوقات ومن الحكم البالغات ازداد إيماناً بالله ﷻ.

وكذلك النظر في آيات الله الشرعية يزيد الإنسان إيماناً بالله ﷻ؛ لأنك إذا نظرت إلى الآيات الشرعية - وهي الأحكام التي جاءت بها الرسل - وجدت فيها ما يثير العقول من الحكم البالغة والأسرار العظيمة التي تعرف بها أن هذه الشريعة نزلت من عند الله، وأنها مبنية على العدل والرحمة، فتزداد بذلك إيماناً.

- طلب العلم النافع المستمد من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ والعمل به؛ فمن وفق فيهما، فقد وفق لأعظم أسباب زيادة الإيمان.

- قراءة القرآن وتدبره من أنفع دواعي زيادة الإيمان؛ فالذي يقرأه بتدبر وتأمل؛ يجد فيه من العلوم والمعارف ما يقوي به إيمانه، ويزيده وينميهِ، ولا تكون هذه الزيادة إلا مع فهم القرآن وتطبيقه، والعمل به.

- كثرة الطاعات وإحسانها؛ لأن الأعمال داخلة في الإيمان، وإذا كانت داخلة فيه لزم من ذلك أن يزيد الإيمان بكثرتها.

- الإكثار من ذكر الله تعالى، والدعاء؛ لأنه من أهم أسباب صلة العبد بربه جل وعلا، فهو يغرس شجرة الإيمان في القلب ويغذيه ويقويه.

- تأمل سيرة الرسول الأمين ﷺ ومعرفة ما هو عليه من الأخلاق العالية، والأوصاف الكاملة، والخصال الكريمة، والشمائل الحميدة؛ لأن من درس وتأمل سيرته ﷺ وصفاته؛ فقد استكثر لنفسه من الخير، وازداد حبه ويقينه للنبي ﷺ، وأورثته هذه المحبة متابعته، والعمل بسنته ﷺ.

- الاتصاف بصفات المؤمنين الصادقين وأولياء الله الصالحين من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان، واتباع آثارهم، والأخذ بهديهم؛ لأن ذلك يذكر العبد بربه تعالى، ويرقق قلبه، ويزيده إيماناً.

- الدعوة إلى الله تعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتواصي بالحق والصبر.

- البعد عن شعب الكفر، وكبائر الذنوب، والنفاق، والفسوق، والعصيان؛ لأن هذه المعاصي سبب ضعف الإيمان في القلب، والبعد عنها سبب لزيادته وقوته.

الأسباب التي تؤدي إلى نقص الإيمان:

- الإعراض عن معرفة الله تعالى وأسمائه وصفاته.

- الإعراض عن النظر في الآيات الكونية والشرعية؛ فإن هذا يوجب الغفلة وقسوة القلب.

- قلة العمل الصالح، والغفلة عن ذكر الله.

- الجهل بأمور الدين، وعلوم الشرع.

- الركون إلى الدنيا، وفتنتها، وزينتها.

- مجالس اللهو، وقرناء السوء.

- فعل المعاصي وارتكاب الذنوب، وطاعة النفس الأمارة بالسوء.

شعب الإيمان: معناها وعددها:

من المقرر أن الإيمان أجزاء وشعب لها أعلى وأدنى، قال ابن أبي العز رحمته الله: «الإيمان أصل له شعب متعددة، وكل شعبة منها تسمى إيماناً. فالصلاة من الإيمان، وكذلك الزكاة والصوم والحج والأعمال الباطنة كالحياء والتوكل والخشية من الله والإنابة إليه حتى تنتهي هذه الشعب إلى إمطة الأذى عن الطريق، فإنها من شعب الإيمان. وهذه الشعب منها ما يزول الإيمان بزوالها كشعبة الشهادتين، ومنها ما لا يزول بزوالها كترك إمطة الأذى عن الطريق، وبينهما شعب متفاوتة تفاوتاً عظيماً» [شرح العقيدة الطحاوية] (٢ / ٤٧٦).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون - شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» [رواه البخاري: ٩، ومسلم: ٣٥، واللفظ له].

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون باباً، فأدناها إمطة الأذى عن الطريق، وأرفعها قول: لا إله إلا الله» [رواه الترمذي: ٢٦١٤].

والشعبة واحدة الشعب وهي أغصان الشجرة، وهو تشبيه للإيمان وخصاله بشجرة ذات أغصان لا تتكامل ثمرتها إلا بتوفر كامل أغصانها. والبضع: من الثلاث إلى التسع.

وقد أشار في هذا الحديث إلى أن شعب الإيمان منها ما هو قول باللسان كقول: لا إله إلا الله وهو أعلاها وأفضلها، ومنها ما هو عمل بالجوارح كإمطة الأذى عن الطريق وهو أقلها رتبة، ومنها ما هو عمل بالقلب وهو الحياء.

وقد توجه لعدد هذه الشعب طائفة من العلماء كالْحَلِيمِي والْبِيهَقِي وابن شاهين وغيرهم، فذكروا كل ما ورد تسميته إيماناً في الكتاب والسنة من الأقوال والأعمال،

وبلغ بها بعضهم سبعاً وسبعين، وبلغ بعضهم تسعاً وسبعين، وفي الجزم أن ذلك هو مراد الرسول ﷺ من هذه الخصال صعوبة.

أما أهل الحديث والسنة فعندهم أن كل طاعة فهي داخلة في الإيمان، سواء كانت من أعمال الجوارح أو القلوب أو من الأقوال، وسواء في ذلك الفرائض والنوافل، هذا قول الجمهور الأعظم منهم، وحيثئذ فهذا لا ينحصر في بضع وسبعين، بل يزيد على ذلك زيادة كثيرة، بل هي غير منحصرة.

ويمكن أن يجاب عن حصرها في بضع وسبعين كما في هذا الحديث بعدة أجوبة منها:

أن يقال: إِنَّ عَدَّ خصال الإيمان عند قول النبي ﷺ كان منحصراً في هذا العدد، ثم حدثت زيادة فيه بعد ذلك حتى كملت خصال الإيمان في آخر حياة النبي ﷺ.

أو أن تكون خصال الإيمان كلها تنحصر في بضع وسبعين نوعاً، وإن كان أفراد كل نوع تتعدد كثيراً، وربما كان بعضها لا ينحصر. وهذا أشبه، وإن كان الموقوف على ذلك يعسر أو يتعذر. [ينظر: «فتح الباري» لابن رجب (١/ ٣٤، ٣٥)].



١. التوحيد (قول: لا إله إلا الله)

إن توحيد الله ﷻ أو جب الواجبات، والعلم به أشرف العلوم وأفضلها، وهو أعلى شعبة من شعب الإيمان، وهو الأساس الذي بُنِيَ عليه صحة الأعمال وقبولها، وحاجة العباد إليه فوق كل حاجة؛ لأنه لا حياة للقلوب، ولا نعيم، ولا طمأنينة، إلا بمعرفة ربه، وفاطرها ومعبودها، ثم عبادته وحده لا شريك له.

والتوحيد هو: إفراد الله تعالى بالعبادة وحده لا شريك له، والإخلاص له، والخوف منه ومحبته ورجاؤه والتوكل عليه، فلا يُعبد ولا يُدعى ولا يُرجى إلا الله وحده، ولا يُتوكل إلا عليه، ولا يستغاث إلا به، ولا يُذبح لغيره، ولا يُنذر لغيره، لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل.

وكلمة التوحيد هي: (لا إله إلا الله)، ومعناها: لا معبود بحق في الأرض ولا في السماء إلا الله وحده، فهو الإله الحق، وكل إله غيره باطل، والإله معناه: المعبود. والذي يَعْبُدُ غيرَ الله كافرٌ بالله مشركٌ به، ولو كان معبوده نبياً أو ولياً، ولو كان بحجة التقرب به إلى الله تعالى والتوسل إليه.

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن التوحيد أهم شعب الإيمان على الإطلاق:

قال تعالى: ﴿وَالْهَكْمُ لِلَّهِ وَحْدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].
وقال ﷻ: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].
وقال جل وعلا: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].
وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا

كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ [الأنعام: ١٦١ - ١٦٤].

وقال جل وعلا: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَفْقَهُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال سبحانه: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال جل وعلا: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقال تبارك اسمه: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال سبحانه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون - شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذن عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» [رواه مسلم: ٣٥].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك؛

عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله» [رواه البخاري: ٢٥، ومسلم: ٢٢].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت» [رواه البخاري: ٨، ومسلم: ١٦].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فقال: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة...» [رواه البخاري: ١٣٩٥، ومسلم: ١٩].

ثمرات التوحيد:

التوحيد له فضائل عظيمة، وآثار حميدة، ونتائج جميلة، ومن ذلك ما يأتي:

- التوحيد الخالص يكفر الذنوب، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة» [رواه الترمذي: ٣٥٤٠]. «بقراب الأرض»: أي بما يقارب ملاًها.

- التوحيد هو السبب الأعظم لتفريج كربات الدنيا والآخرة، يدفع الله به العقوبات في الدارين، ويسيطر به النعم والخيرات، قال تعالى: ﴿وَدَا الْتُوبَ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّجُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء].

- التوحيد الخالص يثمر الأمن التام في الدنيا والآخرة، قال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

- يحصل لصاحبه الهدى الكامل، والتوفيق لكل أجر وغنيمة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمَنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

- ضمن الله ﷻ الجنة لمن مات على التوحيد، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» [رواه البخاري: ٣٤٣٥، ومسلم: ٢٨].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني آت من ربي فبشرني أنه من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة». قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق» [رواه البخاري: ١٢٣٧، ومسلم: ٩٤].

- أن التوحيد الكامل يمنع دخول النار بالكلية، ففي حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله» [رواه البخاري: ٤٢٥، ومسلم: ٣٣].

كما أنه يمنع الخلود في النار إذا كان في القلب منه ما يزن ذرة من إيمان؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن برة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة» [رواه مسلم: ١٩٣].

- التوحيد هو السبب الأعظم في نيل رضا الله وثوابه، والموحّد أسعد الناس بشفاعة محمد ﷺ يوم القيامة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قيل: يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة، من قال: لا إله إلا الله، خالصاً من قلبه» [رواه البخاري: ٩٩].

- جميع الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة متوقفة في قبولها وفي كمالها، وفي

ترتيب الثواب عليها على التوحيد، فكلما قوي التوحيد والإخلاص لله كملت هذه الأمور وتمّت، وكلما ضعف التوحيد والإخلاص نقصت، وقد تزول بالكلية، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

- التوحيد يُسهّل على العبد فعل الخيرات، وترك المنكرات، ويسلّيه عن المصائب، فالموحّد المخلص لله في توحيده تخفّ عليه الطاعات؛ لِمَا يرجو من ثواب ربه ورضوانه، ويهوّن عليه ترك ما تهواه النفس من المعاصي؛ لِمَا يخشى من سخط الله وعقابه.

- التوحيد يخفف عن العبد المكاره، ويهوّن عليه الآلام، فبحسب كمال التوحيد في قلب العبد يتلقّى المكاره والآلام بقلب منشرح ونفس مطمئنة، وتسليمٍ ورضاً بأقدار الله المؤلمة، وهو من أعظم أسباب انشراح الصدر.

- التوحيد يحرّر العبد من رِقِّ المخلوقين والتعلّق بهم، وخوفهم ورجائهم، والعمل لأجلهم، وهذا هو العزّ الحقيقي، والشرف العالي، ويكون مع ذلك متعبداً لله لا يرجو سواه، ولا يخشى إلا إياه، وبذلك يتمّ فلاحه، ويتحقّق نجاحه.

- التوحيد إذا كَمُلَ في القلب، وتحقّق تحقّقاً كاملاً بالإخلاص التام؛ فإنه يُصيرّ القليل من عمل العبد كثيراً، وتضاعف أعماله وأقواله الطيبة بغير حصر ولا حساب.

- تكفّل الله لأهل التوحيد بالفتح والنصر في الدنيا، والعز والشرف، وحصول الهداية، والتيسير لليسرى، وإصلاح الأحوال، والتسديد في الأقوال والأفعال.

- الله ﷻ يدفع عن الموحّدين أهل الإيمان شرور الدنيا والآخرة، ويمنّ عليهم بالحياة الطيبة، والطمأنينة إليه، والأنس بذكره، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

قال السعدي رحمه الله: بعد أن ذكر جملاً من ثمرات التوحيد وفوائده: «وشواهد

هذه الجمل من الكتاب والسنة كثيرة معروفة والله أعلم» [ينظر: «القول السديد شرح كتاب التوحيد» (ص ٢٥)].

الأسباب والوسائل المعينة على تحقيق التوحيد:

- أن يتعلم المسلم التوحيد والعقيدة الصحيحة، ويعمل بموجب ما تعلّمه، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، يقول الإمام ابن القيم رحمته الله: «قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، فالعلم بوحدانيته تعالى، وأنه لا إله إلا هو مطلوب لذاته، وإن كان لا يكتفى به وحده، بل لا بد معه من عبادته وحده لا شريك له، فهما أمران مطلوبان لأنفسهما: أن يعرف الرب تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، وأن يعبد بموجبها ومقتضاها، فكما أن عبادته مطلوبة مرادة لذاتها، فكذلك العلم به ومعرفته، وأيضا فإن العلم من أفضل أنواع العبادات» [«مفتاح دار السعادة» (١/ ١٧٨)].

٢- أن يتجنب الشرك الأصغر؛ كيسيء الرياء، والحلف بغير الله، وقول الرجل للرجل: ما شاء الله وشئت، وهذا من الله ومنك، وأنا بالله وبك، وتوكلت على الله وعليك، ونحو ذلك، فإن الشرك الأصغر وسيلة إلى الشرك الأكبر، عن محمود بن لبيد رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله تعالى لهم يوم القيامة: إذا جزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء» [مسند أحمد (٢٣٦٣٠)].

٣- أن يعرف صور الشرك وأنواعه المنتشرة بين الناس كي يجتنبها ولا يقع فيها، فعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: انطلقت مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «يا أبا بكر، للشرك فيكم أخفى من ديب النمل»، فقال أبو بكر: وهل الشرك إلا من جعل مع الله إلها آخر؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده، للشرك أخفى من ديب النمل، ألا أدلك على شيء إذا قلته ذهب عنك قليله وكثيره؟» قال: «قل: اللهم إني أعوذ

بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفر لك لما لا أعلم» [البخاري في الادب المفرد (٧١٦)].
 - أن يعلم العبد أن قبول عمله يتوقف على التوحيد، وأنه بدون التوحيد يكون قد أتعب نفسه بدون طائل، أو أنفق ماله بلا عائد، بل قد يضحي بحياته ولا ينال في مقابل ذلك إلا النار، إذا كان منه ذلك بلا توحيد لله سبحانه؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُ الْوَاحِدُ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: «لا ينفعه، إنه لم يقل يومًا: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين» [رواه مسلم: ٢١٤].

٤- أن يدعو الله تعالى أن يشته على التوحيد وأن يجنبه الشرك، قال تعالى مخبراً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» [رواه الترمذي: ٢١٤٠].



٢. الإيمان بالله تعالى

الإيمان بالله تعالى هو الأصل الأول والأهم من أصول العقيدة الإسلامية، وعليه مدار الإسلام، وهو أساس كل خير، ومصدر كل هداية، وسبب كل فلاح؛ لأن الإنسان لما كان مخلوقاً مربوباً، رجع بعلمه وعمله إلى خالقه وباريه؛ فبه يهتدي، وله يعمل، وإليه يصير، فلا غنى له عنه، وانصرافه إلى غيره هو عين فسادة وهلاكه.

والإيمان بالله هو: الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى هو ربُّ كلِّ شيء ومليكه، وأنه الخالق الرازق المحيي المميت، وأنه المتصرّف في هذا الكون كله كيف يشاء، وأنه المتصف بصفات الكمال والعظمة والجلال، المنزّه عن كل عيب ونقص، وأن له الأسماء الحسنى والصفات العليا، وأنه المستحق لأن يفرد بالعبادة دون ما سواه، وهذا معنى قول: لا إله إلا الله.

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن الإيمان بالله تعالى أهم شعب الإيمان على الإطلاق:

قال تعالى: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ۚ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال ﷺ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۚ وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وقال تعالى: ﴿فَءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].
وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ فَءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِ ۚ النَّبِيُّ الَّذِي يَأْتِيكُمُ الْبَيِّنَاتُ وَالْحَقُّ ۚ فَلَا تَكْفُرُوا بِهِ ۚ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَقَدْ ضَلَّ سَبِيلًا يَسِيرًا﴾ [آل عمران: ١٨٠].
يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَكَلِمَاتِهِ ۚ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

وقال ﷺ: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١].

وقال تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن: ٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون - شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياة شعبة من الإيمان» [رواه مسلم: ٣٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ بارزاً يوماً للناس، فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان؟ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، وبلقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث» [رواه البخاري: ٥٠، ومسلم: ٩].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله» [رواه البخاري: ٢٥، ومسلم: ٢٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل: أي العمل أفضل؟ فقال: «إيمان بالله ورسوله» [رواه البخاري: ٢٦، ومسلم: ٨٣].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: «الإيمان بالله، والجهاد في سبيله» [رواه البخاري: ٢٥١٨، ومسلم: ٨٤].

ثمرات الإيمان بالله تعالى:

إذا علم الإنسان أن الله هو ربه ورب كل شيء وخالقه ومدبره، وأنه سبحانه وحده المتصرف في جميع أمور هذا الكون، وآمن بما لله من أسماء حسنى وصفات عليا، ثم

علم أنه ﷺ وحده هو المستحق للعبادة دون ما سواه، فعبد الله تعالى ولم يشرك به شيئاً؛ أثمر ذلك عنده ثمرات جليلة، وفوائد جمّة، وفضائل كثيرة، منها:

- يُثمر للعبد محبة الله وتعظيمه المُوجِبِينَ للقيام بأمره، واجتناب نهيه، وإذا قام العبد بذلك؛ نال بهما كمال السعادة في الدنيا والآخرة.

- أن الإيمان بالله يُنشئ في نفس العبد الأنفة والعزة والعفة؛ لأنه يعلم أن الله هو المالك الحقيقي لكل ما في هذا الكون، وأنه لا نافع ولا ضار إلا هو، وهذا العلم يُغنيه عن غير الله، وينزع من قلبه الخوف ممن سواه، فلا يرجو إلا الله، ولا يخاف سواه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

- أن الإيمان بالله يُنشئ في نفسه التواضع؛ لأنه يعلم أن ما به من نعمة فمن الله، فلا يغره الشيطان، ولا يبطر ولا يتكبر، ولا يزهو بقوته وماله.

- أن الإيمان بالله يُربّي في الإنسان قوة عظيمة من العزم والشجاعة والإقدام والصبر والثبات حينما يضطلع بمعالي الأمور في الدنيا ابتغاء مرضاة الله، ويكون على يقين تام أنه متوكل على ملك السماوات والأرض، وأنه يؤيده ويأخذ بيده، فيكون راسخاً رسوخ الجبال في صبره وثباته وتوكله.

- أن الإيمان يطهّر النفوس من الخرافات، فمن آمن بالله تعالى حقّاً؛ فإنه يعلّق أمره بالله تعالى وحده، فهو رب العالمين، وهو الإله الحق لا إله غيره، فلا يخاف من مخلوق، ولا يعلّق قلبه بأحد من الناس، ومن ثم يتحرر من الخرافات والأوهام.

- حصول الأمن التام والاهتداء التام في الدنيا والبرزخ والآخرة، قال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأأنعام: ٨٢].

- الاستخلاف في الأرض والنصر والتمكين والعزة، قال ﷻ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

- الحياة الطيبة؛ فالحياة الطيبة الحافلة بكل ما هو طيب إنما هي ثمرة من ثمرات الإيمان بالله ﷻ، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

- حلول الخيرات ونزول البركات، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

- الفوز بولاية الله ﷻ وتأييده ونصره، فالله يدفع عن المؤمنين جميع المكاره، وينجيهم من الشدائد، ويحفظهم من مكائد الأعداء، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨].

- تكفير السيئات وإصلاح البال (البال: هو الشأن والحال)، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢].

- دخول الجنة والنجاة من النار، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٤].

- السعي في الإحسان إلى الخلق ورحمتهم والعفو عنهم والصّفح، طمعاً في حصول ذلك من الله لمن كان كذلك، فالراحمون يرحمهم الله، ومن عفا عفا الله عنه، ومن غفر غفر الله له.

هذا شيء من ثمرات الإيمان، وبالجملة فخير الدنيا والآخرة كله من ثمرات الإيمان، ومترتب عليه، والهلاك والخسران إنما يكون بفقد الإيمان أو نقصانه.

الوسائل والأسباب المعينة على الإيمان بالله تعالى:

- تدبّر القرآن الكريم؛ فالقرآن كله حديث عن الإيمان بالله تعالى؛ لأن القرآن إما حديث مباشر عن الله تعالى: ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله وأقداره. وإما دعوة

إلى عبادته وحده لا شريك له، وترك ما يُعبد من دونه من آلهة باطلة. وإما أمر بطاعته سبحانه، ونهي عن معصيته، وهذا من لوازم الإيمان.

وإما إخبار عن أهل الإيمان، وما فعل الله بهم في الدنيا من الكرامة، وما يُثيبهم به في الآخرة من النعيم المقيم، وهذا جزاء أهل الإيمان بالله. وإما إخبار عن الكافرين، وما فعل الله بهم في الدنيا من النكال، وما سيُفعل بهم في الآخرة من العذاب في الجحيم، وهذا جزاء من أعرض عن الإيمان.

- تعلم العقيدة الصحيحة من الكتاب والسنة الثابتة عن رسول الله ﷺ.
- الاقتداء بالسلف الصالح في اعتقادهم السليم، واتباع طريقتهم في فهم نصوص الكتاب والسنة.

- البعد عن الفرق المنحرفة المخالفة لاعتقاد السلف الصالح، والحذر منهم.
- وأن يعرف صور الشرك وأنواعه المنتشرة بين الناس كي يجتنبها ولا يقع فيها.
- أن يعلم العبد أن قبول عمله يتوقف على الإيمان بالله تعالى، وأنه بدون الإيمان يكون قد أتعب نفسه بدون طائل، أو أنفق ماله بلا عائد، بل قد يضحي بحياته ولا ينال في مقابل ذلك إلا النار، إذا كان منه ذلك بلا إيمان ثابت؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُ الْوَاحِدُ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: «لا ينفعه، إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين» [رواه مسلم: ٢١٤].

- أن يدعو الله ﷻ أن يشته على الإيمان بالله تعالى وأن يجنبه الشرك، قال تعالى مخبراً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ إِلَّا ضَمَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وقد كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» [رواه الترمذي: ٢١٤٠].

❦ ٣. الإيمان بالملائكة ❦

الإيمان بالملائكة أصل من أصول الإيمان، وركن من أركانه، لا يتم الإيمان إلا به، ومن كفر بالملائكة أو بواحد منهم، فهو كافر بالله العظيم، خارج من ملة الإسلام. ومعنى الإيمان بالملائكة: الإقرار بوجودهم والتصديق بهم، وأن الله خلقهم من نور، وأنهم مخلوقات عظيمة لا يعلم قدر عظمها إلا الله، وأنهم خلق كثير جدًا لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، وأنهم عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وأن لهم عند ربهم مقامات عظيمة، وليس لهم من صفات الربوبية والألوهية شيء؛ بل هم عباد لله منقادون تمامًا لطاعة الله، وأن نؤمن بمن جاء التصريح بذكره من الملائكة على وجه الخصوص في الكتاب والسنة: كجبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ومالك خازن النار، وما ذكر منهم إجمالًا وجب علينا الإيمان بهم إجمالًا، ما عرفنا منهم وما لم نعرف. وأن نحبه ونواليهم ونحذر من عداوتهم أو القدر فيهم.

الأدلة من الكتاب والسنة على أن الإيمان بالملائكة من أهم شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

قال ابن كثير رحمه الله: «من اتصف بهذه الآية فقد دخل في عرى الإسلام كلها، وأخذ بمجامع الخير كله، وهو الإيمان بالله، وهو أنه لا إله إلا هو، وصدق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسله، ﴿وَالْكِتَابِ﴾ وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء، حتى خُتِمت بأشرفها وهو القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب» [تفسير ابن كثير (١/ ٤٨٦)].

وقال تعالى: ﴿ءَامِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال تبارك اسمه: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

وقال ﷺ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَلَ عَلَى رُسُلِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

قال السعدي رحمه الله: «ذكر تعالى أن له عبادًا مستديمين لعبادته، ملازمين لخدمته وهم الملائكة، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة المقربين، وحملة العرش ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ بل يذعنون لها وينقادون لأوامر ربهم ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ الليل والنهار لا يملئون.

﴿وَلَهُ﴾ وحده لا شريك له ﴿يَسْجُدُونَ﴾، فليقتد العباد بهؤلاء الملائكة الكرام، وليداوموا على عبادة الملك العلام» [تفسير السعدي] (ص: ٣١٤).

وقال سبحانه: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الرعد: ١٣].
وقال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

قال السعدي رحمه الله: ﴿لَهُ﴾ أي: للإنسان ﴿مُعَقِّبَتٌ﴾ من الملائكة يتعاقبون في الليل والنهار ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: يحفظون بدنه وروحه من كل من يريده بسوء، ويحفظون عليه أعماله، وهم ملازمون له دائماً، فكما أن علم الله محيط به، فالله قد أرسل هؤلاء الحفظة على العباد، بحيث لا تخفى أحوالهم ولا أعمالهم، ولا ينسى منها شيء» [تفسير السعدي] (ص: ٤١٤).

وقال ﷺ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا

يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿النحل: ٤٩، ٥٠﴾
وقال تبارك اسمه: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ
وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿[الأنبياء: ١٩، ٢٠]﴾.

قال ابن كثير رحمه الله: «أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له، ودأبهم في طاعته ليلاً ونهاراً، فقال: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ يعني: الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ أي: لا يستنكفون عنها، كما قال: ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢]. وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي: لا يتعبون ولا يملون ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ فهم دائبون في العمل ليلاً ونهاراً، مطيعون قصداً وعملاً قادرين عليه، كما قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦] «تفسير ابن كثير» (٥ / ٣٣٦).

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٦١﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٦٣﴾ * وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿[الأنبياء: ٢٦ - ٢٩]﴾.

قال السعدي رحمه الله: «يخبر تعالى عن سفاهة المشركين المكذبين للرسول، وأنهم زعموا - قبحهم الله - أن الله اتخذ ولداً فقالوا: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم، وأخبر عن وصف الملائكة بأنهم عبيد مربوبون مُدَبَّرُونَ، ليس لهم من الأمر شيء، وإنما هم مكرمون عند الله، قد أكرمهم الله وصيّرهم من عبيد كرامته ورحمته، وذلك لما خصهم به من الفضائل والتطهير عن الرذائل، وأنهم في غاية الأدب مع الله، والامثال لأوامره.

ف ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ أي: لا يقولون قولاً مما يتعلق بتدبير المملكة، حتى يقول الله؛ لكمال أدبهم وعلمهم بكمال حكمته وعلمه ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ أي:

مهما أمرهم، امثلوا لأمره، ومهما دبرهم عليه، فعلوه، فلا يعصونه طرفة عين، ولا يكون لهم عمل بأهواء أنفسهم من دون أمر الله، ومع هذا، فالله قد أحاط بهم علمه، فعلم ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: أمورهم الماضية والمستقبلية، فلا خروج لهم عن علمه، كما لا خروج لهم عن أمره وتديره.

ومن جزئيات وصفهم بأنهم لا يسبقونه بالقول، أنهم لا يشفعون لأحد بدون إذنه ورضاه، فإذا أذن لهم وارتضى من يشفعون فيه، شفّعوا فيه، ولكنه تعالى لا يرضى من القول والعمل إلا ما كان خالصاً لوجهه، متبعاً فيه الرسول، وهذه الآية من أدلة إثبات الشفاعة، وأن الملائكة يشفعون.

﴿وَهُمْ مِّنْ حَسَنَةٍ مُّشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون وجلون، قد خضعوا لجلاله، وعنت وجوههم لعزه وجماله.

فلما بين أنه لا حق لهم في الألوهية، ولا يستحقون شيئاً من العبودية بما وصفهم به من الصفات المقتضية لذلك، ذكر أيضاً أنه لا حظ لهم، ولا بمجرد الدعوى، وأن من قال منهم: ﴿إِنِّ إِلَهُ مِّنْ دُونِهِ﴾ على سبيل الفرض والتنزل: ﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ وأي ظلم أعظم من ادعاء المخلوق الناقص الفقير إلى الله من جميع الوجوه مشاركة الله في خصائص الإلهية والربوبية؟! [تفسير السعدي] (ص: ٥٢٢).

وقال ﷻ: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مَنِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ [الحج: ٧٥، ٧٦]

وقال سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى وَتِلْكَ وَرُبَّكَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

قال ابن كثير ﷻ: «﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالق السموات والأرض جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أي: بينه وبين أنبيائه ﴿أُولِي أَجْنَحَةٍ﴾ أي: يطIRON بها ليلغوا ما أمروا به سريعاً ﴿مَّتَنَّى وَتِلْكَ وَرُبَّكَ﴾ أي: منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم

من له أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك، كما جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ رأى جبريل ليلة الإسراء وله ستمائة جناح، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب؛ ولهذا قال: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال السُّدِّي: يزيد في الأجنحة وخلقهم ما يشاء» [تفسير ابن كثير] (٦/ ٥٣٢).

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧-٩].

وقال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَفْطَرْنَ مِنْ فَوقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ ۖ فَسَهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق].

قال السعدي رحمه الله: «يخبر تعالى أنه المتفرد بخلق جنس الإنسان، ذكورهم وإناثهم، وأنه يعلم أحواله، وما يسره ويوسوس في صدره، وأنه أقرب إليه من حبل الوريد، الذي هو أقرب شيء إلى الإنسان، وهو العرق المكتنف لشجرة النحر، وهذا مما يدعو الإنسان إلى مراقبة خالقه، المطلع على ضميره وباطنه، القريب منه في جميع أحواله، فيستحي منه أن يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره.

وكذلك ينبغي له أن يجعل الملائكة الكرام الكاتبين منه على بال، فيُجَلِّهم ويوقرهم، ويحذر أن يفعل أو يقول ما يكتب عنه، مما لا يرضي رب العالمين، ولهذا قال: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ أي: يتلقيان عن العبد أعماله كلها، واحد ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ يكتب الحسنات ﴿وَالْآخَرُ﴾ ﴿عَنِ الشِّمَالِ﴾ يكتب السيئات، وكل منهما ﴿قَعِيدٌ﴾ بذلك متهيئ لعمله الذي أعده له ملازم له. ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ خير أو شر ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾

أي: مراقب له، حاضر لحاله، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [تفسير السعدي] (ص: ٨٠٥).

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار].

قال ابن كثير رحمه الله: «يعني: وإن عليكم لملائكة حفظة كرامًا فلا تقابلوهم بالقبائح، فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم» [تفسير ابن كثير] (٨ / ٣٤٤).

وقال رحمه الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. يعني يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، احفظوا أنفسكم بفعل ما أمركم الله به وترك ما نهاكم عنه، واحفظوا أهليكم بما تحفظون به أنفسكم من نار وقودها الناس والحجارة، يقوم على تعذيب أهلها ملائكة أقوياء، لا يخالفون الله في أمره، وينفذون ما يؤمرون به. [التفسير الميسر] (١ / ٥٦٠).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبي صلّى الله عليه وآله بارزًا يومًا للناس، فأثاء جبريل فقال: ما الإيمان؟ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، وبلقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث» [رواه البخاري: ٥٠، ومسلم: ٩].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «خلقت الملائكة من نور» [رواه مسلم: ٢٩٩٦].

ثمرات الإيمان بالملائكة:

- للإيمان بالملائكة ثمرات عظيمة في حياة المؤمن، نذكر منها ما يلي:
- العلم بعظمة الله وقوته وكمال قدرته، فإن عظمة المخلوق من عظمة الخالق، فيزيد المؤمن توقيرًا لله وتعظيمًا له وخشية منه، حيث يخلق الله تعالى من النور ملائكة عظيمة الخلق.
- الاستقامة على طاعة الله تعالى، فمن آمن بأن الملائكة تكتب أعماله كلّها فإن

هذا يوجب خوفه من الله تعالى، فلا يعصيه في العلانية ولا في السر.
 - الصبر على طاعة الله، والشعور بالأنس والطمأنينة، عندما يوقن المؤمن أن معه في هذا الكون الفسيح أعدادًا هائلة من الملائكة تقوم بطاعة الله على أحسن حال وأكمل شأن.

- إذا علم المسلم صفات الملائكة وما هم عليه من العبادة والطاعة لله ﷻ أيقن أن الله تعالى لا يريد أن يتكثر بعبادتنا من قلة، ولا ليتعزز بها من ذلة، وإنما يريد نفع أنفسنا، وأن يرزقنا ويعطينا أضعاف ما عملنا.
 - شكر الله تعالى على عنايته ببني آدم، حيث جعل من الملائكة من يقوم بحفظهم وحمايتهم، ومن يستغفرون لهم ويدعون لهم.

الوسائل والأسباب المعينة على الإيمان بالملائكة:

- تدبر كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ومطالعتهما؛ فإن كثيرًا من نصوصهما تدل على أن الإيمان بالملائكة ركن أصيل من أركان الإيمان.
 - تعلم العقيدة الصحيحة من الكتاب والسنة الثابتة عن رسول الله ﷺ.
 - أن يعلم العبد أنه إذا لم يؤمن بالملائكة ولو بملك واحد منهم؛ فإنه كافر بالله العظيم، ومأواه جهنم خالدًا فيها أبدًا



٤. الإيمان بالكتب السماوية

الإيمان بالكتب التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه ورسله أصل من أصول الإيمان، وركن من أركانه، لا يتم الإيمان إلا به، ومن كفر بكتاب واحد منها؛ فقد كفر بجميع الكتب، وهو كافر بالله العظيم، خارج من ملة الإسلام؛ لأن جميع الكتب أنزلها إله واحد برسالة واحدة، وهي الدعوة إلى توحيد الله وعبادته، وإن اختلفت شرائعها.

ومعنى الإيمان بالكتب: التصديق الجازم بأن الله تعالى كتباً أنزلها على رسله إلى عباده، وأن هذه الكتب كلام الله تعالى، تكلم بها حقيقة بما يليق به سبحانه، وأن هذه الكتب فيها الحق والنور والهدى للناس في الدارين، وأن نؤمن بما سمى الله من كتبه كالقرآن الكريم الذي نزل على نبينا محمد ﷺ، والتوراة التي نزلت على موسى عليه السلام، والإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام، وما ذكر منها إجمالاً وجب علينا الإيمان به إجمالاً، ونؤمن بأن الله تعالى سوى ذلك كتباً أنزلها على أنبيائه لا يعرف أسماءها وعددها إلا الله، فنقول فيها ما أمر الله به رسوله: ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ [الشورى ١٥].

وأن نعلم أن اليهود والنصارى قد حرفوا التوراة والإنجيل وغيروا وبدلوا، وأن نؤمن بأن أشرف هذه الكتب وأفضلها هو القرآن الكريم، وأنه ناسخ لجميع الكتب السابقة.

الأدلة على أن الإيمان بالكتب من أهم شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

قال ابن كثير رحمه الله: «من اتصف بهذه الآية، فقد دخل في عرى الإسلام كلها، وأخذ

بمجامع الخير كله، وهو الإيمان بالله، وهو أنه لا إله إلا هو، وصدق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسله، ﴿وَالْكِتَابِ﴾ وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء، حتى خُتِمت بأشرفها وهو القرآن المهيم على ما قبله من الكتب، الذي انتهى إليه كل خير، واشتمل على كل سعادة في الدنيا والآخرة، ونسخ الله به كل ما سواه من الكتب قبله، وآمن بأنبياء الله كلهم من أولهم إلى خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين» [تفسير ابن كثير] (١/ ٤٨٦).

وقال سبحانه: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقال ﷺ: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال تبارك اسمه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ بارزاً يوماً للناس، فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان؟ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، وبلقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث» [رواه البخاري: ٥٠، ومسلم: ٩].

ثمرات الإيمان بالكتب:

- للإيمان بالكتب ثمرات كثيرة منها:
- تحقيق الإيمان، والفوز بالجنة والنجاة من النار.
- العلم بعناية الله تعالى بعباده، وكمال رحمته، حيث أرسل لكل قوم كتاباً يهديهم به، ويحقق لهم السعادة في الدنيا والآخرة.

- العلم بحكمة الله تعالى في شرعه، حيث شرع لكل قوم ما يناسب أحوالهم ويلائم أشخاصهم، كما قال الله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وكان خاتم الكتب القرآن العظيم مصلحاً لجميع الخلق في كل عَصْرٍ وَمِصْرٍ إلى قيام الساعة.

- شكر نعمة الله تعالى على لطفه بخلقه وعنايته بهم حيث أنزل إليهم الكتب المتضمنة إرشادهم لما فيه خيرهم وصلاحهم في الدنيا والآخرة، ومن ثم فیتعیّن شكر الله على هذه النعم العظيمة، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

- إثبات صفة الكلام لله تعالى، وأن كلامه لا يشبه كلام المخلوقين، وعجز المخلوقين عن الإتيان بمثل كلامه، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

- التحرر من ضلالات أفكار البشر، والتحرر من التخبط الفكري والعقدي بالاستمسك بما جاء عن الله تعالى في كتبه المنزلة على أنبيائه.

- السير على طريق مستقيمة واضحة لا اضطراب فيها ولا اعوجاج، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ قَيِّمًا﴾ [الكهف: ٦٦].

- الفرح بذلك الخير العظيم الذي نالته البشرية بسبب تلك الكتب المنزلة على أنبياء الله ورسوله ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمُلُ مَوْعِظَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٥٧ قل بفضل الله وبرحمته، فإذ لك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴿[يونس: ٥٧].

الوسائل والأسباب المعينة على الإيمان بالكتب:

- تدبر كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ومطالعتهم؛ فإن كثيراً من نصوصهما

تدل على أن الإيمان بالكتب ركن أصيل من أركان الإيمان.

- تعلم العقيدة الصحيحة من الكتاب والسنة الثابتة عن رسول الله ﷺ.

- أن يعلم العبد أنه إذا لم يؤمن بجميع كتب الله المنزلة على رسله؛ فإنه كافر بالله العظيم، ومأواه جهنم خالدًا فيها أبدًا.



٥. الإيمان بالرسَل

الإيمان بأنبياء الله ورسله أصل من أصول الإيمان، وركن من أركانه، لا يتم الإيمان إلا به، ومن كفر برسول أو نبي واحد؛ فقد كفر بجميع الأنبياء والمرسلين، وهو كافر بالله العظيم، خارج من ملة الإسلام؛ لأن الرسل جميعاً أرسلهم إله واحد برسالة واحدة، وهي الدعوة إلى توحيد الله وعبادته، وإن اختلفت شرائعهم.

والإيمان بالرسَل معناه: التصديق الجازم بأنهم جميعاً مرسلون من عند الله ﷻ، وأن الله تعالى قد بعث في كل أمة رسولا منهم، يدعوهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه؛ وأن جميع هؤلاء الأنبياء والرسَل صادقون راشدون كرام أتقياء أمناء، وأنهم بلغوا جميع ما أرسلهم الله به؛ لم يكتموا، ولم يُغيروا، ولم يزيدوا فيه من عند أنفسهم حرفاً ولم ينقصوه، وأنهم كلهم على الحق المبين، وأن آخرهم وخاتمهم وأفضلهم نبينا محمد ﷺ.

الأدلة على أن الإيمان بالرسَل من أهم شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

قال السعدي رحمه الله: «وقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: بل نؤمن بهم كلهم، هذه خاصية المسلمين، التي انفردوا بها عن كل من يدعي أنه على دين. فاليهود والنصارى والصابئون وغيرهم - وإن زعموا أنهم يؤمنون بما يؤمنون به من الرسل والكتب - فإنهم يكفرون بغيره، فيفرقون بين الرسل والكتب، بعضها يؤمنون به وبعضها يكفرون به، وينقض تكذيبهم تصديقهم، فإن الرسول الذي زعموا أنهم قد آمنوا به، قد صدق سائر الرسل وخصوصاً محمد ﷺ، فإذا كذبوا محمداً، فقد كذبوا

رسولهم فيما أخبرهم به، فيكون كفراً برسولهم» [تفسير السعدي] (ص: ٦٨).

وقال تبارك اسمه: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

قال ابن كثير رحمه الله: «من اتصف بهذه الآية، فقد دخل في عرى الإسلام كلها، وأخذ بمجامع الخير كله، وهو الإيمان بالله، وهو أنه لا إله إلا هو، وصدق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسله، ﴿وَالْكِتَابِ﴾ وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء، حتى خُتِمت بأشرفها وهو القرآن المهيم على ما قبله من الكتب، الذي انتهى إليه كل خير، واشتمل على كل سعادة في الدنيا والآخرة، ونسخ الله به كل ما سواه من الكتب قبله، وآمن بأنبياء الله كلهم من أولهم إلى خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين». [تفسير ابن كثير] (١/ ٤٨٦).

وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

وقال تعالى: ﴿فَءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٦٦﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٥﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِيَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء].

وقال تبارك اسمه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا

وقال ﷺ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحديد: ١٩]
 وقال ﷺ: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ بارزاً يوماً للناس، فأناه جبريل فقال: ما الإيمان؟ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، وبلقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث» [رواه البخاري: ٥٠، ومسلم: ٩].

ثمرات الإيمان بالرسول:

للإيمان بالرسول ثمرات عظيمة منها:

- تحقيق الإيمان، والفوز بالجنة والنجاة من النار.
 - العلم برحمة الله تعالى وعنايته بعباده، حيث أرسل الرسل إليهم ليهدوهم إلى الطريق الصحيح، ويبينوا لهم كيف يعبدون الله؛ لأن العقل البشري لا يستقل بمعرفة ذلك، قال تعالى عن نبينا محمد ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

- شكره تعالى على هذه النعمة الكبرى.

- محبة الرسل عليهم الصلاة والسلام وتعظيمهم والثناء عليهم بما يليق بهم؛ لأنهم قاموا بعبادة الله وتبليغ رسالته والنصح لعباده.

- اتخاذ الرسل والأنبياء قدوة وأسوة حسنة، لأن عندهم من الكمال البشري ما ليس عند غيرهم، قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّا يَسُوءُوا بَهَا يَكْفُرِينَ﴾ ^(٨٩) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِّلْعَالَمِينَ ﴿[الأنعام]، وقال تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾
[الأحزاب: ٢١].

- اتباع الرسالة التي جاءت بها الرسل من عند الله وهي عبادة الله وحده لا شريك له، والعمل بها، فيتحقق للمؤمنين في حياتهم الخير والهداية والسعادة في الدارين. قال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ ﴿١٣٦﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴿طه﴾.

- السير على طريق مستقيمة واضحة لا اضطراب فيها ولا اعوجاج.
- الفرح بذلك الخير العظيم الذي نالته البشرية بسبب إرسال الله ﷺ للرسل ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ وَبِرَحْمَتِهِ ۖ فِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿يونس﴾.
- محبة الرسل وتوقيرهم، والثناء عليهم بما يليق بهم؛ لأنهم رسل الله تعالى وخلاصة عبيده، قاموا لله بعبادته، وتبليغ رسالته، والنصح لعباده، والصبر على أذاهم، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَزَّوهُ وَتُقِرُّوهُ وَكُسِبَ حُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿[الفتح: ٨، ٩].

الوسائل والأسباب المعينة على الإيمان بالرسول:

- تدبر كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ومطالعتهما؛ فإن كثيراً من نصوصهما تدل على أن الإيمان بالرسول ركن أصيل من أركان الإيمان.
- تعلم العقيدة الصحيحة من الكتاب والسنة الثابتة عن رسول الله ﷺ.
- أن يعلم العبد أنه إذا لم يؤمن بجميع الرسل والأنبياء فإنه كافر بالله العظيم، ومأواه جهنم خالداً فيها أبداً، وقال ﷺ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالِكِتِبِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَالِكِتِبِ الَّذِي أَنْزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء].

- دراسة قصص الأنبياء وسيرهم وشمائهم، ومعرفة ما كانوا عليه من جميل الخصال ومحاسن الأخلاق.



٦. الإيمان باليوم الآخر

الإيمان باليوم الآخر أصل من أصول الإيمان، لا يتم الإيمان إلا به، والمطالع لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ يجد كثيراً من نصوصهما تجمع بين الإيمان بالله واليوم الآخر، وتنص على أنهما ركنان أصيلان للإيمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر، وتُرتب عليهما ترغيباً في بعض الأعمال، وترهيباً في بعضها الآخر.

وهو في الجملة: الإيمان بالبعث بعد الموت، ورجوع الناس إلى ربهم؛ لمجازاتهم يوم القيامة، ودخول المسلمين الجنة والكفار النار.

ويتبعه الإيمان التفصيلي، وهو: الإيمان بكل ما يجري في ذلك اليوم، ويدخل في ذلك الإيمان بأشراط الساعة وأماراتها، والموت وما بعده من فتنة القبر وعذابه ونعيمه، وبالنفخ في الصور، وخروج الخلائق من القبور، وتفصيل المحشر، ونشر الصحف، ونصب الموازين، وبالصراط والحوض والشفاعة والجنة والنار، وكل هذا غيب أخفاه الله تعالى عنا، يجب علينا الإيمان به.

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن الإيمان باليوم الآخر من أهم

شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّةَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

وقال جل وعلا: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ
مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ

ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وقال ﷺ: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

وقال سبحانه: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [البقرة: ١٢٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، ولقائه، وتؤمن بالبعث الآخر» [رواه البخاري: ٤٧٧٧، ومسلم: ٩].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن يُزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه» [رواه مسلم: ١٨٤٤]. «منيته»: أي ميتته وأجله.

ثمرات الإيمان باليوم الآخر:

إذا علم الإنسان أن هناك يوماً يجمع الله فيه الأولين والآخرين ويحاسبهم بما عملوه، فإما إلى الجنة وإما إلى نار؛ أثمر ذلك عنده ثمرات جليلة، وفوائد جمة، وفضائل كثيرة، منها:

- دخول الجنة والنجاة من النار، كما في الأدلة السابقة.
- الحرص على فعل الطاعة، وترك المعصية: فبمقتضى الإيمان باليوم الآخر يتجه المرء نحو العمل الصالح؛ أملاً في نيل رضا الله تعالى، ورغبة في ثواب ذلك اليوم، ويتبعد عن معصيته خوفاً من سخط الله وعقاب ذلك اليوم.
- الزهد في الدنيا، وتسلية المؤمن عمّا يفوته من نعيمها، فلا شيء يرفع الإنسان من إخلاده إلى الأرض - بعد الإيمان بالله - إلا الإيمان باليوم الآخر، الإيمان بأن كل متاع زائد يتنازل عنه الإنسان في الحياة الدنيا - طاعة لله والتزاماً بأمره - يعوّض عنه في

الآخرة متاعاً أعلى وأخلد وأبقى، قال تعالى: ﴿أَرْضِيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، والإيمان في ذات الوقت بأن كل خروج على أمر الله في الحياة الدنيا من أجل متاع الأرض الزائل سيجازى عليه في الآخرة عذاباً أليماً.

كما أن الإيمان باليوم الآخر فيه تسلية للمؤمن عما يفوته من نعيم الدنيا ومتاعها بما يرجوه من نعيم الآخرة وثوابها، فعن المستورد الفهري رحمته الله قال: قال رسول الله صلوات الله عليه: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعة هذه - وأشار بالسبابة - في اليم، فلينظر بم ترجع؟» [رواه مسلم: ٢٨٥٨]. «اليم» أي البحر.

- الصبر على الأذى، والمصائب، واحتساب الأجر: فإن العبد إذا آمن باليوم الآخر دفعه ذلك إلى الصبر على ما يصيبه من الأذى والابتلاءات المتنوعة؛ لأنه يعلم أن الله سيعطيه الثواب الجزيل في الآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. وفي الحديث أن رسول الله صلوات الله عليه قال: «يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء، إذا قبضت صفته من أهل الدنيا، ثم احتسبه، إلا الجنة» [رواه البخاري: ٦٤٢٤]. «صفته» أي حبيبه من ولد وأخ وغيره.

- تماسك المجتمع واستقراره: الإيمان بالبعث بعد الموت يحفظ للمجتمع استقراره، فلو لم يكن هناك بعث ولا حساب ولا عقاب، لما كان هناك ما يدعو إلى المحافظة على قيم المجتمع وأخلاقه، ولما كان هناك داع إلى أداء الواجبات واجتناب المحرمات وغير ذلك.

فالإيمان باليوم الآخر يثبت النظام في الدولة، ويهذب السلوك الإنساني، ويقوم الأفعال الشاذة، فالمؤمن به لا يحتاج إلى قوة - كالشرطة - تدفعه إلى المحافظة على القانون؛ لأن الإيمان باليوم الآخر يدفعه إلى التزام الحق وتحري العدل.

- الإيمان باليوم الآخر له أشد الأثر في توجيه الإنسان وانضباطه والتزامه بالعمل

الصالح وتقوى الله ﷻ، وبُعده عن الأنانية والرياء، ولهذا يتم الربط بين الإيمان باليوم الآخر والعمل الصالح في كثير من الأحيان، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [التوبة: ١٨]، وقوله: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٢].

ولما أثنى الله على الرسل عليهم السلام في القرآن وذكر أعمالهم مدحهم بالسبب الذي كان يدفعهم لتلك الأعمال والفضائل فقال سبحانه: ﴿ إِنَّا أَخَصَّصْنَاهُمْ بِخَالِصَةِ ذِكْرِي الدَّارِ ﴾ [ص: ٤٦]. أي: إن سبب تلك الأعمال الفاضلة: أنهم تميزوا بتذكُّر الدار الآخرة، فدفعهم هذا التذكُّر لتلك الأعمال الصالحة والمواقف العظيمة.

- الطمأنينة بأن الإنسان ملاق نصيبه، فإذا فاته شيء من متاع الحياة الدنيا فلا ييأس ويقتل نفسه حزناً، بل عليه أن يجتهد ويوقن بأن الله لا يضع أجر من أحسن العمل، وإن كان قد أخذ منه مثقال ذرة بظلم أو غش حصَّلها يوم القيامة في أحوج ما يكون إليها، فكيف يغتم من علم أن نصيبه سيأتيه لا محالة في أهم اللحظات وأخطرها؟ وكيف يحزن من يعلم أن من يقضي بينه وبين خصومه هو أحكم الحاكمين سبحانه وتعالى؟، قال تعالى: ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١١].

الوسائل والأسباب المعينة على الإيمان باليوم الآخر:

- تدبر كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ومطالعتهما، وأنه كلما ازدادت المعرفة بتفاصيلهما، ازداد الإيمان؛ فإن كثيراً من نصوص الكتاب والسنة تجمع بين الإيمان بالله واليوم الآخر، فلا ينفع الإيمان بالله دون الإيمان باليوم الآخر.

- معرفة أسماء الله تعالى وصفاته، فمن تأملها وعرف معانيها، تيقن أنها تدل على أن هناك يوماً يبعث الله فيه الخلائق ليجازيهم بأعمالهم؛ فإن الإيمان بأسماء الله

وصفاته مثل: علم الله، وقدرته، وحكمته، وعدله؛ يستلزم أن هناك بعثاً بعد الموت، وإنكار البعث يتضمن تعطيلاً لأسماء الله وصفاته ومقتضاها، وإنكاراً لعلم الله تعالى وقدرته وحكمته وعدله.

- أن يتأمل الإنسان في نشأته الأولى وكيف خلقه الله من ماء مهين، وأن الذي خلقه قادر أن يعيده بعد موته؛ بل الإعادة أيسر من الابتداء، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال سبحانه: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِثْلُ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۖ﴾ [٦٦] ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٦، ٦٧]. وقال ﷺ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۖ﴾ [٦٦، ٦٧]. ﴿يَس: ٧٨، ٧٩﴾.

- أن يعلم أن القادر على خلق الأعظم قادر على خلق ما دونه، فمعلوم عند كل العقلاء أن من استطاع أن يبني قصرًا لا يعجزه بناء بيت صغير، والله المثل الأعلى، فإن من جملة خلقه ما هو أعظم من خلق الناس، فكيف يقال للذي خلق السماوات والأرض: أنه لا يستطيع أن يخلق ما دونه؟! قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَاتًا أَوَلَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۖ﴾ [٨٨] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٩٨، ٩٩]، وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ يَفْعَلْ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال ﷺ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

- أن يعلم العبد أن قبول عمله يتوقف على الإيمان باليوم الآخر، وأنه بدون الإيمان به يكون قد أتعب نفسه بدون طائل، أو أنفق ماله بلا عائد، بل قد يضحى بحياته ولا ينال في مقابل ذلك إلا النار، إذا كان منه ذلك بلا إيمان باليوم الآخر؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم

المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: «لا ينفعه، إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين» [رواه مسلم: ٢١٤].

ومعنى هذا الحديث: أن ما كان يفعله ابن جدعان من الصلة والإطعام ووجوه المكارم لا ينفعه في الآخرة؛ لكونه لم يكن مصدقاً بالبعث، ومن لم يصدق به كافر ولا ينفعه عمل [ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (٣/ ٨٧)].



٧. الإيمان بالقدر

الإيمان بالقدر خيره وشره أصل من أصول الإيمان، لا يتم الإيمان إلا به، وهو الركن السادس من أركان الإيمان، ومن نفاه أو لم يعتقد بأن الله جل وعلا كتب كل شيء قبل أن يخلق كل شيء؛ فهو كافر بالله العظيم، خارج من ملة الإسلام. والإيمان بالقدر هو: التصديق الجازم بأن كل خير وشر فهو بقضاء الله وقدره، وأنه الفَعَال لما يريد، لا يكون شيء إلا بإرادته، ولا يخرج شيء عن مشيئته، وليس في العالم شيء يخرج عن تقديره، ولا يصدر إلا عن تدبيره، ومع ذلك فقد أمر العباد ونهاهم، وجعلهم مختارين لأفعالهم، غير مجبورين عليها؛ بل هي واقعة بحسب قدرتهم وإرادتهم، والله خالقهم وخالق قدرتهم، يهدي من يشاء برحمته، ويضل من يشاء بحكمته، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

والإيمان بالقدر يتضمن أربعة أمور:

١ - الإيمان بأن الله تعالى عليم بكل شيء جملة وتفصيلاً، وأنه تعالى قد علم جميع خلقه قبل أن يخلقهم، وعلم أرزاقهم وأجالهم وأقوالهم وأعمالهم، وجميع حركاتهم وسكناتهم، وأسرارهم وعلائياتهم، ومن هو منهم من أهل الجنة، ومن هو منهم من أهل النار، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَلَيْهِ الْعَذَابُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبا: ٢، ٣].

٢ - الإيمان بأنه سبحانه قد كتب جميع ما سبق به علمه في اللوح المحفوظ، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

٣- الإيمان بمشيئة الله النافذة التي لا يردُّها شيء، وقدرته التي لا يُعجزها شيء، فجميع الحوادث وقعت بمشيئة الله وقدرته، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه على كل شيء قدير، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [الفصص: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

٤- الإيمان بأنه سبحانه هو الموجد للأشياء كلها، وأنه الخالق وحده، وكل ما سواه مخلوق له، قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَحَقَّقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن الإيمان بالقدر من أهم شعب الإيمان:

قال سبحانه: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]. وقال ﷻ: ﴿أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥]. وقال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الحشر: ٢٢]. وقال تبارك اسمه: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَةٍ أَرْضٍ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال سبحانه: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ١٠٠].

قال السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية: «يقول تعالى مخبراً عن عموم قضائه وقدره: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ وهذا شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق من خير وشر، فكلها قد كتبت في اللوح المحفوظ، صغيرها وكبيرها، وهذا أمر عظيم لا تحيط به العقول، بل تذهل عنه أفئدة أولي الأبواب، ولكنه على

الله يسير، وأخبر الله عباده بذلك لأجل أن تتقرر هذه القاعدة عندهم، ويبنوا عليها ما أصابهم من الخير والشر، فلا يَأْسُوا وَيَحْزَنُوا عَلَى ما فاتهم، مما طمحت له أنفسهم وتشوفوا إليه، لعلمهم أن ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ، لا بد من نفوذه ووقوعه، فلا سبيل إلى دفعه، ولا يفرحوا بما آتاهم الله فرح بطر وأشر، لعلمهم أنهم ما أدركوه بحولهم وقوتهم، وإنما أدركوه بفضل الله ومنه، فيشتغلوا بشكر من أولي النعم ودفع النقم، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: متكبر فظ غليظ، مُعْجَب بنفسه، فخور بنعم الله، ينسبها إلى نفسه، وتطغيه وتلهيه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوْلَانَهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩] «[تفسير السعدي] (ص: ٨٤٢)».

وقال تعالى: ﴿وَأَن تُصِبَّهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَإَن تُصِبَّهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِّنْ عِندِكَ قُلْ كُلُّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ قَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٨، ٧٩].

قال البيهقي رحمته الله: «معناه: ما أصابك من شيء يسرك، من صحة بدن أو ظفر بعدو وسعة رزق ونحو ذلك، فالله مبتديك بالإحسان به إليك، وما أصابك من شيء يسوؤك ويغمك فبكسب يدك، لكن الله مع ذلك سائقه إليك والقاضي به عليك، وهو كما قال: في آية أخرى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَمِمَّا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]. وقد يكون فيما يسوؤه جراحات تصيبه أو قتل أو أخذ مال أو هزيمة، وقد أمر في الآية الأخرى بأن يقول فيها وفيما يصيبه من خلافها: ﴿قُلْ كُلُّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]، فدل أن ذلك كله بتقدير الله ﷻ، غير أنه في آية أخرى أخبر أنه إنما يصيبه جزاء له بما جناه على نفسه بكسبه، وليس ذلك بخلاف لما أمر به في الآية الأولى» «[شعب الإيمان] (١/ ٣٥٠)».

وقال ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَةَ وَكَانَ هُمْ أَلْمُوتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّا أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]. وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٦٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف].

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۖ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَعْفُورَةِ﴾ [المدر: ٥٥].

وقال ﷺ: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۖ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٢٩].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

وقال ﷺ: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وعن يحيى بن يعمر قال: كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهنني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين، فقلنا: لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ، فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلاً المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي، أهدنا عن يمينه والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي، فقلت: أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلكنا ناس يقرءون القرآن، ويتفكرون العلم، وذكر من شأنهم، وأنهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف، قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أي بريء منهم، وأنهم برآء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر، لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً، أفنقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر.

ثم قال: حدثني أبي عمر بن الخطاب قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً»، قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله، ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله،

واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»، قال: صدقت... ثم ساق بقية الحديث. ومعنى: «فاكتنفته أنا وصاحبي» يعني: صرنا في ناحيته. «يتقفرون العلم» أي: يطلبونه ويتبعونه. «وذكر من شأنهم» أي: وذكر يحيى بن يعمر من حال هؤلاء ووصفهم بالفضيلة في العلم والاجتهاد في تحصيله والاعتناء به. «وأن الأمر أنف» أي: مستأنف، لم يسبق به قدر ولا علم من الله سبحانه، وإنما يعلمه بعد وقوعه، تعالى الله عن ذلك. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: «إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقي أو سعيد، ثم يُنفخ فيه الروح، فإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخل النار» [رواه البخاري: ٣٢٠٨، ومسلم: ٢٦٤٣]. قوله: «الصادق المصدوق» معناه: الصادق في قوله، المصدوق فيما يأتيه من الوحي الكريم، وفيما وعده به ربه. «يُجمع خلقه» أي: يُضم بعضه إلى بعض، أو المراد بالجمع: مكث البويضة بالرحم بعد تلقيحها بالنطفة. «علقه» دماً غليظاً جامداً. «مضغة» قطعة لحم قدر ما يُمضغ. «شقي أو سعيد» حسب ما اقتضته حكمته، وسبقت به كلمته، وما علمه سبحانه مما سيكون من هذا المكلف من أسباب السعادة أو الشقاوة. «فيسبق عليه» يغلب عليه. «الكتاب» الذي كتبه الملك وهو في بطن أمه. «ذراع» المراد بالذراع التمثيل للقرب من موته.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة» [رواه مسلم: ٢٦٥٣].

وقال عبادة بن الصامت رضي الله عنه لابنه: «يا بني، إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى

تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك» [رواه أبو داود: ٤٧٠٠].
وقال الحسن البصري رحمته الله: «من كَذَّبَ بالقدر فقد كَذَّبَ بالإسلام، ثم قال: إن الله خلق خلقاً فخلقهم بقدر، وقَسَمَ الآجال بقدر، وقَسَمَ أرزاقهم بقدر، والبلاء والعافية بقدر» [شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة] للالكائي (٧٥٥ / ٤).

وقال الحربي رحمته الله: «من لم يؤمن بالقدر لم يتهن بعيشه» [قطر الولي] للشوكاني (ص ٣٩٦).

ثمرات الإيمان بالقدر:

ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر عظيمة في حياة الإنسان، منها:

- القدر من أكبر الحوافز للعمل والنشاط والسعي بما يرضي الله في هذه الحياة، فالمؤمنون مأمورون بالأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى، والإيمان بأن الأسباب لا تعطي النتائج إلا بإذن الله؛ لأن الله هو الذي خلق الأسباب، وهو الذي خلق النتائج، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان» [رواه مسلم: ٢٦٦٤].

- أن يَعْرِفَ الإنسان قَدْرَ نفسه، فلا يتكبر ولا يَبْطُرُ؛ لأنه عاجز عن معرفة المقدر، ومستقبل ما هو حادث، ومن ثم يقرُّ الإنسان بعجزه وحاجته إلى ربه تعالى دائماً، فالإنسان إذا أصابه الخير تكبر واغتر به، وإذا أصابه الشر والمصيبة جزع وحزن، ولا يعصم الإنسان من الكبر والطغيان إذا أصابه الخير، والحزن إذا أصابه الشر، إلا الإيمان بالقدر، وأن ما وقع فقد جرت به المقادير، وسبق به علم الله.

- أنه يقضي على رذيلة الحسد، فالمؤمن لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله؛ لأن الله هو الذي رزقهم وقَدَّرَ لهم ذلك، وهو يعلم أنه حين يحسد غيره إنما

يعترض على قدر الله تعالى وقضائه.

- أنه يبعث في القلوب الشجاعة على مواجهة الشدائد، ويقوي فيها العزائم، لأنها توقن أن الآجال والأرزاق مقدرة، وأنه لن يصيب الإنسان إلا ما كُتب له، قال تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

- أنه يغرس في نفس المؤمن حقائق الإيمان المتعددة، فهو دائم الاستعانة بالله، يعتمد على الله ويتوكل عليه مع فعل الأسباب، وهو أيضاً دائم الافتقار إلى ربه تعالى يستمد منه العون على الثبات.

- أنه يبعث الاطمئنان في النفس، فيعلم المؤمن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١] قال رضي الله عنه: «هو الذي إذا أصابته مصيبة رضي وعرف أنها من الله» [صحيح البخاري معلقاً (٦/ ١٥٥)].

- من ثمرات الإيمان بالقدر، التواضع وعدم رؤية النفس، فما بالإنسان من نعم فمن الله وحده لا شريك له، وكل ذلك بتقديره سبحانه وتعالى، قال جل وعلا: ﴿وَمَا يَكْمُنُ غَيْبِهِ عَنْ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا صُرِفَ إِلَيْهِ يُجْعَلُونَ﴾ [النحل ٥٣].

الوسائل والأسباب المعينة على الإيمان بالقدر:

- تدبر كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلّى الله عليه وآله ومطالعتهما؛ فإن كثيراً من نصوصهما تدل على أن القدر ركن أصيل من أركان الإيمان.

- تعلم العقيدة الصحيحة من الكتاب والسنة الثابتة عن رسول الله صلّى الله عليه وآله.

- الاقتداء بالسلف الصالح في اعتقادهم السليم، واتباع طريقتهم في فهم نصوص الكتاب والسنة.

- البعد عن الفرق المنحرفة المخالفة لاعتقاد السلف الصالح، والحذر منهم،

وأن يعرف المذاهب الباطلة كي يجتنبها ولا يقع فيها.
 - أن يعلم العبد أن قبول عمله يتوقف على الإيمان بالقدر، كما قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في الحديث السابق: «والذي يحلف به عبد الله بن عمر، لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً، فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر».



٨. مراعاة حقوق النبي ﷺ

إن الله ﷻ لم يخلق الخلق عبثاً وإنما خلقهم لحكمة عظيمة هي عبادته سبحانه، ولأجل هذه الحكمة أرسل الرسل إلى الأمم جميعاً، فكان من تفضيل الله تعالى لهذه الأمة أن أرسل لها خاتم رسله وأفضلهم محمد بن عبد الله ﷺ، وأوجب عليه تبليغ رسالته إليهم والنصح لهم والشفقة عليهم، وأوجب كذلك على الأمة حقوقاً عليها لنبيها ﷺ.

وللنبي ﷺ على أمته حقوق عظيمة يجب مراعاتها من: الإيمان به وتصديقه في كل ما جاء به، وطاعته، وترك معصيته، والاكتفاء بسنته وعدم الابتداع، واتباعه فيما جاء به والتأسي به، واتخاذة قدوة حسنة، ولا نقدم قول أحد كائناً من كان على قوله، وكذا نصرته، ومحبته أكثر من النفس والوالدين والأولاد، وتوقيره والتأدب معه غاية الأدب، ولا يرفع أحد صوته فوق صوته ﷺ في حياته، ولا يرفع صوته في مسجده ﷺ بعد وفاته، وكذا الصلاة والسلام عليه، ومحبة آل بيته وأصحابه.

وليعلم أن محبته ﷺ ليست كمحبة غيره فالمحبة الواجبة له هي أن يكون أحب إلى المسلم من نفسه وماله والناس أجمعين وهذا لا يجب لأحد من البشر غيره. وكذا فإن اتباعه ليس كاتباع غيره من المتبوعين والكبراء، فالنبي ﷺ لا يعارض ولا يُرد عليه أمره ولو خالف مراد المسلم، أو كان يظن في ظاهره عدم المصلحة للمأمور.

وأما صلاتنا عليه فهي دعاء له برفع المنزلة والثناء عليه من الله تعالى في الملاء الأعلى.

الأدلة على أن مراعاة حقوق النبي ﷺ من أهم شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ءَ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ

وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿[النساء: ١٣٦].

وقال ﷺ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وقال سبحانه: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ [النساء: ٨٠].

وقال تبارك اسمه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٤، ٦٥].

قال السعدي رحمه الله: «يخبر تعالى خبراً في ضمنه الأمر والحث على طاعة الرسول والانقياد له، وأن الغاية من إرسال الرسل أن يكونوا مطاعين ينقاد لهم المرسل إليهم في جميع ما أمروا به ونهوا عنه، وأن يكونوا معظمين تعظيم المطيع للمطاع. وفي هذا إثبات عصمة الرسل فيما يبلغونه عن الله، وفيما يأمرهم به وينهون عنه؛ لأن الله أمر بطاعتهم مطلقاً، فلولا أنهم معصومون لا يُشرِّعون ما هو خطأ، لما أمر بذلك مطلقاً.

وقوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: الطاعة من المطيع صادرة بقضاء الله وقدره، وفيه إثبات القضاء والقدر، والحث على الاستعانة بالله، وبيان أنه لا يمكن للإنسان - إن لم يعنه الله - أن يطيع الرسول.

ثم أخبر عن كرمه العظيم وجوده، ودعوته لمن اقتربوا السيئات أن يعترفوا ويتوبوا ويستغفروا الله فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾ أي: معترفين بذنوبهم ﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ أي: لتاب عليهم بمغفرته ظلَّمهم، ورحمهم بقبول التوبة والتوفيق لها والثواب عليها، وهذا

المجيء إلى الرسول ﷺ مختص بحياته؛ لأن السياق يدل على ذلك؛ لكون الاستغفار من الرسول لا يكون إلا في حياته، وأما بعد موته فإنه لا يُطلب منه شيء بل ذلك شرك. ثم أقسم تعالى بنفسه الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله فيما شجر بينهم، أي: في كل شيء يحصل فيه اختلاف، ثم لا يكفي هذا التحكيم حتى ينتفي الحرج من قلوبهم والضيق، وكونهم يحكمونه على وجه الإغماض، ثم لا يكفي ذلك حتى يُسلموا لحكمه تسليمًا بانسراح صدر، وطمأنينة نفس، وانقياد بالظاهر والباطن. فالتحكيم في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان، فمن استكمل هذه المراتب وكملها، فقد استكمل مراتب الدين كلها. فمن ترك هذا التحكيم المذكور غير ملتزم له فهو كافر، ومن تركه مع التزامه فله حكم أمثاله من العاصين» [تفسير السعدي] (ص: ١٨٤) باختصار يسير.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

قال السعدي رحمه الله: «أي: ومن يخالف الرسول ﷺ ويعانده فيما جاء به ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ بالدلائل القرآنية والبراهين النبوية ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وسيلهم هو طريقهم في عقائدهم وأعمالهم ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ﴾ أي: نتركه وما اختاره لنفسه، ونخذله فلا نوفقه للخير، لكونه رأى الحق وعلمه وتركه، فجزاؤه من الله عدلاً أن يبقيه في ضلاله حائرًا ويزداد ضلالاً إلى ضلاله. وقوله: ﴿وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾ أي: نعذبه فيها عذاباً عظيماً ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أي: مرجعاً له ومآلاً» [تفسير السعدي] (ص: ٢٠٢) باختصار.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

قال السعدي رحمه الله: «يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان منهم وهو الاستجابة لله وللرسول ﷺ، أي: الانقياد لما أمرا به والمبادرة إلى ذلك والدعوة إليه،

والاجتناب لما نهيا عنه والانكفاف عنه والنهي عنه. وقوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ وصف ملازم لكل ما دعا الله ورسوله إليه، وبيان لفائده وحكمته، فإن حياة القلب والروح بعبودية الله تعالى ولزوم طاعته وطاعة رسوله على الدوام» [تفسير السعدي] (ص: ٣١٨).

وقال سبحانه: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

أي: فليحذر وليخف من خالف شريعة الرسول ﷺ باطنًا أو ظاهرًا ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: في قلوبهم، من كفر أو نفاق أو بدعة ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الدنيا، بقتل، أو حد، أو حبس، أو نحو ذلك. [ينظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٩٠)].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧].

يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول ﷺ وما جاء به من عند الله من الحق المبين، الذي لا مرية فيه، وسلك طريقًا أخرى غير سبيل الرسول، فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم، وعض على يديه حسرة وأسفًا [ينظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٠٨)].

وقال ﷻ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣].

وقال تبارك اسمه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقال ﷻ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۖ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ

وَتُوقَرُّوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٨﴾ [الفتح: ٨، ٩].

قال ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى لنبية محمد - صلوات الله وسلامه عليه -: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا﴾ أي: على الخلق ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ أي: للمؤمنين ﴿وَنَذِيرًا﴾ أي: للكافرين ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي: تعظموه ﴿وَتُوقَرُّوهُ﴾ من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي: تسبحون الله ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: أول النهار وآخره» [تفسير ابن كثير] (٧ / ٣٢٩).

وقال رحمه الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَعْذَرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [الحجرات: ١ - ٥].

قال السعدي رحمه الله: «هذا متضمن للأدب مع الله تعالى، ومع رسول الله صلی الله علیه و آله وسلم، والتعظيم له، واحترامه، وإكرامه، فأمر الله عباده المؤمنين، بما يقتضيه الإيمان بالله وبرسوله، من امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وأن يكونوا ماشين خلف أوامر الله، متبعين لسنة رسول الله صلی الله علیه و آله وسلم في جميع أمورهم، وأن لا يتقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا يقولوا حتى يقول، ولا يأمرؤا حتى يأمر، فإن هذا حقيقة الأدب الواجب مع الله ورسوله، وهو عنوان سعادة العبد وفلاحه، وبفواته تفوته السعادة الأبدية والنعيم السرمدي، وفي هذا النهي الشديد عن تقديم قول غير الرسول صلی الله علیه و آله وسلم على قوله، فإنه متى استبانت سنة رسول الله صلی الله علیه و آله وسلم وجب اتباعها، وتقديمها على غيرها كائنًا ما كان.

ثم أمر الله بتقواه عمومًا، وهي كما قال طلق بن حبيب: أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخشى عقاب الله.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أي: لجميع الأصوات في جميع الأوقات في خفي المواضع والجهات ﴿عَلِيمٌ﴾ بالظواهر والبواطن، والسوابق واللاحق، والواجبات والمستحيلات والpossibilities. وفي ذكر الاسمين الكريمين -بعد النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله والأمر بتقواه- حث على امتثال تلك الأوامر الحسنة، والآداب المستحسنة، وترهيب عن عدم الامتثال.

ثم قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ وهذا أدب مع رسول الله ﷺ، في خطابه، أي: لا يرفع المخاطب له صوته فوق صوته، ولا يجهر له بالقول، بل يخفض الصوت، ويخاطبه بأدب ولين، وتعظيم وتكريم، وإجلال وإعظام، ولا يكون الرسول كأحدهم، بل يميزوه في خطابهم، كما تميز عن غيره في وجوب حقه على الأمة، ووجوب الإيمان به، والحب الذي لا يتم الإيمان إلا به، فإن في عدم القيام بذلك محذورًا وخشية أن يحبط عمل العبد وهو لا يشعر، كما أن الأدب معه من أسباب حصول الثواب وقبول الأعمال.

ثم مدح من غضض صوته عند رسول الله ﷺ، بأن الله امتحن قلوبهم للتقوى، أي: ابتلاها واختبرها، فظهرت نتيجة ذلك، بأن صلحت قلوبهم للتقوى، ثم وعدهم المغفرة لذنوبهم، المتضمنة لزوال الشر والمكروه، والأجر العظيم، الذي لا يعلم وصفه إلا الله تعالى، وفي الأجر العظيم وجود المحبوب، وفي هذا دليل على أن الله يمتحن القلوب بالأمر والنهي والمحن، فمن لازم أمر الله واتبع رضاه، وسارع إلى ذلك، وقدمه على هواه، تمحض وتمحص للتقوى، وصار قلبه صالحًا لها، ومن لم يكن كذلك علم أنه لا يصلح للتقوى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ نزلت هذه الآيات الكريمة، في أناس من الأعراب الذين وصفهم الله تعالى بالجفاء، قدموا وافدين على رسول الله ﷺ، فوجدوه في بيته وحجرات نسائه، فلم يصبروا ويتأدبوا حتى يخرج،

بل نادوه: يا محمد يا محمد، أي: اخرج إلينا، فذمهم الله بعدم العقل، حيث لم يعقلوا عن الله الأدب مع رسوله واحترامه، كما أن من العقل وعلامته استعمال الأدب، فأدب العبد، عنوان عقله، وأن الله يريد به الخير، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: غفور لما صدر عن عباده من الذنوب، والإخلال بالآداب، رحيم بهم، حيث لم يعاجلهم بذنوبهم بالعقوبات» [تفسير السعدي] (ص: ٧٩٩) باختصار يسير.

وقال ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

قال ابن كثير رحمه الله: «المقصود من هذه الآية: أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه ﷺ عنده في الملاء الأعلى، بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تدعوا له، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الشاء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعاً» [تفسير ابن كثير] (٦/ ٤٥٧).

وعن عبد الله بن هشام رحمه الله قال: كنا مع النبي ﷺ وهو أخذ بيد عمر بن الخطاب رحمه الله، فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: «لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك»، فقال له عمر رحمه الله: فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي، فقال النبي ﷺ: «الآن يا عمر» [رواه البخاري: ٦٦٣٢].

«لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك» أي: الآن يا عمر. «الآن يا عمر» أي: الآن كمل إيمانك.

وعن أنس بن مالك رحمه الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» [رواه البخاري: ١٥، ومسلم: ٤٤].

قال ابن رجب رحمه الله: «محبة النبي ﷺ من أصول الإيمان وهي مقارنة لمحبة الله ﷻ، وقد قرنهما الله بها، وتوعد من قدم عليها شيئاً من الأمور المحبوبة طبعاً من الأقارب والأموال والأوطان وغير ذلك، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ

وَإِحْوَانُكُمْ وَأَرْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِّنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۚ [التوبة: ٢٤].

فيجب تقديم محبة الرسول ﷺ على النفوس والأولاد والأقارب والأهلين والأموال والمساكين، وغير ذلك مما يحبه الناس غاية المحبة، وإنما تتم المحبة بالطاعة كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. وسئل بعضهم عن المحبة، فقال: الموافقة في جميع الأحوال.

فعلامة تقديم محبة الرسول على محبة كل مخلوق: أنه إذا تعارضت طاعة الرسول ﷺ في أوامره وداعٍ آخر يدعو إلى غيرها من هذه الأشياء المحبوبة، فإن قدم المرء طاعة الرسول وامتنال أوامره على ذلك الداعي، كان دليلاً على صحة محبته للرسول وتقديمها على كل شيء، وإن قدم على طاعته وامتنال أوامره شيئاً من هذه الأشياء المحبوبة طبعاً، دل ذلك على عدم إتيانه بالإيمان التام الواجب عليه» [فتح الباري لابن رجب (١/ ٤٨)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى»، قالوا: يا رسول الله، ومن أبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى» [البخاري: ٧٢٨٠].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به، كمثّل رجل أتى قومًا فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنّجاء. فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا، فانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبت طائفة منهم، فأصبحوا مكاثرهم، فصبّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق» [رواه البخاري: ٧٢٨٣، ومسلم: ٢٢٨٣].

«أنا النذير العريان» أصله أن الرجل إذا أراد إنذار قومه وإعلامهم بما يوجب المخافة نزع ثوبه وأشار به إليهم إذا كان بعيداً منهم ليخبرهم بما دهمهم. «فالنجاء» أي: اطلبوا النجاة. «فأدلجوا» أي: ساروا من أول الليل. «اجتاحهم» أي: استأصلهم. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه جاء إلى الحجر الأسود فقبله، وقال: «إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يقبلُك ما قبلْتُك» [رواه البخاري: ١٥٩٧، ومسلم: ١٢٧٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه، ولم يصلوا على نبيهم، إلا كان عليهم ترة، فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم» [رواه الترمذي: ٣٣٨٠]. «ترة» أي: حسرة وندامة.

وعن حسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «البخيل الذي من ذكرت عنده فلم يصل علي» [رواه الترمذي: ٣٥٤٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي» [رواه الترمذي: ٣٥٤٥]. «رغم أنف رجل» أي: ذل وعجز.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي، فإنه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة» [رواه مسلم: ٣٨٤]. «الوسيلة» هي منزلة في الجنة خاصة للنبي صلى الله عليه وسلم. «حلت» أي: وجبت.

وعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في مجلس سعد بن عباد، فقال له بشير بن سعد رضي الله عنه: أمرنا الله تعالى أن نصلي عليك يا رسول الله، فكيف نصلي عليك؟ قال: فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم في العالمين،

إنك حميد مجيد، والسلام كما قد علمتم» [رواه مسلم: ٤٠٥].

«والسلام كما قد علمتم» أي: قد أمركم الله تعالى بالصلاة والسلام عليّ، فأما الصلاة فهذه صفتها، وأما السلام فكما علمتم في التشهد وهو قولنا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.

عن السائب بن يزيد قال: كنت قائماً في المسجد فحصبني رجل، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: اذهب فأنتي بهذين، فجئته بهما، قال: من أين أنتما؟ قال: من أهل الطائف، قال: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ؟! [رواه البخاري: ٤٧٠].

«فحصبني» أي: رماني بالحصباء وهي الحجارة الصغيرة. «لأوجعتكما» أي: جلدتكما حتى أوجعتكما.

وقال عروة بن مسعود رضي الله عنه لقريش في وصف تأذّب أصحاب النبي ﷺ معه، وكان إذ ذاك مشركاً: «أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له» [رواه البخاري: ٢٧٣١].

«ابتدروا أمره» أي: سارعوا إلى تنفيذ طلبه. «وضوئه» الوضوء: الماء الذي يتوضأ به، والمراد هنا ما يتبقى من الماء الذي يتوضأ منه، أو الماء الذي يتساقط منه ﷺ عند غسل أعضائه.

وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه حين حضرته الوفاة: «ما كان أحد أحب إليّ من رسول الله ﷺ، ولا أجلّ في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه ما أطق؛ لأنّي لم أكن أملأ عيني منه، ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة» [رواه مسلم: ١٢١].

الثمرات المترتبة على أداء حقوق النبي ﷺ:

- إن لأداء حقوق النبي ﷺ ثمرات عظيمة وفوائد جلية، نذكر منها:
 - أن في هذا طاعة لله تعالى، فمن حقوقه طاعته ﷺ، وهذه الطاعة هي طاعة لله تعالى.
 - أن في أداء حقوقه ﷺ نجاة من الفتنة والعذاب الأليم، فإن كل من خالف السنة وخالف أمر الرسول ﷺ يُخاف عليهم أن تصيبهم فتنة فيدخل الكفر أو النفاق في قلوبهم، أو يدخلوا في البدع فيلحقهم بذلك عذاب أليم.
 - طاعته ﷺ وأداء حقوقه هي سبيل دخول الجنة، ولن يدخل أحد الجنة إلا إذا آمن به وأطاعه.
 - أن في أداء حقوقه ﷺ من رفع الدرجات وحصول الثناء من الله تعالى على العبد ما لا يخفى على أحد، كما ورد في الصلاة عليه.
 - أن في الصلاة عليه ﷺ نجاة من الذل والحسرة والندامة في الدنيا والآخرة.
 - أن اتباعه والافتداء به هو الطريق لنيل محبة الله تعالى، وحصول المغفرة من الذنوب والخطايا.
 - أن طاعته ﷺ والصلاة عليه هي طريق نيل شفاعته يوم القيامة.
 - متابعة الرسول ﷺ هي السبب الرئيس لقبول الأعمال من العبد بعد الإخلاص لله تعالى، وبدونها يُرد العمل على صاحبه.
 - الذي يؤدي حقوق الرسول ﷺ من الإيمان به وطاعته والافتداء به، يُحشر يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

الوسائل المعينة على أداء حقوق النبي ﷺ:

- أن يعلم العبد أنه كلما زادت محبته للنبي ﷺ كان ذلك دليلاً على زيادة إيمانه، وأن نقصها هو نقص في إيمانه، فيسعى بكل الطرق لجعلها فوق محبة كل مخلوق،

- وأيضاً فإن نزول هذه المحبة هي نزول لمنزلة العبد ودرجته عند الله تعالى.
- أن يعلم العبد أن قبول عمله يتوقف على متابعتة للنبي ﷺ، وأنه بدون المتابعة يُردُّ عليه عمله، ويكون قد أتعب نفسه بدون طائل.
- ليعلم العبد أن المعاصي إنما تنشأ عن التقصير في حق النبي ﷺ من ترك الاتباع وترك المحبة، أو نقصهما عن القدر المطلوب من العبد.
- قراءة سيرة النبي ﷺ، فمن قرأ سيرته وعلم أخلاقه وما كان عليه ﷺ من حسن معاملة للخلق، وشفقته على أمته، وبذله النصح لهم؛ فلا بد أن يحبه، بل صار النبي ﷺ أحب الناس إليه حتى من نفسه.
- أن ينظر فيما وردت به النصوص الشرعية من فضل مراعاة حقوق النبي وبما يعود عليه من اتباعه ومن فضل الصلاة عليه من تفريج الكربات ورفع الدرجات ودخول الجنات، مما يتضح به لكل لبيب أن هذه الحقوق أبواب خير وأسباب شرعها الله تعالى ليتفضل بها على هذه الأمة بعظيم الإحسان وجزيل الثواب.
- ليعلم العبد أن التفريط في حقوق النبي ﷺ ما قد يكون سبباً لحبوط عمله، كما ورد فيمن رفع صوته عند النبي ﷺ، فإن من قدم قول أحد على قول النبي ﷺ وترك تعظيم سنته وما جاء عنه، فإنه متعرض لدخوله في هذا الوعيد.
- أن يعلم العبد أنه لا فلاح له في الدنيا ولا في الآخرة إذا ما أعرض عن أداء هذه الحقوق من محبته واتباعه والصلاة عليه وغير ذلك، فمن ترك ما ذكرنا وقع في الضلال وحلت عليه الشقاوة ولا بد.
- أن يستحضر المسلم سيرة السلف الصالح وما كانوا عليه من شدة الحب للنبي ﷺ ومتابعته في أدق الأمور وحسن التأدب معه، وأن يقتدي بهم في ذلك.
- الاستعانة بالله تعالى، فإن العبد إذا توجه إلى مولاه أن يعينه على أمور دينه، وأن ييسر له أداء حقوق النبي ﷺ، هان عليه كل ما صعب عليه، وتيسر له كل عسير.



٩. متابعة الرسول ﷺ

متابعة النبي ﷺ ولزوم سنته من أهم شعب الإيمان، ومن أوجب واجبات الدين، وهي من مقتضيات شهادة أن محمداً رسول الله، فالرسول ﷺ هو الميزان الأكبر الذي توزن به الأعمال، فمهما قال امرئ قولاً أو عمل عملاً أو ادعى دعوى فلا قيمة لها حتى توافق هدي الرسول ﷺ؛ لأن المتابعة هي الشرط الثاني لقبول الأعمال بعد الإخلاص لله ﷻ.

إن الاتباع حقيقة هو الاقتداء والتأسي بالنبي ﷺ في كل أموره وأحواله؛ في الأقوال والأفعال والاعتقادات، وترك ما نهى عنه ﷺ، فهي تشمل في الشرع كل ما جاء عن الرسول ﷺ من أمور واجبة وأمور مستحبة، وترك الأمور المحرمة والأمور المكروهة.

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن متابعة الرسول ﷺ من أهم شعب الإيمان:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

قال ابن كثير رحمته الله: «يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة: أنه لا يؤمن أحد حتى يُحكِّم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنًا وظاهرًا؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي: إذا حكموك بطاعتكم في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجًا وضيقًا مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن، فيسلمون لذلك تسليمًا كليًا، من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة» [تفسير ابن كثير] (٢/ ٣٤٩).

وقال ﷺ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ

وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءَ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿النساء: ٦٩﴾.

وقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ ۚ جَهَنَّمَ سَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

قال السعدي رحمته الله: «أي: ومن يخالف الرسول ﷺ ويعانده فيما جاء به ﴿مَنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ بالدلائل القرآنية والبراهين النبوية ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وسبيلهم هو طريقهم في عقائدهم وأعمالهم ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ﴾ أي: نتركه وما اختاره لنفسه، ونخذه فلا نوفقه للخير، لكونه رأى الحق وعلمه وتركه، فجزأه من الله عدلاً أن يقيه في ضلاله حائراً ويزداد ضلالاً إلى ضلاله. وقوله: ﴿وَنُصْلِهِ ۚ جَهَنَّمَ﴾ أي: نعذبه فيها عذاباً عظيماً ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أي: مرجعاً له ومآلاً [«تفسير السعدي» باختصار (ص: ٢٠٢)].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾

[الأنفال: ٢٤].

قال السعدي رحمته الله: «يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان منهم وهو الاستجابة لله وللرسول ﷺ، أي: الانقياد لما أمراه والمبادرة إلى ذلك والدعوة إليه، والاجتناب لما نهيا عنه والانكفاف عنه والنهي عنه. وقوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ وصف ملازم لكل ما دعا الله ورسوله إليه، وبيان لفائدته وحكمته، فإن حياة القلب والروح بعبودية الله تعالى ولزوم طاعته وطاعة رسوله على الدوام» [«تفسير السعدي» (ص: ٣١٨)].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ

أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

أي: فليحذر وليخف من خالف شريعة الرسول ﷺ باطناً أو ظاهراً ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: في قلوبهم، من كفر أو نفاق أو بدعة ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الدنيا،

بقتل، أو حد، أو حبس، أو نحو ذلك. [ينظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٩٠)].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾

[الفرقان: ٢٧].

يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول ﷺ وما جاء به من عند الله من الحق المبين، الذي لا مزية فيه، وسلك طريقاً أخرى غير سبيل الرسول، فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم، وعض على يديه حسرة وأسفاً [ينظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٠٨)].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ ﴿١١﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].
وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لعن الله الواشمات، والموتشمات، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله. فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب، فجاءت فقالت: إنه بلغني عنك أنك لعنت كيت وكيت، فقال: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ، ومن هو في كتاب الله، فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين، فما وجدت فيه ما تقول، قال: لئن كنت قرأته لقد وجدته، أما قرأت: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]؟ قالت: بلى، قال: فإنه قد نهى عنه [رواه البخاري: ٤٨٨٦، ومسلم: ٢١٢٥].

«الواشمات» جمع واشمة من الوشم، وهو غرز إبرة أو نحوها في الجلد حتى يسيل منه الدم ثم يحشى الموضع بكحل أو نحوه فيتلون الجلد ولا يزول بعد ذلك أبداً. «الموتشمات» جمع موتشمة، وهي التي يفعل فيها الوشم. «المتنمصات» جمع

متنمصة، وهي التي تطلب إزالة شعر وجهها ونتفه، والتي تزيله وتنشفه تسمى نامصة. «المتفلجات» جمع متفلجة، وهي التي تبرد أسنانها لتفترق عن بعضها. «للحسن» أي: لأجل الجمال. «المغيّرات خلق الله» بما سبق ذكره لأنه تغيير وتزوير. «كيت وكيت» كناية عن كلام قيل. «ما بين اللوحين» أي: القرآن المكتوب ما بين دفتي المصحف. ﴿ءَاتَاكُمْ﴾ أي: أمركم به.

وقال سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾

[الملك: ٢].

عن فضيل بن عياض رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قال: أخلصه وأصوبه. قيل: ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا، ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا، ولم يكن خالصًا لم يُقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، فالخالص إذا كان لله، والصواب إذا كان على السنة [تفسير الثعلبي] (٢٧ / ٩١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى»، قالوا: يا رسول الله، ومن أبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى» [البخاري: ٧٢٨٠].

وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به، كمثلي رجل أتى قومًا فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجاء. فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا، فانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبت طائفة منهم، فأصبحوا مكانهم، فصبّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق» [رواه البخاري: ٧٢٨٣، ومسلم: ٢٢٨٣].

قوله: «أنا النذير العريان» أصله أن الرجل إذا أراد إنذار قومه وإعلامهم بما يوجب المخافة نزع ثوبه وأشار به إليهم إذا كان بعيدًا منهم ليخبرهم بما دهمهم. «فالنجاء» أي: اطلبوا النجاة. «فأدلجوا» أي: ساروا من أول الليل. «اجتاحهم» أي: استأصلهم.

وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: صلى لنا رسول الله ﷺ الفجر، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، قلنا: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودّع، فأوصنا. قال: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن كان عبداً حبشياً، فإنه من يعش منكم يرى بعدي اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، وعَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وإن كل بدعة ضلالة» [رواه الترمذي: ٢٦٧٦].

قوله ﷺ: «ذرفت منها العيون» أي: جرى الدمع من عيون الحاضرين من خوف تلك الموعظة. «ووجلت» أي: خافت. «عضوا عليها بالنواجذ» أي: الأسنان، والمراد من هذا اللفظ هنا: شدة ملازمة السنة؛ لأن من أراد أن يأخذ شيئاً أخذاً شديداً يأخذه بأسنانه [ينظر: «المفاتيح في شرح المصابيح» (١/ ٢٧٣)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد». [رواه البخاري: ٢٦٩٧، ومسلم: ١٧١٨].

«من أحدث» أي أنشأ واخترع وأتى بأمر جديد من قبل نفسه. «في أمرنا هذا» أي: شأننا وديننا الإسلام. «ما ليس منه» أي رأياً ليس له في الكتاب والسنة عاضد ولا شاهد «فهو رد» أي مردود على فاعله لبطلانه [ينظر: «الكوكب الوهاج» (١٩/ ٣٩)].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه جاء إلى الحجر الأسود فقبله، وقال: «إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبي ﷺ يقبلُك ما قبلتُك» [رواه البخاري: ١٥٩٧، ومسلم: ١٢٧٠].

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يعنفون من يخالف سنة النبي ﷺ حتى ولو كان من أقربائهم، فعن سعيد بن جبیر، أن قريباً لعبد الله بن مغفل رضي الله عنه خذف، فنهاه، وقال: إن رسول الله ﷺ نهى عن الخذف، قال: فعاد، فقال: أحذثك أن رسول الله ﷺ نهى عنه، ثم تخذف، لا أكلمك أبداً [رواه البخاري: ٥٤٧٩، ومسلم: ١٩٥٤].

قوله: «خذف» الخذف هو رمي الإنسان بحصاة أو نواة ونحوهما، يجعلها بين

أصبعيه السبابتين أو الإبهام والسبابة.

وعن سالم بن عبد الله، أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنتكم إليها». فقال ابنه بلال بن عبد الله: والله لنمنعن، قال: فأقبل عليه عبد الله بن عمر فسبه سباً سيئاً ما سمعته سبه مثله قط، وقال: أخبرك عن رسول الله ﷺ وتقول: والله لنمنعن [رواه مسلم: ٤٤٢].

ثمرات متابعة الرسول ﷺ:

من خلال النصوص السابقة من الكتاب والسنة يمكننا استخلاص ثمرات متابعة الرسول ﷺ، وهي:

- متابعة الرسول ﷺ هي السبب الرئيس لقبول الأعمال من العبد بعد الإخلاص، وبدونها يُرد العمل على صاحبه.

- نور القلب وحياته، فإن من ألزم نفسه آداب السنة نور الله قلبه بنور المعرفة ولا مقام أشرف من مقام متابعة النبي ﷺ في أوامره وأفعاله وأخلاقه [«الاعتصام» (١/ ١٦٦)].

- محبة الله تعالى ومغفرة الذنوب، فإن العبد إذا اتبع النبي ﷺ ولازم سنته، أحبه الله تعالى، وغفر له ذنوبه.

- السعادة والفلاح والفوز في الدنيا والآخرة، ودخول الجنة والنجاة من النار.

- متبوع السنة يُحشر يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

- في اتباع السنة عصمة من الوقوع في الاختلاف المذموم المبعد عن الدين، وهذا

الاختلاف هو سمة الضعف، ولا يسلم المرء منه إلا بطاعة الله وطاعة الرسول ﷺ.

- في لزوم السنة تحصيل الهداية والسلامة من الضلال.

- في اتباع السنة شرف الانتساب للنبي ﷺ كما قال ﷺ: «فمن رغب عن سنتي

فليس مني» [رواه البخاري: ٥٠٦٣، ومسلم: ١٤٠١].

- أن في سنته ﷺ تحصيل تمام الأخلاق وجميلها ومكارمها، ويدخل في هذا

المعنى الصلاح والفضل والمروءة والإحسان والعدل والخير كله، فإن النبي ﷺ بُعث ليتمم مكارم الأخلاق.

- أن في لزوم السنة النجاة من الفتنة والعذاب الأليم، فإن كل من خالف السنة وخالف أمر الرسول ﷺ يُخاف عليهم أن تصيبهم فتنة فيدخل الكفر أو النفاق في قلوبهم، أو يدخلوا في البدع فيلحقهم بذلك عذاب أليم.

- من ثمرات الالتزام بالسنن أنها تغني عن البدع، ففي السنة كفاية عن البدعة.

الأسباب والوسائل المعينة على متابعة الرسول ﷺ:

- أن يعلم العبد أن قبول عمله يتوقف على متابعته للنبي ﷺ، وأنه بدون المتابعة يُرَدُّ عليه عمله، ويكون قد أتعب نفسه بدون طائل.

- مطالعة كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وتدبرهما؛ فإن كثيرًا من نصوصهما تحض على متابعة الرسول ﷺ.

- العلم بسنة النبي ﷺ وسيرته الشريفة والمداومة على مدارستهما، حتى يتسنى للمسلم أن يقتدي بالنبي ﷺ في سائر أموره.

- الاستعانة بالله تعالى، فإن العبد إذا توجه إلى مولاه جل في علاه أن يعينه على أمور دينه، وأن ييسر له اتباع السنة، هان عليه كل ما صعب عليه، وتيسر له كل عسير.

- ابتغاء الأجر والثواب من الله سبحانه وتعالى؛ فإن من أهم ما يعين المرء المسلم على اتباع السنة أن يتذكر ما أعده الله تعالى لعباده الملازمين للسنة في الآخرة من الأجر العظيم والنعيم المقيم.

- أن يستحضر المسلم سيرة السلف الصالح وما كانوا عليه من شدة المتابعة للنبي ﷺ، وأن يقتدي بهم.

- ترك البدع، والاعتياض عنها بالسنن، فالاعتصام على السنة خير من الاجتهاد في بدعة.

١٠. محبة العبد لله ﷻ

محبة العبد لله ﷻ مقام عظيم من مقامات العبودية لله تعالى، وهي من أهم شعب الإيمان، ومن أوجب واجبات الإسلام؛ بل هي دليل صدق الإيمان، وكلما ازداد إيمان العبد؛ ازدادت محبته لله تعالى، وإذا لم يحب العبد الله تعالى بالكلية؛ فقد خرج من الإسلام، وكذا إذا جعل العبد هذا الحب -الذي لا ينبغي إلا لله- أو بعضه لغير الله جل وعلا صار مشركاً شريكاً أكبر.

ومحبة العبد لله تعالى عبارة عن: إعظامه وإجلاله وخوفه ورجائه والذل له، واعتقاد أن أسماءه كلها حسنى وصفاته كلها عليا، وتنزيهه عن كل عيب ونقص، وإيثار طاعته، واتباع أمره وأمر رسوله ﷺ، ومجانبة نهيه، والبعد عن كل ما يسخطه وينافي محبته، ومودة أهل محبة الله ونصرتهم والذب عنهم، وكراهة أعدائه وبغضهم، ومعاداتهم.

قال ابن القيم رحمه الله: «المحبة النافعة ثلاثة أنواع: محبة الله، ومحبة في الله، ومحبة ما يعين على طاعة الله تعالى واجتناب معصيته. والمحبة الضارة ثلاثة أنواع: المحبة مع الله، ومحبة ما يبغضه الله، ومحبة ما تقطع محبته عن محبة الله تعالى أو تنقصها». [إغاثة اللهفان: ١٣٦].

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن محبة الله ﷻ من أهم شعب الإيمان: قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ

وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَضَ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿[المائدة: ٥٤]﴾.

وقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

قال السعدي رحمه الله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ آبَاؤُكُمْ﴾ ومثلهم الأمهات ﴿وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ﴾ في النسب والعشرة ﴿وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أي: قراباتكم عموماً ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي: اكتسبتموها وتعبتم في تحصيلها ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ أي: رخصها ونقصها ﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾ من حسننها وزخرفتها وموافقتها لأهوائكم، فإن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ فأنتم فسقة ظلمة ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أي: انتظروا ما يحل بكم من العقاب ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ الذي لا مرد له ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعة الله، المقدمين على محبة الله شيئاً من المذكورات.

وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله، وعلى تقديمها على محبة كل شيء، وعلى الوعيد الشديد والمقت الأكيد، على من كان شيء من هذه المذكورات أحب إليه من الله ورسوله وجهاد في سبيله.

وعلاوة ذلك، أنه إذا عُرِضَ عليه أمران، أحدهما يحبه الله ورسوله، وليس لنفسه فيه هوى، والآخر تحبه نفسه وتشتهيه، ولكنه يُفَوِّتُ عليه محبوباً لله ورسوله، أو ينقصه، فإنه إن قدم ما تهواه نفسه، على ما يحبه الله، دل ذلك على أنه ظالم، تارك لما يجب عليه ﴿[تفسير السعدي] باختصار (ص: ٣٣٢)﴾.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد طعم

الإيمان: من كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان أن يلقى في النار أحب إليه من أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه» [رواه البخاري: ٦٩٤١، ومسلم: ٢٢٠٦٢].

وعن عائشة: أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: «سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟»، فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: «أخبروه أن الله يحبه» [رواه البخاري: ٧٣٧٥، ومسلم: ٨١٣].

وعن أنس بن مالك، أن رجلاً سأل النبي ﷺ: متى الساعة يا رسول الله؟ قال: «ما أعددت لها». قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله، قال: «أنت مع من أحببت» [رواه البخاري: ٦١٧١، ومسلم: ٢٦٣٩].

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، أن رجلاً على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله، وكان يلقب حماراً، وكان يضحك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلدته في الشراب، فأتي به يوماً فأمر به فجُلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به! فقال النبي ﷺ: «لا تلعنوه، فوالله ما علمت إنه يحب الله ورسوله» [رواه البخاري: ٦٧٨٠]. «في الشراب» أي: بسبب شربه الخمر.

وقال الحسن البصري رضى الله عنه: «من قال: إني أحب الله تعالى فهو كاذب، لو أحب الله تعالى لعمل بعمل يحبه الله» [«المحبة لله» لأبي إسحاق الختلي (ص: ٣٢)]. وقال بعض العلماء: «إن محبة الله تعالى ليست كمحبة الآمين، وإنما محبة الله في طاعته واجتناب معصيته» [«المحبة لله» لأبي إسحاق الختلي (ص: ٣٢)].

ثمرات محبة الله ﷻ:

من خلال النصوص السابقة من الكتاب والسنة يمكننا استخلاص ثمرات محبة الله، وهي:

- الفوز بمحبة الله تعالى له: فإنه من أحب الله حبًّا خالصًا أحبه الله تعالى.
- مغفرة الذنوب، ودخول الجنة، والنجاة من النار.
- المحب يذوق طعم الايمان فيجد حلاوته في قلبه، وينال من الفرح والسرور والسعادة شيئًا عظيمًا.
- التلذذ بالعبادة وسرعة المبادرة إليها؛ فكلما ازداد حب العبد لربه ازدادت مبادرته لطاعته واستمتاعه بذكره.
- الشوق إلى الله: فعندما يتمكن حب الله من قلب العبد، فإن هذا من شأنه أن يجعله دومًا حريصًا على اغتنام أية فرصة تتاح له للخلو به سبحانه وبذكره ومناجاته.
- التضحية من أجله والجهاد في سبيله؛ المحبة الصادقة لله ﷻ تدفع صاحبها لبذل كل ما يملكه من أجل نيل رضا محبوبه، وليس ذلك فحسب بل إنه يفعل ذلك بسعادة، وكل ما يتمناه أن تحوز هذه التضحية على رضا مولاه.
- الرجاء والطمع فيما عند الله؛ فكلما اشتد حب العبد لربه اشتد رجاءه في الله وحسن ظنه فيه ألا يلقيه في النار وهو يحبه، فالمحب لا يعذب حبيبه.
- الحياء من الله؛ فالمحب الصادق في حبه لله ﷻ يستحي أن يراه حبيبه في وضع مشين، أو مكان لا يحب أن يراه فيه، فإذا ما وقع في معصية أو تقصير سارع بالاعتذار إليه واسترضائه بشتى الطرق.
- الشفقة على الخلق؛ من الثمار العظيمة للحب الصادق تلك الشفقة التي يجدها المحب في قلبه تجاه الناس جميعًا خاصة العصاة منهم، رجاء أن يهديهم الله إليه ويدخلهم الجنة.
- الغيرة لله؛ عندما يستقر حب الله في قلب العبد فإن هذا من شأنه أن يجعله يغار لمولاه، وعلى محارمه أن تنتهك، وحدوده أن تتجاوز، وأوامره أن تخالف.
- الغنى بالله؛ مع كل الثمار السابقة تأتي أهم ثمرة للمحبة، ألا وهي الاستغناء بالله سبحانه وتعالى، والاكتفاء به عما سواه من الناس ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٣].

- الصبر والاحتساب على الأقدار المؤلمة والرضا بها؛ وذلك بحبس النفس عن التَّسَخُّطِ بالمقدور، فلا يكون في نفس العبد اعتراض على الله، وحبس اللسان عن الشكوى، فلا يتلفظ بما يُشعر بعدم الرضا.

الأسباب والوسائل المعينة على محبة الله ﷻ:

- معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته، فكلما ازدادت معرفة العبد بربه ازداد له حباً وإجلالاً وهيبة وخشية. قال بعض السلف: «من عرف ربه أحبه» [«المحبة لله» لأبي إسحاق الختلي (ص: ٢٧)].

- متابعة النبي ﷺ، فهي من أهم أسباب محبة الله تعالى ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

- قراءة القرآن بتدبر وتفهم لمعانيه وما أريد به.

- دوام ذكره تعالى على كل حال باللسان مع التفكير والتدبر وحضور القلب. قال إبراهيم الختلي رحمه الله: «كان يقال: من علامة المحب لله ﷻ دوام الذكر بالقلب واللسان، وقل ما ولع المرء بذكر الله تعالى إلا أفاد منه حب الله ﷻ» [«المحبة لله» (ص: ١٨)].

- الخلوة بالله في وقت النزول الإلهي في الثلث الأخير من الليل لمناجاته ودعائه، وتلاوة كلامه، والوقوف بين يديه بأدب العبودية، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

- الدعاء والإلحاح على الله بأن يرزقنا حبه، وقد كان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك، وحب عمل يقرب إلى حبك» [رواه الترمذي: ٣٢٣٥].

- مشاهدة براهمه وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة فإنها داعية إلى محبته؛ فإن من طبيعة الإنسان أن مشاعر الحب بداخله تتوجه لمن يُعطيه ويُحسن إليه، وكلما ازداد العطاء ازداد الحب. قال أبو سليمان الواسطي رحمه الله: «ذكر النعم يورث المحبة» [«المحبة لله» (ص: ١٨)].

- مناجاة الله بالنعم، فإنها من الأعمال الصالحة التي تورث المحبة والقرب من

الله، كما فعل إبراهيم عليه السلام في مناجاته لربه حيث قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

- إثارة ما يحبه الله، فإن العبد إذا جاهد نفسه، وآثر ما يحبه الله تعالى على ما يكرهه نفسه وما يغلبه عليه هواه، كان هذا أمانة على محبته لله.

- المواظبة على الصلوات الخمس في بيوت الله، والتقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض، فإن العبد إذا واطب على أداء النوافل بعدما أدى الفرائض أوصله ذلك إلى درجة المحبة لله.

- التفكير في كون الله والنظر إلى آيات الله البديعة في الخلق يؤدي إلى محبة العبد لله.

- مصاحبة الصالحين والبعد عن الفاسقين: إن مصاحبة الصالحين من علامات الحب لله، وكذا بغض الفاسقين والبعد عن مجالسهم، أما إذا ادعى محبة الله ومحبة رسوله وهو يهجر أهل الخير ويصاحب أهل الشر فهذا دال على كذب دعواه.

- ملازمة حلق العلم ومجالس الإيمان، فإن حلق العلم والذكر رياض الجنة، وهي تزيد المحبة في قلب العبد المؤمن.



❦ ١١. الحب في الله والبغض في الله ❦

إن من أوثق ما يتمسك به العبد من أمور الدين والإيمان: الحب في الله والبغض في الله، وقد جعل الله محبة المؤمنين من أعظم علامات الإيمان، وجعل محبة الكافرين من أبرز سمات المنافقين، فالحب في الله والبغض في الله دليل على صحة الإيمان، وهو كذلك من أهم شعب الإيمان.

ومعنى الحب في الله: هو أن يحب المرء أخاه المسلم لكونه مسلمًا موحَّدًا مطيعًا لله تعالى. والبغض في الله: هو أن يبغض المسلم غيره من أجل كفره بالله تعالى أو لأجل معصيته.

فالمؤمن لا يميل قلبه إلا لمن أطاع الله تعالى، ولا تكون نفرتة إلا من الكفار والعصاة وأهل البدع والأهواء، فيجرد حبه عن الأغراض الدنيوية، فلا يكون حبه لأجل مصلحة أو منفعة له عند غيره؛ لأن من كان كذلك كان حبه ناشئًا عن هواه وعن تعلقه بدنياه.

الأدلة على أن الحب في الله والبغض في الله من أوثق عرى الإيمان:

قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

قال السعدي رحمه الله: «أي: لا يجتمع هذا وهذا، فلا يكون العبد مؤمنًا بالله واليوم الآخر حقيقة، إلا إذا كان عاملاً على مقتضى الإيمان ولوازمه، من محبة من قام بالإيمان وموالاته، وبغض من لم يقيم به ومعاداته، ولو كان أقرب الناس إليه.

وهذا هو الإيمان على الحقيقة، الذي وجدت ثمرته والمقصود منه، وأهل هذا

الوصف هم الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان، أي: رسمه وثبته وغرسه غرسًا، لا يتزلزل، ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك، وهم الذين قواهم الله بروح منه أي: بوحيه، ومعونته، ومدده الإلهي وإحسانه الرباني، وهم الذين لهم الحياة الطيبة في هذه الدار، ولهم جنات النعيم في دار القرار، التي فيها من كل ما تشتهيهِ الأنفس، وتلذ الأعين وتختار، ولهم أكبر النعيم وأفضله.

وأما من يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر، وهو مع ذلك مُوَادٌّ لأعداء الله، محب لمن ترك الإيمان وراء ظهره، فإن هذا إيمان زعمي لا حقيقة له، فإن كل أمر لا بد له من برهان يصدقه، فمجرد الدعوى لا تفيد شيئًا، ولا يصدق صاحبها» [تفسير السعدي (ص: ٨٤٨) باختصار].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحْجُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

قال ابن كثير رحمته الله: «قال تعالى مادحًا للأنصار، ومبينًا فضلهم وشرفهم وكرمهم وعدم حسدهم، وإيثارهم مع الحاجة، فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم. ﴿يُحْجُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: من كرمهم وشرف أنفسهم، يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم.

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ أي: ولا يجدون في أنفسهم حسدًا للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف، والتقديم في الذكر والرتبة. ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ يعني: حاجة، أي: يقدمون المحاويع على حاجة أنفسهم، ويدؤون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك. ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح» [تفسير ابن كثير (٨ / ٦٨) باختصار].

وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلوات الله عليه قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من

كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحب عبداً لا يحبه إلا الله، ومن يكره أن يعود في الكفر - بعد إذ أنقذه الله - كما يكره أن يلقى في النار» [رواه البخاري: ٢١، ومسلم: ٤٣]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله تعالى يقول يوم القيامة: «أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي» [رواه مسلم: ٢٥٦٦]. «المتحابون بجلالي» أي: بسبب عظمتي ولأجل تعظيمي، أو الذين يكون التحاب بينهم لأجل رضاي وجزاء ثوابي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى، فأرصد الله له على مدرجته ملكاً فلما أتى عليه، قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربُّها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله ﷻ، قال: فإني رسول الله إليك، بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه» [رواه مسلم: ٢٥٦٧]. «فأرصد الله له» أي: أبعده يرقبه. «مدرجته» أي: طريقه. «نعمة تربها» أي: تقوم بإصلاحها وإتمامها وتنهض إليه بسبب ذلك.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه...» [رواه البخاري: ٦٦٠، ومسلم: ١٠٣١].

قال النووي رحمته الله: «قوله ﷺ: «ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه» معناه: اجتمعا على حب الله وافترقا على حب الله، أي: كان سبب اجتماعهما حب الله، واستمرا على ذلك حتى تفرقا من مجلسهما، وهما صادقان في حب كل واحد منهما صاحبه لله تعالى حال اجتماعهما وافتراقهما. وفي هذا الحديث: الحث على التحاب في الله، وبيان عظم فضله، وهو من المهمات؛ فإن الحب في الله والبغض في الله من الإيمان، وهو بحمد الله كثير يوفق له أكثر الناس أو من وُفق له» [شرح مسلم] (٧/ ١٢١).

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله، وتبغض في الله» [رواه أحمد: ١٨٥٢٤]. عرى: جمع عروة، وهي العقدة

التي تعقد بين حبلين لربطهما ببعض، وعرى الإسلام هي الأعمال والعقائد، فأوثقها وأكثرها قوة وثباتا عند الله وأشد ما يشد به المسلم نفسه إلى دينه هي الحب في الله والبغض فيه.

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله ﻋَﻠَﻴْكَ: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء» [رواه الترمذي: ٢٣٩٠]. «المتحابون في جلالي» أي: لأجل إجلالي وتعظيمي. «يغبطهم النبيون والشهداء» أي: يستحسن أحوالهم الأنبياء والشهداء.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان» [رواه أبو داود: ٤٦٨١]. وعن معاذ رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ عن أفضل الإيمان قال: «أن تحب لله، وتبغض لله، وتعمل لسانك في ذكر الله» [رواه أحمد: ٢٢١٣٠].

الثمرات المترتبة على الحب في الله والبغض في الله تعالى:

- أنه سبب في محبة الله تعالى للعبد، وما أعظمها من ثمرة، فهي مفتاح خيرات الدنيا والآخرة.
- أنه من أسباب دخول الجنة.
- أنه سبب لأن يستشعر العبد في قلبه حلاوة الإيمان، فإن للإيمان حلاوة من ذاقها فإنه قلما ترغب نفسه في مفارقتها، وهذا من أعظم أسباب ثبات القلب على الإيمان وعلى طاعة الله.
- أن المتحابين في الله يكونون في ظل عرش الرحمن يوم القيامة حين تقترب الشمس من رؤوس العباد ويلجمهم العرق، وليس هناك ما يظلمهم إلا من أظله الله في ظل عرشه.
- أن الله يخصص المتحابين في الله يوم القيامة بمنابر من نور يكونون عليها.

- أن الحب في الله سبب في ائتلاف جماعة المسلمين وترباطها.
- طيب العيش، فلا أطيب ممن عاش حياته في طاعة الله، حتى بلغ به ألا يحب إلا في الله ولا يبغض إلا في الله تعالى.
- أن الحب في الله والبغض في الله نوع من أنواع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن أصحاب المعاصي والبدع إذا رأوا بُغْضَ أهل الحق والصلاح لهم بسبب ما هم عليه من المعصية، كان في ذلك نوع من الإنكار عليهم، وكان أيضًا رادعًا لهم عن معاصيهم.
- الحب في الله تعالى والبغض فيه سبب من أسباب اكتمال إيمان العبد.

الأسباب والوسائل المعينة على الحب في الله والبغض في الله تعالى:

- النظر في ثمرات الحب في الله والبغض فيه، فهذا من أعظم ما يدفع النفس إلى التجرد لله تعالى حتى في محبتها وبغضها.
- إصلاح القلب، ومحاولة استكمال الإيمان، فمن صح قلبه كانت أفعاله كلها لله، وصار لا يحب ولا يبغض إلا لله تعالى.
- أن يعلم العبد أن ضد ذلك من محبة الفساق والمبتدعة، أو بغض أهل الطاعة والقائمين على سنة النبي ﷺ من علامات انسلاخ المرء من الإيمان، بل يدل على تسرب النفاق إلى القلب.
- أن يعلم أن المحبة في غير الله تعالى زائلة غالبًا، بل وكثيرًا ما تنقلب إلى عداوة بين المتحابين؛ فإنهم قد تحابوا على أمر من أمور الدنيا، فإذا زال زالت معه هذه المحبة، وهذا من أكبر ما يزهّد المرء في محبة غيره محبة منفعة لا غير.
- مما يعين على الحب في الله إفشاء السلام ونشره، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» [رواه مسلم: ٥٤].

- تذكر العبد المسلم أن الذي يجمعه بأخيه المسلم أمور عظيمة، منها: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وغيرها من عرى الإيمان، وأن الذي يفرق الكافر والمسلم، هو الشرك والكفر وترك الإيمان بالرسول واليوم والآخر وغيرها من أنواع الكفر التي توجب العداوة والبغضاء.



١٢. حب الصحابة رضي الله عنهم

إن اعتقاد عدالة الصحابة وفضلهم، وحبهم، وتوقيرهم هو مذهب أهل السنة والجماعة، وذلك لما أثنى الله تعالى عليهم في كتابه، ونطقت به السنة النبوية في مدحهم، وتواترت به النصوص الشرعية في كثير من السياقات، مما يدل دلالة واضحة على أن الله تعالى حباهم من الفضائل، وخصهم من كريم الخصال، ما نالوا به ذلك الشرف العالي، وتلك المنزلة الرفيعة عنده، وكما أن الله تعالى يختار لرسالته المحل اللائق بها من قلوب عباده، فإنه سبحانه يختار لورثة النبوة من يقوم بشكر هذه النعمة، ويليق بهذه الكرامة من صحابة النبي الأبرار.

والصحابي: هو من لقي النبي ﷺ مؤمناً به، ومات على الإسلام. إن محبة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم دليل جلي على إيمان العبد، ولهذه المحبة أمارات، وأماراتها: توقيرهم، وإجلالهم، وإعلاء قدرهم، والإشادة بمحاسنهم، والترضي عنهم؛ فإن الله تعالى رضي عنهم، والافتداء بهم، وعدم الطعن فيهم، والسكوت عما حدث بينهم من فتن واختلاف، والبراءة من كل من يعيهم أو يسبهم أو ينتقصهم.

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن حب الصحابة رضي الله عنهم من أهم شعب الإيمان:

قال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْكُمْ هَجَرْتِمْ وَوَلَّيْتُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ذُوَيْقُوا ذَوُقُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا حَسِيزًا﴾ [التوبة: ١٠٠].

قال ابن كثير رحمه الله: «يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم، والنعيم المقيم.

فيا ويل من أبغضهم أو سبهم، أو أبغض أو سب بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول ﷺ وخيرهم وأفضلهم، أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبونهم، عياداً بالله من ذلك، وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن؟ إذ يسبون مَنْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟ وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويسبون من سبه الله ورسوله، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهم متبعون لا مبتدعون، ويقتدون ولا يتبدون، ولهذا هم حزب الله المفلحون، وعباده المؤمنون» [تفسير ابن كثير] (٤/ ٢٠٣).

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

وقال ﷺ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سَوَابِهِ يَعْجِبُ الزَّرَّاعُ لِيَكْثُرَ يَبْتَغِيهِمُ الْكُفَّارُ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

قال السعدي رحمته الله: «يخبر تعالى عن رسوله ﷺ وأصحابه من المهاجرين والأنصار، أنهم بأكمل الصفات، وأجل الأحوال، وأنهم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ أي: جادون ومجتهدون في عداوتهم، فلم يروا منهم إلا الغلظة والشدّة، فلذلك ذل أعداؤهم لهم، وانكسروا، وقهرهم المسلمون ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: متحابون متراحمون متعاطفون كالجسد الواحد، هذه معاملتهم مع الخلق، وأما معاملتهم مع الخالق فإنك ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ أي: وصفهم بكثرة الصلاة ﴿يَبْتَغُونَ﴾ بتلك العبادة ﴿فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ أي: هذا مقصودهم بلوغ رضا ربهم، والوصول إلى ثوابه.

﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ أي: قد أثرت العبادة - من كثرتها وحسنها - في وجوههم، حتى استنارت، ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ أي: هذا وصفهم

الذي وصفهم الله به، مذكور في التوراة هكذا. وأما مثلهم في الإنجيل، فإنهم موصوفون بوصف آخر، وأنهم في كمالهم وتعاونهم ﴿كَزَعَ أَخْرَجَ شَطْطَهُ، فَكَازَرَهُ﴾ أي: أخرج فراخه، فوازرتة فراخه في الشباب والاستواء ﴿فَأَسْتَغَظَّ﴾ ذلك الزرع أي: قوي وغلظ ﴿فَأَسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ﴾ جمع ساق ﴿يُعْجِبُ الزَّرَّاعُ﴾ من كماله واستوائه، وحسنه واعتداله، كذلك الصحابة رضي الله عنهم، هم كالزرع في نفعهم للخلق واحتياج الناس إليهم، فقوة إيمانهم وأعمالهم بمنزلة قوة عروق الزرع وسوقه، وكون الصغير والمتأخر إسلامه، قد لحق الكبير السابق ووازره وعاونه على ما هو عليه، من إقامة دين الله والدعوة إليه، كالزرع الذي أخرج شطأه، فأزره فاستغلظ، ولهذا قال: ﴿لِيَغِيْظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ﴾ حين يرون اجتماعهم وشدتهم على دينهم، وحين يتصادمون هم وهم في معارك النزال، ومعامع القتال.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ فالصحابة رضي الله عنهم، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، قد جمع الله لهم بين المغفرة التي من لوازمها وقاية شرور الدنيا والآخرة، والأجر العظيم في الدنيا والآخرة» [تفسير السعدي (ص: ٧٩٥) باختصار].

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في الأنصار: «لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، من أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله» [رواه مسلم: ٧٥].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار» [رواه البخاري: ٣٧٨٤، ومسلم: ٧٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان على حراء هو وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، فتحركت الصخرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اهدأ، فما عليك إلا نبي، أو صديق، أو شهيد» [رواه مسلم: ٢٤١٧].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تسبوا أصحابي، فلو

أن أحدكم أنفق مثل أُحُد ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه» [رواه البخاري: ٣٦٧٣، ومسلم: ٢٥٤١].

«المد» ملئ كفي الرجل المعتدل من الطعام وغيره. «نصيفه» أي: نصفه. وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد صلّى الله عليه وآله خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد صلّى الله عليه وآله، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه» [رواه أحمد: ٣٦٠٠].

وسئل الحسن البصري رضي الله عنه عن حب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما هل هو سنة؟ قال: «لا، فريضة». [شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (٧/ ١٣١٢)].

ثمرات حب الصحابة رضي الله عنهم:

من خلال النصوص السابقة من الكتاب والسنة يمكننا استخلاص ثمرات حب الصحابة، وهي:

- محبة الله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وآله لمن أحبهم؛ فإن محبتهم من خصال الإيمان.
- أنها عبادة من أعظم العبادات، وقربة إلى الله تعالى من أجل القربات؛ فإن الحب عمل قلبي، فالعبد إذا أحب الصحابة، فقد أتى بالإيمان الواجب عليه، ويتفاوت الناس في قدر هذه المحبة في قلوبهم تفاوتًا عظيمًا.
- أن المسلم إذا أحبهم كان معهم يوم القيامة في الجنة؛ فعن أنس رضي الله عنه، أن رجلًا سأل النبي صلّى الله عليه وآله عن الساعة، فقال: متى الساعة؟ قال: «وماذا أعددت لها؟». قال: لا شيء، إلا أني أحب الله ورسوله. فقال صلّى الله عليه وآله: «أنت مع من أحببت». قال أنس: فما فرحنا بشيء، فرحنا بقول النبي صلّى الله عليه وآله: «أنت مع من أحببت». قال أنس: فأنا أحب النبي صلّى الله عليه وآله وأبا بكر، وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم.
- محبة الصحابة رضوان الله عليهم علامة الإيمان؛ فإن من أحب الصحابة وأحب

أبا بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم فقد وفقه الله للحق، فإنه لا يحبهم إلا مؤمن تقي، ولن يتخلف عن محبتهم أو عن محبة واحد منهم إلا شقي، قد ضل طريق الحق.

الأسباب والوسائل المعينة على حب الصحابة رضي الله عنهم:

- أن يعلم العبد أن الله تعالى أحبهم ورضي عنهم، ولما كانت محبة الله ﷻ لها لوازم، وهي محبة ما يحبه الله ﷻ من الأشخاص والأعمال، وكراهة ما يكرهه من ذلك، فإن من أحب الله أحب أحبَّاءه ووالاهم، وأبغض أعداءه وعاداهم.

- أن يعلم العبد فضائل الصحابة، وعظيم تضحياتهم من أجل أن يصل هذا الدين إلينا، فهم الذين جاهدوا في الله حق جهاده، وناصروا النبي ﷺ وآزروه ونصروا الدين ونشروا السنة، فلأجل فضلهم وعلمهم وما لهم من الأخلاق الحميدة والسجايا الجميلة أحبهم أهل السنة.

- أن يعلم العبد أن محبة الصحابة من الإيمان، وأن بغضهم من النفاق، والمؤمن يسعى جاهداً لتحصيل هذا الإيمان وتكميله، فيحب الصحابة رضوان الله عليهم، فمحبتهم من الإيمان.

- أن يحذر المؤمن من النفاق إن هو أبغض الصحابة أو أحداً منهم؛ لأن بغض الصحابة علامة على النفاق.

- قراءة النصوص الشرعية الواردة في الثناء عليهم وعلو مكانتهم ودراستها؛ فإن النصوص الواردة في فضائلهم رضوان الله عليهم مُعينة على محبتهم، وبقدر ما يعلم المرء من تلك النصوص تكون محبته أتم.

- قراءة سيرهم والتفكير في أحوالهم؛ فإن في سيرهم وأخبارهم وأحوالهم كل خير وصلاح وقدوة، فإن المحبة تُنال بالكسب؛ إذ النفوس مجبولة على محبة من اتصف بالصفات الحسنة وتميل إليه.

- السكوت عما حدث بين الصحابة رضوان الله عليهم من فتن واختلاف؛ فإن

السكوت عن ذلك معين على محبتهم ﷺ أجمعين.

- الاستغفار لهم والدعاء بأن لا يجعل الله في قلوبنا غلاً لهم، فإن الاستغفار لهم وطهارة القلب من الغل لهم أمر يحبه الله ويرضاه ويشني على فاعله، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

- تربية النشء على محبة الصحابة؛ فإن تنشئة الأبناء على السنة وتربيتهم عليها من أعظم الواجبات على المربين والمعلمين وأولياء الأمور وغيرهم، فإنه يتعين تربيتهم على محبة الصحابة، ودعوتهم إلى القراءة في سيرهم والنظر في الأحاديث الواردة في فضائلهم، وكان السلف يعلمون أبناءهم محبة الصحابة، كما قال مالك بن أنس رحمه الله: «كان السلف يعلمون أولادهم حب أبي بكر وعمر كما يعلمون السورة من القرآن» [مسند الموطأ للجوهري (ص: ١١٠)].

- نشر فضائلهم بين الناس، وكان السلف رضوان الله عليهم ينشرون تلك الفضائل بين أظهر الناس، خاصة عند ظهور من يتنقص الصحابة أو يتكلم بالسوء عنهم.



﴿ ١٢. حب المرء لأخيه ما يحب لنفسه ﴾

إن من مظاهر تربية الشريعة الإسلامية لأفرادها، أنها حثت على تكوين نفوس سليمة قد تطهرت من الأنانية والحقد والحسد وحب الذات، وحثت في المقابل أفرادها على التحاب بينهم، بل وأكثر من ذلك: أن يكون كل واحد منهم يحب لأخيه المسلم مثل ما يحب لنفسه من الخير، وأن يكره له ما يكرهه لنفسه من الشر.

وحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه: هو أن يرى الإنسان مصلحة إخوانه المسلمين مصلحة له، فيُسَرُّ بما ينفعهم ويحزن لما يضرهم، ويبذل لهم النصيحة فيرشدهم إلى ما فيه الخير والصالح لهم.

فكما يحب المرء لنفسه أن يستره الله فيما يسوؤه، فإن عليه أن يحب ستر عورات إخوانه، وكما يحب أن لا يغشه أحد، فعليه أن يترك غش إخوانه المسلمين بل ينصح لهم، وكما يحب ألا يؤذيه أحد فهو يكره الأذية لغيره، وكما يحب لنفسه السلامة من المرض والفقر فينبغي أن يحب ذلك لإخوانه أيضًا.

الأدلة على أن حب المرء لأخيه ما يحبه لنفسه من شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

قال ابن كثير رحمته الله: «قال تعالى مادحًا للأنصار، ومبينًا فضلهم وشرفهم وكرمهم وعدم حسدهم، وإيثارهم مع الحاجة، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي: سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ أي: من كرمهم وشرف أنفسهم، يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم.

﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ﴾ أي: ولا يجدون في أنفسهم حسدًا

للمهاجرين فيما فضّلهم الله به من المنزلة والشرف، والتقديم في الذكر والرتبة ﴿وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ يعني: حاجة، أي: يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم، ويدعّون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك ﴿وَمَنْ يُوقِ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: مَنْ سلم من الشح فقد أفلح وأنجح» [تفسير ابن كثير] (٨ / ٦٨) باختصار.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» [رواه البخاري: ١٣، ومسلم: ٤٥].

قال ابن رجب الحنبلي رحمته الله: «حديث أنس رضي الله عنه يدل على أن المؤمن يسره ما يسر أخاه المؤمن، ويريد لأخيه المؤمن ما يريده لنفسه من الخير، وهذا كله إنما يأتي من كمال سلامة الصدر من الغل والغش والحسد، فإن الحسد يقتضي أن يكره الحاسد أن يفوقه أحد في خير، أو يساويه فيه؛ لأنه يحب أن يمتاز على الناس بفضائله، وينفرد بها عنهم، والإيمان يقتضي خلاف ذلك، وهو أن يشركه المؤمنون كلهم فيما أعطاه الله من الخير، من غير أن ينقص عليه منه شيء» [جامع العلوم والحكم] (١ / ٣٠٦).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أحب أن يُزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه» [رواه مسلم: ١٨٤٤]. «فلتأته منيته» أي: يأتيه الموت.

قال النووي رحمته الله: «قوله صلى الله عليه وسلم: «وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه» هذا من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم وبديع حكمه، وهذه قاعدة مهمة فينبغي الاعتناء بها، وأن الإنسان يلزم أن لا يفعل مع الناس إلا ما يحب أن يفعلوه معه» [شرح مسلم] (١٢ / ٢٣٣).

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم، كمثل الجسد إذا اشتكى عضوًا تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى» [رواه البخاري: ٦٠١١، ومسلم: ٢٥٨٦].

«تراحمهم» أي: رحمة بعضهم بعضًا. «توادهم» أي: تحابهم. «تعاطفهم» أي:

تعاونهم. «تداعى» أي: شاركه فيما هو فيه. «السهر» أي: عدم النوم بسبب الألم. «الحمى» أي: حرارة البدن وألمه.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً» [رواه ابن ماجه: ٤٢١٧].

وعن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سأل النبي ﷺ عن أفضل الإيمان قال: «أن تحب لله، وتبغض لله، وتعمل لسانك في ذكر الله». قال: وماذا يا رسول الله؟ قال: «وأن تحب للناس ما تحب لنفسك، وتكره لهم ما تكره لنفسك» [رواه أحمد: ٢٢١٣٠].

وعن خالد بن عبد الله القسري قال: حدثني أبي، عن جدي أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتحب الجنة؟»، قال: قلت: نعم، قال: «فأحب لأخيك ما تحب لنفسك» [رواه أحمد: ١٦٦٥٥].

وعن تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة» قلنا: لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» [رواه مسلم: ٥٥].

قال ابن رجب الحنبلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وأما النصيحة للمسلمين، فأَنْ يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، ويشفق عليهم، ويرحم صغيرهم، ويوقر كبيرهم، ويحزن لحزنهم، ويفرح لفرحهم، وإن ضره ذلك في دنياه كرخص أسعارهم، وإن كان في ذلك فوات ربح ما يبيع من تجارته، وكذلك جميع ما يضرهم عامة، ويحب صلاحهم وإلفتهم ودوام النعم عليهم، ونصرهم على عدوهم، ودفع كل أذى ومكره عنهم» [جامع العلوم والحكم (١/ ٢٢٢)].

وعن الأحنف بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كنت إذا كرهت شيئاً من غيري لم أفعل بأحد مثله» [شرح صحيح البخاري لابن بطال (١/ ٦٥)].

الثمرات المترتبة على حب المرء لأخيه ما يحبه لنفسه:

– أنه من أعظم أسباب اكتمال الإيمان، فمن لم تهذب نفسه من الشح ومحبة

الاستئثار بنعم الله دون إخوانه فهو ناقص الإيمان.

- أن فيه تطهيراً للقلب من الحقد والحسد والغش للمسلمين؛ فإن مَنْ سَمَت نفسه إلى محبة الخير لإخوانه كما يحبه لنفسه، فلا شك أنه قد صار قلبه سليماً من الغش لهم والحقد عليهم.

- أن النبي ﷺ رتب دخول الجنة على فعل هذه الشعبة.

- أنه سبب لنزول الخيرات على العبد، فالله تعالى يعطي فضله لمن يحبه سواء في ذلك عطاء الدنيا أو عطاء الدين، وإن من أفضل القلوب عند الله قلب سلم من الشح وحب الأثرة، قال تعالى: ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٠].

- وكذا فإنجزاء من جنس العمل، فمن كان ناصحاً لإخوانه محباً لهم الخير، كان ذلك سبباً لأن يوفقه الله تعالى إلى كل خير.

- أنه من أسباب شيوع الرحمة والألفة والترابط بين الناس، والناس إذا تراحموا بينهم عمتهم رحمة الله.

الأسباب والوسائل المعينة على حب المرء لأخيه ما يحبه لنفسه:

- الإخلاص وقصد الله تعالى بالعبادة، فعندما يتذكر المسلم أنه يقصد بهذه الشعبة وجه الله وحده؛ يسهل ذلك عليه وينشط للقيام به.

- ابتغاء الأجر والثواب من الله سبحانه وتعالى في الآخرة، فيتذكر ما أعدّه الله تعالى لعباده المؤمنين - المتصفين بهذه الشعبة وغيرها - في الآخرة من الأجر والثواب.

- الاستعانة بالله تعالى، فلا يعين العبد على الطاعة إلا الله تعالى، وكلما وجد العبد في نفسه مشقة لأداء طاعة من الطاعات فعليه أن يتوجه إلى الله تعالى بالدعاء أن ييسر له فعل الطاعات وأن يعينه عليها.

- الاهتمام بتزكية النفس وتطهير القلب مما يشوبه من حقد وحسد وغش وشح

- وبخل؛ فإن كان قلبه سليماً فإنه يفرح إذا رأى الخير والسعادة على إخوانه. ومن كان كذلك تسكن نفسه بالرضا ويخلو قلبه من الحقد والحسد والغل ونحو ذلك.
- الزهد في الدنيا؛ فإن من أعظم ما يجعل المرء محباً للاستئثار بالخير لنفسه دون إخوانه، هو محبته للدنيا وطلبه العلو فيها على غيره.
- السعي في نشر الألفة والمحبة بين المسلمين، فالمرء غالباً لا يحب لغيره الخير إلا إذا كان في قلبه له مودة.
- السعي في إزالة كل ما يشيع البغضاء والعداوة بين أفراد الجماعة المسلمة.



١٤. موالاة المؤمنين

أنزل الله تعالى كتابه وبعث رسوله ﷺ من أجل غاية عظمى وهي توحيدته تعالى ونبذ عبادة ما سواه، فافترق الناس فرقتين: فرقة آمنت به، وفرقة كفرت وجحدت، فاقتضى التوحيد موالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين، وجعل الله تعالى هذه الموالاة من أعلى مراتب الدين، بل هي علامة على صحة الإيمان، وطهارة القلب من النفاق. قال ابن هبيرة رحمته الله: «لما كانت الموالاة لها أسباب تستدعيها ما بين نسب أو طول صحبة أو اجتلاب نفع أو دفع ضرر، ثم كانت الموالاة في الله سبحانه هي التي تُخلّص عن ذلك كله، وتصفو عن شوائبه، فكون إذا والى المؤمن المؤمن لا عن قرابة بينهما، ولا عن منفعة يرجوها من صاحبه، أو لا لاستجلاب نفع الدنيا ولا دفع ضرر منها؛ بل لأجل أنه مؤمن بالذي هو أيضًا مؤمن به، ومحِب لمن هو أيضًا محبوبه، كان ذلك دليلًا واضحًا ظاهرًا من أدلة الإيمان» [ينظر: «الإفصاح عن معاني الصحاح» (٦/ ٣٨٦)].

وحقيقة موالاة المؤمنين: هي محبتهم ونصرتهم على عدوهم بالنفس والمال والسلاح، والتألم لألمهم والسرور بسرورهم، والنصح لهم ومحبة الخير لهم، وعدم غشهم وخديعتهم، واحترامهم وتوقيرهم وعدم تنقصهم وعييبهم، ومعاداة من عاداهم، وألا يعين عليهم كافرًا ولو بكلمة فضلاً عن الفعل.

ومن صور موالاة المؤمنين التي ينبغي الاعتناء بها: موالاة أصحاب النبي ﷺ ومحبتهم ونشر فضائلهم والانتصار لهم، والذب عنهم وعن أعراضهم، وكذا الذب عن زوجات النبي ﷺ.

ومن ذلك أيضًا الذب عن السلف الصالح وأئمة المسلمين وأهل العلم خاصة والمسلمين عامة.

الأدلة من الكتاب والسنة على أن موالاة المؤمنين من شعب الإيمان:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۖ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦].

قال السعدي رحمه الله: «لما نهى تعالى عن ولاية الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم، وذكر مآل توليهم أنه الخسران المبين، أخبر تعالى مَنْ يجب ويتعين توليّه، وذكر فائدة ذلك ومصلحته فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ فولاية الله تدرك بالإيمان والتقوى، فكل من كان مؤمناً تقيّاً كان لله وليّاً، ومن كان وليّاً لله فهو ولي لرسوله، ومن تولّى الله ورسوله كان تمام ذلك تولي من تولاه، وهم المؤمنون الذين قاموا بالإيمان ظاهراً وباطناً، وأخلصوا للمعبود بإقامتهم الصلاة بشروطها وفروضها ومكملاتها، وأحسنوا للخلق، وبذلوا الزكاة من أموالهم لمستحقيها منهم.

وقوله: ﴿وَهُمُ الرَّاكِعُونَ﴾ أي: خاضعون لله ذليلون، فأداة الحصر في قوله ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ تدل على أنه يجب قصر الولاية على المذكورين، والتبري من ولاية غيرهم.

ثم ذكر فائدة هذه الولاية فقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ أي: فإنه من الحزب المضافين إلى الله إضافة عبودية وولاية، وحزبه هم الغالبون الذين لهم العاقبة في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾. وهذه بشارة عظيمة، لمن قام بأمر الله وصار من حزبه وجنده، أن له الغلبة، وإن أدبيل عليه في بعض الأحيان لحكمة يريد بها الله تعالى، فأخر أمره الغلبة والانتصار، ومن أصدق من الله قيلاً». [تفسير السعدي] (ص: ٢٣٦).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢].

وقال ﷺ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ [التوبة: ٧١].

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ جهاراً غير سر يقول: «ألا إن آل أبي - يعني فلائناً - ليسوا لي بأولياء، إنما وليي الله وصالح المؤمنين» [رواه البخاري: ٥٩٩٠، ومسلم: ٢١٥].

قال النووي رحمته الله: «هذه الكناية بقوله: «يعني فلائناً» هي من بعض الرواة خشي أن يسميه فيترتب عليه مفسدة وفتنة، إما في حق نفسه، وإما في حقه وحق غيره، فكنى عنه، والغرض إنما هو قوله ﷺ: «إنما وليي الله وصالح المؤمنين» ومعناه: إنما وليي من كان صالحاً وإن بعدد نسبه مني، وليس وليي من كان غير صالح وإن كان نسبه قريباً. وأما قوله: «جهاراً» فمعناه علانية لم يخفه بل باح به وأظهره وأشاعه، ففيه التبرؤ من المخالفين وموالاته الصالحين والإعلان بذلك ما لم يخف ترتب فتنة عليه والله أعلم» [ينظر: «شرح مسلم» (٣/ ٨٧)].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ صارخاً، فقال له رسول الله ﷺ: «ما لك؟» قال: سيدي رأني أقبُلَ جارية له فجبَّ مذاكيرِي، فقال النبي ﷺ: «عليَّ بالرجل» فطلب فلم يُقدَر عليه، فقال رسول الله ﷺ: «اذهب، فأنت حر». قال: عليَّ من نصرتي يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «عليَّ كل مؤمن أو مسلم» [رواه ابن ماجه: ٢٦٨٠]. «فجبَّ مذاكيرِي» أي: قطع ذكري. «عليَّ بالرجل» أي: اتئوني بهذا الرجل الذي فعل هذا الفعل الشنيع.

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن خرج معه رسول الله ﷺ يوصيه ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته، فقال رسول الله ﷺ: «إن أولى الناس بي المتقون من كانوا وحيث كانوا» [رواه أحمد: ٢٢٠٥٢].

فقد جعل النبي ﷺ ولايته للمتقين، فكان لزاماً على كل مسلم موالاته من والاه رسول الله ﷺ.

وعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «تري المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم، كمثل الجسد، إذا اشتكى عضوًا تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى» [رواه البخاري: ٦٠١١، ومسلم: ٢٥٨٦].

«تراحمهم» أي: رحمة بعضهم بعضًا. «توادهم» أي: تحابهم. «تعاطفهم» أي: تعاونهم. «الجسد» أي: الجسم الواحد بالنسبة إلى جميع أعضائه. «اشتكى عضوًا» أي: توجّع لمرض أصابه. «تداعى» أي: شاركه فيما هو فيه. «السهر» أي: عدم النوم بسبب الألم. «الحمى» أي: حرارة البدن وألمه.

وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا» وشبك أصابعه ﷺ.

أي: إن مثل المؤمنين في ترابطهم، وتماسك كل فرد منهم بالآخر، وحاجتهم إلى هذا ليقوم ببيان الأمة الإسلامية - مثل البنيان المرصوص الذي لا يقوى على البقاء إلا إذا تماسكت أجزاؤه لبنة لبنة، فإذا تفككت سقط وانهار، كذلك المجتمع الإسلامي يستمد قوته من ترابط أجزائه بعضهم ببعض. وشبك ﷺ بين أصابعه زيادة في الإيضاح والبيان وتشبيهاً للمعقول بالمحسوس [ينظر: «منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري» (٢/٤٢)].

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يُسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة، فرّج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة» [رواه البخاري: ٢٤٤٢، ومسلم: ٢٥٨٠].

«يُسلمه» أي: يتركه إلى الظلم. «كان في حاجة أخيه» أي: سعى في قضائها. «كان الله في حاجته» أي: أعانه الله تعالى وسهل له قضاء حاجته. «كربة» أي: مصيبة من مصائب الدنيا.

الثمرات المترتبة على موالاة المؤمنين:

- موالاة الله تعالى وموالاة عباده المؤمنين سبب للغلبة والنصر على الأعداء.
- موالاة المؤمنين طاعة لله تعالى.
- أنها اقتداء برسول الله ﷺ لما سبق من أنه ولي كل مؤمن لا سيما الصالحين منهم.
- أنها سبب لدخول الجنة يوم القيامة؛ فإن الله يجعل كل امرئ يوم القيامة مع مَنْ تولاّه في الدنيا.
- أنها من أسباب رفع الدرجات يوم القيامة.
- أنها من أسباب الثبات على الدين، فمن ترك موالاة المؤمنين انتقل إلى موالاة الكافرين ولا بد، وهذا طريق إلى الردة والعياذ بالله تعالى.
- أنها سبب لمحبة الله تعالى للعبد؛ فإن الله تعالى يحب المؤمنين، فمن أحب ما أحبه الله كان ذلك سبباً لمحبة الله تعالى له.
- أنها من أهم أسباب قوة الأمة الإسلامية وتماسكها، فإن ذلك يتوقف على وحدتها وتضامنها وتعاونها، فهي كالبناء لا يقوى على البقاء إلا بتماسك الأجزاء فإذا تفككت انهار البناء.

الأسباب والوسائل المعينة على موالاة المؤمنين:

- التربية الإيمانية السليمة، فمن تربى على الإيمان والعقيدة الصحيحة وعقيدة الولاء والبراء، فلا بد وأن يحب أولياء الله ويواليهم.
- أن يستحضر المسلم أن في هذه الموالاة طاعة لله ولرسوله ﷺ.
- النظر في ثمرات موالاة المؤمنين، فهذا من أعظم ما يدفع النفس إلى التجرد لله تعالى حتى في محبتها وبغضها.
- أن يعلم العبد أن موالاة المؤمنين من أعظم الدلائل على خلو القلب من

النفاق، فلا تجد امرئ ترك موالاة المؤمنين إلا والى الكفار، ومعلوم أن موالاة هؤلاء دليل على النفاق.

- أن يلتزم المسلم بسمت النبي ﷺ، وأن يتشبه به في كل شيء، فقد كان ﷺ لا يوالي إلا مؤمناً، وأن يبتعد المسلم عن التشبه بالكفار؛ لأنه من أعظم الدواعي إلى محبتهم، هذه المحبة التي هي من أعظم الدواعي على موالاة هؤلاء الكفار وترك موالاة المسلمين.

- الإخلاص في المحبة بين أهل الإيمان، فلا يحب بعضهم البعض إلا من أجل الله والإيمان وكلمة التوحيد، لا من أجل منفعة ومصلحة دنيوية.





١٥. الإخلاص



إن الإخلاص من أعظم أمور الدين؛ إذ عليه مدار قبول الأعمال وردّها، فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له وحده، فيجب على المسلم أن يكون مخلصاً لله ﷻ في عبادته، لا يريد بها رياءً ولا سمعة، ولا ثناء الناس ولا مدحهم وحمدهم، إنما يعمل الصالحات يريد بها وجه الله تعالى.

وحقيقة الإخلاص: أن يريد العبد بعمله التقرب إلى الله تعالى وحده، والوصول إلى جنّته، والبعد عن عذابه، فلا يفعل المسلم فعلاً ولا يقول قولاً إلا ابتغاء وجه الله تعالى وطمعاً فيما عنده وحده، والإخلاص ينافي الشرك والرياء.

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن الإخلاص من أهم شعب الإيمان:

قال تعالى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

قال ابن القيم رحمه الله: «إسلام الوجه: إخلاص القصد والعمل لله. والإحسان فيه: متابعة رسوله ﷺ وسنته» [مدارج السالكين] (٢ / ٨٩).

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَحِيدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

قال ابن كثير رحمه الله: «﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أي: ثوابه وجزاءه الصالح ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ ما كان موافقاً لشرع الله ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنان العمل المتقبل، لا بد أن يكون خالصاً لله، صواباً على شريعة رسول الله ﷺ» [تفسير ابن كثير] (٥ / ٢٠٥).

وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [النمر: ٢].

وقال ﷺ: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥].
وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ صَرِيحًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦].
وقال سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

عن فضيل بن عياض رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قال: أخلصه وأصوبه. قيل: ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا، ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا، ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، فالخالص إذا كان لله، والصواب إذا كان على السنة [تفسير الثعلبي] (٢٧ / ٩١).
وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر، ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا شيء له». فأعادها ثلاث مرات، يقول له رسول الله ﷺ: «لا شيء له». ثم قال ﷺ: «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا، وابتنى به وجهه» [رواه النسائي: ٣١٤٠].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى أووا المبيت إلى غار، فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل، فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، فقال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغقب قبلهما أهلاً ولا مالاً، فنأى بي في طلب شيء يوماً، فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما، فوجدتهما نائمين وكرهت أن أغقب قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثت والقدرح على يدي، أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، فاستيقظا، فشربا غبوقهما، اللهم إن كنتُ

فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك، ففرّج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج. وقال الآخر: اللهم كانت لي بنت عم، كانت أحب الناس إليّ، فأردتها عن نفسها، فامتنعت مني حتى أَلَمْتُ بها سنة من السنين، فجاءتني، فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها، ففعلتُ حتى إذا قدرتُ عليها، قالت: لا أحل لك أن تفَضَّ الخاتم إلا بحقه، فتخرجت من الوقوع عليها، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلي، وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها. وقال الثالث: اللهم إني استأجرت أجراً، فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، فثمّرت أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله أدِّ إليّ أجري، فقلت له: كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق، فقال: يا عبد الله لا تستهزئ بي، فقلتُ: إني لا أستهزئ بك، فأخذه كله، فاستاقه، فلم يترك منه شيئاً، اللهم فإن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة، فخرجوا يمشون» [رواه البخاري: ٢٢٧٢، ومسلم: ٢٧٤٣].

ومعنى: «وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً»: أي ما كنت أقدم عليهما أحداً في شرب نصيبهما عشاء من اللبن. «فنأى بي» أي بُعد. «أرح» أي أرجع. «أَلَمْتُ بها سنة من السنين» أي نزلت بها سنة من سني القحط فأحوجتها. «والرقيق» أي العبيد. فكل واحد من هؤلاء الثلاثة توسل إلى الله ﷻ بإخلاصه في عمله لله، فقال: «اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك»، فحصل لهم الفرج من الله.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأُتي به فعرفه نعمه فعرّفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأُتي به فعرفه نعمه فعرّفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمتُ العلم وعلمته وقرأتُ فيك القرآن،

قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل وسَّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتِيَ به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيل تحب أن يُنفَقَ فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار [رواه مسلم: ١٩٠٥]. «جواد»: أي: كريم.

وقال سعيد بن جبير رحمته الله: «الإخلاص أن يخلص العبد دينه وعمله، فلا يشرك به في دينه، ولا يرائي بعمله». [«معالم التنزيل» للبغوي (١/ ٥٣)].
وقال الفضيل بن عياض رحمته الله: «ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك؛ والإخلاص أن يعافيك الله منهما» [«تفسير الثعلبي» (٤/ ١٧١)].

ثمرات الإخلاص:

من خلال النصوص السابقة من الكتاب والسنة يمكننا استخلاص ثمرات الإخلاص، وهي:

- الإخلاص هو السبب الرئيس لقبول الأعمال من العبد، وبدونه يُرد العمل على صاحبه.

- الإخلاص سبب لدخول الجنة، والنجاة من النيران.
- أنه من أسباب قبول التوبة، بل جعله الله تعالى شرطاً فيها.
- أنه من أسباب صلاح القلب.
- أنه من أكبر أسباب استجابة الدعاء وتفريج الكربات.
- أنه يرفع منزلة الإنسان في الدنيا والآخرة.
- أنه يُبعد عن الإنسان الوسوس والأوهام، كما قال أبو سليمان الداراني: «إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوسوس» [«مدارج السالكين» (٢/ ٣٥٠)].
- أنه يحرّر العبد من عبودية غير الله تعالى.

- أنه يقوّي عزيمة الإنسان وإرادته في مواجهه الشدائد.
- أنه من أسباب طمأنينة القلب والشعور بالسعادة.
- أنه من أسباب حسن الخاتمة.

الأسباب والوسائل المعينة على تحقيق الإخلاص:

- أن يعلم العبد أن قبول عمله يتوقف على إخلاصه فيه، وأنه بدون الإخلاص يكون قد أتعّب نفسه بدون طائل، أو أنفق ماله بلا عائد، بل قد يضحي بحياته ولا ينال في مقابل ذلك إلا النار، إذا كان منه ذلك بلا إخلاص.

- أن يعلم العبد أن الناس لا يملكون له شيئاً، فلا ينظر لأحد غير الله، ولا يرجوا ثواباً إلا منه.

- أن يعلم أن عدم إخلاصه يظهر للخلق عاجلاً أو آجلاً؛ فإن الله تعالى يجازي كل امرئ من جنس عمله، فمن أخلص لله وضع الله له القبول بين خلقه، وألقى بينهم محبته، ومن رآئى الناس بعمله وسمّع به، سمّع الله به وفضحه بين عباده في الدنيا والآخرة، فعن جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سمّع سمّع الله به، ومن يرأى يرأى الله به» [رواه البخاري: ٦٤٩٩، ومسلم: ٢٩٨٦].

والمعنى: أن من عمل عملاً لغير الله ﷻ يرأى به الناس ليكرموه ويُعظّموه، جازاه الله تعالى على ذلك بأن يفضحه ويظهر ما يبطنه ويستره، حتى يرى الناس ويسمعوا ما يحل به من الفضيحة. [ينظر: «المعلم بفوائد مسلم» (٣/ ٣٨٤)، و«كشف المشكل من حديث الصحيحين» (٢/ ٤٧)].

- أن يستحضر المسلم سيرة السلف الصالح وما كانوا عليه من إخلاص العمل لله، وعدم نظرهم إلى الخلق.

- أن يستحضر العبد مراقبة الله تعالى، وأنه سبحانه العليم السميع البصير الرقيب، يعلم النيات والسر وأخفى.



١٦. الخوف

الخوف من الله ﷻ من أهم شعب الإيمان، ومن أوجب واجبات الدين، وينبغي للمؤمن أن يسير إلى ربه سبحانه وتعالى كالطائر له جناحان أحدهما الخوف من الله، والثاني الرجاء فيما عنده من رحمة وسعة مغفرة، ويغلب خوفه في حال قوته وشبابه على رجائه؛ لئلا تجترئ نفسه على المعصية، فإن من خاف ربه استقام على أمره. والقدر الواجب من الخوف ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم، فإن زاد على ذلك بحيث صار باعثاً للنفوس على التشمير في نوافل الطاعات، والانكفاف عن دقائق المكروهات كان ذلك فضلاً محموداً، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى.

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن الخوف من الله تعالى من أهم شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

قال السعدي رحمه الله: «أي: إن ترهيب من رهّب من المشركين، وقال: إنهم جمعوا لكم، داع من دعاة الشيطان، يخوف أولياءه الذين عُدِمَ إيمانهم أو ضعف ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: فلا تخافوا المشركين أولياء الشيطان، فإن نواصيهم بيد الله، لا يتصرفون إلا بقدره، بل خافوا الله الذي ينصر أولياءه الخائفين منه المستجيبين لدعوته. وفي هذه الآية وجوب الخوف من الله وحده، وأنه من لوازم الإيمان، فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله، والخوف المحمود: ما حجز العبد عن محارم الله» [تفسير السعدي (ص: ١٥٧)].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَخْشَوْا اللَّهَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال سبحانه عن ابن آدم الأول: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨].

وقال ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٥].
وقال تبارك اسمه: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٣، ١٤].

﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدٍ﴾ أي: هذا لمن خاف مكان وقوفه بين يدي يوم القيامة، وخشي من وعيدي، وهو تخويفي وعذابي. [ينظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٨٤)].
وقال جل وعلا: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٩، ٥٠].

وقال ﷺ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْـَٔرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رِعْبًا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خُشْعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

﴿وَيَدْعُونَنَا رِعْبًا وَرَهْبًا﴾ أي: يدعوننا راغبين في آلائنا ونعمنا وجنتنا، وراهبين خائفين من عذابنا ونقمنا. [ينظر: «التفسير الوسيط» (٩/ ٢٤٦)].

وقال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧].

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

قال ابن كثير: «يمدح تعالى ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ أي: إلى خلقه ويؤدونها بأمانتها ﴿وَيَخْشَوْنَهُ﴾ أي: يخافونه ولا يخافون أحدا سواه، فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي: وكفى بالله ناصرًا ومعينًا» [تفسير ابن كثير] (٦/ ٤٢٧).

وقال ﷺ: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدٍ﴾ [ق: ٤٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقال تبارك اسمه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

قال ابن كثير رحمته الله: «يقول تعالى: ولمن خاف مقامه بين يدي الله ﷻ يوم القيامة، ونهى النفس عن الهوى ولم يطغ، ولا أثر الدنيا، وعلم أن الآخرة خير وأبقى، فأدى فرائض الله، واجتنب محارمه، فله يوم القيامة عند ربه جنتان» [تفسير ابن كثير (٧/ ٥٠١)]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، ذكر منهم ﷺ: «ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله... ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» [رواه البخاري: ٦٦٠، ومسلم: ١٠٣١]. «دعته امرأة» أي: ليزني بها.

قوله: «خالياً» أي: في موضع ليس فيه أحد من الناس. «ففاضت عيناه» أي: انهمرت بالدموع إجلالاً لله وخوفاً منه.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه ذكر رجلاً فيمن كان قبلكم آتاه الله مالاً وولداً قال: فلما حُضر قال لبنيه: أيُّ أب كنت لكم؟ قالوا: خير أب، قال: فإنه لم يبتئ عند الله خيراً، وإن يقدم على الله يعذبه، فانظروا فإذا مت فأحرقوني، حتى إذا صرت فحماً فاسحقوني، ثم إذا كان ريح عاصف فأذروني فيها، فأخذ مواثيقهم على ذلك، ففعلوا، فقال الله: كن، فإذا رجل قائم، ثم قال: أي عبيد ما حملك على ما فعلت؟ قال: مخافتك. فما تلافاه أن رحمه الله [رواه البخاري: ٦٤٨١، ومسلم: ٢٧٥٧].

قوله: «حُضر» أي: حضره الموت. «لم يبتئ» أي: لم يدخر. «فاسحقوني» أي: دقوني إذا أحرقتهموني. «فأذروني» أي: ألقوني. «تلافاه»: أي: تداركه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله» [رواه الترمذي: ١٦٣٩].

وعن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ يصلي وفي صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء ﷺ [رواه أبو داود: ٩٠٤]. «أزيز» أي: صوت. «كأزيز الرحى» أي: كصوت الطاحون.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم، إذا رأى مَخِيلَةً في السماء، أقبل وأدبر، ودخل وخرج، وتغيّر وجهه، فإذا أمطرت السماء سُري عنه، فعرفته عائشة ذلك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما أدري لعله كما قال قوم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقِيلًا أَوْدِيَتْهُمْ قَالَُوا هَذَا عَارِضٌ مُمְطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤]» [رواه البخاري: ٣٢٠٦، ومسلم: ٨٩٩].

قوله: «مخيلة» أي: سحابة. «سري عنه» أي: كُشف عنه ما خالطه من الخوف. «قوم» هم عاد قوم هود عليه السلام. ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي: العذاب ﴿عَارِضًا مُسْتَقِيلًا أَوْدِيَتْهُمْ﴾ أي: معترضًا كالسحاب قد أقبل على أوديتهم التي تسيل فتسقي نوابتهم ويشربون من آبارها. ﴿قَالَُوا﴾ مستبشرين: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُمְطِرُنَا﴾ أي: هذا السحاب سيمطرنا. قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ أي: هذا الذي جنيتم به على أنفسكم - حيث طلبتم من هود أن يأتيكم بالعذاب إن كان من الصادقين - ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له». [رواه البخاري: ٥٠٦٣، ومسلم: ١٤٠١].

وقال يزيد بن حوشب: «ما رأيت أخوف من الحسن البصري وعمر بن عبد العزيز، كأن النار لم تُخلق إلا لهما».

وروى ضمرة، عن حفص بن عمر، قال: بكى الحسن، فقل ما يبكيك؟ قال: «أخاف أن يطرحني غداً في النار ولا يبالي» [التخويف من النار لابن رجب (ص: ٣١)]. وقال أبو حفص النيسابوري رحمته الله: «الخوف سوط الله، يُقَوِّم به الشاردين عن بابه. وقال: الخوف سراج في القلب، به يُبصر ما فيه من الخير والشر، وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله تعالى، فإنك إذ خفته هربت إليه» [مدارج السالكين (١/ ٥٠٩)].

الثمرات المترتبة على الخوف من الله تعالى:

- أنه من أفضل أنواع الطاعات والقربات التي يتقرب بها العبد من ربه، فقد أمر

- سبحانه وتعالى بالخوف منه في مواضع عدة من كتابه كما سبق.
- أنه أكبر رادع للعبد عن اقتراف المحرمات والاجترأ على معصية الله، فيحسب الخوف في قلب العبد يكون بعده عن المعاصي، فكلما زاد الخوف كان العبد أبعد عن معصية الله، وكلما قل الخوف اقترب العبد من سبل الضلال وتجراً على معصية خالقه.
 - أنه من أعظم أسباب الإقبال على الطاعة وابتغاء الوسيلة إلى الله تعالى.
 - أنه سبب للنصر على الأعداء ولتأييد الله، وسبب للاستخلاف في الأرض.
 - أنه سبب للزهد في متاع الدنيا، وتقديم الآخرة عليها.
 - أنه من أسباب استجابة الدعاء.
 - أنه سبب لدخول جنة الخلد، والوقاية من عذاب الله يوم القيامة.
 - أنه سبب لمغفرة الذنوب، وإن كثرت.
 - أنه سبب لأن يجعل الله صاحبه في ظل عرشه يوم القيامة، يوم لا ظل إلا ظله.
 - أن العين التي تبكي من خشية الله لا تمسها النار.
 - الأمن والأمان في المجتمع، فإن من يخاف الله تعالى يأمنه الناس على دماءهم وأموالهم.

الوسائل المعينة على خوف الله:

- إن من أعظم ما يُربي الخوف في نفس المسلم من ربه هو العلم بالله تعالى؛ بأسمائه وصفاته ودينه وشرعه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وكما في حديث عائشة أنه رسول الله ﷺ قال: «يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» [رواه البخاري: ١٠٤٤، ومسلم: ٩٠١]. فعلى قدر علم العبد بربه يكون خوفه منه.
- تدبر كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ومطالعتهم؛ فإن كثيراً من نصوصهما تدل على أن الخوف من الله تعالى من أهم شعب الإيمان.

- أن يتأمل العبد ما جاء في الكتاب والسنة من وصف النار والترهيب منها.
- أن يعلم العبد أن الخوف من الله سبيل الأنبياء والمحسنين والأتقياء.
- أن يتأسى المسلم بنبيه ﷺ وينظر في كيفية خوفه من ربه، فقد كان ﷺ أشدَّ الناس خشية من الله تعالى.
- أن ينظر في سيرة السلف الصالح ويرى ما كانوا عليه من خشية الله تعالى.
- أن يتأمل العبد العاقبة السيئة لمن ترك الخوف من الله تعالى في الدنيا والآخرة.



١٧. الرجاء

الرجاء في الله ﷻ وفيما عنده من أهم شعب الإيمان، ومن أوجب واجبات الدين، وينبغي للمؤمن أن يسير إلى ربه سبحانه وتعالى كالطائر له جناحان أحدهما الخوف من الله، والثاني الرجاء فيما عنده من رحمة وسعة مغفرة، ويغلب خوفه في حال قوته وشبابه على رجائه؛ لثلاث تجترئ نفسه على المعصية، فإن من خاف ربه استقام على أمره، ويغلب رجاءه على خوفه في حال ضعفه وذنوّ أجله.

والرجاء يحصل من العبد عند مقارفة الذنب والإقبال على التوبة فيرجو الله أن يقبلها منه، ويحصل من العبد عند عمل الصالحات التي يرجو من ربه قبولها، فليس الرجاء أن ينهمك العبد في معصية الله ثم يدّعي أنه يرجو من ربه الخير، فهذا اغترار، وصاحبه من الخاسرين، فمن لم يخش الله فهو من المغرورين، وليس من الراجين.

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن الرجاء من أهم شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

قال السعدي رحمه الله: «من قام بهذه الأعمال الثلاثة على مشقتها كان لغيرها أشد قياماً به وتكميلاً، فحقيق بهؤلاء أن يكونوا هم الراجون رحمة الله؛ لأنهم أتوا بالسبب الموجب للرحمة. وفي هذا دليل على أن الرجاء لا يكون إلا بعد القيام بأسباب السعادة، وأما الرجاء المقارن للكسل وعدم القيام بالأسباب، فهذا عجز وتَمَنٍّ وغرور، وهو دال على ضعف همة صاحبه، ونقص عقله، بمنزلة من يرجو وجود ولد بلا نكاح، ووجود الغلة بلا بذر وسقي، ونحو ذلك.

وفي قوله: ﴿أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ إشارة إلى أن العبد ولو أتى من الأعمال بما أتى به لا ينبغي له أن يعتمد عليها، ويعوّل عليها، بل يرجو رحمة ربه، ويرجو قبول

أعماله ومغفرة ذنوبه، وستر عيوبه» [تفسير السعدي] (ص: ٩٨).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۝٥٧﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧].

قال ابن كثير رحمته: «وقوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾: لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكف عن المناهي، وبالرجاء ينبعث على الطاعات» [تفسير ابن كثير] (٥ / ٨٩).

وقال رحمته: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١﴾ [الأحزاب: ٢١].

قال السعدي رحمته في تفسير هذه الآية: «وهذه الأسوة الحسنة، إنما يسلكها ويوفق لها، من كان يرجو الله واليوم الآخر، فإن ما معه من الإيمان، وخوف الله، ورجاء ثوابه، وخوف عقابه، يحثه على التأسي بالرسول صلى الله عليه وسلم» [تفسير السعدي] (ص: ٦٦١).

وقال تبارك اسمه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩﴾ [فاطر: ٢٩].

﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ أي: يرجون ثواباً عند الله لا بد من حصوله. [ينظر: «تفسير ابن كثير» (٦ / ٥٤٥)].

وقال سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَلِيْتُ ۚ إِنَّا إِلَٰهٌ مُّسْتَجِيرٌ ۚ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لَنَا بِتَدَارُكٍ ۚ وَلَوْ آلَا إِلَٰهَ الْإِلَٰهِ ۚ لَآ يَسْتَوُونَ ۚ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَٰئِكَ الْأَلْبَابُ ۝٩﴾ [الزمر: ٩].

وقال رحمته: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝٦﴾ [الممتحنة: ٦].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم

إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة» [رواه الترمذي: ٣٥٤٠]. «على ما كان فيك» أي: على ما كان فيك من الذنوب. «عنان السماء» أي: سحاب السماء. «قراب الأرض» أي: ما يقارب ملاءها. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على شاب وهو في الموت، فقال: «كيف تجددك؟»، قال: والله يا رسول الله، إني أرجو الله، وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف» [رواه الترمذي: ٩٨٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حيث يذكرني» [رواه البخاري: ٧٤٠٥، ومسلم: ٢٦٧٥]. يعني: أنا أعامله على حسب ظنه بي، وأفعل به ما يتوقعه مني من خير أو شر، ولكن متى يحسن الظن بالله عز وجل؟

يحسن الظن بالله إذا فعل ما يوجب فضل الله ورجاءه، فيعمل الصالحات ويحسن الظن بأن الله تعالى يقبله، أما أن يحسن الظن وهو لا يعمل؛ فهذا من باب التمني على الله، ومن أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني فهو عاجز.

حُسن الظن بأن يوجد من الإنسان عمل يقتضي حسن الظن بالله عز وجل، فمثلاً إذا صليت أحسن الظن بالله بأن الله يقبلها منك، إذا صمت فكذلك، إذا تصدقت فكذلك، إذا عملت عملاً صالحاً أحسن الظن بأن الله تعالى يقبل منك، أما أن تحسن الظن بالله مع مبارزتك له بالعصيان فهذا دأب العاجزين الذين ليس عندهم رأس مال يرجعون إليه [ينظر: «مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (٧ / ٣٨٢)، «شرح رياض الصالحين» (٣ / ٣٣٥)].

وعن حيان أبي النضر قال: دخلت مع وائلة بن الأسقع رضي الله عنه على أبي الأسود الجُرشي في مرضه الذي مات فيه، فسلم عليه وجلس قال: فأخذ أبو الأسود يمين وائلة فمسح بها على عينيه ووجهه لبيعته بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له وائلة: واحدة أسألك عنها؟ قال: وما هي؟ قال: كيف ظنك بربك؟ فقال أبو الأسود: وأشار برأسه، أي:

حسن. قال واثلة: أبشر إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله ﷻ: أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء» [رواه أحمد: ١٦٠١٦].

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ قبل وفاته بثلاث يقول: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن» [رواه مسلم: ٢٨٧٧].

قال النووي رحمه الله: «قال العلماء: معنى حسن الظن بالله تعالى أن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه، قالوا: وفي حالة الصحة يكون خائفاً راجياً ويكونان سواء، وقيل: يكون الخوف أرجح، فإذا دنت أمارات الموت غلب الرجاء؛ لأن مقصود الخوف الانكفاف عن المعاصي والقباتح والحرص على الإكثار من الطاعات والأعمال، وقد تعذر ذلك أو معظمه في هذا الحال، فاستحب إحسان الظن المتضمن للافتقار إلى الله تعالى والإذعان له» [شرح صحيح مسلم (١٧ / ٢١٠)].

وقد كان السلف رحمهم الله يجتهدون في العبادة ويحسنون الظن بالله ويرجون رحمته ومغفرته؛ قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «والذي لا إله غيره ما أعطي عبد مؤمن شيئاً قط بعد الإيمان بالله ﷻ أفضل من أن يحسن ظنه بالله، والله الذي لا إله غيره لا يحسن عبد بالله ظنه إلا أعطاه الله إياه، وذلك أن الخير بيده» [شعب الإيمان (٢ / ٣٢٣)].

وعن ابن عون قال: ما رأيت أحداً كان أعظم رجاء للموحدين من محمد بن سيرين رحمه الله؛ كان يتلو هؤلاء الآيات: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥]، ويتلو: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ ﴿وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ﴾ ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ ﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدرثر: ٤٢ - ٤٧]، ويتلو: ﴿لَا يَصْلَحُهَا إِلَّا الْآشَقَى﴾ ﴿الَّذِي كَذَبَ وَتَوَلَّى﴾ [الليل: ١٥ - ١٦] [حسن الظن بالله لابن أبي الدنيا (ص: ٧٧)].

وعن عبد الله بن المبارك رحمه الله قال: جئت إلى سفيان الثوري عشية عرفة وهو جاث على ركبتيه وعيناه تسيل بالدموع فبكيت، فالتفت إلي فقال: ما شأنك؟ فقلت: من أسوأ هذا الجمع حالاً؟ قال: الذي يظن أن الله ﷻ لا يغفر لهم [حسن الظن بالله (ص: ٩٢)].

الثمرات المترتبة على الرجاء:

- أنه سبب في رحمة الله تعالى للعبد.
- أنه من أعظم أسباب مغفرة الذنوب.
- أنه سبب من أسباب العطاء الجزيل من المولى الجليل.
- أنه من أسباب دفع العذاب عما استحقه في الآخرة.
- أنه من أعظم ما يستعين به العبد على الإكثار من الطاعات والأعمال الصالحة، فإن من كان يرجو ثواب الله تعالى أقبلت نفسه على العمل، بخلاف من ضعف رجاءه فيما عند ربه.
- الرجاء يدفع عن العبد سوء الظن بالله، ويدفع عنه القنوط من رحمة الله الذي هو من أسباب الهلاك، فإن من انقطع رجاءه في الله وقع في القنوط ولا بد.
- الرجاء حاد يحدو الراجي في مسيرته إلى ربه، ويحثه عليها، فلولا الرجاء ما سار أحد، فإنّ الخوف وحده لا يحرك العبد، وإنما يحركه الحب، ويزعجه الخوف، ويحدوه الرجاء.

الأسباب والوسائل المعينة على تحلي العبد بالرجاء:

- تدبّر كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ومطالعتهما؛ فإن كثيراً من نصوصهما تدل على أن الرجاء فيما عند الله تعالى من أهم شعب الإيمان.
- أن يتأمل العبد ما جاء في الكتاب والسنة من وصف الجنة والترغيب فيها، وما جاء في الكتاب والسنة من بيان سعة رحمة الله تعالى وعفوه ومغفرته.
- العلم الشرعي، فمن عرف الله حق معرفته، ازداد رجاءه فيه وطمعه فيما عنده من الفضل والمغفرة، وخصوصاً العلم بأسمائه الحسنی وصفاته العليا، لاسيما الدالة على صفات الرحمة والعفو والمغفرة والكرم ونحوها.
- العمل الصالح، فإنه على قدر طاعة العبد لله يكون رجاءه فيه، فمثل هذا كمثل

رجل بذر أرضًا وتعهدا بالرعي والسقي، فهو يرجو منها أن تثمر، أما من لم يبذر ولم يرع فكيف يرجو الثمرة؟!!!

- وأيضا فمما يزيد من رجاء العبد في ربه أن يعلم أنه ليس له من الله مفر، فإن لم يرحمه هو ويتقبله فإنه هالك لا محالة، فمتى تحققت نفس العبد بذلك وعلم أنه ليس له إلا الله، فإنه يعظم رجاءه في ربه؛ كالطفل الذي لا يجد من يطعمه ويرحمه غير والديه، فإن رجاءه فيهما أعظم ما يكون.

- أن ينظر المسلم في سيرة السلف الصالح ويرى ما كانوا عليه من حسن الظن بالله والرجاء في مغفرته وفضله.

- تأمل أحوال من كانوا على الرجاء، وما أصابهم به من الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة.



١٨. التوكل

التوكل مقام عظيم من مقامات العبودية لله تعالى، وهو من أعظم أنواع العبادة، ولا يتم إيمان العبد إلا به، وهو دليل صحة إيمان العبد وصلاح قلبه، ويتضمن اعتراف العبد بربوبية الله تعالى، وتسليمه كل أموره للخالق الواحد، المتصرف بجميع أموره، والمدير الوحيد لأحواله، صغيرها وكبيرها.

والتوكل هو: صدق اعتماد القلب على الله ﷻ، في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة، وكَلَة الأمور كلها إليه، والثقة به، والإيقان بأن قضاءه ماضٍ، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه، هذا مع الأخذ بالأسباب قدر الإمكان.

والتوكل يتكون من ثمانية أمور لا يتم إلا بها مجتمعة:

الأول: المعرفة بالرب سبحانه وصفاته من: قدرته، وكفايته، وقيوميته، وانتهاء الأمور إلى علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته.

الثاني: تحقيق التوحيد، فما دامت في القلب شوائب الشرك، فالتوكل ناقص غير صحيح، وعلى قدر تجريد التوحيد لله تعالى تكون صحة التوكل.

الثالث: الأخذ بالأسباب قدر الإمكان.

الأمر الرابع: اعتماد القلب على الله، واستناده إليه، وسكونه إليه.

الأمر الخامس: حسن الظن بالله ﷻ.

الأمر السادس: استسلام القلب لله تعالى، وترك منازعته والاعتراض على حكمه.

الأمر السابع: التفويض، وهو إلقاء الأمور كلها إلى الله، وإنزالها به طلباً واختياراً،

لا كرهاً واضطراً.

الأمر الثامن: الرضا بما يقدره الله ويقضيه.

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن التوكل من أهم شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].
 وقال تبارك اسمه: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [١٧٣] ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ دِفْطَرِ رَبِّهِمْ أَلَمْ يَجْعَلْ لَّهِ الْوَكِيلَ﴾ [آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤].
 ﴿جَمَعُوا لَكُمْ﴾: حشدوا الرجال من كل جهة لقتالكم. ﴿حَسْبُنَا﴾: كافينا.
 ﴿الْوَكِيلُ﴾: الحافظ الذي يوكل إليه الأمر ويعتمد عليه فيه.
 وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يُقَوْمُ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَقَلِيلٌ مِّنْ يَّوْمِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾ [٨٤] ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [٨٥] ﴿وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس: ٨٤ - ٨٦].
 وقال ﷺ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].
 وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].
 وقال جل وعلا: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].
 وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا» [رواه الترمذي: ٢٣٤٤].
 «تغدو»: تخرج من أول النهار. «خماصًا»: جمع خميص أي: جياعًا. «تروح»: ترجع آخر النهار. «بطانًا»: جمع بطين أي: ممتلئة الأجواف.
 وفي هذا الحديث التنبيه إلى أهمية الأخذ بالأسباب العادية، فالطير التي تكفل الله برزقها لم تبق في عشاها تنتظر أن يأتيها الرزق، بل خرجت في الصباح الباكر جائعة تبحث عن رزقها، ففسر الله لها مرادها، وجعلها تعود إلى أعشاشها وقد شبعت.
 وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال في بيان صفات السبعين ألفًا الذي يدخلون

الجنة بغير حساب: «هم الذين لا يتطيرون، ولا يكتون، ولا يسترقون، وعلى ربهم يتوكلون» [رواه البخاري: ٥٧٠٥، ومسلم: ٢٢٠].

«لا يتطيرون» أي: لا يتشاءمون بالطيور ونحوها كما هو عادتهم قبل الإسلام. «ولا يكتون» أي: لا يعتقدون أن الشفاء في الكي كما كان يعتقد أهل الجاهلية. «ولا يسترقون» أي: لا يطلبون من أحد أن يرقىهم.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكَ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] [رواه البخاري: ٤٥٦٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: «... اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاکمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم، وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت» [رواه البخاري: ١١٢٠، ومسلم: ٧٦٩].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إذا خرج الرجل من بيته فقال: بسم الله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، قال: يقال حينئذ: هُديت، وكُفيت، ووُقيت، فتتنحى له الشياطين، فيقول له شيطان آخر: كيف لك برجل قد هُدي وكُفي ووُقي؟» [رواه أبو داود: ٥٠٩٥].

وعن سعيد بن جبیر رضي الله عنه قال: «التوكل على الله ﷻ جماع الإيمان» [رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٢٦٢)].

وقال الفضيل بن عياض رضي الله عنه: «التوكل قوام العبادة» [رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٢٦٤)].

وقال أيضًا رضي الله عنه: «والله لو يئست من الخلق حتى لا تريد منهم شيئًا، لأعطاك مولاك كل ما تريد» [«جامع العلوم والحكم» (٢ / ٥٨٨)].

وقال بشر الحافي رضي الله عنه: «يقول أحدهم: توكلت على الله. يكذب على الله، لو توكل

على الله، رضي بما يفعل الله» [مدارج السالكين] (٢/ ١١٥).

ثمرات التوكل:

- يتبين من خلال نصوص القرآن والسنة السابقة أن للتوكل ثمرات عظيمة منها:
- التوكل سبب للفوز بمحبة الله تعالى.
- التوكل سبب في دخول الجنة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُؤْتِيَنَّهُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرَ الْعَمِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [العنكبوت: ٥٨، ٥٩].
- التوكل يورث النصر والتمكين، وقوة القلب وشجاعته، ويرد كيد الأعداء، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].
- التوكل على الله من أعظم الأسباب التي تطلب بها الحوائج، فإن الله يكفي من توكل عليه في جميع شؤونه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٣].
- التوكل على الله من أعظم أسباب جلب الرزق.
- التوكل على الله يقي العبد ويحميه من تسلط الشيطان وكيده، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [النحل: ٩٩].
- التوكل على الله يدفع السحر والعين والحسد، قال تعالى عن يعقوب عليه السلام: ﴿وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنْ أُلْحَقُوا إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [يوسف: ٦٧].
- ومن فوائد التوكل حصول الرزق. ففي الحديث السابق ذكره: «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ...».

الأسباب والوسائل المعينة على تحقيق التوكل على الله:

- تسليم العبد وتفويض أمره لله في جميع شؤونه، والثقة بأن الله هو القادر على كل

شيء، وأنه هو الذي ينفع ويضر.

- أن يعلم أن الله قد تكفل لمن توكل عليه بالكفاية التامة.

- الاقتداء بالسلف الصالح في الفهم الصحيح للتوكل الذي هو اعتماد القلب على الله مع الأخذ بالأسباب، والبعد عن المخالفين لهم من الصوفية الذين يُعرضون عن الأسباب بالكلية ويزعمون أنهم يعتمدون على الله، وكذا من الماديين العقلانيين الذين يعتمدون على الأسباب بالكلية ولا يعتمدون على الله البتة.

- استشعار عظم ثواب التوكل على الله، والعلم أن التوكل على الله شعار الأنبياء والصالحين ودأبهم.

- تفريغ القلب من الانشغال بقضية الرزق خاصة، والعلم بأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، مع الأخذ بالأسباب التي شرعها وأباحها الله.

- الدعاء وهو من أعظم الأسباب المعينة على التوكل، قال الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

- تذكر نعم الله على العبد، فكلما استشعر العبد ما فيه من نعم، يحمله ذلك على الثقة بالله والتوكل عليه.

- الإيمان بالقدر، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



١٩. التقوى

من رحمة الله تعالى بعباده أن أمرهم بما فيه الخير لهم في الدنيا والآخرة، ومن ذلك الأمر بالتقوى والحث عليها، فيها ينال العباد المكانة العالية في الدنيا والآخرة، ويحصل لهم الفوز والفلاح في الدارين، ويهديهم الله للعلم النافع والعمل الصالح، ولذا كانت التقوى من أوجب الواجبات، ومن أهم شعب الإيمان.

وحقيقة التقوى: هي جعل النفس في وقاية مما تخافه، وذلك بأن يخاف العبد الله تعالى وعذابه، بفعل الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات، وترك ما فيه شبهة، وترك الإسراف في المباحات خاصة إذا خشي منها أن تؤدي إلى الوقوع في المخالفة لأوامر الله تعالى.

الأدلة من الكتاب والسنة على أن التقوى من أهم شعب الإيمان:

الأدلة على ذلك كثيرة جداً نقتصر على القليل منها؛ فمنها:
قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١].

وقال ﷺ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وقال سبحانه: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾

[البقرة: ١٩٧].

قال السعدي رحمه الله: «أمر الله تعالى بالتزود لهذا السفر المبارك (الحج)، فإن التزود فيه الاستغناء عن المخلوقين، والكف عن أموالهم، سؤالاً واستشراقاً، وفي الإكثار منه نفع وإعانة للمسافرين، وزيادة قربة لرب العالمين، وهذا الزاد الذي المراد منه إقامة البنية بلغة ومتاع.

وأما الزاد الحقيقي المستمر نفعه لصاحبه، في دنياه، وأخراه، فهو زاد التقوى الذي هو زاد إلى دار القرار، وهو الموصل لأكمل لذة، وأجل نعيم دائم أبداً، ومن ترك هذا الزاد فهو المنقطع به الذي هو عرضة لكل شر، وممنوع من الوصول إلى دار المتقين. فهذا مدح للتقوى.

ثم أمر بها أولي الألباب فقال: ﴿وَاتَّقُونَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ أي: يا أهل العقول الرزينة، اتقوا ربكم الذي تقواه أعظم ما تأمر به العقول، وتركها دليل على الجهل، وفساد الرأي. [«تفسير السعدي» (ص: ٩٢)].

وقال عز من قائل: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣]. وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

وقال تبارك اسمه: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وقال سبحانه: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

وقال ﷺ: ﴿قُلْ مَتَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

وقال تبارك اسمه: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

أي: المتقين لله في عملهم، بأن يكون عملهم خالصاً لوجه الله، متبعين فيه لسنة رسول الله ﷺ. [«تفسير السعدي» (ص: ٢٢٩)].

وقال سبحانه: ﴿إِلَّا إِنْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَأَخَافُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الذِّبِ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

وقال ﷺ: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وقال تبارك اسمه: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ آدَحُلُوهَا وَسَلَامٍ ءَامِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر: ٤٥ - ٤٨].

وقال تبارك اسمه: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].
وقال سبحانه: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

﴿زُمَرًا﴾ أي: جماعة بعد جماعة؛ المقربون، ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كل طائفة مع من يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء، والصديقون مع أشكالهم، والشهداء مع أضرابهم، والعلماء مع أقرانهم، وكل صنف مع صنف، كل زمرة تناسب بعضها بعضًا. [تفسير ابن كثير] (٧/ ١١٩).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].
أي: إن أكرمكم أيها الناس عند ربكم، أشدكم اتقاءً له بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، لا أعظمكم بيتًا، ولا أكثركم عشيرة. [تفسير الطبري] (٢١/ ٣٨٦).
وقال تبارك اسمه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿١﴾ وَنَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وقال ﷻ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].
وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].
وقال سبحانه: ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصَابَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

قال السعدي رحمه الله: ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ﴾ كالنصر على الأعداء وحصول الفتح والغنائم ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ أي: تغم المنافقين وتحزنهم ﴿وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصَابَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿فَإِذَا أُتِيتُمْ بِالْأَسْبَابِ الَّتِي وَعَدَ اللَّهُ عَلَيْهَا النَّصْرَ - وهي الصبر والتقوى - لَمْ يَضُرْكُم مَكْرَهُمْ، بَلْ يَجْعَلُ اللَّهُ

مكرهم في نحورهم؛ لأنه محيط بهم علمه وقدرته فلا منفذ لهم عن ذلك، ولا يخفى عليهم منهم شيء» [انظر: «تفسير السعدي» (ص: ١٤٥)].

وقال **عَنْكَ**: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].
وقال سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

وعن عدي بن حاتم **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** أن النبي **ﷺ** ذكر النار فأشاح بوجهه فتعوذ منها، ثم ذكر النار فأشاح بوجهه فتعوذ منها، ثم قال: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة» [رواه البخاري: ٦٥٦٣، ومسلم: ١٠١٦] «أشاح» أي: أعرض ونحى. «اتقوا النار» أي: اجعلوا بينكم وبين النار وقاية. «ولو بشق تمرة» أي: ولو أن تصدقوا بنصف تمرة، فإنه وقاية لكم من النار.

وعن أبي أمامة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: سمعت رسول الله **ﷺ** يخطب في حجة الوداع فقال: «اتقوا الله ربكم، وصلُّوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدُّوا زكاة أموالكم، وأطيعوا إذا أمركم، تدخلوا جنة ربكم» [رواه الترمذي: ٦١٦].

وعن العيرباض بن سارية **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: وعظنا رسول الله **ﷺ** يوماً بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرَّفت منها العيون ووجلَّت منها القلوب، فقال رجل: إن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال: «أوصيكم بتقوى الله...» [رواه الترمذي: ٢٦٧٦]. «صلاة الغداة» أي: صلاة الفجر. «وجلَّت» أي: خافت. «وذرفت» أي: سالت. «فماذا تعهد إلينا» أي: فبأي شيء توصينا.

وعن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: سئل رسول الله **ﷺ** عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: «تقوى الله، وحسن الخلق» [رواه الترمذي: ٢٠٠٤].

وعن أبي ذر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: قال لي رسول الله **ﷺ**: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخُلُق حسن» [رواه الترمذي: ١٩٨٧].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «لأن استيقن أن الله تعالى تقبل مني صلاة واحدة أحب إلي من الدنيا وما فيها إن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]»
[أخرجه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٣ / ٥٦)].

وعن حمزة الجزري قال: كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى رجل: «أوصيك بتقوى الله، الذي لا يقبل غيرها، ولا يرحم إلا أهلها، ولا يثيب إلا عليها، فإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل» [«حلية الأولياء» (٥ / ٢٦٧)].

الشمرات المترتبة على التقوى كثيرة جداً، منها:

- أن الله تعالى يحب المتقين.
- أن المتقين هم أهل البر والخير والصلاح.
- الفوز بالنعيم في الآخرة والنجاة من العذاب.
- أن المتقين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.
- المتقون هم الفائزون برحمة الله تعالى.
- حصول البركة للمتقين.
- أن المتقين يسارعون بالتوبة والإنابة لو عصوا أو قصرُوا.
- المتقون داخلون تحت معية الله الخاصة، فهو يحفظهم ويحوطهم.
- النجاة من كيد الأعداء وحصول العون من الله والنصر عليهم.
- تكفير الذنوب وحصول المغفرة وتعظيم الأجر.
- اليسر والسهولة في الأمر والخروج من الغم والمحنة.
- أن الله تعالى يرزق المتقين من حيث لا يحتسبون.
- أن الله يرزقهم العلم والحكمة والتفريق بين الحق والباطل، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

الوسائل المعينة على التقوى:

- استحضار العبدِ علمَ الله تعالى بما يفعله وإطلاعه سبحانه عليه.
- اتخاذ صحبة صالحة تتعاون على البر والتقوى.
- الإيمان يحث على التقوى، فيعمل العبد على زيادة إيمانه.
- عبادة الله تورث التقوى.
- العمل بالوحي المنزَّل يؤدي إلى التقوى.
- الاستعانة بالله تعالى؛ لأن حمل النفس على تقوى الله في جميع الأحوال شاقٌّ عليها، ولا يمكن للعبد أن يأتي بها على وجهها إلا بإعانة الله له وتوفيقه إليها.
- النظر في سير سلف الأمة وتراجم أهل العلم والفضل، وما كانوا عليه من تقوى الله تعالى في كل أمورهم.
- معرفة ثواب المتقين وما أعدّه الله لهم في الآخرة من عظيم الأجر. ومعرفة ما أعدّه لغير المتقين من الوعيد بالنار.
- طلب العلم النافع من الكتاب والسنة، حتى يعلم المأمورات فيأتي بها، والمنهيات فيبتعد عنها، فيكون بذلك قد حقق التقوى.
- مجاهدة النفس، وهي من أهم وسائل التقوى، فإن ملازمتها شاقة على النفس، وإذا جدَّ المرء وجاهد نفسه وألزمها التقوى، وفقه الله لذلك.
- الدعاء بأن يجعله الله تعالى من المتقين، وأن يعينه على عبادته، ويباعده عن الذنوب والمعاصي.



٢٠. الصدق

الصدق خلق عظيم من أخلاق الإسلام، وشعبة من شعب الإيمان التي بها تتزكى النفوس وتهذب الأخلاق الظاهرة والباطنة مع الخلق ومع الخالق جل وعلا، وقد أمر الله تعالى بالصدق وأثنى على الصادقين، وذكر جزاء الصادقين في آيات كثيرة. والصدق هو: الخبر عن الشيء على ما هو به، وهو نقيض الكذب. ولقد كان من الأمور الظاهرة لبعثة النبي ﷺ أنه يأمر بالصدق وينهى عن الكذب، ففي قصة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في حديثه مع النجاشي أنه قال له: «وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء» [رواه أحمد: ١٧٤٠].

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن الصدق من أهم شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿قُلْ أُوْنِيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ ۖ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝١٥ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝١٦ الصَّٰدِقِينَ وَالصَّٰدِقِينَ وَالْقٰنِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ۝١٧﴾ [آل عمران: ١٥ - ١٧].

وقال جل وعلا: ﴿يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا اتَّقُوا اللّٰهَ وَكُونُوْا مَعَ الصّٰدِقِيْنَ ۝١١٩﴾ [التوبة: ١١٩].

أي: اصدقوا والزموا الصدق تكونوا مع أهله، وتنجوا من المهالك، ويجعل لكم فرجاً من أموركم ومخرجاً [تفسير ابن كثير] (٢٣٠ / ٤).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝٣٥﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق، فإن

الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يُكتب عند الله كذابًا» [رواه البخاري: ٦٠٩٤، ومسلم: ٢٦٠٧].

وعن أبي سفيان بن حرب رضي الله عنه أنه قال في حديثه الطويل في قصة هرقل لما سأله عن النبي ﷺ فقال: ماذا يأمركم؟ قال أبو سفيان: يقول: «اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آبائكم، ويأمرنا بالصلاة والزكاة والصدق والعفاف والصلة» [رواه البخاري: ٧، ومسلم: ١٧٧٣].

والنبي ﷺ هو إمام الصادقين، وقد كانت حياته ﷺ أفضل مثال للإنسان الذي اتخذ من الصدق في القول، والأمانة في المعاملة، منهجًا ثابتًا لا يحيد عنه، وقد كان ذلك فيه ﷺ بمثابة السحبة والطبع، فُعرف بذلك قبل البعثة، وكان لذلك يلقب بالصادق الأمين، واشتهر بهذا وعُرف به بين قومه، وقد اتخذ ﷺ من الصدق الذي اشتهر به بين أهله وعشيرته مدخلًا إلى الجهر بالدعوة، فقد روى ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي» لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال ﷺ: «أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تُغير عليكم أكنتم مُصدّقِي؟». قالوا: نعم، ما جرّبنا عليك إلا صدقًا. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» [رواه البخاري: ٤٧٧٠، ومسلم: ٢٠٨].

﴿عَشِيرَتَكَ﴾ قومك قريشًا ومن تفرع منها. «أرسل رسولاً» أي: أرسل رجلًا يستطلع له الخبر. «أرايتكم» أي: أخبروني. «خيلاً» أي: فرسان يركبون الخيل. «تُغير عليكم» أي: تهجم عليكم لتقتلكم. «بين يدي»: قدام وقبل.

وإذا ذكرنا الصدق ذكرنا معه ذلكم الحَدَث الذي عاشته المدينة خمسين ليلة كاملة، إنه خبر الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك وهم: كعب بن

مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية رضي الله عنهم وقد تخلفوا دون عذر، لكنهم صدقوا النبي ﷺ في حديثهم ولم يكذبوا عليه كما كذب المنافقون الذين اعتذروا بأعذار واهية كاذبة، وحينما جاء كعب بن مالك رضي الله عنه معتذراً للنبي ﷺ قال له: «إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيتُ جدلاً، ولكنني والله، لقد علمتُ لئن حدثتك اليوم حديث كذبٍ ترضى به عني، ليوشكن الله أن يُسخطك عليّ، ولئن حدثتك حديث صدق، تجد عليّ فيه، إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله، ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى، ولا أيسر مني حين تخلفت عنك». فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك».

وقد عاقبهم النبي ﷺ بالهجر وأمر المسلمين بهجرهم وأمرهم أن يهجروا أزواجهم، فمكثوا خمسين ليلة لم يقض الله فيهم، وهم يتقلبون على جمر من الحزن والكر، ولما علم الله منهم صدق توبتهم، وصدق اللجوء إليه، وصدق حديثهم مع النبي ﷺ، تاب الله عليهم وأنزل في حقهم قرآناً يتلى إلى يوم القيامة، لذلك لما تاب الله عليهم وأرسل النبي ﷺ إلى كعب بن مالك، قال كعب للنبي ﷺ: «يا رسول الله، إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، أحسن مما أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت، وأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ١١٧ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿[التوبة: ١١٧-١١٩]، فوالله ما أنعم الله عليّ من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام، أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ، أن لا أكون كذبتة، فأهلك كما

هلك الذين كذبوا...» [رواه البخاري: ٤٤١٨، ومسلم: ٢٧٦٩].

قوله: «سخطه» أي: غضبه. «جدلاً» أي: فصاحة وقوة حجة وكلام. «تجد» أي: تغضب. «أبلاه» أي: اختبره.

وعن أبي الحوراء السعدي قال: قلتُ للحسن بن علي رضي الله عنه: ما حفظت من رسول الله ﷺ؟ قال: حفظتُ من رسول الله ﷺ: «دع ما يريك إلى ما لا يريك، فإن الصدق طمأنينة، وإن الكذب ريبة» [رواه الترمذي: ٢٥١٨].

قوله: «دع ما يريك» أي: اترك ما تشك في كونه حسناً أو قبيحاً أو حلالاً أو حراماً. «إلى ما لا يريك» أي: وتمسك بما لا شك فيه يعني: ما تيقنتُ حسنه وحلّه. «فإن الصدق طمأنينة» أي: يطمئن إليه القلب ويسكن. «وإن الكذب ريبة» أي: يقلق به القلب ويضطرب.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمته الله: «فالكذب لا شك أنه ريبة وقلق للإنسان، ويرتاب الإنسان: هل علم الناس بكذبه أم لم يعلموا؟ فلا يزال في شك واضطراب. فنأخذ من هذا الحديث أنه يجب على الإنسان أن يدع الكذب إلى الصدق؛ لأن الكذب ريبة، والصدق طمأنينة» [شرح رياض الصالحين] (١ / ٣٠١).

وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «البَّيْعَانُ بالخيار حتى يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا مُحِقَتْ بركة بيعهما» [رواه البخاري: ٢٠٧٩، ومسلم: ١٥٣٢].

«البَّيْعَانُ» أي: المتبايعان، وهما البائع والمشتري. «بالخيار» أي: لهما حق الاختيار في أن يُمضيا البيع أو ينقضاه. «ما لم يتفرقا» أي: من مجلس العقد. «فإن صدقا» فيما يصفان السلعة به من الصفات المرغوبة. «وبينا» أي: بين كل منهما للآخر ما يحتاج إلى بيانه من عيب ونحوه في السلعة أو الثمن. «كذبا» أي: في الأوصاف. «مُحِقَتْ» من المحق، وهو النقصان وذهاب البركة.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «من كانت له عند الناس ثلاث وجبت له عليهم

ثلاث، من إذا حدّثهم صدقهم، وإذا ائتمنوه لم يخنهم، وإذا وعدهم وفى لهم، وجب له عليهم أن تحبه قلوبهم، وتنطق بالثناء عليه ألسنتهم، وتظهر له معونتهم» [«الآداب الشرعية» (١ / ٢٩)].

وقال نافع مولى ابن عمر: طاف ابن عمر رضي الله عنه سبعا وصلى ركعتين، فقال رجل من قریش: ما أسرع ما طفت وصليت يا أبا عبد الرحمن؟ فقال ابن عمر: «أنتم أكثر منا طوافا وصياما، ونحن خير منكم بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وإنجاز الوعد» [«مدارج السالكين» (٢ / ٢٩٠)].

ثمرات الصدق:

يتبين لنا من خلال نصوص القرآن والسنة السابقة أن لخلق الصدق ثمرات عظيمة منها:

- الهداية إلى الجنة، والبعد عن النار، وكتابته عند الله تعالى في الصديقين.
- مغفرة الذنوب، وتكفير السيئات، والحصول على الثواب الجزيل في الآخرة.
- الصادق الذي يتحرى الصدق يُحشر يوم القيامة مع النبيين والشهداء والصالحين.
- الصدق نجاة من المهالك في الدنيا والآخرة.
- الصدق من أعظم صفات المتقين الذين هم عباد الرحمن.
- الصادقون يحبهم الناس، ويثنون عليهم، ويثقون بهم، ويأتمنونهم في سائر معاملاتهم.

- الصدق يورث الطمأنينة في القلب، وهو دليل القوة، وسمة الثقة بالنفس.
- الصدق في البيع والشراء وسائر المعاملات يجلب البركة في المال.
- الصدق يبعد صاحبه عن النفاق.
- الصدق يؤدي إلى تماسك المجتمع وترابط أفرادهِ.
- بالصدق تحصل البركة في الأعمال والأموال، ومن ذلك حصول البركة في البيع

والشراء. كما هو بين في حديث البيع والشراء السابق الذكر.

الأسباب والوسائل المعينة على تحقيق الصدق:

- مراقبة الله تعالى؛ فإن إيمان المرء بأن الله ﷻ معه، يبصره ويسمعه، يدفعه للخشية والتحفظ وتحري الصدق في كلامه، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

- أن يستحضر العبد أن كلماته وخطراته، وحركاته وسكناته كلها محصية مكتوبة، قال تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۖ كَرَامًا كَتَبِينَ ۖ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢]، وقال تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُنَاطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا لَسَنَسِيخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [البجائية: ٢٩]؛ فإذا استحضر هذه المعاني فإن ذلك يقوده إلى الصدق في الأقوال والأعمال وسائر الأحوال.

- الحياء؛ فإنه يحجب صاحبه عن كل ما هو مستقبح شرعاً وعقلاً وعرفاً، فالمرء يستحي أن يعرف بين الناس أنه كذاب، وهذا هو الذي حمل أبو سفيان - وهو يومئذ مشرك - أن يصدق هرقل وهو يسأله عن النبي ﷺ، قال أبو سفيان: «فوالله لولا الحياء من أن يأتروا عليّ كذباً لكذبت عنه» [رواه البخاري: ٧، ومسلم: ١٧٧٣]. «يأتروا عليّ كذباً» أي: ينقلوا عني أنني كذبت.

قال ابن حجر رحمه الله: «وفيه دليل على أنهم كانوا يستقبحون الكذب، إما بالأخذ عن الشرع السابق، أو بالعرف... وقد ترك الكذب استحياء وأنفة من أن يتحدثوا بذلك بعد أن يرجعوا، فيصير عند سامعي ذلك كذاباً» [فتح الباري] (١ / ٣٥).

- الاستعانة بالله تعالى؛ لأن حمل النفس على الصدق في جميع أمورها شاقٌ عليها، ولا يمكن لعبد أن يأتي به على وجهه إلا بإعانة الله له وتوفيقه إليه.

- معرفة ثواب الصدق وما أعدّه الله للصادقين، ومعرفة وعيد الله للكذابين المفترين.

- مجاهدة النفس، وهي من أهم وسائل الصدق، فإن ملازمة الصدق شاقة على النفس؛ ولهذا قال ابن القيم رحمه الله: «فحمل الصدق كحمل الجبال الرواسي، لا يطيقه إلا أصحاب العزائم، فهم يتقلبون تحته قلب الحامل بحمله الثقيل، والرياء والكذب خفيف كالريشة لا يجد له صاحبه ثقلًا البتة، فهو حامل له في أي موضع اتفق، بلا تعب ولا مشقة ولا كلفة، فهو لا يتقلب تحت حمله ولا يجد ثقله» [مدارج السالكين (٢/٢٦٤)].
ولكن مع هذا، فإن المرء إذا جدَّ وجاهد نفسه وألزمها الصدق، وفقه الله لذلك.



٢١. طلب العلم

طلب العلم من أهم شعب الإيمان، ومن أوجب واجبات الإسلام، وهو أول ما يجب على المكلف أن يحصّله، فالعلم مقدّم على العمل؛ لأنه شرط فيه، فلا يصح عمل بلا علم، فهو كالطهارة للصلاة.

وطلب العلم فريضة على كل مسلم، لكن يختلف من شخص لآخر، فعامّة المسلمين يفترض عليهم أن يتعلموا من دينهم ما ينفي عنهم الجهل بأصول الإسلام، وفرائضه، وما تصح به عبادتهم؛ فكل من وجب عليه عمل وجب عليه علمه، فمن وجبت عليه الصلاة وجب عليه أن يتعلم أحكامها، ومن وجب عليه الحج وجب عليه أن يتعلم أحكامه،... وهكذا، وهذا العلم في حق هؤلاء فرض عين عليهم لا يُعذرون بتركه.

ومن العلم ما يكون فرض كفاية على جماعة المسلمين، وهو طلب العلم لإدراك منازل العلماء ولتعليم الناس والدعوة إلى الله، فهذا إن قام به بعض أفراد الجماعة المسلمة سقط عن الباقيين، وطلب العلم في هذه الصورة: بأن يجتهد المرء في سلوك كل سبيل يستطيع به تحصيل علوم الشريعة التي تُقصد لذاتها، وهي العقيدة، والتفسير، والفقه، والحديث، وما يعين على فهم هذه العلوم مما يسمى بعلوم الآلة، كعلوم اللغة العربية، وأصول الفقه، وعلوم الحديث.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والعلم الممدوح الذي دل عليه الكتاب والسنة هو العلم الذي ورثته الأنبياء. كما قال النبي ﷺ: «إن العلماء ورثة الأنبياء؛ إن الأنبياء لم يورثوا درهما ولا دينارا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر» [رواه أحمد:

الأدلة على أن طلب العلم من أهم شعب الإيمان:

قال ﷺ: ﴿يُؤْتَى الْحِكْمَةُ مِنْ يَشَاءَ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

الحكمة: إصابة الحق والعمل به، وهي العلم النافع والعمل الصالح [«مفتاح دار السعادة» (٥٢/١)].

وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: «استشهد سبحانه بأولي العلم على أجل مشهود عليه وهو توحيده، وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه: أحدها: استشهادهم دون غيرهم من البشر. والثاني: اقتران شهادتهم بشهادته سبحانه وبشهادة ملائكته. والثالث: أن في ضمن هذا تركيتهم وتعديلهم فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول. الرابع: أنه سبحانه جعل شهادتهم حجة على المنكرين فهم بمنزلة أدلته وآياته وبراهينه الدالة على توحيده...» [«مفتاح دار السعادة» باختصار (٤٨ / ١)].

وقال ﷺ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

وقال سبحانه: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

وقال تبارك اسمه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

قال ابن كثير رحمه الله: «أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم التقدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى - كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر» [«تفسير ابن كثير» (٥٤٤ / ٦)].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وقال ﷺ: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

قال السعدي رحمه الله: «أي: ﴿بَلْ﴾ هذا القرآن ﴿آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ لا خفيات ﴿فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وهم سادة الخلق، وعقلاؤهم، وأولو الألباب منهم، والكَمَلُ منهم. فإذا كان آيات بينات في صدور أمثال هؤلاء، كانوا حجة على غيرهم، وإنكار غيرهم لا يضر، ولا يكون ذلك إلا ظلماً، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾؛ لأنه لا يجحدها إلا جاهل تكلم بغير علم، ولم يقتد بأهل العلم، وإما متجاهل عرف أنه حق فعانده، وعرف صدقه فخالفه». [تفسير السعدي] (ص: ٦٣٣).

وعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يَفْقَهُهُ فِي الدِّينِ» [رواه البخاري: ٧١، ومسلم: ١٠٣٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ» [رواه مسلم: ٢٦٩٩].

«السَّكِينَةُ» أي: الطمأنينة والوقار. «وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ» أي: أحاطت بهم ملائكة الرحمة والبركة، أو طافوا بهم وداروا حولهم إلى سماء الدنيا يستمعون القرآن ودراساتهم ويحفظونهم من الآفات.

وعن كثير بن قيس قال: كنت جالساً مع أبي الدرداء رضي الله عنه في مسجد دمشق فجاءه رجل فقال: يا أبا الدرداء: إني جئتُك من مدينة الرسول ﷺ لحديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ ما جئتُ لحاجة، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طَرِيقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنَحَتَهَا

رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر» [رواه أبو داود: ٣٦٤١].

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: ذكر لرسول الله ﷺ رجلان أحدهما عابد والآخر عالم، فقال رسول الله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم، وإن الله وملائكته وأهل السماوات والأرضين حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير» [رواه الترمذي: ٢٦٨٥]. «ليصلون» أي: يدعون له بالخير ويستغفرون له.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» [رواه مسلم: ١٦٣١]. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها» [رواه البخاري: ٧٣، ومسلم: ٨١٦].

«لا حسد» المراد: حسد الغبطة، وهو أن يرى النعمة في غيره فيتمناها لنفسه من غير أن تزول عن صاحبها وهو جائز ومحمود. «فسلطه على هلكته في الحق» أي: تغلب على شح نفسه وأنفقه في وجوه الخير. «الحكمة» أي: العلم الذي يمنع من الجهل ويزجر عن القبيح.

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو إلى العقيق، فيأتي منه بناقتين كوماوين في غير إثم ولا قطع رحم؟». فقلنا: يا رسول الله نحب ذلك، قال: «أفلا يغدو أحداكم إلى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله ﷻ، خير له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل» [رواه مسلم: ٨٠٣].

«يغدو» أي: يذهب أول النهار. «بطحان» اسم وادٍ بالمدينة. «العقيق» هو على ثلاثة أميال أو ميلين من المدينة، وخصهما بالذكر لأنهما أقرب المواضع التي يقام فيها أسواق الإبل إلى المدينة. «كوماوين» الكوماء: العظيمة السنام، وهي من خيار الإبل. وعن عامر بن واثلة، أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بعُسفان، وكان عمر يستعمله على مكة، فقال: مَنْ استعملت على أهل الوادي، فقال: ابن أبزى، قال: ومن ابن أبزى؟ قال: مولى من موالينا، قال: فاستخلفت عليهم مولى؟ قال: إنه قارئ لكتاب الله ﷻ، وإنه عالم بالفرائض، قال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً، ويضع به آخرين» [رواه مسلم: ٨١٧].

«عُسفان» قرية بين مكة والمدينة. «يستعمله» أي: يجعله عاملاً له وأميراً. «أهل الوادي» يعني: مكة. «مولى» أي: عبد. «عالم بالفرائض» أي: عالم بالمواريث. «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين» يعني: من حفظ القرآن وتعلم أحكامه وعمل به، يرفع الله درجته في الدنيا الآخرة، ويرزقه عزة وشفراً، ومن ترك القرآن فلم يتعلمه ولم يعمل به أذله الله تعالى في الدنيا والآخرة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن الذي يعلم الناس الخير يستغفر له كل دابة حتى الحوت في البحر» [«العلم» لزهير بن حرب (ص: ٧)].

وقال ابن المبارك رحمته الله: «إذا كان يوم القيامة وُزن حبر العلماء ودم الشهداء فرجح حبر العلماء على دم الشهداء» [«النكت على مقدمة ابن الصلاح» للزركشي (٣/ ٥٩٠)].

وقال الفضيل بن عياض رحمته الله: «عالم عامل معلّم يُدعى كبيراً في ملكوت السماوات» [«سنن الترمذي» (٥/ ٥٠)].

الشمرات المترتبة على طلب العلم:

- رفعة المنزلة عند الله تعالى، فإن الله نفى التسوية بين من يعلم ومن لا يعلم.
- العلم من أسباب رفع الدرجات في الآخرة.

- أن الله جعل العلماء شهداء على ألوهيته ووحدانيته، بل قرن سبحانه شهادتهم بشهادته وشهادة الملائكة.
- أن العلماء هم ورثة الأنبياء، وكفى بهذا شرفاً، وفي هذا دليل على أنهم أقرب الناس إلى الأنبياء، فإن الميراث لا يكون إلا لأقرب الناس.
- أن من أوتي العلم فقد أوتي الخير الكثير، وهو دليل على إرادة الله الخير بالعبد.
- العلم سبب لخشية الله تعالى، بل هو أعظم أسباب الخشية، فعلى قدر علم العبد بربه تكون خشيته منه.
- أهل العلم هم أهل الفهم عن الله، والاعتبار بآياته دون غيرهم.
- العلم من أعظم أسباب دخول الجنة لمن أعطاه حقه من عمل به وإخلاص النية فيه، فمن سلك طريق العلم فإنما يسلك طريقاً إلى الجنة.
- أنه سبب لاستغفار جميع المخلوقات لصاحبه، فالعالم يستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، فتستغفر له الملائكة في السماء، والحيتان في البحر، وفي هذا إشارة إلى قرب العلماء من رحمة الله ومغفرته أكثر من غيرهم.
- مجالس العلم سبب من أسباب نزول السكينة على أهلها، وغشيان رحمة الله تعالى لهم، ويذكرهم الله تعالى في الملاء الأعلى بين الملائكة المكرمين.
- أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم تواضعاً له ومحبة فيما يطلب.
- العلم من أعظم الأعمال التي تنفع العبد بعد موته ويصل إليه ثوابها، فمن ترك علماً ينتفع به ككتب صنفها، أو أناس اهتموا على يديه، أو طلبة علم تعلموا على يديه، فقد ترك عملاً يجري عليه ثوابه بعد موته.

الأسباب والوسائل المعنية على طلب العلم:

- الاستعانة بالله تعالى، فإن العبد إذا توجه إلى مولاه جل في علاه أن يعينه على طلب العلم، هان عليه كل ما صعب عليه، وتيسر له كل عسير.

- ابتغاء الأجر والثواب من الله سبحانه وتعالى؛ فإن من أهم ما يعين المرء المسلم على طلب العلم أن يتذكر ما أعدّه الله تعالى لطلبة العلم وللعلماء في الآخرة من الأجر العظيم والنعيم المقيم.
- مطالعة كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وتدبرهما؛ فإن كثيراً من نصوصهما تحض على طلب العلم وتبين فضل العلم والعلماء.
- معرفة شرف ما يطلبه، فمن عرف شرف العلم علّت همته في طلبه، وبذل في سبيله كل غال ونفيس.
- مما يعين على طلب العلم أن يعطيه الإنسان أفضل أوقات حياته، فالعلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، أما من أعطى العلم أوقات فراغه فهذا لا يحصل منه إلا القليل.
- أن يصاحب من كان على شاكلته، فطالب العلم يحرص على عدم مصاحبة البطالين والسوقة، بل يصاحب العلماء وطلبة العلم.
- الاقتداء بالسلف الصالح في حرصهم على طلب العلم واجتهادهم فيه.
- الدعاء، وهو من أعظم الأسباب المعينة على طلب العلم، فقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يطلب من ربه زيادة العلم، فقال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، وكان من دعائه ﷺ: «اللهم إني أسألك علماً نافعاً، ورزقاً طيباً، وعملاً متقبلاً» [رواه ابن ماجه: ٩٢٥].



٢٢. نشر العلم

امتن الله تعالى على كثير من عباده بالعلم النافع، وجعله من إرادة الخير بهم، وجعل من زكاة هذا العلم أن ينشروه ويعلموه غيرهم، ووعد على ذلك الأجر العظيم في الآخرة؛ لذا كان تعليم الناس ما جهلوه وتبصيرهم بأمر دينهم من فضائل الأعمال، وعبادة من أفضل العبادات، وشعبة من أهم شعب الإيمان.

ونشر العلم: يعني بذله ونقله لكل من طلبه، بل ومن لم يطلبه، وأن يسعى لجعله شائعاً بين الناس، غير مقتصر على فئة دون أخرى.

ونشر العلم يشمل صوراً كثيرة، منها الوعظ والتذكير بالله على المنابر، ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأيضاً نشره من خلال التأليف والكتابة فيما يهم المسلمين من أمور دينهم، وتعليم الناس ما يجب عليهم من أحكام، سواء من خلال المقاطع المسجلة والمرئية، أو الترجمة، ويدخل فيه توزيع الكتيبات والمطويات التي تشتمل على دعوة أو تعليم أو وعظ.

الأدلة من الكتاب والسنة على أن نشر العلم من أهم شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

قال السعدي رحمته الله: «يقول تعالى منبهاً لعباده المؤمنين على ما ينبغي لهم: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ أي: يخرجوا جميعاً لقتال عدوهم، فإنه يحصل عليهم المشقة بذلك، وتوفت به كثير من المصالح الأخرى ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: من البلدان، والقبائل ﴿طَائِفَةٌ﴾ تحصل بها الكفاية والمقصود لكان أولى.

ثم نبه على أن في إقامة المقيمين منهم وعدم خروجهم مصالح لو خرجوا لفاتتهم، فقال: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا﴾ أي: القاعدون ﴿فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي:

ليتعلموا العلم الشرعي، ويعلموا معانيه، ويفقهوا أسرارَه، وليعلموا غيرهم، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

ففي هذا فضيلة العلم، وخصوصاً الفقه في الدين، وأنه أهم الأمور، وأن من تعلم علماً فعليه نشره وبثه في العباد ونصيحتهم فيه، فإن انتشار العلم عن العالم من بركته وأجره الذي ينمي له.

وأما اقتصار العالم على نفسه، وعدم دعوته إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وترك تعليم الجاهل ما لا يعلمون، فأى منفعة حصلت للمسلمين منه؟ وأي نتيجة نتجت من علمه؟ وغايته أن يموت فيموت علمه وثمرته، وهذا غاية الحرمان، لمن آتاه الله علماً ومنحه فهماً» [تفسير السعدي] (ص: ٣٥٥).

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ تَمَنَّا قَلِيلًا فَيُشْرُوتَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

قال ابن كثير رحمته الله: «هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب، الذين أخذ عليهم العهد على السنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد صلوات الله عليه، وأن يُنَوِّهوا بذكره في الناس؛ ليكونوا على أهبة من أمره، فإذا أرسله الله تابعه، فكتموا ذلك وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف، والحظ الدنيوي السخيف، فبُست الصفة صفقتهم، وبُست البيعة بيعتهم.

وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم، ويسلك بهم مسلكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع، الدال على العمل الصالح، ولا يكتُموا منه شيئاً» [تفسير ابن كثير] (٢/ ١٨٠).

وقال تبارك اسمه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعُنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

قال السعدي رحمته الله: «هذه الآية - وإن كانت نازلة في أهل الكتاب وما كتموا من شأن الرسول صلوات الله عليه وصفاته - فإن حكمها عام لكل من اتصف بكتمان ما أنزل الله ﷻ من

الْبَيِّنَاتِ ﴿ الدالات على الحق المظاهرات له ﴾ وَالْهُدَى ﴿ وهو العلم الذي تحصل به الهداية إلى الصراط المستقيم، فإن الله أخذ الميثاق على أهل العلم، بأن يبينوا للناس ما من الله به عليهم من علم الكتاب ولا يكتموا، فمن نبذ ذلك وجمع بين المفسدتين، كتم ما أنزل الله، والغش لعباد الله، فأولئك ﴾ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ ﴿ أي: يُعَذِّبُهُمْ وَيُطْرِدُهُمْ عَنْ قَرْبِهِ وَرَحْمَتِهِ ﴾ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴿ وهم جميع الخليقة، فتقع عليهم اللعنة من جميع الخليقة، لسعيهم في غش الخلق وفساد أديانهم، فالكاتم لما أنزل الله، مضاد لأمر الله، مشاق لله، يبين الله الآيات للناس ويوضحها، وهذا يطمسها، فهذا عليه هذا الوعيد الشديد ﴾ [انظر: «تفسير السعدي» (ص: ٧٧)].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً» [رواه البخاري: ٣٤٦١]. وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نَضَرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفَظَهُ حَتَّى يَبْلُغَهُ، فَرَبٌ حَامِلٌ فَقِهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرَبٌ حَامِلٌ فَقِهِ لَيْسَ بِفَقِيهِ» [رواه أبو داود: ٣٦٦٠].

«نَضَرَ اللَّهُ امْرَأً» معناه: خصه الله بالبهجة والسرور في الدنيا، ونعمه في الآخرة بالجنة، وإنما خُصَّ حافظ سنته ﷺ ومبلغها بهذا الدعاء؛ لأنه سعى في نصارة العلم وتجديد السنة، فجازاه في دعائه له بما يناسب حاله في المعاملة [ينظر: «قوت المغتذي على جامع الترمذي» (٢/ ٦٦١)].

وعن أبي بكرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال في حجة الوداع: «إِنْ دِمَاءُكُمْ وَأَمْوَالُكُمْ وَأَعْرَاضُكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، أَلَا لِيَبْلُغَ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الْغَائِبَ» [رواه البخاري: ١٠٥].

وعن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مِثْلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمِثْلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبْلَتْ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبٌ، أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرَبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا،

وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان، لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» [رواه البخاري: ٧٩، ومسلم: ٢٢٨٢].

«الغيث» أي: المطر الذي يأتي عند الاحتياج إليه. «نقية» أي: طيبة. «الكلأ» أي: نبات الأرض رطباً كان أم يابساً. «العشب» أي: النبات الرطب. «أجادب» أي: الأرض التي لا تشرب الماء ولا تنبت. «قيعان» أي: الأرض المستوية الملساء. «فذلك» أي: النوع الأول. «من لم يرفع بذلك رأساً» أي: تكبر وأعرض عن العلم والتعلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سُئِلَ عن علم فكتمه، ألجمه الله بلبجام من نار يوم القيامة» [رواه أبو داود: ٣٦٥٨].

«ألجمه الله بلبجام من نار» أي: أدخل الله في فمه لجاماً من نار مجازاة له حيث ألجم نفسه بالسكوت عن نشر العلم عندما سُئِلَ عنه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «تسمعون، ويُسمع منكم، ويُسمع ممن يسمع منكم» [رواه أحمد: ٢٩٤٥].

قوله: «تسمعون ويُسمع منكم» هو خبر يعني به الأمر، أي: لتسمعوا مني الحديث وتبلغوه عني، وليسمعه من بعدي منكم، وهكذا أداء للأمانة، وإبلاغاً للرسالة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً» [رواه مسلم: ٢٦٧٤].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا» [رواه البخاري: ١٠٠، ومسلم: ٢٦٧٣].

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله وملائكته وأهل

السموات والأرضين، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت، ليُصلون على مُعَلِّمِ الناس الخير» [رواه الترمذي: ٢٦٨٥]. «يصلون» أي: يدعون ويستغفرون.
وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «مُعَلِّمُ الخير يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر» [مُصنَّف ابن أبي شَيْبَةَ: ٢٦١١٣].
وقال الفضيل بن عياض رحمته الله: «عالم عامل مُعَلِّم يُدْعَى كَبِيرًا في ملكوت السموات» [سنن الترمذي (٥٠ / ٥)].

ثمرات نشر العلم:

- إن لنشر العلم من الثمرات ما لا يحصره العد، ولا تسعه الأسطر، فنذكر منها:
- أنه سبب لبقاء الشريعة؛ لأن اندثار العلم اندثار للدين، فإننا لا يمكننا أن نعبد الله إلا بالعلم، فمن عبد الله على جهل وقع في الشرك والبدع ولا بد.
- أنه سبب لاندفاع سخط الله عن الأمة، فإنه ما من أمة تركت العلم بدينها إلا وتركت معظم شعائر الدين، أو فعلت ما ليس بشرع ظنًا منها أنه شرع، وكان هذا سبب تسليط الله عليهم عدوهم فاستباحهم.
- أن القيام على نشر العلم سبب لنصرة الوجه في الدنيا والآخرة، خصوصًا ما كان منه من حديث رسول الله ﷺ.
- أنه من أعظم أبواب الحسنات الجارية؛ حيث إن الداعي إلى الخير له من الأجر مثل أجر من تبعه، كما ورد في الحديث.
- أنه سبب لانتفاء الضلالة عن الأفراد والمجتمع كله، فإن انتشار الجهل سبب للضلال.
- أن ناشر العلم يستغفر له أهل السموات والأرض كلهم.
- في القيام به نشر للفضيلة ومحاربة للرديلة، وإصلاح للجماعة التي هي قوام أمة الإسلام.

- أن به يصلح الأفراد وتسعد الشعوب، لما فيه من إرشاد الناس إلى المصالح الدنيوية والأخروية.

- أنه من أعظم أسباب دخول الجنة والنجاة من النار، فبدون العلم لا يمكن ذلك.

الوسائل المعينة على نشر العلم:

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واستعمال الوعظ والإرشاد للناس في كل ما ينوبهم من أمور حياتهم، فيسعى المصلحون لانتهاز كل فرصة لكي يعلموا فيها الناس أمور الشريعة بحسب ما ينزل بهم من نوازل.

- إلقاء الخطب والدروس في المساجد، وكذا تأليف الكتب وكتابة البحوث، والاهتمام بنشرها وطباعتها.

- الاهتمام بنشر العلم عن طريق كل وسيلة مباحة كالمقاطع الصوتية والمرئية من خلال الوسائل الحديثة كالإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي، والترجمة.

- الاهتمام بنشر كتب السلف وتراث الأمة، وهو ما يُسمَّى بعلم تحقيق النصوص.

- أن يعلم المسلم أن هذا الطريق فيه تشبُّه بالأنبياء والصالحين وسلوك مسالكهم.

- معرفة الأجر الكبير والثواب العظيم لمن نشر العلم ابتغاء وجه الله تعالى.

- أن يعتني أصحاب الأموال بكفالة طلبة العلم خصوصاً من ظهر منه نبوغ فيه.

- أن يعتني أولياء الأمور بتربية أبنائهم على محبة العلم؛ لينشأ لنا جيل من الطلبة

ينشرون العلم في أمتهم.

- الاهتمام بإدخال الأولاد المدارس الدينية التي تعلّم العلوم الشرعية، وذلك

حتى يخرج لنا جيل من طلبة العلم والعلماء يكونون نواة لنشر العلم في كل مكان.



﴿ ٢٣. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴾

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم شعب الإيمان، ومن أعظم واجبات الدين، ولقد بعث الله جل وعلا أنبياءه وأرسل رسله وحملهم مهمة القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم وكل هذا الأمر بمن يخلفونهم ممن حملوا دعوتهم من قومهم، وجعل ذلك واجباً عليهم، فتركه أكثرهم، فعاقبهم الله باللعن والإهلاك، فلما بعث الله رسوله محمداً ﷺ قام بهذا الأمر أفضل قيام وأكمل، ومن الله تعالى على أمته بأن جعلها خير أمة أخرجت للناس لقيامها بهذا الأمر.

والمعروف: هو اسم جامع لكل ما أمر به الشرع من اعتقاد أو قول أو فعل، من عبادة الله وحده وطاعته، والتقرب إليه، والإحسان إلى الناس، وكل ما ندب إليه الشرع. **والمنكر:** هو اسم جامع لكل ما نهى عنه الشرع من اعتقاد أو قول أو فعل، من كل ما قبحه الشرع وحرّمه وكرهه.

وينبغي أن يُعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على الكفاية، فإن قام به البعض سقط عن الباقيين، أما إن لم يقم به أحد أثم كل من حضره أو علم به. والواجب على كل مسلم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويبين الحق حسب الاستطاعة، فينكر بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، قال ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» [مسلم: ٧٨].

ويجب التنبيه لبعض الأمور عند القيام بهذا الواجب، وهي العلم بحقيقة ما يأمر به وحقيقة ما ينهى عنه، وأن يعلم أن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة، وكذا البدء بالأهم فالمهم من أمور الدين، وأيضاً عدم التجسس على الناس أو اقتحام دورهم، ثم الصبر على ما يلقاه من أذى الناس بسبب هذا الأمر.

الأدلة على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قال السعدي رحمته الله: «يمدح تعالى هذه الأمة، ويخبر أنها خير الأمم التي أخرجها الله للناس، وذلك بتكميلهم لأنفسهم بالإيمان المستلزم للقيام بكل ما أمر الله به، وبتكميلهم لغيرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المتضمن دعوة الخلق إلى الله وجهادهم على ذلك، وبذل المستطاع في ردهم عن ضلالهم وغيهم وعصيانهم، فبهذا كانوا خير أمة أخرجت للناس، لما كانت الآية السابقة وهي قوله: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أمراً منه تعالى لهذه الأمة، والأمر قد يمثله المأمور ويقوم به، وقد لا يقوم به، أخبر في هذه الآية أن الأمة قد قامت بما أمرها الله بالقيام به، وامثلت أمر ربها، واستحقت الفضل على سائر الأمم» [تفسير السعدي] (ص: ١٤٣).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣ - ١١٥].

﴿فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ أي: لا يضيع عند الله، بل يجزيكم به أوفر الجزاء.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ عِدَائِي أَصِيبُ بِهِ مِنْ أَشَاءِ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴿[الأعراف: ١٥٧].

وقال سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

قال بعض أهل العلم في بيان الوعيد في هذه الآية: «أفهمت الآية أَنَّ مَنْ تَرَكَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ خَرَجَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» [ينظر: «الزواجر عن اقتراف الكبائر» (٢/ ٢٧١)].
وقال القرطبي: «جعل الله تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرقاً بين المؤمنين والمنافقين» [«الجامع لأحكام القرآن» (٤/ ٤٧)].

وقال ﷺ: ﴿التَّائِبُونَ الْعَمَدُونَ الْحَمْدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

قال ابن كثير رحمه الله: «هذا نعت المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة: ﴿التَّائِبُونَ﴾ من الذنوب كلها، التاركون للفواحش، ... وهم مع ذلك ينفعون خلق الله، ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركه، وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه علماً وعملاً، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق؛ ولهذا قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به».
[«تفسير ابن كثير» (٤/ ٢١٩)].

وقال تبارك اسمه: ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الذِّينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ] [الحج: ٤٠، ٤١].

وقال سبحانه عن موعظة لقمان لابنه: ﴿يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

قال السعدي رحمته الله: «يَبْتَنَى أَقْرِ الصَّلَاةِ» حثه عليها، وخصها لأنها أكبر العبادات البدنية «وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ» وذلك يستلزم العلم بالمعروف ليأمر به، والعلم بالمنكر لينهى عنه، والأمر بما لا يتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا به، من الرفق، والصبر، وقد صرح به في قوله: «وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ»^ط، ومن كونه فاعلاً لما يأمر به، كافاً لما ينهى عنه، فتضمن هذا تكميل نفسه بفعل الخير وترك الشر، وتكميل غيره بذلك، بأمره ونهيه.

ولما علم أنه لا بد أن يُبتلى إذا أمر ونهى، وأن في الأمر والنهي مشقة على النفوس، أمره بالصبر على ذلك فقال: «وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ»^ط الذي وعظ به لقمان ابنه «مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» أي: من الأمور التي يُعَزَم عليها، ويهتم بها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم» [تفسير السعدي] (ص: ٦٤٩).

عن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره، يكفرها الصيام، والصلاة، والصدقة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» [رواه البخاري: ١٤٣٥، ومسلم: ١٤٤].

قال النووي رحمته الله: «فتنة الرجل في أهله وماله وولده ضروب: من فرط محبته لهم، وشحه عليهم، وشغله بهم عن كثير من الخير، كما قال تعالى: ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، أو لتفريطه بما يلزم من القيام بحقوقهم وتأديبهم وتعليمهم، فإنه راع لهم ومسئول عن رعيته، وكذلك فتنة الرجل في جاره من هذا، فهذه كلها فتن تقتضي المحاسبة، ومنها ذنوب يُرجى تكفيرها بالحسنات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسَفَاتِ﴾ [هود: ١١٤] «[شرح صحيح مسلم] (٢ / ١٧١).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إياكم والجلوس بالطرقات». فقالوا: يا رسول الله، ما لنا من مجالسنا بد، نتحدث فيها. فقال: إذ أبيتم إلا المجلس، فأعطوا الطريق حقه. قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر» [رواه البخاري: ٦٢٢٩، ومسلم: ٢١٢١].

وعن أبي ذر رضي الله عنه، أن ناسًا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، قال: «أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة». [مسلم: ١٠٠٦].

قوله: «أهل الدثور» أي: أهل المال الكثير. «ويتصدقون بفضول أموالهم» أي: بأموالهم الفاضلة عن كفايتهم.

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مثل المَّدْهَنِ في حدود الله، والواقع فيها، مثل قوم استهموا سفينة، فصار بعضهم في أسفلها، وصار بعضهم في أعلاها، فكان الذي في أسفلها يمر بالماء على الذين في أعلاها، فتأذوا به، فأخذ فأسا فجعل ينقر أسفل السفينة، فأتوه فقالوا: ما لك، قال: تأذيتم بي ولا بد لي من الماء، فإن أخذوا على يديه أنجوه ونجوا أنفسهم، وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم» [رواه البخاري: ٢٦٨٦].

«المدَّهَنُ في حدود الله» يعني: المداهن فيها المضِيعُ لها الذي لا يغيِّرُ المعاصي ولا يعملها، فهو مستحق بالعقوبة على سكوته ومداهنته. «والواقع فيها» أي: الفاعل للشر. «استهموا»؛ أي: اقترعوا واقتسموا. «فإن أخذوا على يديه» يعني: فإن منعه من نقر السفينة نجا ونجوا، وإن لم يمنعه وتركوه حتى نقر أسفل السفينة خرج الماء من البحر إلى السفينة وغرقت السفينة ومن فيها.

فكذلك إن منع الناسُ الفاسقَ عن الفسق نجوا ونجا من عذاب الله، وإن لم يمنعه وتركوه حتى يفعل المعاصي ولم يقيموا عليه الحدود لنزل عليه وعليهم العذاب بشؤمه. [ينظر: «المفاتيح في شرح المصابيح» للمظهري (٥/ ٢٦٢)].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عشر سنين، حتى بعثنا الله له من يثرب... فقال صلى الله عليه وسلم: «تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل،

والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله، لا تخافون في الله لومة لائم». [رواه أحمد: ١٤٤٥٦].

وعن قيس بن أبي حازم قال: قال أبو بكر الصديق بعد أن حمد الله وأثنى عليه: يا أيها الناس، إنكم تقرأون هذه الآية وتضعونها على غير مواضعها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرون على أن يغيروا، ثم لا يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب» [رواه أبو داود: ٤٣٣٨].

الشمرات المترتبة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

- أنه سبب لخيرية هذه الأمة وتفضيلها على غيرها من الأمم، فمتى تركته فقد فقدت خيريتها.
- أن الله تعالى جعله سبباً للفلاح كما في آية آل عمران السابق ذكرها.
- أنه سبحانه جعل فاعله من أهل الصلاح والتقوى.
- أنه طريق النبي ﷺ ومن سبقه من الأنبياء، ففي فعله الاقتداء بخير البشر.
- أنه سبيل المؤمنين كما سبق وصفهم من الله تعالى بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولازم ذلك أن تاركه ناقص الإيمان.
- أنه من أسباب النصر والتمكين كما سبق في آية الحج.
- أنه صدقة من الصدقات التي يتصدق بها العبد عن نفسه شكراً لله تعالى على نعمه عليه.
- أنه تكفير الذنوب مما يقتتره المرء بينه وبين أهله وجيرانه وغيرهم.
- أنه من أكبر أسباب النجاة من عذاب الله، فمتى وقعت المعاصي ولم يأخذ أهل الصلاح على أيدي أهل الفساد وينهوهم عنها عمَّهم الله جميعاً بالعذاب، ومتى أخذوا على أيديهم وقع العذاب بأصحاب المعاصي وحدهم.

- أنه من أسباب صلاح المجتمع، فإن أهل المعاصي متى لم يجدوا من يردعهم استطار شرهم وعثوا في الأرض فسادًا، حتى يكونوا سببًا لفساد غيرهم ودمار مجتمعهم.
- أنه من أسباب كثرة العلم وانتشاره وقلة الجهل واضمحلاله.
- من أهم الأسباب الداعية إلى الاجتماع ونبد التفرق والاختلاف: القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

الأسباب والوسائل المعينة على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

- أن يعلم العبد أنه مأمور بهذا من الله تعالى، وأن في تركه هذا الواجب معصيةً لربه سبحانه وتعالى.
- ألا يخاف المسلم من أحد إلا من الله تعالى؛ فإن كثيرًا ممن يتركون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما يدفعهم إلى ذلك خوف من يأمرونه أو من ينهونه، فعلى المسلم أن يربي نفسه وأولاده على الشجاعة حتى ينشأ لا يهاب الناس طالما كان على الحق.
- اعتزاز المسلم بدينه؛ فلا يستحيي من أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، حتى وإن كان في مجتمع قد عمته المعاصي بحيث يصير بأمره ونهيه غريبًا بينهم بفعله هذا.
- أن يعلم أنه بتركه لهذا الواجب معرض نفسه للعذاب مع أصحاب المعاصي، فإن الله يعمهم جميعًا بعذابه طالما لم يأخذوا على أيدي هؤلاء السفهاء، فهو بأخذه على أيديهم ينجي نفسه.
- فهم النصوص الشرعية على مراد الله تعالى لا على ما تهواه النفوس، فإن بعض الناس يفسر قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] بأنه ليس عليه إلا أن يقوم بالدين في خاصة نفسه دون أمر

بمعروف أو نهي عن منكر لغيره، وهذا فهم باطل، بل معناها الصحيح: لا يضركم من ضل بعد أن تأمروه بالمعروف وتنهوه عن المنكر، أما قبل ذلك فالضرر يعم الكل كما سبق في الحديث.



٢٤. الجهاد والرباط

بعث الله تعالى نبيه محمداً ﷺ وأمره بشرائع الإسلام، وأن يبلغ عنه دينه، فكان من الناس من اتبع ما جاء به الرسول، ومنهم من رده وعاداه، بل وقاتل دون بلوغ هذا الدين إلى غيره؛ صداً منه عن سبيل الله تعالى ومحادةً منه لدين رب العالمين، فشرع الله تعالى الجهاد ضد هؤلاء؛ ليزيحهم عن طريق الدعوة إليه، ولتضرب الذلة على من عادى دين رب العالمين.

والجهاد هو: است فراغ الوسع في مقاتلة الكفار، إما ليدخلوا في دين الله ولتكون كلمة الله هي العليا، أو ذباً لهم عن استباحة المسلمين والاستيلاء على بلادهم ومقدراتهم. فالأول هو ما يسمى بجهاد الطلب، وهو فرض كفاية؛ إذا قام به بعض المسلمين سقط عن بقيتهم.

والثاني هو ما يسمى بجهاد الدفع، وهو فرض عين على كل أحد في أي بلد هجم عليه الكفار، حتى النساء يجب عليهن أن يدفعن شر العدو بما استطعن، وإن لم يقدرن على دفع الكفار وحدهم صار فرض عين على أقرب البلاد إليهم. والرباط: وهو أن إقامة الرجل نفسه لحفظ الثغور - وهي البلاد المتاخمة للكفار - وإخافة من جاوره من العدو. وهو باب من أبواب الجهاد.

الأدلة على أن الجهاد والرباط في سبيل الله من أهم شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].
وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

قال السعدي رحمه الله: «المصابرة أي: الملازمة والاستمرار على الصبر على الدوام،

ومقاومة الأعداء في جميع الأحوال. والمرابطة: وهي لزوم المحل الذي يخاف من وصول العدو منه، وأن يراقبوا أعداءهم، ويمنعواهم من الوصول إلى مقاصدهم، لعلهم يفلحون: يفوزون بالمحبوب الديني والديني والأخروي، وينجون من المكروه كذلك. فَعَلِمَ من هذا أنه لا سبيل إلى الفلاح بدون الصبر والمصابرة والمرابطة المذكورات، فلم يفلح من أفلح إلا بها، ولم يَفُتْ أحداً الفلاح إلا بالإخلال بها أو ببعضها» [تفسير السعدي] (ص: ١٦٢).

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَنْ رَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٨، ٣٩]. ثم قال تعالى: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

قال السعدي رحمته الله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» ألا تعملون بمقتضى الإيمان وداعي اليقين: من المبادرة لأمر الله، والمسارة إلى رضاه، وجهاد أعدائه والنصرة لدينكم، ف﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: إذا دُعِيتُم إلى الجهاد تكاسلتم، وملتم إلى الأرض والدعة والسكون فيها.

﴿أَرْضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أي: ما حالكم إلا حال من رضي بالدنيا وسعى لها، ولم يبال بالآخرة، فكأنه ما آمن بها.

﴿فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ التي مالت بكم، وقدمتموها على الآخرة ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أفليس قد جعل الله لكم عقولاً تزنون بها الأمور، وأبها أحق بالإثارة؟ أفليست الدنيا من أولها إلى آخرها لا نسبة لها في الآخرة؟

ثم توعدهم على عدم النفي فقال: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا والآخرة، فإن عدم النفي في حال الاستنفار من كبائر الذنوب الموجبة لأشد العقاب، لما فيها من المضار الشديدة، فإن المتخلف قد عصي الله تعالى وارتكب لنهي، ولم يساعد على نصر دين الله، ولا ذب عن كتاب الله وشرعه، ولا أعان إخوانه المسلمين على عدوهم الذي يريد أن يستأصلهم ويمحق دينهم، وربما اقتدى به غيره من ضعفاء الإيمان، بل ربما فت في أعضاد من قاموا بجهاد أعداء الله، فحقيق بمن هذا حاله أن يتوعده الله بالوعيد الشديد، فقال: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ ثم لا يكونوا أمثالكم ﴿وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا﴾ فإنه تعالى متكفل بنصر دينه وإعلاء كلمته، فسواء امتثلتم لأمر الله، أو ألقيتموه وراءكم ظهرياً ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء أراده، ولا يغالبه أحد.

ثم قال تعالى لعباده المؤمنين مهيجاً لهم على النفي في سبيله فقال: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي: في العسر واليسر، والمنشط والمكره، والحر والبرد، وفي جميع الأحوال ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: ابدلوا جهدكم في ذلك، واستفروا وسعكم في الجهاد بالمال والنفس.

ثم قال: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: الجهاد بالنفس والمال، خير لكم من التقاعد عن ذلك؛ لأن فيه رضا الله تعالى، والفوز بالدرجات العاليات عنده، والنصر لدين الله، والدخول في جملة جنده وحزبه» [تفسير السعدي] (ص: ٣٣٧ وما بعدها) باختصار وتصرف.

وقال ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِالَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَىٰ تَجَرُّقِ نُجُجِكُمْ مِّنْ عَذَابِ إِلَهِ ۖ تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۖ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۖ وَأُخْرَىٰ تُجْبَوْنَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠ - ١٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل: أي العمل أفضل؟ فقال: «إيمان بالله ورسوله». قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»... [رواه البخاري: ٢٦، ومسلم: ٨٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يَخْرُجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَإِيمَانًا بِي وَتَصَدِيقًا بِرِسَالِي، فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أَدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَىٰ مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا مِنْ كَلِمٍ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كَلِمٍ، لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ وَرِيحُهُ مِسْكٌ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ لَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا، وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلُهُمْ، وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوُدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلَ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلَ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلَ» [رواه البخاري: ٣٦، ومسلم: ١٨٧٦].

قوله: «تضمن الله» أي: أوجب الله تعالى له الجنة. «نائلاً ما نال من أجر» أي: أن الله تعالى ضمن أن الخارج للجهاد ينال خيراً بكل حال، فإما أن يستشهد فيدخل الجنة، وإما أن يرجع بأجر، وإما أن يرجع بأجر وغنيمة. «ما من كَلِمٍ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» أي ما من جرح يُجرح. «خلاف سرية» أي: خلفها وبعدها، والسرية: القطعة من الجيش. «لا أجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلُهُمْ» أي: ليس لي من سعة الرزق ما أجده لهم دواب فأحملهم عليها. «ولا يجدون سعة» أي: ولا يجدون سعة يجدون بها من الدواب ما يحملهم ليتبعوني ويكونوا معي. «ويشق عليهم أن يتخلفوا عني» أي: يصعب عليهم ذلك.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله، أي الناس أفضل؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ يَجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ» [رواه البخاري: ٢٧٨٦، ومسلم: ١٨٨٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: ما يعدل الجهاد في سبيل الله ﷻ؟ قال: «لا تستطيعونه»، قال: فأعادوا عليه مرتين، أو ثلاثاً كل ذلك يقول: «لا تستطيعونه»، وقال في الثالثة: «مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله، لا يفتر من صيام ولا صلاة، حتى يرجع المجاهد في سبيل الله تعالى» [رواه البخاري: ٢٧٨٧، ومسلم: ١٨٧٨ واللفظ له]. «لا يفتر» أي: لا يمل.

قال النووي رحمته الله: «في هذا الحديث عظيم فضل الجهاد؛ لأن الصلاة والصيام والقيام بآيات الله أفضل الأعمال، وقد جعل المجاهد مثل من لا يفتر عن ذلك في لحظة من اللحظات، ومعلوم أن هذا لا يتأتى لأحد، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: «لا تستطيعونه» والله أعلم» [«شرح مسلم» (٢٥ / ١٣)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض» [رواه البخاري: ٢٧٩٠].

وعن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري قال: سمعت أبي وهو بحضرة العدو يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف»، فقام رجل رث الهيئة، فقال: يا أبا موسى، أنت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا؟ قال: نعم، قال: فرجع إلى أصحابه، فقال: أقرأ عليكم السلام، ثم كسر جفن سيفه فألقاه، ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قُتل [رواه مسلم: ١٩٠٢].

«إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف» هذا مثل، والمراد به: أن دخول الجنة يكون بالجهاد. «جفن سيفه» يعني: غمد سيفه أي: غلافه الذي يوضع فيه، وإنما كسر الغمد على عزم ألا يغمد السيوف، وهذا الرجل كان صاحب همة عالية، فلما صحت عنده الفضيلة جدَّ نحوها. [ينظر: «كشف المشكل من حديث الصحيحين» (١ / ٤١٧)].

وعن سلمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «رباط يوم وليلة خير من

صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمل، وأُجري عليه رزقه، وأُمن الفتان» [رواه مسلم: ١٩١٣].

قوله: «جرى عليه عمله الذي كان يعمل» أي: وصل إليه ثواب عمله الذي كان يعمل في حياته، وهذه فضيلة مختصة بالمرباط لا يشاركه فيها غيره. «وأُجري عليه رزقه» أي: وصل إليه رزقه من الجنة كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَبَنَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] وكما جاء في الأحاديث أن أرواح الشهداء تأكل من ثمار الجنة. «وأُمن الفتان» أي: أُنقذ من فتنة القبر، وهي سؤال الملكين. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألستكم» [رواه أبو داود: ٢٥٠٤].

قال الصنعاني رحمته الله: «الحديث دليل على وجوب الجهاد بالنفس وهو بالخروج والمباشرة للكفار، والمال وهو بذله لما يقوم به من النفقة في الجهاد والسلاح ونحوه، والجهاد باللسان بإقامة الحجة عليهم ودعائهم إلى الله تعالى، وبالأصوات عند اللقاء والزجر ونحوه من كل ما فيه نكاية للعدو» [سبل السلام] (٢/ ٤٦٠).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله» [رواه الترمذي: ١٦٣٩].

وعن أبي نجيح السلمي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من رمى بسهم في سبيل الله فهو له عدل مُحرَّر» [رواه الترمذي: ١٦٣٨].

أي: فذلك السهم مثل عبد حرره، يعني: يستحق برميهِ من الثواب مثل ما يستحق الرجل بتحرير رقبة.

الثمرات المترتبة على الجهاد والرباط في سبيل الله:

للجهاد في سبيل الله ثمرات عظيمة وفوائد جلية، نكتفي منها بما يلي:
- أنه سبب لرحمة الله تعالى للعبد وللأمة كلها، كما سبق في آية سورة البقرة.

- أنه سبب للعتق من النيران.
- أن المجاهد من أفضل الناس عند الله تعالى.
- أنه لا يعدله أحد في عمله إلا من ألزم نفسه الصيام بالنهار والقيام طيلة الليل، لا يفتر عن ذلك البتة.
- أن من مات مرابطاً في سبيل الله تعالى آمن من فتنة القبر، وأجري عليه عمله وهو في قبره كأنه حيٌّ.
- أنه طريق الفلاح في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا بالعز والتمكين، وفي الآخرة بالدرجات العلى.
- أنه تجارة مع الله تعالى، فإن الله تعالى اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وهذه تجارة لا خسارة فيها البتة.
- أنه سبب لنشر دين الله ﷻ، فالغاية الأولى من الجهاد هي إدخال الناس في دين الله.
- أنه سبب من أسباب الحسنات الجارية للمجاهد، فإنه إن أسلم بسبب جهاده أحد من بلاد المشركين كان في ميزان حسناته يوم القيامة.
- أنه دفاع عن بلاد المسلمين وحرماهم، فلو عطلَّ الجهاد لاستذل الكفار المسلمين، واستباحوا دماءهم وأعراضهم.
- أنه سبب لرفع الدرجات في الجنة، كما سبق في الحديث الشريف: أن الله تعالى أعد للمجاهدين مائة درجة في الجنة.

الأسباب والوسائل المعينة على الجهاد في سبيل الله:

- من أعظم ما يعين المسلم على أداء شعيرة الجهاد هو التربية الإيمانية السليمة، فالجهاد شديد على النفس، بل ثقل على بعض خواص الناس، فلا يقوم به إلا من كان إيمانه مستقيماً.
- الاستعانة بالله تعالى، فإن العبد إذا توجه إلى مولاه جل في علاه أن يعينه على

الجهاد إذا توجب عليه، هان عليه كل ما صعب عليه، وتيسر له كل عسير.

- أن يستحضر المسلم ما له عند الله تعالى من ثواب عظيم على الجهاد، وأنه إن قُتل في سبيل الله كان له ثواب الشهادة مضافاً إلى ثواب جهاده، فينال بكليهما من الدرجات العلى ما لا يبلغه غيره.

- أن يستحضر المسلم ما له عند الله من عقاب إن تخلف عن الجهاد إذا صار واجباً عليه.

- قراءة سيرة النبي ﷺ وغزواته، وسير الخلفاء الراشدين من بعده، وسير المجاهدين من هذه الأمة الذين لا يحصون عدة ولا يحاط بهم كثرة.

- تربية النفس على الشجاعة، فالجبان من أبعد الناس عن هذه الشجيرة، إذ إن نفسه لا تطيعه إلى مقاربة المشاق والمخاطر.

- أن يعلم المسلم أنه لن يموت قبل أجله كما قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٧] قال الطبري: «يخاطب جل ثناؤه عباده المؤمنين، يقول لهم: لا تكونوا، أيها المؤمنون في شك من أن الأمور كلها بيد الله، وأن إليه الإحياء والإماتة، كما شك المنافقون في ذلك، ولكن جاهدوا في سبيل الله وقاتلوا أعداء الله، على يقين منكم بأنه لا يُقتل في حرب ولا يموت في سفر إلا من بلغ أجله وحانت وفاته» [تفسير الطبري] (٦ / ١٨١).

- استحضار فناء هذه الدنيا، وأنها دار زوال، وأنه لا فرق بين أن يموت الإنسان على فراشه أو أن يُقتل في معركة، قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لِيَّ اللَّهُ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٨].



٢٥. الدعوة إلى الله

خلق الله الجن والإنس لِيُعْبَدَ وحده، ولِيُعْرَفَ بأسمائه وصفاته، وقد أرسل الله سبحانه وتعالى الرسل وأنزل الكتب؛ لبيان الأمر الذي خلق من أجله الخلق وما يحبه ويكرهه من عباده، ثم كان هذا التكليف بعد موت الرسل مما أمر الله به أممهم أن يقوموا به من بعدهم، فكانت الدعوة إلى الله تعالى سبيل من اتبع الأنبياء والمرسلين، وطاعة من أجل الطاعات، وشعبة من أهم شعب الإيمان.

وحقيقة الدعوة إلى الله تعالى: أنها دعوة الخلق إلى توحيد الخالق وإفراده بالعبادة، وبيان ما أمرهم به مما يجب عليهم فعله، وما ينبغي عليهم الكف عنه من الأقوال والأفعال.

والدعوة إلى الله تعالى تأخذ صوراً كثيرة، منها الوعظ والتذكير بالله على المنابر، ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأيضاً الدعوة من خلال التأليف والكتابة فيما يهم المسلمين من أمور دينهم، وتعليم الناس ما يجب عليهم من أحكام سواء من خلال المقاطع المسجلة والمرئية، ويدخل فيها توزيع الكتيبات والمطويات التي تشتمل على دعوة أو تعليم أو وعظ ونحو ذلك.

الأدلة من الكتاب والسنة على أن الدعوة إلى الله تعالى من أهم شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

قال السعدي رحمته الله: «أي: وليكن منكم أيها المؤمنون الذين من الله عليهم بالإيمان والاعتصام بحبله ﴿أُمَّةٌ﴾ أي: جماعة ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ وهو اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله ويُبْعَدُ من سخطه ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، وهذا إرشاد من الله للمؤمنين أن يكون منهم جماعة متصدية للدعوة إلى سبيله وإرشاد الخلق إلى

دينه، ويدخل في ذلك العلماء المعلمون للدين، والوعاظ الذين يدعون أهل الأديان إلى الدخول في دين الإسلام، ويدعون المنحرفين إلى الاستقامة، والمجاهدون في سبيل الله، والمتصدون لتفقد أحوال الناس وإلزامهم بالشرع كالصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام، وكتفقد المكايل والموازين، وتفقد أهل الأسواق ومنعهم من الغش والمعاملات الباطلة، وكل هذه الأمور من فروض الكفايات، وهذه الطائفة المستعدة للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم خواص المؤمنين، ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالمطلوب، الناجون من المرهوب» [تفسير السعدي] (ص: ١٤٢) باختصار.

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبٌ﴾ [الرعد: ٣٦].

وقال ﷺ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدْلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال تبارك اسمه: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التقصص: ٨٧].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ۝٤٦ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥ - ٤٧].

وقال جل وعلا: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن هرقل دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى هرقل، فقرأه، فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم،

من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد،
فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك
إثم الأريسيين» [رواه البخاري: ٧، ومسلم: ١٧٧٣].

«إثم الأريسيين» أي: إثم استمرارهم على الباطل والكفر اتباعاً لك، والمراد
بالأريسيين: الأتباع من أهل مملكته.

وعن أم سلمة رضي الله عنها، أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قال للنجاشي: أيها الملك، كنا
قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء
الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا عرف
نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد
نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة،
وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم، والدماء، ونهانا عن الفواحش،
وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به
شيئاً، وأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصيام [رواه أحمد: ١٧٤٠].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن:
«إنك ستأتي قومًا من أهل الكتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله
وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم
خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض
عليهم صدقة، تؤخذ من أغنيائهم، فترد على فقرائهم». [رواه البخاري: ٤٣٤٧، ومسلم: ١٩].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم وفد عبد القيس على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: إنا من
هذا الحي من ربيعة، ولسنا نصل إليك إلا في الشهر الحرام، فمرنا بشيء نأخذه عنك
وندعو إليه من وراءنا... [رواه البخاري: ٥٢٣].

وعن سليمان بن بريدة، عن أبيه رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميراً على
جيش، أو سرية، أو صاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال:

«اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله... وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصال فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك، فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين...» [رواه مسلم: ١٧٣١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة، فدعوتها يوماً فأسمعتني في رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أكره، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبكي، قلت: يا رسول الله إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى عليّ، فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة... الحديث [رواه مسلم: ٢٤٩١].

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم خيبر: «لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله»، فبات الناس ليلتهم أيهم يُعطى، فغدوا كلهم يرجوه، فقال: «أين علي؟»، فقيل: يشتكي عينيه، فبصق في عينيه ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه فقال: أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً خيراً لك من أن يكون لك حُمُر النعم» [رواه البخاري: ٣٠٠٩، ومسلم: ٢٤٠٦].

«انفذ على رسلك» أي: امض بالرفق واللين. «حتى تنزل بساحتهم» أي: حتى تبلغ أرضهم. «حُمُر النعم» أي: الإبل الحمر، وهي أنفس أموال العرب، يضربون بها المثل في نفاسة الشيء، وإنه ليس هناك أعظم منه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً» [رواه مسلم: ٢٦٧٤].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «بلغوا عني ولو آية» [رواه البخاري: ٣٤٦١].
وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «نضر الله امرأ سمع

منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه» [رواه الترمذي: ٢٦٥٦].

«نضر الله امرأ» معناه: خصه الله بالبهجة والسرور لما رُزق بعلمه ومعرفته من المنزلة بين الناس في الدنيا، ونعمه في الآخرة، حتى يُرى عليه الرخاء ورفيف النعمة، وإنما خُصَّ حافظ سنته ومبلغها بهذا الدعاء؛ لأنه سعى في نضارة العلم وتجديد السنة، فجازاه في دعائه له بما يناسب حاله في المعاملة [ينظر: «قوت المغتذي على جامع الترمذي» (٢/ ٦٦١)].

الشمرات المترتبة على الدعوة إلى الله ﷻ:

- الفوز بالجنة والنجاة من النار، والفلاح في الدنيا والآخرة.
- دلالة الناس على الخير وهدايتهم إليه.
- أنها دليل على صلاح قلب العبد واستقامته.
- أنها تُثمر محبة الله تعالى ومحبة الناس.
- في القيام بها نشر للفضيلة ومحاربة للرديلة، وإصلاح للجماعة التي هي قوام أمة الإسلام.
- أن بها يصلح الأفراد وتسعد الشعوب، لما فيها من إرشاد الناس إلى المصالح الدنيوية والأخروية.
- أنها مما يقرب العبد إلى الله تعالى؛ فإن الداعي إلى الله التزم أمر ربه حيث أمره أن يدعو إليه.
- أنها تُكسب الداعي بركة دعوة النبي ﷺ بأن ينضر الله وجهه، فانت لا ترى أحداً من أهل الحديث غالباً إلا وفي وجهه نضارة.
- أنها تشرح للعالم كله سبل الإسلام السمحة، وترد على الدعاوى الباطلة التي يلصقها المغرضون بالدين الحنيف.
- أنها من أعظم أبواب الحسنات الجارية؛ حيث إن الداعي إلى الخير له من الأجر

مثل أجر من تبعه، كما ورد في الحديث.

الوسائل المعينة على الدعوة إلى الله تعالى:

- أن يعلم المسلم أن هذا الطريق فيه تشبُّه بالأنبياء والصالحين وسلوك مسالكهم.
- معرفة الأجر الكبير والثواب العظيم لمن دعا إلى الله تعالى.
- علو الهمة وكمال الإيمان، فمن صح إيمانه واكتمل لم يتمالك نفسه أن يرى محارم الله تُنتهك ولا يأمر وينهى، ولم تطاوعه نفسه إلا أن يكون من المصلحين الداعين إلى الله تعالى؛ طلباً لرفعة المنزل ولثواب الآخرة.
- نشر العلم الشرعي خصوصاً بين أجيال الشباب الذين هم الأمل في حمل راية الدعوة إلى الله تعالى.
- الاستفادة من القنوات الحديثة من انترنت وقنوات فضائية وغيرها في نشر ما ينفع المسلمين من علم شرعي وما إلى ذلك.
- استعادة دور المسجد كما كان أيام النبي ﷺ بحيث يتحول المسجد إلى مركز للمسلم يجد فيه كل شيء يهمه من أمر دينه ودنياه، فينبغي ربط المسلمين بالمساجد وجعلها مركزاً لهم يلوذون إليه في كل ما ينزل بهم، فهذا من أعظم ما يسهل أمور الدعوة.
- الاستعانة بالله تعالى ودعائه؛ لأن الدعوة إليه تحتاج إلى علم وفراغ وصبر وحسن خلق فهي شاقة على النفس، ولا يمكن لعبد أن يأتي بها على وجهها إلا بإعانة الله له وتوفيقه إليها.
- طلب العلم والجهد فيه، ونشره وتبليغه.



٢٦. الطهارة والوضوء

الإسلام دين الطهارة والجمال والكمال، ودين الفطرة، ولقد اعتنى الإسلام بطهارة المسلمين في ظاهرهم وفي باطنهم، فطهر بواطنهم بالإيمان والتقوى وكل خلق طيب وحال جميل، وطهر ظواهرهم بالأمر بطهارة الظاهر، من وضوء وغسل، والبعد عن القذر والخبث والنجس، فجمع بين طهاري الظاهر والباطن؛ لذا كانت الطهارة الظاهرة نصف الإيمان، وهي من أوجب واجبات الإسلام، وشعبة من أهم شعب الإيمان.

والطهارة بالمعنى العام تشمل كل ما يهيئ العبد المسلم للشروع في العبادة والإقبال على الله؛ كرفع الحَدَث بالوضوء والغسل، والاستنجاء، والتنظف بإزالة الأوساخ والنجاسات، وقص الأظافر، ونتف الإبط، وحلق العانة -وهو ما حول الفرج من الشعر- واستعمال السواك، ونحو ذلك.

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن الطهارة من أهم شعب الإيمان:

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

قال السعدي رحمه الله: «أخبر تعالى أن الحيض أذى، وإذا كان أذى، فمن الحكمة أن يمنع الله تعالى عباده عن الأذى وحده، ولهذا قال: ﴿فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ أي: مكان الحيض، وهو الوطء في الفرج خاصة، فهذا هو المحرم إجماعاً. وحد هذا الاعتزال وعدم القربان للحيض ﴿حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾ أي: ينقطع دمهن، فإذا انقطع الدم، زال المنع الموجود وقت جريانه، الذي كان لحله شرطان، انقطاع الدم، والاغتسال منه. فلما انقطع الدم، زال الشرط الأول وبقي الثاني، فلهذا قال: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ أي:

اغتسلن ﴿ فَأُوْهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ أي: في القبل لا في الدبر، لأنه محل الحرث. وفيه دليل على وجوب الاغتسال للحائض، وأن انقطاع الدم، شرط لصحته. ولما كان هذا المنع لطفاً منه تعالى لعباده، وصيانة عن الأذى قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾ أي: من ذنوبهم على الدوام ﴿ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ أي: المتترهين عن الآثام، وهذا يشمل التطهر الحسي من الأنجاس والأحداث، ففيه مشروعية الطهارة مطلقاً؛ لأن الله يحب المتصف بها، ولهذا كانت الطهارة مطلقاً شرطاً لصحة الصلاة والطواف، وجواز مس المصحف، ويشمل التطهر المعنوي عن الأخلاق الرذيلة، والصفات القبيحة، والأفعال الخسيسة» [تفسير السعدي] (ص: ١٠٠) باختصار.

وقال ﷺ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة: ٦].

وقال سبحانه: ﴿ لَمَسَاجِدُ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ [التوبة: ١٠٨].
وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر: ١ - ٥].

قال السعدي رحمه الله: «يحتمل أن المراد بثيابه، أعماله كلها، وبطهيريها تخليصها والنصح بها، وإيقاعها على أكمل الوجوه، وتنقيتها عن المبطلات والمفسدات، والمنقصات من شر ورياء، ونفاق، وعجب، وتكبر، وغفلة، وغير ذلك، مما يؤمر العبد باجتنابه في عباداته.

ويدخل في ذلك تطهير الثياب من النجاسة؛ فإن ذلك من تمام التطهير للأعمال

خصوصاً في الصلاة، التي قال كثير من العلماء: إن إزالة النجاسة عنها شرط من شروط الصلاة.

ويحتمل أن المراد بثيابه، الثياب المعروفة، وأنه مأمور بتطهيرها عن جميع النجاسات، في جميع الأوقات، خصوصاً في الدخول في الصلوات، وإذا كان مأموراً بتطهير الظاهر، فإن طهارة الظاهر من تمام طهارة الباطن» [تفسير السعدي] (ص: ٨٩٥).
عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُقبل صلاة من أحدث حتى يتوضأ». قال رجل من حضرموت: ما الحدث يا أبا هريرة؟ قال: فساء أو ضراط [رواه البخاري: ١٣٥، ومسلم: ٢٢٥].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تُقبل صلاة بغير طهور» [رواه مسلم: ٢٢٤].

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده، حتى تخرج من تحت أظفاره» [رواه مسلم: ٢٤٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن أمتي يدعون يوم القيامة غُرّاً مُحَجَّلِينَ من آثار الوضوء» [رواه البخاري: ١٣٦، ومسلم: ٢٤٦].

«غُرّاً» جمع أغر، أي: ذو غرة، وأصل الغرة لمعة بيضاء تكون في جبهة الفرس، ثم استعملت في الشهرة وطيب الذكر. «محجلين» من التحجيل وهو بياض يكون في قوائم الفرس، وأصله من الحجل وهو الخلخال. والمعنى: أن النور يسطع من وجوههم وأيديهم وأرجلهم يوم القيامة، وهذا من خصائص هذه الأمة التي جعلها الله ﷻ شهداء على الناس.

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبد الله ورسوله، إلا فُتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء» [رواه مسلم: ٢٣٤]. «يسبغ الوضوء» أي: يتمه ويكمله فيوصله مواضعه على الوجه المسنون.

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الطهور شرط الإيمان» [رواه مسلم: ٢٢٣]. «الطهور» أي: التطهر. «شرط الإيمان» أي: نصفه.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «عشر من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء، والمضمضة» [رواه مسلم: ٢٦١]. «إعفاء اللحية» أي: تركها على حالتها وعدم حلقها أو قصها. «البراجم» أي: مفاصل الأصابع. «انتقاص الماء» أي: الاستنجاء.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر النبي ﷺ بحائط من حيطان المدينة أو مكة، فسمع صوت إنسانين يُعذِّبان في قبورهما، فقال النبي ﷺ: «يُعذِّبان، وما يُعذِّبان في كبير». ثم قال: «بلى، كان أحدهما لا يستتر من بوله، وكان الآخر يمشي بالنميمة» [رواه البخاري: ٢١٦، ومسلم: ٢٩٢]. «حائط» أي: بستان. «لا يستتر من بوله» أي: لا يستبرئ منه ولا يتحفَّظ عن الإصابة به.

قال الخطابي رحمته الله: «قوله: «وما يُعذِّبان في كبير» معناه: أنهما لم يُعذِّبا في أمر كان يكبر عليهما أو يَشُقُّ فعله لو أرادا أن يفعلاه، وهو التنزه من البول وترك النميمة، ولم يُرد أن المعصية في هاتين الخصلتين ليست بكبيرة في حق الدين، وأن الذنب فيهما هيِّن سهل» [معالم السنن (١/ ١٩)].

الثمرات المترتبة على الطهارة كثيرة، منها:

من خلال النصوص السابقة من الكتاب والسنة يمكننا استخلاص ثمرات الطهارة، وهي:

– أن الصلاة لا تُقبل إلا بتحقيق الطهارة.

– الطهارة مكفرة للذنوب كلها، فلما كانت هذه الجوارح والأطراف هي محل الكسب والعمل، وكانت هي أبواب المعاصي والذنوب كلها، منها ما يكون في الوجه

كالسمع والبصر واللسان والشم والذوق، وكذا في سائر الأعضاء، شرع تطهيرها لتكفير ما اقترفته من الذنوب والمعاصي.

- أن الطهارة علامة هذه الأمة في وجوههم وأطرافهم يوم القيامة بين الأمم، وليست لأحد غيرهم.

- أنها تنشيط للجوارح، وإزالة للأوساخ والأقذار التي على البدن، فيقف العبد يناجي ربه في طهارة ونشاط؛ لأن الماء يعيد للجسم نشاطه وقوته وحيويته.

- أنها من خصال الإيمان، فلا يحافظ على الطهارة إلا المؤمن.

- أنه إذا انتهى العبد من الوضوء وختمه بالشهادتين كان موجبا لفتح أبواب الجنة له.

- أن الله يرفع صاحبها بها الدرجات، فإسباغ الوضوء خصوصا في أوقات البرد رفعة في الدرجات وزيادة في الحسنات.

- ومن ثمرات الطهارة العظيمة حب الله للمتطهرين، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين.

الأسباب والوسائل المعينة على الطهارة:

- أن يعلم المسلم أن الطهارة شرط في صحة الصلاة، وبدونها تكون الصلاة باطلة.

- أن يعلم أن الله تعالى يحب المتطهرين، فإذا علم العبد ذلك كان ذلك من أعظم الأسباب التي تعينه على الطهارة.

- أن يتعلم أحكام الطهارة من الكتاب والسنة الصحيحة وأقوال السلف الصالح وأئمة المسلمين.

- أن يعلم أن الطهارة موافقة للفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها، والإسلام هو دين الفطرة، وأنه جاء بالحث عليها، فغسل الوجه، وتنظيف الأنف، والفم، واليدين، والرجلين، وكذا الاغتسال، والاستنجاء، ونحوها، كل ذلك لا يحتاج لشرع ليشرعه،

بل يكفي الإنسان أن يكون سليم الفطرة لينظف تلك الأعضاء والجوارح، وليحرص على بعدها عن القذر والنجاسة.

- أن يحذر التشبه بالكفار الذين لا يأبهون لأمر الطهارة والتحرز من النجاسة.
- أن يعلم أن ترك الطهارة وعدم التنزه من البول من أسباب عذاب القبر.



٢٧. الأذان

الأذان من خصائص الإسلام وشعائره الظاهرة، وقد اتفقت الأمة الإسلامية على مشروعيته، وهو من خير الأعمال التي تقرب إلى الله تعالى، وللمؤذن فضل عظيم، ولمرّد الأذان أجر كبير، وهو من فروض الكفايات، لذا فهو شعبة مهمة من شعب الإيمان. والأذان هو: الإعلام بدخول وقت الصلاة بألفاظ الأذان المعروفة. ويستحب للمسلم إذا سمع المؤذن أن يقول مثل ما يقول إلا عند قول المؤذن: «حيّ على الصلاة»، فيقول المسلم: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، وعند قوله: «حيّ على الفلاح»، يقول المسلم أيضًا: «لا حول ولا قوة إلا بالله». ثم يصلي على النبي ﷺ، ثم يسأل الله الوسيلة للنبي ﷺ، فيقول: «اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمدًا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته». والوسيلة: منزلة عالية في الجنة.

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن الأذان من شعب الإيمان:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾

[المائدة: ٥٨].

قال الطبري رحمه الله: «يقول تعالى ذكره: وإذا أذن مؤذّنكم أيها المؤمنون بالصلاة سخر من دعوتكم إليها هؤلاء الكفار من اليهود والنصارى والمشرّكين ولعبوا من ذلك. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يعني تعالى ذكره بقوله: ذلك فعلهم الذي يفعلونه وهو هزؤهم ولعبهم من الدعاء إلى الصلاة، إنما يفعلونه بجهلهم برّبهم، وأنهم لا يعقلون ما لهم في إجابتهم إن أجابوا إلى الصلاة، وما عليهم في استهزائهم ولعبهم بالدعوة إليها، ولو عقلوا ما لمن فعل ذلك منهم عند الله من العقاب ما فعلوه» [تفسير الطبري] (٨/ ٥٣٦).

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].
﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ﴾ أي: إذا أذن لها.
وقال ﷺ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

قال ابن كثير رحمه الله: «قيل: المراد بها المؤذنون الصالحاء»، ثم قال: «والصحيح أن الآية عامة في المؤذنين وفي غيرهم» [تفسير ابن كثير] (٧/ ١٧٩، ١٨٠).
وعن ابن عمر رضي الله عنهما كان يقول: كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون الصلاة ليس يُنادى لها، فتكلموا يوماً في ذلك، فقال بعضهم: اتخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم: بل بوقاً مثل قرن اليهود، فقال عمر: أولاً تبعثون رجلاً ينادي بالصلاة، فقال رسول الله ﷺ: «يا بلال قم فنادِ بالصلاة» [رواه البخاري: ٦٠٤، ومسلم: ٣٧٧].

«فيتحिनون» أي: يقدرون وقتها ليأتوا إليها. «الناقوس» هو ما يضرب به النصارى وقت صلاتهم. «بوقاً» هو مثل قرن الشاة يُنفخ فيه فيُخرج صوتاً.
وعن عبد الله بن زيد رضي الله عنه قال: لما أمر رسول الله ﷺ بالناقوس يُعمل ليُضرب به للناس لجمع الصلاة طاف بي وأنا نائم رجل يحمل ناقوساً في يده، فقلت: يا عبد الله، أتبيع الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ فقلت: ندعو به إلى الصلاة، قال: أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك؟ فقلت له: بلى، قال: فقال: تقول: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الصلاة، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله. قال: ثم استأخر عني غير بعيد، ثم قال: وتقول: إذا أقيمت الصلاة: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الفلاح، قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة،

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله. فلما أصبحت أتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما رأيت فقال: «إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت، فليؤذن به، فإنه أندى صوتاً منك» فقمتم مع بلال، فجعلت ألقيه عليه، ويؤذن به، قال: فسمع ذلك عمر بن الخطاب وهو في بيته فخرج يجرد رداءه، ويقول: والذي بعثك بالحق يا رسول الله، لقد رأيت مثل ما رأي، فقال رسول الله ﷺ: «فلله الحمد» [رواه أبو داود: ٤٩٩].

وعن أبي مَحْذُورَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت أؤذن لرسول الله ﷺ، وكنت أقول في أذان الفجر الأول: حي على الفلاح، الصلاة خير من النوم، الصلاة خير من النوم، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله. [رواه النسائي: ٦٤٧].

وعن مالك بن الحُوَيْرِث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتيت النبي ﷺ في نفر من قومي، فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رحيماً رقيقاً، فلما رأى شَوْقَنَا إِلَى أَهَالِينَا قال: «ارجعوا فكونوا فيهم، وعلموهم، وصلُّوا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم، وليؤمَّكم أكبركم» [رواه البخاري: ٦٢٨، ومسلم: ٦٧٤].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا» [رواه البخاري: ٦١٥، ومسلم: ٤٣٧]. «النداء» أي: الأذان، «يستهموا» أي: يقرعوا.

وعن طلحة بن يحيى عن عمه قال: كنت عند معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فجاءه المؤذن يدعو إلى الصلاة فقال معاوية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المؤذنون أطولُ الناس أعناقاً يوم القيامة» [رواه مسلم: ٣٨٧].

قال النووي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قيل معناه: أكثر الناس تشوّفاً إلى رحمة الله تعالى؛ لأن المتشوّف يُطيل عنقه إلى ما يتطلع إليه، فمعناه كثرة ما يرويه من الثواب. وقال النضر بن شميل: إذا ألجم الناس العرق يوم القيامة طالت أعناقهم؛ لئلا ينالهم ذلك الكرب والعرق. وقيل معناه: أنهم سادة ورؤساء، والعرب تصف السادة بطول العنق. وقيل معناه: أكثر أتباعاً. وقال ابن الأعرابي: معناه أكثر الناس أعمالاً. قال القاضي عياض وغيره: ورواه

بعضهم: «إعناقاً» بكسر الهمزة، أي: إسراعاً إلى الجنة» [شرح مسلم] (٤ / ٩١).

وعن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة الأنصاري أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال له: إني أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك أو باديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء، فإنه: «لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة». قال أبو سعيد: سمعته من رسول الله ﷺ [رواه البخاري: ٦٠٩].

«البادية» هي الصحراء التي لا عمارة فيها حيث ترعى الغنم وغيرها. «مدى الصوت» هو آخر ما يصل إليه الصوت.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه، أن نبي الله ﷺ قال: «المؤذن يُغفر له بمدّ صوته، ويصدقّه من سمعه من رطب ويابس، وله مثل أجر من صلى معه» [رواه النسائي: ٦٤٦].

وعن عُقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يعجب ربكم من راعي غنم في رأس شظية بجبل، يؤذن بالصلاة، ويصلي، فيقول الله ﻋَﻠَﻴْكَ: انظروا إلى عبدي هذا يؤذن، ويقيم الصلاة، يخاف مني، قد غفرت لعبدي وأدخلته الجنة» [رواه أبو داود: ١٢٠٣]. «في رأس شظية بجبل» أي: في قطعة من رأس الجبل.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قال المؤذن: الله أكبر الله أكبر، فقال أحدكم: الله أكبر الله أكبر، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله، قال: أشهد أن لا إله إلا الله، ثم قال: أشهد أن محمداً رسول الله قال: أشهد أن محمداً رسول الله، ثم قال: حيّ على الصلاة، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: حيّ على الفلاح، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: الله أكبر الله أكبر، قال: الله أكبر الله أكبر، ثم قال: لا إله إلا الله، قال: لا إله إلا الله من قلبه - دخل الجنة» [رواه مسلم: ٣٨٥].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا عليّ، فإنه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة» [رواه مسلم: ٣٨٤].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آتِ محمدًا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته - حلت له شفاعتي يوم القيامة» [رواه البخاري: ٦١٤].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من قال حين يسمع المؤذن أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، رضيت بالله ربًا وبمحمد رسولًا وبالإسلام دينًا - غُفر له ذنبه» [رواه مسلم: ٣٨٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان له ضراط، حتى لا يسمع التأذين، فإذا قُضي التأذين أقبل حتى إذا نُوب بالصلاة أدبر، حتى إذا قُضي الثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه يقول له: اذكر كذا واذكر كذا، لما لم يكن يذكر من قبل، حتى يظل الرجل ما يدرى كم صلى» [رواه البخاري: ١٢٢٢، ومسلم: ٣٨٩].
«ثُوب بالصلاة» أي: أقيمت. «يخطر» أي: يوسوس.

من الثمرات المترتبة على الأذان:

- الإعلام بدخول وقت الصلاة.
- دعوة المسلمين إلى الاجتماع لأداء الصلاة جماعة.
- إعلاء اسم الله بالتكبير وإظهار شرعه ورفعته رسوله صلى الله عليه وسلم.
- تقرير التوحيد والتركيز على معاني الإسلام وحقائقه الكبرى؛ فهو تلخيص لدعوة الإسلام.
- نداء الناس إلى الفلاح والنجاح.
- الأذان يطرد الشيطان.
- أن المؤذن من أفضل الدعاة إلى الله تعالى.
- أن المؤذنين أطول الناس أعناقًا يوم القيامة.
- أنه يشهد للمؤذن كل من سمعه من جن وإنس يوم القيامة، ويغفر له مدى

صوته، ويصدقه مَنْ سمعه مِنْ رطب ويابس، وله مثل أجر مَنْ صلى معه، كما ثبت في الأحاديث.

- نيل الأجر والثواب سواء للمؤذن أو من يردد الأذان.

- نيل شفاعة النبي ﷺ عند سؤال الوسيلة له بعد ترديد الأذان والصلاة والسلام عليه ﷺ.

الوسائل المعينة على الأذان أداءً وترديداً:

- العلم بالفضائل المتعلقة بالأذان سواء للمؤذن أو مُرَدِّد الأذان معه.
- التبكير في الذهاب إلى المسجد يكون فرصة لأداء الأذان ما لم يكن للمسجد مؤذن راتب، أو عند غياب المؤذن الراتب.
- الإنصات عند سماع المؤذن يعين على ترديد الأذان وأداء الأذكار المتعلقة به.
- تعظيم شعائر الله سببٌ لتعظيم الأذان والحرص عليه، أو على ترديده مع المؤذن.



٢٨. الصلاة

الصلاة من أهم أركان الإسلام بعد الشهادتين؛ بل هي عمود الإسلام، وإذا سقط العمود سقط ما بُني عليه، ومما يبين أهميتها أن الله تعالى فرضها على نبيه محمد ﷺ من فوق سبع سماوات في ليلة المعراج، وفرضها الله تعالى خمسين صلاة في اليوم واليلة، ولكن الله سبحانه وتعالى خففها على عباده حتى صارت خمسًا بالفعل وخمسين في الأجر، وهذا يدل على محبة الله تعالى لها وأهميتها في حياة المسلم، وأنها جديرة بأن يصرف الإنسان جزءًا كبيرًا من وقته فيها.

والصلاة: عبادة ذات أقوال وأفعال مخصوصة، مفتوحة بالتكبير، مختمة بالتسليم.

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن الصلاة من أهم شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] في آيات كثيرة من كتاب الله. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]. وقال جل وعلا: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَعَآتُوا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

وقال ﷺ: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم: ٣١]. وقال سبحانه: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمُرُوا إِلَّا لِیَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت» [رواه البخاري: ٨، ومسلم: ١٦].

وعن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين بعثه إلى اليمن قال له: «وَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة» [رواه البخاري: ١٣٩٥، ومسلم: ١٩].

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سألت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أي العمل أفضل؟ قال: «الصلاة لوقتها». قال: قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين». قال: قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» [رواه البخاري: ٧٥٣٤، ومسلم: ٨٥].

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إن بين الرجل وبين الشرك والكفر، ترك الصلاة» [رواه مسلم: ٨٢].

وعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «خمس صلوات كتبهن الله على العباد، فمن جاء بهن لم يضيع منهن شيئاً استخفافاً بحقهن، كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد، إن شاء عذبه، وإن شاء أدخله الجنة» [رواه أبو داود: ١٤٢٠].

وعن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد» [رواه الترمذي: ٢٦١٦].

ثمرات الصلاة:

يتبين لنا من خلال نصوص القرآن والسنة السابقة أن للصلاة ثمرات جليلة وفوائد عظيمة منها:

- أن الذي يحافظ على الصلوات الخمس ولا يضيع منها شيئاً قد ضمن الله له أن يدخله الجنة.

- أن الصلاة تكفير للخطايا والذنوب؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر» [رواه مسلم: ٢٣٣].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم

يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟» قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا» [رواه البخاري: ٥٢٨، ومسلم: ٦٦٧]. «من درنه» أي وسخه.

— الصلاة ضامنة لفلاح العبد؛ فقد افتتح الله أعمال المؤمنين المفلحين بالصلاة واختتمها بها، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ٥ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ٦ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ١١﴾ [المؤمنون: ١-١١].

— أنها نور لصاحبها في الدنيا والآخرة؛ فعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والصلاة نور» [رواه مسلم: ٢٢٣].

— أنها من أهم الأسباب لرؤية الله تعالى في الآخرة، وما أُعطي العبد عطاء ولا نعيماً أحب إليه من النظر إلى وجه الله الكريم، ولم يفز العبد ويحصل على تلك اللذة وهذا الشرف العظيم إلا بمحافظته على الصلوات خاصة صلاتي الفجر والعصر؛ فعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم سترون ربكم، كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته (أي: لا ينالكم تعب أو ظلم بأن يرى بعضكم دون بعض)، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا» ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩] يعني: العصر والفجر [رواه البخاري: ٥٥٤، ومسلم: ٦٣٣].

قال العلماء: وجه مناسبة ذكر هاتين الصلاتين عند ذكر رؤية الله ﷻ: أن الصلاة أفضل الطاعات، وقد ثبت لهاتين الصلاتين من الفضل على غيرهما ما ذكر من اجتماع الملائكة فيهما ورفع الأعمال وغير ذلك، فهما أفضل الصلوات، فناسب أن يجازي المحافظ عليهما بأفضل العطايا وهو النظر إلى الله تعالى [ينظر: «فتح الباري» (٢/ ٣٤)].

- أنها نِعْمَ العون للعبد في مواجهة الشدائد والصعاب، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقد كان النبي ﷺ إذا حَزَبَهُ أَمْرٌ فَرَعَ إِلَى الصَّلَاةِ [رواه أبو داود: ١٣١٩]. «إِذَا حَزَبَهُ»: أي أصابه.

- أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

ووجه كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، أن العبد المقيم لها، المتمم لأركانها وشروطها وخشوعها، يستنير قلبه، ويتطهر فؤاده، ويزداد إيمانه، وتقوى رغبته في الخير، وتقل أو تُعَدَم رغبته في الشر، فبالضرورة مداومتها والمحافظة عليها على هذا الوجه، تنهى عن الفحشاء والمنكر، فهذا من أعظم مقاصدها وثمراتها. وثَمَّ في الصلاة مقصود أعظم من هذا وأكبر، وهو ما اشتملت عليه من ذكر الله، بالقلب واللسان والبدن، فإن الله تعالى، إنما خلق الخلق لعبادته، وأفضل عبادة تقع منهم الصلاة، وفيها من عبوديات الجوارح كلها، ما ليس في غيرها، ولهذا قال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [ينظر: «تفسير السعدي» (ص: ٦٣٢)].

الأسباب والوسائل المعينة على المحافظة على الصلوات:

- الاستعانة بالله تعالى، فلا يعين العبد على الطاعة إلا الله تعالى، وكلما وجد العبد في نفسه مشقة لأداء طاعة من الطاعات فعليه أن يتوجه إلى الله تعالى بالدعاء أن ييسر له فعل الطاعات وأن يعينه على ذلك، وقد كان النبي ﷺ يعلم أصحابه ذلك، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: «يا معاذ، والله إني لأحبك، والله إني لأحبك، فلا تدعن في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك» [رواه أبو داود: ١٥٢٢].

- معرفة أهمية الصلاة، وأنها ركن أصيل من أركان الدين، وأنها عمود الإسلام، وأنه لا حظ في الإسلام لمن تركها؛ فعن المسور بن مخرمة، أنه دخل على عمر بن

الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الليلة التي طُعن فيها، فأيقظ عمر لصلاة الصبح، فقال عمر: «نعم، ولا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة» فصلى عمر، وجرحه يثعب دمًا». [«موطأ مالك»: ٥١]. يثعب دمًا أي: يجرى ويتفجر.

يعني: أنه لا نصيب له في الإسلام، ولا تُقبل منه أعماله؛ إذ الصلاة أول أعمال الإسلام قبولًا وأرفعها شأنًا، فمن ترك الصلاة بطل نصيبه من سائر أعمال الإسلام، ولم ينتفع بها، ولم يكن له نصيب منها» [ينظر: «المنتقى شرح الموطأ» (١/ ٨٦)].
- استحضار فضائل أداء الصلوات في أوقاتها، ومعرفة الأجر العظيم المتحصل عند أدائها.

- الصحبة الصالحة التي تعين العبد على المحافظة على الصلاة، والبعد عن المثبطين الذين يجرونه جرًّا إلى الوراء.

- المحافظة على السنن والنوافل، حتى إذا أصاب العبد فتور تكون هذه السنن بمثابة سور يحمي قلعة الفرائض، فإذا أُصيب السور بأيّ ضعف لم تتأذّ قلعة بشيء.

- تقديم أداء الصلاة على أي شيء وذلك بمراقبة أوقات الصلاة، فمهما كان المسلم على شغل فمتى أذن المؤذن للصلاة قام للصلاة.

- المحافظة على أداء الصلوات المفروضة في المسجد مع جماعة المسلمين، ولا يجعل المسلم شيئًا يشغله عن الصلاة في المسجد.

- الدعاء، وهو سلاح قوي يغفل عنه كثير من الناس، فعلى المسلم أن يدعو الله

تعالى أن يجعله من المحافظين على الصلاة والمداومين عليها، فهذا نبي الله إبراهيم عليه السلام يدعو فيقول: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾

[إبراهيم: ٤٠].



٢٩. صلاة الجمعة

إن الله ﷻ فضَّل من كل شيء خَلَقَه شيئاً، ففضَّل من البلدان مكة، ومن الشهور رمضان، ومن الأيام الجمعة، وجعل في يوم الجمعة صلاةً تختلف عن صلوات باقي أيام الأسبوع، وهي صلاة الجمعة وخطبتها، فجعلها بدلاً عن صلاة الظهر، وجعل لها فضلاً عظيماً يفوق ما جعله للظهر، وهذا من فضل الله تعالى على عباده ونفحاته التي ينبغي للعبد أن يتعرض لها.

وقد أجمع المسلمون على وجوب صلاة الجمعة على الرجال، قال ابن المنذر رحمته الله تعالى: «وأجمعوا على أن الجمعة واجبة على الأحرار البالغين المقيمين الذين لا عذر لهم» [«الإجماع» (ص ٤٠)].

وصلاة الجمعة تحصل بخطبتين يفصل بينهما جلوس خفيف، ثم صلاة ركعتي الجمعة.

ولها آداب يُستحب فعلها من: اغتسال، وتطيُّب، ولبس البياض، والتبكير إليها، وهذا الأخير خصوصاً قد صار مهجوراً عند كثير من المسلمين، والله المستعان.

الأدلة على أن صلاة الجمعة من أهم شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].

قال السعدي رحمته الله: «يأمر تعالى عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة والمبادرة إليها، من حين يُنادى لها والسعي إليها، والمراد بالسعي هنا: المبادرة إليها والاهتمام لها، وجعلها أهم الأشغال. وقوله: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ أي: اتركوا البيع، إذا نودي للصلاة، وامضوا إليها. فإن ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من اشتغالكم بالبيع، وتقويتكم الصلاة الفريضة، التي هي من أكد الفروض.

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن ما عند الله خير وأبقى، وأن من آثر الدنيا على الدين، فقد خسر الخسارة الحقيقية، من حيث ظن أنه يريح، وهذا الأمر بترك البيع مؤقت مدة الصلاة». [تفسير السعدي] (ص: ٨٦٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهما إذا اجتنب الكبائر» [رواه مسلم: ٢٣٣]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من اغتسل ثم أتى الجمعة، فصلّى ما قُدِّرَ له، ثم أنصت حتى يفرغ الإمام من خطبته، ثم يصلي معه، غُفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى، وفضل ثلاثة أيام» [رواه مسلم: ٨٥٧].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «خمس من عملهن في يوم كتبه الله من أهل الجنة: من عاد مريضاً، وشهد جنازة، وصام يوماً، وراح يوم الجمعة، وأعتق رقبة». [رواه ابن حبان: ١٠٤٣].

وعن يزيد بن أبي مريم الأنصاري قال: حدثنا عباية بن رفاعة قال: أدركني أبو عبس وأنا أذهب إلى الجمعة، فقال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار» [رواه البخاري: ٩٠٧].

«اغبرت» أي: أصابها الغبار. «سبيل الله» أي: طاعة الله تعالى، ومنها حضور صلاة الجمعة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من اغتسل يوم الجمعة غُسل الجنابة ثم راح، فكأنما قرَّب بدنه، ومن راح في الساعة الثانية، فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة، فكأنما قرب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة، فكأنما قرب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة، فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر» [رواه البخاري: ٨٨١، ومسلم: ٨٥٠].

«غسل الجنابة» أي: غسلًا كغسل الجنابة. «راح» أي: ذهب أول النهار. «قرب

بدنة» أي: ذبحها وتصدق بها، والبدنة واحدة الإبل ذكرًا أم أنثى. «الساعة الثانية» المراد بالساعات هنا أوقات ما بين أول النهار إلى وقت صلاة الجمعة. «كَبْشًا» أي: ذَكَرَ الغنم. «أقرن» أي: له قرون، وُصِفَ بذلك لأنه أكمل وأحسن. «خرج الإمام» أي: دخل المسجد وصعد المنبر للخطبة. «حضرت الملائكة» أي: دخلت المسجد وتركت كتابة من يأتي بعد ذلك، فتفوته فضيلة التبكير، لا ثواب الجمعة. «الذكر» أي: خطبة الجمعة وما فيها من عظة وذكر لله تعالى.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقعد الملائكة على أبواب المساجد يوم الجمعة، فيكتبون الأول والثاني والثالث، حتى إذا خرج الإمام رُفعت الصحف» [رواه أحمد: ٢٢٤٢].

وعن أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة، والسبت، والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة، المقضي لهم قبل الخلائق» [رواه مسلم: ٨٥٦].

قال ابن هبيرة رضي الله عنه: «في هذا الحديث أن الله تعالى يُكرم من يشاء بأن يدخر له ما يشاء، فقد منَّ الله تعالى على هذه الأمة بأن جعل لها الجمعة، وجعل بعدها لليهود: السبت، وبعد السبت: الأحد للنصارى، فلو لا أن الله تعالى ادخر الجمعة لنا لكان لنا يوم الاثنين، ولكن الله ﷻ أبى إلا أن يجعلنا الأولين في مقام عبادته، وإن تأخر زماننا بعدهم، وهذا مما يدل على أنه إذا أراد الله أن يقدم متأخرًا أو يؤخر مقدمًا فعل به هكذا، وهذه مقدمة ما يفعل في القيامة؛ لأن القيامة يوم الجمعة» [الإفصاح عن معاني الصحاح (٢/ ٢٤٤)].

وعن عبد الله بن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما، أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول على أعواد منبره: «لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات، أو ليختمن الله على قلوبهم، ثم ليكونن من الغافلين» [رواه مسلم: ٨٦٥]. «ودعهم» أي: تركهم.

قال ابن عبد البر رحمته الله: «الختم على القلوب مثل الطبع عليها، وهذا وعيد شديد؛ لأن

من طُبِعَ على قلبه وختم عليه لم يعرف معروفًا ولم ينكر منكرًا» [«الاستذكار» (١١٧/٥)].
وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال لقوم يتخلفون عن الجمعة: «لقد هممتُ أن أمر رجلًا يصلي بالناس، ثم أُحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم»
[رواه مسلم: ٨٦٥].

وعن أبي الجعد الضمري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من ترك الجمعة ثلاثًا من غير عذر، فهو منافق» [رواه ابن خزيمة: ١٨٥٧].
وفي رواية عنه رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من ترك ثلاث جُمع تهاونًا بها، طبع الله على قلبه» [رواه أبو داود: ١٠٥٢].

«تهاونًا بها» أي: تساهلًا عن تقصير لا عن عذر. «طبع الله على قلبه» أي: ختم عليه بمنع إيصال الخير إليه، وقيل: كتبه منافقًا.
وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «من ترك الجمعة ثلاث جُمع متواليات فقد نبذ الإسلام وراء ظهره» [رواه أبو يعلى في «مسنده» (١٠٢/٥)].
وعن عبد الملك بن يعلى وكان قاضي البصرة قال: «من ترك ثلاث جمع من غير عذر لم تجز شهادته» [«أخبار القضاة» لوكيع (١٧/٢)].

الثمرات المترتبة على صلاة الجمعة:

- أنها أداء فريضة من فرائض الله تعالى على عباده.
- أنها من أعظم شعائر الإسلام، ففيها اجتماع المسلمين كل أسبوع، ويومها يوم عيد، والسعي إليها والاجتماع فيها والاحتشاد لها؛ يحصل به الترابط والائتلاف بين المسلمين.
- أنها سبب لمغفرة الذنوب بشرط اجتناب الكبائر.
- أن المشي إليها من أسباب الوقاية من عذاب النار.
- إنها من أسباب دخول الجنة.

- أنها من أسباب رفع الدرجات في الآخرة، والساعي إليها كالمغبر قدمه في سبيل الله.
- أن في التبكير إليها من الفضل العظيم ما يعادل أعظم الصدقات، فمن راح في الساعة الأولى فكأنما تصدق ببدنة، ومن راح في الثانية فكأنما تصدق ببقرة، وهكذا كما سبق في الحديث.
- أن حضور الجمعة وسماع الخطبة من أهم ما يساعد في تعليم المسلمين أمور دينهم.

الأسباب والوسائل المعينة على أداء صلاة الجمعة:

- من أهم ما يعين على الحفاظ على صلاة الجمعة خشية الله تعالى، والنظر في وعيده لمن ترك هذه الصلاة.
- أن يعلم العبد ما يصيبه من طبع على قلبه عند تركه لها.
- النظر فيما ورد فيها من فضل عظيم قد لا يدركه العبد في غيرها من العبادات، كما سبق وأن بينا في الأدلة.
- تعظيم يوم الجمعة في القلوب ومعرفة قدره، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة: فيه خُلِقَ آدم، وفيه أُدْخِلَ الجنة، وفيه أُخْرِجَ منها» [رواه مسلم: ٨٥٤].
- عدم الاشتغال بشيء قبلها من بيع وتجارة، والتفرغ للتجهز لها والتحلي بآدابها من غسل وتطيب ونحو ذلك.
- عدم الإسراف في السهر ليلة الجمعة لئلا يُفْضِي إلى النوم عن صلاة الجمعة.
- تعويد العبد نفسه أن يحافظ على الصلوات في أوقاتها في جماعة، فلا تكاد تجد من يضيع صلاة الجمعة إلا من كان مستهتراً بصلواته عموماً.
- تعويد الآباء أبناءهم على الذهاب إلى المساجد وخصوصاً يوم الجمعة، وتربيتهم على ذلك منذ الصغر، فيشتري الأب لابنه ثوباً أبيض، ويعطيه شيئاً من الطيب يتطيب به، حتى يشعر الأولاد بفضل هذا اليوم على غيره ويطربوا بذلك في نفوسهم.

﴿ ٣٠ 》 صلاة الجماعة

الصلاة أعظم أركان الإسلام بعد التوحيد، ولِعَظُمِ قَدْرُ الصلاة شَرَعَ اللهُ إقامة الصلوات الخمس وغيرها في جماعة، فينال المسلمون بذلك الأجر العظيم، ويحصلون الكثير من الفوائد التي تشمل الفرد والمجتمع؛ لذا كانت صلاة الجماعة طاعة من أفضل الطاعات، وشعبة من شعب الإيمان.

وأقل الجماعة إمام ومأموم ممن تصح منهم الجماعة وتشرع لهم، ويجوز للنساء حضور صلاة الجماعة إذا خرجن بالآداب الشرعية، وصلاتهن في بيوتهن أفضل. وتشرع الصلاة في جماعة في الصلوات الخمس والعيدين والكسوف والتراويح وغيرها.

وصلاة الجماعة في المسجد أفضل [ينظر: «فتح الباري» لابن رجب (٣/ ٤١٤)].

الأدلة الشرعية على أن صلاة الجماعة من شعب الإيمان:

قال الله ﷻ: ﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].

قال السعدي رحمه الله: «وقوله: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي: صلوا مع المصلين،

ففيه الأمر بالجماعة للصلاة ووجوبها» [تفسير السعدي] (ص: ٥١).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَافِةً مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَافِةٌ أُخْرَى لَمْ يَصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢].

قال السعدي رحمه الله: «أمر الله بصلاة الجماعة في هذه الحالة الشديدة وقت اشتداد الخوف

من الأعداء، فيجابهها في حالة الطمأنينة والأمن من باب أولي، كما أن المصلين صلاة الخوف يتركون فيها كثيراً من الشروط واللوازم، ويُعفى فيها عن كثير من الأفعال المُبطلَة في غيرها، وما ذاك إلا لتأكد وجوب الجماعة» [تفسير السعدي] (ص: ١٩٨) بتصرف واختصار.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في بيته وصلاته في سوقه بضْعاً وعشرين درجةً، وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم أتى المسجد لا ينهزه إلا الصلاة، لا يريد إلا الصلاة، فلم يخطُ خطوةً إلا رُفِعَ له بها درجةً، وحُطَّ عنه بها خطيئةٌ، حتى يدخل المسجد، فإذا دخل المسجد كان في الصلاة ما كانت الصلاة هي تحبسه، والملائكة يصلون على أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلى فيه، يقولون: اللهم ارحمه، اللهم اغفر له، اللهم تب عليه، ما لم يؤذ فيه، ما لم يُحدث فيه» [رواه البخاري: ٤٧٧، ومسلم: ٦٤٩].

«لا ينهزه إلا الصلاة» أي: لا يدفعه ويُنهضه ويُحرِّكه إلا الصلاة [شرح النووي على مسلم] (٣/ ١١٦).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أثقل صلاةٍ على المنافقين صلاةُ العشاء وصلاةُ الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً، ولقد هممتُ أن آمرُ بالصلاة فتقام، ثم آمرُ رجلاً فيصلي بالناس، ثم أنطلق معي برجال معهم حُزْمٌ من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة، فأحرق عليهم بيوتهم بالنار» [رواه البخاري: ٦٤٤، ومسلم: ٦٥١].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «صلاة الرجل في الجماعة تزيد على صلاته وحده سبْعاً وعشرين» [رواه البخاري: ٦٤٥، ومسلم: ٦٥٠].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «صلاة الجماعة تفضلُ صلاةُ الفذِّ بخمس وعشرين درجةً» [رواه البخاري: ٦٤٦]. «الفذُّ» أي: المنفرد.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى النبي ﷺ رجلٌ أعمى، فقال: يا رسول الله، إنه ليس لي قائدٌ يقودني إلى المسجد، فسأل رسول الله ﷺ أن يُرَخِّصَ له، فيصلي في

بيته، فرخص له، فلما ولى دعاه، فقال: «هل تسمع النداء بالصلاة؟» قال: نعم، قال: «فأجب» [رواه مسلم: ٦٥٣].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من ثلاثة في قرية ولا بدو، لا تُقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة؛ فإنما يأكل الذئب القاصية»، قال بعض رواه: يعني بالجماعة: الصلاة في الجماعة. [رواه أبو داود: ٥٤٧].

«يأكل الذئب القاصية»، أي: يأكل الشاة البعيدة من الراعي.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «مَنْ سَرَّه أَنْ يَلْقَى اللَّهَ غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادِي بَهَنَ، فَإِنَّ اللَّهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الْهَدْيِ، وَإِنَّهُمْ مِنْ سُنَنِ الْهَدْيِ، وَلَوْ أَنْكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بَيْوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحَسِّنُ الطَّهَوْرَ ثُمَّ يَعْبُدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً، وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً، وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةٌ، وَلَقَدْ رَأَيْنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ» [رواه مسلم: ٦٥٤].

«يُهَادَى» أي: يمسكه رجلان من جانبيه بعضديه يعتمد عليهما؛ وذلك لمرضه وضعفه.

وعن سالم قال: سمعت أم الدرداء تقول: دخل عليّ أبو الدرداء رضي الله عنه وهو مغضب، فقلت: ما أغضبك؟ فقال: «والله ما أعرف من أمة محمد ﷺ شيئاً إلا أنهم يصلون جميعاً» [رواه البخاري: ٦٥٠].

قال ابن رجب الحنبلي رحمته الله: «فيه أن الصلاة في الجماعة من أمر محمد ﷺ ودينه وشرعه» [«فتح الباري» لابن رجب (٦/ ٢٣)].

وقال الحسن البصري رحمته الله: «إِنْ مَنَعَتْهُ أُمُّهُ عَنِ الْعِشَاءِ فِي الْجَمَاعَةِ شَفَقَةً لَمْ يُطْعَمْهَا» [رواه البخاري (١/ ١٣١) تعليقاً].

وقال ابن أبي حاتم الرازي رحمته الله: «سمعت أبا زرعة في سنة اثنتين وستين ومائتين يقول: كنتُ منذ سنين نحو عشرين سنة ربما خطر ببالي تقصير الناس في الأعمال في النوافل والحج والصيام والجهاد، فكثُرَ ذلك في قلبي، فرأيت ليلة فيما يرى النائم كأنَّ آتياً أتاني فضرب يده بين كتفَيَّ فقال: قد أكثرَ من العبادة، وأيُّ عبادة أفضل من الصلوات الخمس في جماعة؟! [«الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (١/ ٣٤٦ - ٣٤٧)].

الثمرات المترتبة على الصلاة في جماعة في المسجد كثيرة، منها:

- الحصول على الثواب العظيم والأجر الكبير.
- التعبد لله بالمشي إلى المسجد مع السكينة والوقار.
- نيل ثواب الدعاء عند دخول المسجد والخروج منه، وصلاة تحية المسجد عند دخوله، وغير ذلك من الأعمال الصالحة المرتبطة بصلاة الجماعة في المسجد.
- صلاة الملائكة على من حضرها واستغفارهم له.
- حصول ثواب إدراك تكبيرة الإحرام لمن بكرَّ لصلاة الجماعة.
- نيل الأجر بتسوية الصفوف وسد الفُرَجِ.
- الأمن من السهو غالباً وتنبية الإمام إذا سهوا بالتسبيح أو الفتح عليه.
- حصول الخشوع والسلامة عما يُلهي غالباً.
- إظهار شعائر الإسلام.
- إرغام الشيطان بالاجتماع على العبادة والتعاون على الطاعة، ونشاط المتكاسل.
- السلامة من صفة النفاق، ومن إساءة غيره الظنُّ بأنه ترك الصلاة رأساً.
- قيام نظام الألفة بين المسلمين لاسيما الجيران، وحصول تعاهدهم في أوقات الصلوات.

- تعليم المسلمين؛ لأن كثيراً من الناس يستفيد مما شرع في الصلاة بواسطة صلاة الجماعة، ويسمع القراءة في الجهرية فيستفيد ويتعلم، ويسمع أذكار أدبار

الصلوات فيحفظها، ويقتدي بالإمام ومن بجانبه وأمامه فيتعلم أحكام صلاته، ويتعلم الجاهل من العالم.

الوسائل المعينة على حضور صلاة الجماعة:

- اتخاذ صحبة صالحة تعينه على حضور صلاة الجماعة، وتحثه عليها، قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].
- الحذر من الشيطان ومن طرقه في صرفه للعباد عن الطاعات.
- الحرص على الأسباب المعينة على المحافظة على حضور صلاة الجماعة، ومن ذلك ترك السهر بعد العشاء الذي يؤدي إلى ترك صلاة الجماعة في صلاة الفجر، فعن أبي بكر بن سليمان بن أبي حثمة، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد سليمان بن أبي حثمة في صلاة الصبح، وأن عمر بن الخطاب غدا إلى السوق، ومسكن سليمان بين السوق والمسجد النبوي، فمر على الشفاء أم سليمان، فقال لها: «لم أر سليمان في الصبح؟». فقالت: إنه بات يصلي، فغلبته عيناه، فقال عمر: «لأن أشهد صلاة الصبح في الجماعة أحب إلي من أن أقوم ليلة» [موطأ مالك] برواية يحيى: [٧].
- عدم الانشغال بطلب الدنيا طلباً يُشغل عن الطاعات ومنها صلاة الجماعة.
- عدم إطالة الأئمة إطالة تُنفّر المصلين عن حضور صلاة الجماعة؛ فعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رجل يا رسول الله، لا أكاد أدرك الصلاة مما يطول بنا فلان، فما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في موعظة أشد غضباً من يومئذ، فقال: «أيها الناس، إنكم مُنْفَرُونَ، فَمَنْ صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ، فَإِنْ فِيهِمُ الْمَرِيضُ، وَالضَّعِيفُ، وَذَا الْحَاجَةِ» [رواه البخاري: ٩٠، ومسلم: ٤٦٦]. «لا أكاد أدرك الصلاة» أي: لا أسارع إلى الصلاة في الجماعة، بل أتأخر عنها أحياناً من أجل التطويل [ينظر: «فتح الباري» لابن حجر (١/ ١٨٦)].
- أن يعلم المسلم فضلها، وعظم الثواب في المحافظة عليها.
- التربية السليمة منذ الصغر، فالتعليم في الصغر كالنقش على الحجر، فمن شبَّ

على شيء نشأ عليه، بل وشاب أيضاً عليه، فعلى الوالدين دور عظيم في تعويد أبنائهم على صلاة الجماعة في المسجد، وتعليمهم آداب المسجد.

- الاستعانة بالله تعالى؛ لأن حمل النفس على صلاة الجماعة في المسجد في جميع الأحوال، لا سيما مع كثرة الأشغال والملهيات - شاقٌّ عليها، ولا يمكن لعبد أن يأتي بها على وجهها إلا بإعانة الله له وتوفيقه إليه.

- معرفة فضل وثواب صلاة الجماعة، وإثم التخلف عنها.



﴿ ٣١. صلاة التطوع ﴾

الصلاة صلة بين العبد وربّه، وليست مقتصرة على الفرائض، فقد شرع الله لعباده صلاة التطوع، وهي سبيل إلى زيادة الحسنات ورفعة الدرجات، وإكمال ما يكون في الفريضة من تقصير، ومن حرص عليها كان أكثر حرصاً على أداء الفرائض. والمراد بصلاة التطوع: ما شرع أن يفعله الشخص من صلاة، من ذات نفسه من غير الواجبات.

ومن صلاة التطوع: قيام الليل، والسنن الرواتب قبل المفروضات وبعدها، وصلاة الضحى وغيرها من الصلوات ذوات السبب. ومن صلاة التطوع النفل المطلق الذي لا يقيد بسبب، ويجوز فعله في جميع الأوقات إلا في الأوقات المنهي عن الصلاة فيها.

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن صلاة التطوع من شعب الإيمان:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨].

قال السعدي رحمته الله: «وقوله: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ﴾ أي: فعل طاعة مخلصاً بها الله تعالى ﴿خَيْرًا﴾ من حجٍّ وعمره وطواف وصلاة وصوم وغير ذلك ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ فدل هذا على أنه كلما ازداد العبد من طاعة الله ازداد خيره وكماله ودرجته عند الله؛ لزيادة إيمانه. ودل تقييد التطوع بالخير أن مَنْ تَطَوَّعَ بالبدع التي لم يشرعها الله ولا رسوله أنه لا يحصل له إلا العناء، وليس بخير له، بل قد يكون شراً له، إن كان متعمداً عالماً بعدم مشروعية العمل» [تفسير السعدي] (ص: ٧٧).

وعن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد نائر الرأس، يُسمع دويّ صوته ولا يُفقه ما يقول، حتى دنا، فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال

رسول الله ﷺ: «خمس صلوات في اليوم واللييلة». فقال: هل عليَّ غيرها؟ قال: «لا، إلا أن تطوَّع»، قال رسول الله ﷺ: «وصيام رمضان»، قال: هل عليَّ غيره؟ قال: «لا، إلا أن تطوَّع»، قال: وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة، قال: هل عليَّ غيرها؟ قال: «لا، إلا أن تطوَّع»، قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص، قال رسول الله ﷺ: «أفلح إن صدق» [رواه البخاري: ٤٦، ومسلم: ١١].

وعن معدان بن أبي طلحة اليعمرى، قال: لقيت ثوبان مولى رسول الله ﷺ، فقلت: أخبرني بعمل أعمله يدخلني الله به الجنة؟ فقال: سألتُ عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «عليك بكثرة السجود لله، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة، وحطَّ عنك بها خطيئة» قال معدان: ثم لقيت أبا الدرداء فسألتُه، فقال لي مثل ما قال لي ثوبان. [رواه مسلم: ٤٨٨].

وعن ربيعة بن كعب الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنتُ أبيتُ مع رسول الله ﷺ فأتيتُه بوضوئه وحاجته فقال لي: «سل» فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة. قال: «أو غير ذلك» قلت: هو ذاك. قال: «فأعني على نفسك بكثرة السجود» [رواه مسلم: ٤٨٩].

«بوضوئه» أي: بالماء الذي يتوضأ به. «فأعني على نفسك بكثرة السجود» أي: كن لي عوناً في إصلاح نفسك لما تطلب بكثرة الصلاة.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال: مَنْ عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضتُ عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه» [رواه البخاري: ٦٥٠٢].

«وليّاً» الولي هو المؤمن التقي، المواظب على طاعته، المخلص في عبادته. «آذنته بالحرب» أي: أعلمته بالهلاك والنكال. «كنتُ سمعه الذي يسمع به...» المراد: أحفظه كما يحفظ العبد جوارحه من التلف والهلاك، وأوقفه لما فيه خيره وصلاحه، وأعينه في

المواقف وأنصره في الشدائد. «استعاذني» أي: استجار بي مما يخاف.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيء قال الرب عز وجل: انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك» [رواه الترمذي: ٤١٣].
وعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم، ولا تتخذوها قبورًا» [رواه البخاري: ٤٣٢، ومسلم: ٧٧٧].

معناه: صلوا فيها ولا تجعلوها كالقبور مهجورة من الصلاة، والمراد به صلاة النافلة، أي: صلوا النوافل في بيوتكم [ينظر: «شرح النووي على مسلم» (٦/ ٦٧)].
وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا قضى أحدكم الصلاة في مسجده فليجعل لبيته نصيباً من صلاته، فإن الله جاعلٌ في بيته من صلاته خيراً» [رواه مسلم: ٧٧٨].
وعن جابر بن يزيد بن الأسود، عن أبيه رضي الله عنه، أنه صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غلام شاب، فلما صلى إذا رجلان لم يصليا في ناحية المسجد، فدعا بهما فجيء بهما ترعد فرائصهما، فقال: «ما منعكما أن تصليا معنا؟» قالا: قد صلينا في رحالنا، فقال: «لا تفعلوا، إذا صلى أحدكم في رحله ثم أدرك الإمام ولم يصل، فليصل معه فإنها له نافلة» [رواه أبو داود: ٥٧٥].

«ترعد» أي: تتحرك. «فرائصهما» جمع فريضة وهي اللحمة التي بين الجنب والكتف، أي: ترجف من الخوف. «رحالنا» جمع رَحْل، وهو المنزل. «فإنها له نافلة» فيه تصريح بأن الثانية نافلة والفريضة هي الأولى. [ينظر: «عون المعبود» (٢/ ١٩٩)].
وعن محمد بن مسلمة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قام يصلي تطوعاً قال: «الله أكبر، وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك» ثم يقرأ. [رواه النسائي: ٨٩٨].

ومن الصلوات النوافل التي حث عليها الشرع:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله امرأً صلى قبل العصر أربعاً» [رواه أبو داود: ١٢٧١].

وعن عبد الله بن مُغفل رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «بين كل أذانين صلاة، بين كل أذانين صلاة»، ثم قال في الثالثة: «لمن شاء» [رواه البخاري: ٦٢٧، ومسلم: ٨٣٨]. «بين كل أذانين» أي: بين الأذان والإقامة.

وعن عبد الله المزني، عن النبي ﷺ قال: «صلوا قبل صلاة المغرب»، قال في الثالثة: «لمن شاء» كراهية أن يتخذها الناس سنة [رواه البخاري: ١١٨٣]. «كراهية أن يتخذها الناس سنة» أي: حتى لا يتخذها الناس طريقة لازمة يواظبون عليها وينكرون على من تركها.

وعن أبي قتادة بن ربعي الأنصاري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إذا دخل أحدكم المسجد، فلا يجلس حتى يُصلي ركعتين» [رواه البخاري: بعد ١١٧١، ومسلم: ٧١٤]. وهاتان الركعتان التي يصليهما المسلم عند دخوله المسجد هي الصلاة المعروفة بتحية المسجد، فمن العلماء من قال بوجوبها ومنهم من قال بسنيتها.

الشمرات المترتبة على أداء صلاة التطوع:

- تحصيل الأجر الكثير، واغتنام الثواب العظيم للفوز بالجنة والنجاة من النار.
- زيادة الإيمان والقرب من الرحمن بالعبادة والمناجاة.
- أنه من تعب في الدنيا استراح في الآخرة، ومن صفّ قدميه لله عابداً خاشعاً سهّل عليه وقوفه أمام الله تعالى يوم القيامة.
- أن التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض سبب لمحبة الله تعالى للعبد، وأن يحفظه ويوفقه لما فيه الخير والصلاح.

- أن زيادة الصلوات النوافل سبيل إلى جبر الخلل الواقع من العبد في أدائه للفرائض.
- إذا أصاب العبد فتور تكون الصلوات النوافل بمثابة سُورٍ يحمي قلعة الفرائض، فإذا أُصيب السور بأيّ ضعف لم تتأذّ القلعة بشيء.

الوسائل المعينة على أداء صلاة التطوع:

- الاقتداء بالنبي ﷺ وصحابته الأبرار، والتابعين لهم بإحسان في حرصهم على الطاعات.
- صدق محبة النبي ﷺ؛ فإن ذلك من أسباب الحرص على العمل بسنته ﷺ.
- الحرص على الأجر المترتب على أداء صلاة التطوع.
- الخوف من العقوبة بالتقصير في الفرائض، فعن ابن المبارك رحمته الله أنه قال: «مَنْ تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن، ومَنْ تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض، ومَنْ تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة» [رواه البيهقي في «شعب الإيمان»: ٣٠١٧].
- الخوف من الله معين على الاجتهاد في نوافل الطاعات ومن ذلك صلاة التطوع، قال ابن رجب: «والقدر الواجب من الخوف ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم، فإن زاد على ذلك بحيث صار باعثاً للنفوس على التشمير في نوافل الطاعات والانكفاف عن دقائق المكروهات والتبسط في فضول المباحات - كان ذلك فضلاً محموداً» [«التخويف من النار» (ص ٢٨)].
- محبة الله تعالى تؤدي إلى الاجتهاد في طاعته، ومن جملة ذلك صلاة التطوع.
- عدم الانشغال بطلب الدنيا طلباً يشغل عن الطاعات.
- اتخاذ صحبة صالحة تذكره بصلاة التطوع، وتحثه عليها، قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].
- الحذر من الشيطان ومن طرقه في صرفه للعباد عن الطاعات.

- الاستعانة بالله تعالى، فلا يعين العبد على الطاعة إلا الله تعالى، وكلما وجد العبد في نفسه مشقة لأداء طاعة من الطاعات فعليه أن يتوجه إلى الله تعالى بالدعاء أن ييسر له فعل الطاعات وأن يعينه على ذلك، وقد كان النبي ﷺ يعلم أصحابه ذلك، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: «يا معاذ، والله إني لأحبك، والله إني لأحبك، فلا تدعن في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك» [رواه أبو داود: ١٥٢٢].



﴿ السنن الرواتب ﴾

الصلاة من أعظم أركان الإسلام، وقد شرع الله لعباده صلاة النوافل، ومن أفضل صلاة النوافل السنن الرواتب، من حافظ عليها نال الأجر العظيم، وحصل الثواب الكبير، وكان أكثر حرصاً على أداء الفرائض؛ لذا كانت المحافظة عليها من فضائل الأعمال، وشعبة من شعب الإيمان.

والسنن الرواتب -وتسمى السنن المؤكدة- هي صلوات حافظ النبي ﷺ عليها، وهي مرتبطة بأغلب الصلوات المفروضات، وتكون قبلها أو بعدها أو كلاهما، وهي اثنتا عشرة ركعة: ركعتان قبل صلاة الفجر، وأربع ركعات قبل صلاة الظهر، وركعتان بعدها، وركعتان بعد المغرب، وركعتان بعد العشاء. أما في الجمعة، فقد كان ﷺ يصلي بعدها أربع ركعات وأحياناً ركعتين.

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن المحافظة على السنن الرواتب من شعب الإيمان:

قال الله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۚ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ ۚ ﴾ [ق: ٣٩، ٤٠].

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾: الركعتان قبل صلاة الفجر. ﴿ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ ﴾ من المفسرين من قال: هي صلاة النوافل بعد المفروضات، ومنهم من قال: هما ركعتان بعد صلاة المغرب [ينظر: «النكت والعيون» للماوردي (٥ / ٣٥٧)].

وعن النعمان بن سالم، عن عمرو بن أوس قال: حدثني عنبسة بن أبي سفيان في مرضه الذي مات فيه بحديث يتسار إلى، قال: سمعت أم حبيبة رضي الله عنها تقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صلى اثنتي عشرة ركعة في يوم وليلة بُني له بهن بيت في الجنة». قالت أم حبيبة رضي الله عنها: فما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ، وقال عنبسة رضي الله عنه:

فما تركتُهن منذ سمعتُهن من أمّ حبيبة، وقال عمرو بن أوسٍ رضي الله عنه: ما تركتُهن منذ سمعتُهن من عَنبَسَةَ، وقال النُّعْمَانُ بن سالم رضي الله عنه: ما تركتُهن منذ سمعتُهن من عمرو بن أوس. [رواه مسلم: ٧٢٨]. «بحديث يتسار إليه» أي: يُسرُّ به، من السرور؛ لما فيه من البشارة مع سهولته.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: صليتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الظهر سجدتين، وبعدها سجدتين، وبعد المغرب سجدتين، وبعد العشاء سجدتين، وبعد الجمعة سجدتين، فأما المغرب والعشاء والجمعة فصليتُ مع النبي صلى الله عليه وسلم في بيته. [رواه البخاري: ١١٧٢، ومسلم: ٧٢٩].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: حفظت من النبي صلى الله عليه وسلم عشر ركعاتٍ: ركعتين قبل الظهر، وركعتين بعدها، وركعتين بعد المغرب في بيته، وركعتين بعد العشاء في بيته، وركعتين قبل صلاة الصبح، وكانت ساعة لا يُدخلُ على النبي صلى الله عليه وسلم فيها. [رواه البخاري: ١١٨٠].

وعن عبد الله بن شقيق قال: سألتُ عائشة رضي الله عنها عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تطوُّعه؟ فقالت: كان يصلي في بيتي قبل الظهر أربعاً، ثم يخرج فيصلِّي بالناس، ثم يدخل فيصلِّي ركعتين، وكان يصلي بالناس المغرب، ثم يدخل فيصلِّي ركعتين، ويصلي بالناس العشاء، ويدخل بيتي فيصلِّي ركعتين، وكان يصلي من الليل تسعَ ركعات فيهن الوتر، وكان يصلي ليلاً طويلاً قائماً، وليلاً طويلاً قاعداً، وكان إذا قرأ وهو قائم ركع وسجد وهو قائم، وإذا قرأ قاعداً ركع وسجد وهو قاعد، وكان إذا طلع الفجر صلى ركعتين. [رواه مسلم: ٧٣٠].

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها» [رواه مسلم: ٧٢٥]. والمراد بـ «ركعتا الفجر»: صلاة ركعتين قبل صلاة الفجر.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم على شيء من النوافل أشدَّ منه تعاهداً على ركعتي الفجر. [رواه البخاري: ١١٦٩، ومسلم: ٧٢٤].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لَا يَدْعُ أَرْبَعًا قَبْلَ الظُّهْرِ، وَرَكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْغَدَاةِ. [رواه البخاري: ١١٨٢]. «قبل الغداة» أي: قبل صلاة الصبح.

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ الْجُمُعَةَ فَلْيَصِلْ بَعْدَهَا أَرْبَعًا [رواه مسلم: ٨٨١].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُخَفِّفُ الرُّكْعَتَيْنِ اللَّتَيْنِ قَبْلَ صَلَاةِ الصُّبْحِ حَتَّى إِنِّي لَأَقُولُ: هَلْ قَرَأَ بِأَمِّ الْكِتَابِ؟ [رواه البخاري: ١١٧١، ومسلم: ٧٢٤].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي رَكْعَتِي الْفَجْرِ فِي الْأُولَى مِنْهُمَا: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦] الْآيَةَ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ، وَفِي الْآخِرَةِ مِنْهُمَا: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]. [رواه مسلم: ٧٢٧].

وَفِي رَوَايَةٍ أُخْرَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي رَكْعَتِي الْفَجْرِ: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]، وَالَّتِي فِي آلِ عِمْرَانَ: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ﴾ [آل عمران: ٦٤]. [رواه مسلم: ٧٢٧].

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَرَأَ فِي رَكْعَتِي الْفَجْرِ: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. [رواه مسلم: ٧٢٦].

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: مَا أَحْصَيْتُ مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الرُّكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرَبِ وَفِي الرُّكْعَتَيْنِ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ بِقُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. [رواه الترمذي: ٤٣١].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا لَمْ يُصَلِّ أَرْبَعًا قَبْلَ الظُّهْرِ صَلَّاهُنَّ بَعْدَهَا. [رواه الترمذي: ٤٢٦].

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنْ أَوَّلَ مَا يَحْسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلُحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ، فَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ قَالَ الرَّبُّ ﻋَزَّ وَجَلَّ: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ؟ فَيُكَمَّلُ بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى ذَلِكَ». [رواه الترمذي: ٤١٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال: مَنْ عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه» [رواه البخاري: ٦٥٠٢].

«ولياً» الولي هو المؤمن التقي، المواظب على طاعة الله، المخلص في عبادته. «آذنته بالحرب» أي: أعلمته بالهلاك والهلاك. «كنت سمعه الذي يسمع به...» المراد: أحفظه كما يحفظ العبد جوارحه من التلف والهلاك، وأوفقه لما فيه خيره وصلاحه، وأعينه في المواقف وأنصره في الشدائد. «استعاذني» أي: استجار بي مما يخاف.

ومن الثمرات المترتبة على أداء السنن الرواتب:

- الفوز بالأجر والثواب، ومن ذلك أن يكون له بيت في الجنة.
- أن التقرب إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض سبب لمحبة الله تعالى للعبد، وأن يحفظه ويوفقه لما فيه الخير والصلاح.
- أن زيادة الصلوات النوافل -وأكدتها السنن الرواتب- سبيل إلى جبر الخلل الواقع من العبد في أدائه للفرائض.
- إذا أصاب العبد فتور تكون السنن الرواتب بمثابة سور يحمي قلعة الفرائض، فإذا أصيب السور بأي ضعف لم تتأذَّ القلعة بشيء.

ومن الوسائل المعينة على أداء السنن الرواتب:

- الحرص على الأجر المترتب على أدائها.
- اتخاذ صحبة صالحة تعينه على أداء السنن الرواتب، وتحثه عليه.
- الاقتداء بالنبي ﷺ وصحابته الأبرار، والتابعين لهم بإحسان في حرصهم على السنن الرواتب.

- صدق محبة النبي ﷺ؛ فإن ذلك من أسباب الحرص على العمل بسنته ﷺ.
- الخوف من العقوبة بالتقصير في الفرائض، فعن ابن المبارك رحمته الله أنه قال: «مَنْ تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن، ومَنْ تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض، ومَنْ تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة». [رواه البيهقي في «شعب الإيمان»: ٣٠١٧].
- المحافظة على أداء الصلوات المفروضة في المسجد مع جماعة المسلمين، والحرص على التبكير إلى المسجد حتى يتسنى للمسلم صلاة السنة الراتبية قبل الصلاة، أو يصلها في بيته ثم يكرّ إلى المسجد.
- الاستعانة بالله تعالى، فلا يعين العبد على الطاعة إلا الله تعالى، وكلما وجد العبد في نفسه مشقة لأداء طاعة من الطاعات فعليه أن يتوجه إلى الله تعالى بالدعاء أن ييسر له فعل الطاعات وأن يعينه على ذلك، وقد كان النبي ﷺ يعلم أصحابه ذلك، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: «يا معاذ، والله إني لأحبك، والله إني لأحبك، فلا تدعنَّ في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك» [رواه أبو داود: ١٥٢٢].



﴿ ٢٢ ﴾ قِيَامُ اللَّيْلِ

من رحمة الله تعالى أن شرع لنا النوافل؛ لِتُكَمَّلَ ما في الفرائض من نقص، ولتزيد في الموازين من الحسنات، والصلاة - وهي عمود الدين - قد جعل الله لها نوافل تكملها؛ وأفضل الصلاة بعد الفرائض قيام الليل، وبه ينال العبد الحسنات وينعم بالتقرب إلى الله تعالى؛ لذا كان قيام الليل طاعة من أجل الطاعات، وشعبة من شعب الإيمان. وتبدأ صلاة الليل من بعد صلاة العشاء إلى الفجر، وأفضلها في جوف الليل والثلث الأخير منه.

ويتأكد قيام الليل في رمضان (صلاة التراويح)، وفي العشر الأواخر منه، لاسيما قيام ليلة القدر.

وصلاة الليل لها شأن عظيم، والأفضل فيها أن تكون مثنى مثنى، يقول النبي ﷺ: «صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خشي الصبح صلى ركعة واحدة توتر لها ما قد صلى» [رواه البخاري: ٩٩٠، ومسلم: ٩٤٧]. فيصلي ما تيسر له ثنتين ثنتين ثم يوتر بواحدة، وأفضلها في آخر الليل - الثلث الأخير - وإن صلى في أول الليل قبل أن ينام لئلا يغلب عليه النوم في آخر الليل واحتاط في ذلك فلا بأس، هو أعلم بنفسه، إن قدر في آخر الليل فهو أفضل، وإن لم يتيسر له ذلك أوتر في أول الليل.

وأقل الإيتار في الليل واحدة بعد صلاة العشاء وبعد سنتها الراتبة ركعة واحدة، فإن أوتر بثلاث، فالأفضل يسلم من الثنتين ثم يوتر بواحدة، وهكذا إذا أوتر بخمس يسلم من أربع من كل ثنتين ثم يوتر بواحدة، وهكذا.

وكان النبي ﷺ في الغالب يوتر بإحدى عشرة ركعة، يسلم من كل ثنتين ثم يوتر بواحدة، وربما أوتر بثلاث عشرة، وسلم من كل ثنتين وأوتر بواحدة عليه الصلاة والسلام، والأمر في هذا واسع والحمد لله، ولكن يراعى في هذا الطمأنينة وعدم العجلة

والنقر، يطمئن في صلاته ويخشع فيها ولا يعجل، فخمس ركعات أو سبع ركعات مع الطمأنينة والعناية أفضل من تسع أو إحدى عشرة مع العجلة.

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن قيام الليل من شعب الإيمان:

قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۝﴾ [الفرقان: ٦٣، ٦٤].

أي: يكثرون من صلاة الليل مخلصين فيها لربهم متذللين له.
وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٥ - ١٧].

قال السعدي رحمته الله: «﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ أي: ترتفع جنوبهم وتنزع عن مضاجعها اللذيذة، إلى ما هو ألد عندهم منه وأحب إليهم، وهو الصلاة في الليل، ومناجاة الله تعالى».

ولهذا قال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ أي: في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، ودفع مضارهما. ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: جامعين بين الوصفين، خوفًا أن تُردَّ أعمالهم، وطمعًا في قبولها، خوفًا من عذاب الله، وطمعًا في ثوابه.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الرزق قليلاً كان أو كثيراً ﴿يُنفِقُونَ﴾. وأما جزاؤهم، فقال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ أي: فلا يعلم أحد ﴿مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ من الخير الكثير، والنعيم الغزير، والفرح والسرور، واللذة والحبور، فكما صلوا في الليل ودعوا، وأخفوا العمل، جازاهم من جنس عملهم، فأخفى أجرهم، ولهذا قال: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ «[تفسير السعدي] (ص: ٦٥٥)».

وقال رحمته الله: ﴿إِنَّ الْأَمْتَقِينَ فِي جَنَّتِ وَعُيُونٍ ۝ عَاكِذِينَ مَّا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ

مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَيَالِ الْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ [الذاريات: ١٥ - ١٨].
﴿يَهْجَعُونَ﴾: ينامون.

وقال **رَبِّكَ**: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ، وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦].

قال الماوردي: «﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ﴾ يعني: صلاة المغرب والعشاء الآخرة
﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ يعني: التطوع من الليل» [النكت والعيون (٦ / ١٧٢)].

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الْمَرْقَلُ ﴿١﴾ فُرُ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ، أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ
وَرَقِيلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾
[المزمل: ١ - ٦]

قال ابن كثير **رَبِّكَ**: «يأمر الله تعالى رسوله **ﷺ** أن يترك التزمل، وهو: التغطي في الليل، وينهض إلى القيام لربه **رَبِّكَ**. وقوله: ﴿فُرُ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ نِصْفَهُ، أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴿٤﴾ أي: أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة أو نقصان قليل، لا حرج عليك في ذلك.

وقوله: ﴿وَرَقِيلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ أي: اقرأه على تمهل، فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره.

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ أي: ساعاته وأوقاته، والمقصود أن الصلاة في الليل بعد النوم هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة؛ ولهذا قال: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي: أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار؛ لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش» [تفسير ابن كثير (٨ / ٢٤٩)].

وعن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: قال رسول الله **ﷺ**: «أَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ صَلَاةُ اللَّيْلِ» [رواه مسلم: ١١٦٣].

وعن عبد الله بن عمر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** قال: سمعتُ رسول الله **ﷺ** يقول: «لَا حَسَدَ إِلَّا عَلَى اثْنَيْنِ: رجل آتاه الله الكتاب، فقام به آناء الليل، ورجل أعطاه الله مالاً، فهو يتصدق به

آثَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ» [رواه البخاري: ٥٠٢٥، ومسلم: ٨١٥].

وعن عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينة أُنْجِفَلَ النَّاسُ إليه، وقيل: قَدِمَ رسولُ الله ﷺ، فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظَرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَبْنْتُ وَجَهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، وَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامَ، تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ» [رواه الترمذي: ٢٤٨٥]. «أُنْجِفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ» أَي: ذَهَبُوا مُسْرِعِينَ إِلَيْهِ.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِنْ أَحَبَّ الصِّيَامُ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ، وَأَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا» [رواه البخاري: ١١٣١، ومسلم: ١١٥٩].

وعن أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُ مَنْ قَامَ مَعَ الْإِمَامِ حَتَّى يَنْصَرِفَ كُتِبَ لَهُ قِيَامُ لَيْلَةٍ» [رواه الترمذي: ٨٠٦].

«مَنْ قَامَ مَعَ الْإِمَامِ» أَي: صَلَّى مَعَهُ صَلَاةَ التَّرَاوِيحِ فِي رَمَضَانَ. «حَتَّى يَنْصَرِفَ» يَعْنِي: الْإِمَامَ. «كُتِبَ لَهُ قِيَامُ لَيْلَةٍ» أَي: حَصَلَ لَهُ ثَوَابُ قِيَامِ لَيْلَةٍ تَامَةٍ.

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» [رواه البخاري: ٣٧، ومسلم: ٧٥٩].

«إِيمَانًا» أَي: تَصَدِيقًا بِأَنَّهُ حَقٌّ مُتَقَصِّدٌ فَضِيلَتَهُ. «احْتِسَابًا» أَنْ يَرِيدَ اللَّهُ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا يَقْصِدُ رُؤْيَا النَّاسِ وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَخَالِفُ الْإِخْلَاصَ. وَالْمُرَادُ بِقِيَامِ رَمَضَانَ صَلَاةَ التَّرَاوِيحِ، وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى اسْتِحْبَابِهَا [ينظر: «شرح مسلم» للنووي (٦ / ٣٩)].

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» [رواه البخاري: ١٩٠١، ومسلم: ٧٦٠].

وعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْوَتْرِ مِنَ الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ» [رواه البخاري: ٢٠١٧، ومسلم: ١١٦٩]. «تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ» أَي:

احرصوا على طلبها، وقوموا ليلها، واجتهدوا في العبادة فيها.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كان الرجل في حياة النبي ﷺ إذا رأى رؤيا قصها على رسول الله ﷺ، فتمنيت أن أرى رؤيا فأقصها على رسول الله ﷺ، وكنت غلامًا شابًا، وكنت أنام في المسجد على عهد رسول الله ﷺ، فرأيت في النوم كأن ملكين أخذاني فذهبا بي إلى النار، فإذا هي مطوية كطي البئر وإذا لها قرنان، وإذا فيها أناس قد عرفتهم، فجعلت أقول: أعوذ بالله من النار، قال: فلقينا ملك آخر فقال لي: لم تُرْع، فقصصتها على حفصة، فقصصتها حفصة على رسول الله ﷺ فقال: «نعم الرجل عبد الله، لو كان يصلي من الليل». فكان بعدُ لا ينام من الليل إلا قليلًا [رواه البخاري: ١١٢١، ومسلم: ٢٤٧٩].

«مطوية» أي: مبنية الجوانب. «قرنان» أي: جانبان. «لم تُرْع» أي: لا خوف عليك. قال القرطبي رحمته الله: «فهم النبي ﷺ من رؤية عبد الله للنار أنه ممدوح؛ لأنه عُرِض على النار ثم عوفي منها، وقيل له: لا روع عليك، وهذا إنما هو لصلاحه وما هو عليه من الخير، غير أنه لم يكن يقوم من الليل؛ إذ لو كان ذلك ما عُرِض على النار ولا رآها، ثم إنه حصل لعبد الله ﷺ من تلك الرؤيا يقين مشاهدة النار والاحتراز منها، والتنبيه على أن قيام الليل ممَّا يَتَّقَى به النار، ولذلك لم يترك قيام الليل بعد ذلك ﷺ» «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» (٦/ ٤١٠).

الثمرات المترتبة على قيام الليل كثيرة، منها:

- تحصيل الأجر الكثير واغتنام الثواب العظيم للفوز بالجنة.
- أنه يقي صاحبه من عذاب النار.
- زيادة الإيمان والقرب من الرحمن بالعبادة والمناجاة.
- أنه سبيل إلى القيام بشكر نعمة الله على العبد، والشاكرون قد وعدهم الله بالزيادة.

- التعرض لسبب من أسباب التوفيق من الله، والفتح منه سبحانه على عبده، وحصول رضا الرحمن سبحانه.
- أنه أحد أسباب تدبر القرآن وفهمه وتثبيت حفظه في الصدر.
- أنه من تعب في الدنيا استراح في الآخرة، ومن صف قدميه لله عابداً خاشعاً سهلاً عليه الوقوف بين يديه يوم القيامة.
- أنه ينهى صاحبه عن الذنوب والمعاصي وفعل المنكرات.
- أنه يكسو وجه صاحبه نوراً؛ فإنجزاء من جنس العمل؛ فإن القائمين لله بالليل لما احتملوا ظلمة الليل وهانت عليهم مكابدتها، جازاهم الله بأن نور وجوههم، فقد قيل للحسن البصري رحمته الله: ما بال المتهجدين بالليل من أحسن الناس وجوهاً؟ فقال: «لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم من نوره» [«مختصر قيام الليل» للمروزي (ص ٥٨)].

الوسائل المعينة على قيام الليل:

- الاستعانة بالله تعالى على هذه الطاعة العظيمة.
- معرفة فضل قيام الليل ومنزلة أهله عند الله تعالى.
- معرفة كيد الشيطان، وتثيظه عن قيام الليل؛ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: دُكِرَ عند النبي صلى الله عليه وسلم رجلٌ نام ليلةً حتى أصبح، قال: «ذاك رجلٌ بال الشيطان في أذنيه» [رواه البخاري: ٣٢٧٠، ومسلم: ٧٧٤].
- مخافة الله تعالى خوفاً يلزم القلب مع قصر الأمل، وتذكر الموت والقبر والقيامة؛ فإن هذا كله يدفع على العمل ويذهب الكسل.
- استشعار حلاوة المناجاة والوقوف بين يدي الله تعالى.
- اجتناب المعاصي؛ فإن ذلك مما يقسي القلب، ويحول بينه وبين أسباب الرحمة.
- الحرص على كثرة الطاعات والقربات.

- أكل الحلال، والابتعاد عن الحرام.
- اغتنام الصحة والفراغ.
- الحرص على النوم مبكرًا.
- الحرص على الأذكار قبل النوم.
- عدم ترك القيلولة (النوم) بالنهار؛ للاستعانة بها على قيام الليل.
- أن يبتعد عن التمتع الزائد في الفراش؛ فإنه قد يمنعه من القيام.



٣٤. صلاة الضحى

فرض الله تعالى الصلاة على عباده، وجعل مع هذه الفريضة سنناً تجبر ما قد يحدث في هذه الفرائض من نقص، وترفع من درجاتهم في الجنة، ومن أفضل هذه الصلوات صلاة الضحى، فالمواظبة عليها من عزائم الأفعال وفواضلها، وقد صلاها النبي ﷺ وأوصى بصلاتها، ووردت الأحاديث الصحيحة في فضلها.

وصلاة الضحى هي: صلاة شرعها الله تعالى من بعد طلوع الشمس وارتفاعها بقدر رمح، أي: بعد طلوع الشمس بربع ساعة تقريباً، وذلك إلى ما قبل الزوال في ساعة الاستواء، وهو دخول وقت صلاة الظهر، أي: قبل الظهر بحوالي عشر دقائق، ويستحب تأخيرها إلى آخر الوقت عند اشتداد درجة الحرارة. وأقلها ركعتان، وهي سنة مؤكدة.

الأدلة من الكتاب والسنة على أن صلاة الضحى من شعب الإيمان:

عن أم هانئ ابنة أبي طالب رضي الله عنها قالت: ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح، فوجدته يغتسل، وفاطمة ابنته تستره، فسلمت عليه، فقال: من هذه؟ فقلت: أنا أم هانئ بنت أبي طالب، فقال: «مرحباً بأم هانئ» فلما فرغ من غسله، قام فصلّى ثمان ركعات، ملتحفاً في ثوب واحد. قالت أم هانئ: وذلك ضحى. [رواه البخاري: ٣١٧١، ومسلم: ٣٣٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أوصاني خليلي ﷺ بثلاث: بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أرقد. [رواه البخاري: ١١٨٧، ومسلم: ٧٢١].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: أوصاني حبيبي ﷺ بثلاث، لن أدعهن ما عشت: بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وصلاة الضحى، وبأن لا أنام حتى أوتر [رواه مسلم: ٧٢٢].

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان لا يقدم من سفر إلا نهراً في الضحى، فإذا قدم بدأ بالمسجد، فصلّى فيه ركعتين، ثم جلس فيه. [رواه مسلم: ٧١٦].

وعن معاذة، أنها سألت عائشة رضي الله عنها، كم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي صلاة الضحى؟ قالت: أربع ركعات ويزيد ما شاء. [رواه مسلم: ٧١٩].

وعن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «يصبح على كل سلامي من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى» [رواه مسلم: ٧٢٠].

قال الشيخ ابن عثيمين رحمته الله: «السلامي هي العظام، أو مفاصل العظام، يعني: أنه يصبح كل يوم على كل واحد من الناس صدقة في كل عضو من أعضائه، في كل مفصل من مفاصله، قالوا: والبدن فيه ثلاثمائة وستون مفصلاً، ما بين صغير وكبير، فيصبح على كل إنسان كل يوم ثلاثمائة وستون صدقة.

ولكن هذا الصدقات ليست صدقات مالية، بل هي عامة، كل أبواب الخير صدقة، كل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، كل شيء صدقة، قراءة القرآن صدقة، طلب العلم صدقة، وحينئذ تكثر الصدقات، ويمكن أن يأتي الإنسان بما عليه من الصدقات، وهي ثلاثمائة وستون صدقة.

ثم قال: «ويجزئ من ذلك» يعني: عن ذلك «ركعتان يركعهما من الضحى» يعني: أنك إن صليت من الضحى ركعتين؛ أجزأت عن كل الصدقات التي عليك، وهذا من تيسير الله صلى الله عليه وسلم على العباد.

وفي الحديث دليل على أن ركعتي الضحى سنة، سنة كل يوم؛ لأنه إذا كان كل يوم عليك صدقة على كل عضو من أعضائك، وكانت الركعتان تجزئ عنها، فهذا يقضي أن صلاة الضحى سنة كل يوم، من أجل أن تقضي الصدقات التي عليك». [ينظر: «شرح رياض الصالحين» (٢/ ١٥٥)].

وعن عبد الله بن بريدة قال: سمعت أبي بريدة رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول: «في الإنسان ستون وثلاثمائة مفصل، فعليه أن يتصدق عن كل مفصل منها صدقة». قالوا: فمن الذي يطيق ذلك يا رسول الله؟ قال: «النخاعة في المسجد تدفنها، أو الشيء تنحيه عن الطريق، فإن لم تقدر فركعتا الضحى تجزئ عنك» [رواه أبو داود: ٥٢٤٢].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ سرية، فغنموا، وأسرعوا الرجعة، فتحدث الناس بقرب مغزاهم، وكثرة غنيمتهم، وسرعة رجعتهم، فقال رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على أقرب منه مغزى، وأكثر غنيمة، وأوشك رجعة؟ من توضعاً، ثم غدا إلى المسجد لسُبحة الضحى، فهو أقرب مغزى، وأكثر غنيمة، وأوشك رجعة». [رواه أحمد: ٦٦٣٨]. «سُبحة الضحى» أي: سنة الضحى.

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه رأى قوماً يصلون من الضحى، فقال: أما لقد علموا أن الصلاة في غير هذه الساعة أفضل، إن رسول الله ﷺ قال: «صلاة الأوابين حين تَرْمَضُ الفِصال» [رواه مسلم: ٧٤٨].

قال المباركفوري: «أنكر عليهم زيد بن أرقم رضي الله عنه إيقاع صلاتهم في بعض وقت الضحى أي: أوله، ولم يصبروا إلى الوقت المختار، أي: كيف يصلون مع علمهم بأن الصلاة في غير هذا الوقت أفضل؟ (صلاة الأوابين) جمع أواب، وهو الكثير الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة عن الذنوب وبالإخلاص وفعل الخيرات (حين ترمض) أي: تحترق، وهو شدة حرارة الأرض من وقوع الشمس على الرمل وغيره، وذلك يكون عند ارتفاع الشمس (الفِصال) جمع الفصيل، وهو ولد الناقة إذا فُصل عن أمه، يعني: تحترق أخفافها من شدة حر النهار. وقيل: لأن هذا الوقت زمان الاستراحة، فإذا ترك الراحة ورجع إلى الله تعالى بالاشتغال بالصلاة استحق الثناء الجميل. والحديث يدل على أن المستحب فعل الضحى في ذلك الوقت» [ينظر: «مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (٤/ ٣٥١)].

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «قال ربكم: أتعجز يا ابن آدم أن تصلي أول النهار أربع ركعات، أكفك بهن آخر يومك» [رواه أحمد: ١٧٧٩٤]. والمراد

بالأربع ركعات صلاة الضحى.

وعن نُعَيْمِ بْنِ هَمَّارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَقُولُ اللَّهُ ﻋَزَّ وَجَلَّ: يَا ابْنَ آدَمَ لَا تَعْجِزْنِي مِنْ أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ فِي أَوَّلِ نَهَارِكَ أَكْفِكَ آخِرَهُ» [رواه أبو داود: ١٢٨٩].

وعن أَبِي أَمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُتَطَهِّرًا إِلَى صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الْحَاجِّ الْمُحْرَمِ، وَمَنْ خَرَجَ إِلَى تَسْبِيحِ الضُّحَى لَا يَنْصِبُهُ إِلَّا إِيَّاهُ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الْمُعْتَمِرِ» [رواه أبو داود: ٥٥٨]. «تَسْبِيحُ الضُّحَى» أَي: صَلَاةُ الضُّحَى. «لَا يَنْصِبُهُ» أَي: لَا يُخْرِجُهُ.

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَحَافِظُ عَلَى صَلَاةِ الضُّحَى إِلَّا أَوَّابٌ». قَالَ: «وَهِيَ صَلَاةُ الْأَوَّابِينَ». [رواه ابن خزيمة: ١٢٢٤].

الثمرات المترتبة على صلاة الضحى:

- صلاة الضحى سبب من أسباب رفع الدرجات.
- من صلى الضحى فله أجر عمرة، وأجر المجاهد في سبيل الله تعالى.
- أنها وصية رسول الله ﷺ لأصحابه، ففعلها تنفيذ لوحيته ﷺ، واتباع لستته.
- أنها مما يقوم مقام الصدقة لمن لا يجد، أو كان قليل ذات اليد.
- أنها من أسباب سعة الرزق؛ فإن الصدقة سبب من أسباب سعة الرزق، وصلاة الضحى مما يقوم مقام الصدقات، وهذا يعرفه كل من كان مكثراً من هذه الصلاة ومداوماً عليها.

- أنها نوع من أنواع التطوع التي يُجَبَّرُ بها النقص الحاصل في الفرائض.
- أنها من أسباب كفاية الله تعالى للعبد وحفظه له.
- أن المداوم عليها يصير من عباد الله الأوابين.

الوسائل المعينة على صلاة الضحى:

- من أعظم ما يعين على المحافظة عليها: معرفة فضل هذه الصلاة، وما لها من

أثر في حياة المسلم.

- الحذر من الشيطان ومن طرقه في صرفه للعباد عن الطاعات.
- المكث في المسجد بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس كما كان يفعل رسول الله ﷺ؛ فعن سماك بن حرب، قال: قلت لجابر بن سمرة: أكنت تجالس رسول الله ﷺ؟ قال: نعم كثيراً، كان لا يقوم من مصلاه الذي يصلي فيه الصبح، حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت الشمس قام [رواه مسلم: ٢٣٢٢].
- الاقتداء بالنبي ﷺ وصحابته الأبرار، والتابعين لهم بإحسان في حرصهم على الطاعات.

- صدق محبة النبي ﷺ؛ فإن ذلك من أسباب الحرص على العمل بسنته ﷺ.
- الاستعانة بالله تعالى، فلا يعين العبد على الطاعة إلا الله تعالى، وكلما وجد العبد في نفسه مشقة لأداء طاعة من الطاعات فعليه أن يتوجه إلى الله تعالى بالدعاء أن ييسر له فعل الطاعات وأن يعينه على ذلك، وقد كان النبي ﷺ يعلم أصحابه ذلك، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: «يا معاذ، والله إني لأحبك، والله إني لأحبك، فلا تدعن في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك» [رواه أبو داود: ١٥٢٢].

- تفرغ الوقت الذي بعد الفجر وجعله وقت عبادة وترك العمل فيه أو النوم.
- المبادرة إلى صلاتها وعدم التسويف بأنه سيصليها قبل الظهر، فإنه كلما دخل النهار انشغل المرء بأمور دنياه.



٣٥. الزكاة

الزكاة هي الركن الثالث من أركان الإسلام، وهي ركيزة أساسية في شعب الإيمان، بها يحقق التكافل الاجتماعي؛ فيعطف الغني على الفقير ويرحمه، ويشكر الفقير الغني ولا يحسده، ويعم الرخاء وتنزل البركة، ويُقضى على السرقات والرشوة، وينمو الاقتصاد ويزدهر، وبها تطهر النفوس وتزكّى، وتُصَفَّى الأموال وتُنَمَّى.

والزكاة: في اللغة: النماء والتطهير والبركة.

وفي الشرع: حق لله تعالى، يؤخذ من مال معين تحققت فيه الشروط -الملك وبلوغ النصاب وحلول الحول- بمقدار محدد منصوص عليه، ويُصرف في مصارف معينة محددة.

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن الزكاة من أهم شعب الإيمان:

قال سبحانه في أكثر من آية: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، أي ادخلوا في دين الإسلام: بأن تقيموا الصلاة على الوجه الصحيح، كما جاء بها نبي الله ورسوله محمد ﷺ، وتؤدوا الزكاة المفروضة على الوجه المشروع، وتكونوا مع الراكعين من أمته ﷺ. [التفسير الميسر: ٧/١].

وقال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧].

وقال تبارك اسمه: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ١١].

قال الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآية: فإن رجع هؤلاء المشركون -الذين أمرتكم أيها المؤمنون بقتلهم- عن كفرهم وشركهم بالله إلى الإيمان به وبرسوله، وأنابوا إلى طاعته، وأقاموا الصلاة المكتوبة فأدوها بحدودها، وآتوا الزكاة المفروضة إلى أهلها ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أي: فهم إخوانكم في الدين الذي أمركم الله به، وهو الإسلام [أنظر: «تفسير الطبري» (١١ / ٣٦١)].

وقال عز من قائل: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

قال السعدي رحمه الله: «﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ﴾ أي: الزكوات الواجبة لهؤلاء المذكورين دون من عداهم؛ لأنه حصرها فيهم، وهم ثمانية أصناف». وذكرهم، ثم قال: «فهؤلاء الأصناف الثمانية الذين تدفع إليهم الزكاة وحدهم.

﴿فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ فرضها وقدرها، تابعة لعلمه وحكمه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. فأوجب الله هذه الحصة في أموال الأغنياء، لسد الحاجات الخاصة والعامة للإسلام والمسلمين، فلو أعطى الأغنياء زكاة أموالهم على الوجه الشرعي، لم يبق فقير من المسلمين، ولحصل من الأموال ما يسد الثغور، ويجاهد به الكفار وتحصل به جميع المصالح الدينية» [أنظر: «تفسير السعدي» (ص: ٣٤١)].

وقال رحمته الله: ﴿حُذِّمْنَ أَمْوَالُهُمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

قال السعدي رحمته الله: «قال تعالى لرسوله ومن قام مقامه، أمراً له بما يطهر المؤمنين، ويتمم إيمانهم: ﴿حُذِّمْنَ أَمْوَالُهُمْ صَدَقَةً﴾ وهي الزكاة المفروضة ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾

أي: تطهرهم من الذنوب والأخلاق الرذيلة. ﴿وَتَزَكِّيهِمْ﴾ أي: تنميتهم، وتزويد في أخلاقهم الحسنة، وأعمالهم الصالحة، وتزويد في ثوابهم الدنيوي والأخروي، وتنمي أموالهم. ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادع لهم، أي: للمؤمنين عموماً وخصوصاً عندما يدفعون إليك زكاة أموالهم ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ أي: طمأنينة لقلوبهم، واستبشار لهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لدعائك، سمع إجابة وقبول ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوال العباد ونياتهم، فيجازي كل عامل بعمله، وعلى قدر نيته، فكان النبي ﷺ يمثل لأمر الله، ويأمرهم بالصدقة، ويبعث عماله لجبايتها، فإذا أتاه أحد بصدقته دعا له وبرك.

ففي هذه الآية دلالة على وجوب الزكاة، في جميع الأموال، وفيها: أن العبد لا يمكنه أن يتطهر ويتزكى حتى يُخرج زكاة ماله، وأنه لا يكفرها شيء سوى أدائها؛ لأن الزكاة والتطهير متوقف على إخراجها. [أنظر: «تفسير السعدي» (ص: ٣٥٠)].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْزُرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۖ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْزُرُونَ﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥].

﴿وَالَّذِينَ يَكْزُرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ أي: يدخرونها، ولا يؤدونها زكاتها، ولا يتصدقون منها ﴿وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: طرق الخير الموصلة إلى الله، وهذا هو الكنز المحرم، أن يمسكها عن النفقة الواجبة، كأن يمنع منها الزكاة، أو النفقات الواجبة للزوجات أو الأقارب، أو النفقة في سبيل الله إذا وجبت.

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾ أي: على الذهب والفضة ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ وقد اختيرت الجباه والجنوب والظهور بالكي؛ لأن البخل يرى الفقير قادماً عليه فيقطب جبهته، فإذا جاءه أعرض ونأى بجانبه، فإذا طالبه بإحسان ولأه ظهره؛ فوجب أن يكوى بما بخل به على جبهته وجنبه وظهره، وقد يكون المراد بذلك

كَيِّ سائر الجسم؛ فالجبهة تدل على الأمام، والجنوب والظهور على باقي الجسم. والمراد من الآية: أن الذهب والفضة اللذين هما موضع إعجابهم في الدنيا واهتمامهم وحرصهم؛ سيكونان في الآخرة موضع ألمهم وتعذيبهم، نعوذ به تعالى من غضبه وعذابه.

﴿ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ أي: يقال لهم: إنكم لم تكنزوا خيراً لأنفسكم؛ بل كنزتم لها الشر المقيم والعذاب الأليم ﴿ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْزُبُونَ ﴾ أي: جزاءه وعقوبته. [ينظر: «أوضح التفاسير» (١/ ٢٢٧)، و«تفسير السعدي» (ص: ٣٣٥)].

وقال سبحانه: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ٤ ﴾ [المؤمنون: ١ - ٤].

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ خِفَاءً وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ٥ ﴾ [البينة: ٥].

قال السعدي رحمه الله: ما أمر الناس في سائر الشرائع إلا أن يعبدوا ﴿ اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أي: قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله، وطلب التقرب إليه، ﴿ خَفَاءً ﴾ أي: معرضين مائلين عن سائر الأديان المخالفة لدين التوحيد. وخص الصلاة والزكاة بالذكر مع أنهما داخلان في قوله ﴿ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ ﴾ لفضلهما وشرفهما، وكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين.

﴿ وَذَلِكَ ﴾ أي التوحيد والإخلاص في الدين، هو ﴿ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ أي: الدين المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، وما سواه فطرق موصلة إلى الجحيم [أنظر: «تفسير السعدي» (ص: ٩٣١)].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت» [رواه البخاري: ٨، ومسلم: ١٦].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج

البيت إن استطعت إليه سبيلاً» [رواه مسلم: ٨].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث معاذاً رضي الله عنه إلى اليمن، فقال له: «ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم» [رواه البخاري: ١٣٩٥، ومسلم: ١٩]. «صدقة» أي: زكاة.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب في حجة الوداع فقال: «اتقوا الله ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، وأطيعوا إذا أمركم، تدخلوا جنة ربكم» [رواه الترمذي: ٦١٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من آتاه الله مالاً، فلم يؤد زكاته، مثّل له ماله شجاعاً أقرع، له زبيبتان، يطوقه يوم القيامة، يأخذ بلهزمتيه - يعني شذقيه - ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك» ثم تلا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠] [رواه البخاري: ١٤٠٣].

قوله: «مثّل له» أي: صوّر له. «شجاعاً» هو الحية الذكر أو الثعبان. «أقرع» أي: لا شعر على رأسه؛ لكثرة سمه وطول عمره. «زبيبتان» أي: نابان يخرجان من فمه، أو نقطتان سوداوان فوق عينيه، وهو أسوأ ما يكون من الحيات وأخبثه. «يطوّقه» أي: يجعل في عنقه كالطوق. «شذقيه» أي: جانبي الفم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة، صُفّحت له صفائح من نار، فأحمي عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقضى بين العباد، فيرى سبيله، إما إلى الجنة وإما إلى النار» [رواه مسلم: ٩٨٧].

قوله: «صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ» الصفائح جمع صفيحة وهي العريضة من الحديد وغيره، أي: جُعِلَتْ كَنُوزُهُ الذَّهَبِيَّةُ وَالْفُضِيَّةُ كَأَمْثَالِ الْأَلْوَاحِ مِنْ نَارٍ. وها هو تصرف الصديق الأكبر أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع هؤلاء الذين منعوا الزكاة بعد وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث قاتلهم حتى تابوا وأدوا زكاة أموالهم، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما توفي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واستُخلف أبو بكر، وكفر من كفر من العرب، قال عمر: يا أبا بكر، كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحَسَابُهُ عَلَى اللَّهِ؟» قال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة؛ فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عَنَاقًا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقاتلتهم على منعها. قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق [رواه البخاري: ١٣٩٩، ومسلم: ٢٠].

قوله: «عَنَاقًا» هي الأثني من ولد المعز التي لم تبلغ سنة. وقال عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنْ عُرِيَ الدِّينَ وَقَوَامُهُ: الصَّلَاةُ، وَالزَّكَاةُ، لَا يُفَرَّقَ بَيْنَهُمَا، وَحُجَّ الْبَيْتِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَإِنْ مِنْ أَصْلَحِ الْأَعْمَالِ: الصَّدَقَةُ وَالْجِهَادُ» [رواه ابن أبي شيبة في «المصنف»: ٣٠٤٣٤].

وقال حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الْإِسْلَامُ ثَمَانِيَةُ أَسْهُمٍ: الْإِسْلَامُ سَهْمٌ، وَالصَّلَاةُ سَهْمٌ، وَالزَّكَاةُ سَهْمٌ، وَالْجِهَادُ سَهْمٌ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ سَهْمٌ، وَالْحَجُّ سَهْمٌ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ سَهْمٌ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ سَهْمٌ، وَقَدْ خَابَ مَنْ لَا سَهْمَ لَهُ» [رواه أبو داود الطيالسي في «مسنده»: ٤١٣].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «افْتَرَضْتُ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ جَمِيعًا لَمْ يُفَرَّقَ بَيْنَهُمَا، وَأَبَى اللَّهُ أَنْ يَقْبَلَ الصَّلَاةَ إِلَّا بِالزَّكَاةِ، يَرْحَمُ اللَّهُ أَبَا بَكْرٍ مَا كَانَ أَفْقَهُ». يعني: لما قاتل مانعي الزكاة. [تفسير الطبري] (١١ / ٣٦٢).

ثمرات الزكاة وفضائلها:

يتبين من خلال نصوص القرآن والسنة السابقة أن للزكاة ثمرات جليلة وفوائد عظيمة منها:

- أنها أحد أركان الإسلام ومبانيه العظام.
- أنها تطهير للمال من حقوق الغير فيه.
- أنها برهان صدق الإيمان، ووقاية للنفس من شحها.
- أنها مواساة للفقراء والمحتاجين، وسد حاجة المعوزين.
- أنها سبب بركة المال ونمائه، وخيرها وبرها راجع إلى المتصدق أولاً.
- المال مال الله، والعبد مستخلف عليه يصرفه حيث أمر سيّده ومالكه الحقيقي، فبإخراجها يؤدّي شكر نعمة المال.
- أنها سبب لتقوية العلاقات الاجتماعية بين أفراد الأمة كلها.
- أنها تساعد على حلّ معضلة الفقر التي أعجزت العالم المعاصر.
- أنها إحلال للتراحم بدلاً من التحاسد والتباغض.
- أن بها تُدفع النقم وتُستجلب النعم.
- أن الفلاح في الدنيا والآخرة مضمون لمن أدى زكاة ماله.

الوسائل المعينة على الزكاة:

- أن يعلم العبد أن الزكاة أحد أركان الإسلام الخمسة، وأن مانعها متوعّد بالعذاب الشديد.
- أن يعلم العبد أنه لا انفكاك للزكاة عن الصلاة، وقد قرنها ربنا سبحانه معها في غير ما آية من آيات كتابه، وهذا يدل على أهميتها وعلو مكانتها.
- أن يعلم أنه إذا أراد تطهير نفسه وماله فعليه بالزكاة، فالزكاة تحقق له ذلك وتبلغه.

- أن يعلم أن ما ينفقه من صدقات فالله يخلفه، ولا ينقص ذلك من ماله شيئاً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبا: ٣٩].
- أن يعلم العبد أن ما يكتنزه من أموال لا يؤدي حق الله فيها؛ فهي وبال عليه يوم القيامة، ويكوى بكتنزه في جهنم والعياذ بالله.
- الاستعانة بالله تعالى، فلا يعين العبد على الطاعة إلا الله تعالى.
- التعوذ من البخل، فهو الذي يؤدي إلى منع الزكاة، وقد كان النبي ﷺ يستعيز من البخل، ويعلم أصحابه ﷺ ذلك، فعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان النبي ﷺ يعلمنا هؤلاء الكلمات، كما تُعَلِّمُ الكتابة: «اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن...» [رواه البخاري: ٦٣٩٠].



٢٦. الصدقة

إن من محاسن الدين الإسلامي الحثَّ على الصدقة؛ فينال صاحبها الأجر وتطهر نفسه وتحصل البركة في ماله، وبها يتم التكافل الاجتماعي بين الفقراء والأغنياء، وتقع الألفة والمودة بينهم، فيكونون مترابطين متراحمين؛ لذا كانت الصدقة من فضائل الأعمال، وشعبة عظيمة من شعب الإيمان.

والصدقة: هي ما يخرج به الإنسان تطوعاً من ماله إلى الفقراء أو المساكين ابتغاء مرضاة الله، ويدخل فيها أيضاً ما ينفقه الإنسان على زوجته وأولاده إذا فعل ذلك طالباً الأجر من الله تعالى، ويدخل فيها أيضاً ما يتنازل فيه المسلم عن حقه ابتغاء وجه الله تعالى. وقد تطلق الصدقة على الزكاة الواجبة.

كما أن كل أفعال الخير التي يفعلها المسلم، وكل أفعال الشر التي يجتنبها، هي صدقة، كما ثبت ذلك في السنة.

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن الصدقة من شعب الإيمان:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

قال السعدي رحمته الله: «يأمر تعالى عباده المؤمنين بالنفقة من طيبات ما يسر لهم من المكاسب، ومما أخرج لهم من الأرض، فكما منَّ عليكم بتسهيل تحصيله، أنفقوا منه شكراً لله، وأداء لبعض حقوق إخوانكم عليكم، وتطهيراً لأموالكم، واقصدوا في تلك النفقة الطيب الذي تحبونه لأنفسكم، ولا تقصدوا إنفاق الرديء الذي لا ترغبونه ولا تأخذونه إلا على وجه الإغماض والمسامحة ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ حَمِيدٌ﴾ فهو غني عنكم، ونفع صدقاتكم وأعمالكم عائد إليكم، ومع هذا فهو حميد على ما يأمركم به

من الأوامر الحميدة والخصال السديدة، فعليكم أن تمتثلوا أوامره؛ لأنها قوت القلوب وحياة النفوس ونعيم الأرواح» [انظر: «تفسير السعدي» (ص: ١١٥)].

وقال الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

وقال ﷺ: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٢٧) إِنْ بُدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتُؤْتَوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧٠، ٢٧١].

وقال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦]. ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ أي: ينقص الله الربا فيذهب. ﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾: يضاعف أجرها لصاحبها، ويُنمِّيها له [ينظر: «تفسير الطبري» (٥ / ٤٥)].

وقال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

﴿نَجْوَاهُمْ﴾ يعني: كلام الناس.

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤].

﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ أي: يقبلها، ويأخذها بيمينه سبحانه، فيريئها لأحدهم كما يربي الرجل فرسه الصغير، حتى تكون التمرة الواحدة كالجبل العظيم، فكيف بما هو أكبر وأكثر من ذلك. [ينظر: «تفسير السعدي» (ص: ٣٥١)].

وقال سبحانه: ﴿وَالْمَتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّالِمِينَ وَالصَّالِمَاتِ وَالْحَفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَفِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقال **عليه السلام**: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

قال السعدي **رحمته الله**: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ نفقة واجبة، أو مستحبة، على قريب، أو جار، أو مسكين، أو يتيم، أو غير ذلك ﴿فَهُوَ﴾ تعالى ﴿يُخْلِفُهُ﴾ فلا تتوهموا أن الإنفاق مما ينقص الرزق، بل وعد بالخلف للمنفق، الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فاطلبوا الرزق منه، واسعوا في الأسباب التي أمركم بها «[تفسير السعدي] (ص: ٦٨١)».

وقال سبحانه: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

قال السعدي **رحمته الله**: «وقوله: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ يدخل في هذا النفقات الواجبة من الزكاة والكفارات ونفقة الزوجات، والمماليك، ونحو ذلك، والنفقات المستحبة كبذل المال في جميع المصالح ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ﴾ متحسراً على ما فرط في وقت الإمكان، سائلاً الرجعة التي هي مُحال: ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: لأتدارك ما فرطت فيه ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ من مالي ما به أنجو من العذاب، وأستحق به جزيل الثواب ﴿وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ بأداء المأمورات كلها، واجتناب المنهيات، ويدخل في هذا الحج وغيره، وهذا السؤال والتمني قد فات وقته، ولا يمكن تداركه» «[تفسير السعدي] (ص: ٨٦٥)».

وقال تبارك اسمه: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضْعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧].

﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ هو كل نفقة كانت من الحلال، إذا قصد بها العبد وجه الله تعالى وطلب مرضاته، ووضعها في موضعها.

وعن أبي هريرة **رضي الله عنه**، عن رسول الله **ﷺ** قال: «ما نقصت صدقة من مال»

[رواه مسلم: ٢٥٨٨].

قال النووي رحمته الله: «ذكروا فيه وجهين أحدهما: معناه أنه يُبارك فيه ويُدفع عنه المضرات، فينجبر نقص الصورة بالبركة الخفية، وهذا مُدرك بالحس والعادة. والثاني: أنه وإن نقصت صورته كان في الثواب المرتب عليه جبر لنقصه وزيادة إلى أضعاف كثيرة» [شرح مسلم (١٦ / ١٤١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال: «أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان» [رواه البخاري: ١٤١٩، ومسلم: ١٠٣٢]. «صحيح» أي: في حال الصحة والقوة. «شحيح» أي: وأنت حريص على المال. «تأمل» أي: تطمع. «بلغت الحلقوم» أي: قاربت الروح الحلقى عند الموت.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» وذكر منهم: «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله» [رواه البخاري: ١٤٢٣، ومسلم: ١٠٣١].

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الصدقة برهان» [رواه مسلم: ٢٢٣].

«الصدقة برهان» أي: دليل على إيمان فاعلها؛ فإن المنافق يمتنع منها لكونه لا يعتقد أن الله أمر بها وحث عليها، كما أنه لا يرجو الثواب المترتب عليها.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربّيها لصاحبه، كما يربّي أحدكم فلوله، حتى تكون مثل الجبل».

«بعدل» أي: بوزن أو بقيمة. «طيب» أي: حلال. «يربّيها» أي: ينمّيها ويضاعف أجراها. «لصاحبها» أي: الذي أنفقها. «فلوله» أي: مهره، وهو الصغير من الخيل. «مثل الجبل» أي: يصبح ثوابها كثواب من تصدق بمقدار الجبل من المال.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: «ما من يوم يصبح العباد فيه، إلا مَلَكَانِ ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعطِ منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعطِ ممسكًا تلفًا» [رواه البخاري: ١٤٤٢، ومسلم: ١٠١٠]. «خلفًا» أي: عوضًا عما أنفق. «ممسكًا» أي: عن الإنفاق. «تلفًا» أي: أتلف ما لديه.

وعن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار» [رواه الترمذي: ٢٦١٦].

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «كل معروف صدقة» [رواه البخاري: ٦٠٢١]. وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن ناسًا من أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله، ذهب أهل الدُّثُور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم قال: «أوليس قد جعل الله لكم ما تَصَدَّقُونَ؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمرٌ بالمعروف صدقة، ونهيٌ عن منكر صدقة، وفي بُضْع أحدكم صدقة، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر» [رواه مسلم: ١٠٠٦]. «أهل الدُّثُور» أي: أهل الأموال الكثيرة. «تهليلة» أي: قول: لا إله إلا الله. «وفي بُضْع» أي: جماع أحدكم لزوجته.

وعن أبي مسعود الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «إذا أنفق المسلم نفقة على أهله وهو يحتسبها كانت له صدقة» [رواه البخاري: ٥٣٥١، ومسلم: ١٠٠٢]. «يحتسبها» أي: يقصد إلى طلب الأجر من الله تعالى.

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ دخل على أم مُبَشِّرٍ الأنصارية في نخل لها، فقال لها النبي ﷺ: «مَنْ غرس هذا النخل؟ أمسلم أم كافر؟» فقالت: بل مسلم، فقال: «لا يغرس مسلم غرسًا، ولا يزرع زرعًا، يأكل منه إنسان ولا دابة ولا شيء إلا كانت له صدقة» [رواه: مسلم: ١٥٥٢].

والآيات والأحاديث السابقة يدخل فيها الصدقة الواجبة مثل الزكاة والنفقات الواجبة،

ويدخل فيها الصدقة المستحبة التي هي التصديق بأي شيء ابتغاء مرضاة الله تعالى.

الثمرات المترتبة على الصدقة كثيرة، منها:

- الفوز بالأجر العظيم، ومضاعفة الحسنات.
- تكفير السيئات.
- أنها دليل على كمال الإيمان وحسن الإسلام.
- الدخول تحت ظل العرش يوم القيامة لمن أخلص في صدقته.
- تطهير النفس من البخل ومن الذنوب.
- أنها قربة إلى الله ﷻ، وطريق موصل إلى محبة الله ورضوانه.
- حصول البركة في المال، وأن الله تعالى يعوض للمنفق خيراً مما أنفق.
- تفريج الكربات عن المحتاجين.
- أنها باب من أبواب التكافل الاجتماعي.
- حصول الألفة بين المسلمين، ونشر روح المحبة والتعاون بينهم.
- أنها تساعد على حلّ معضلة الفقر التي أعجزت العالم المعاصر.
- الصدقة بأنواعها يحتاج إليها في أبواب كثيرة من الخير لا حصر لها؛ بخلاف الزكاة فإنها تدفع إلى أصناف معينة.

الوسائل المعينة على الصدقة:

- استحضار الثمرات الكثيرة المترتبة على الصدقة.
- إيمان العبد أنه في ظل صدقته يوم القيامة.
- اعتقاد المسلم أن الصدقة لا تنقص من ماله شيئاً، بل إن الله يعوضه خيراً مما أنفق.
- الاستعانة بالله تعالى، فلا يعين العبد على الطاعة إلا الله تعالى.
- مقاومة البخل والشح، والاستعاذة بالله منهما، كما كان النبي ﷺ يستعيز من البخل، ويعلم أصحابه ﷺ ذلك، فعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: كان النبي ﷺ يستعيز من

يعلّمنا هؤلاء الكلمات كما تُعَلِّمُ الكتابة: «اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن...» [رواه البخاري: ٦٣٩٠].

- تفقّد أحوال المحتاجين تعين على الصدقة والمصارعة فيها.

- مطالعة وسائل الكفار في استغلال حاجة فقراء المسلمين ليصدوهم عن دينهم، تُعين أهل الإسلام على البذل؛ حرصاً على عدم فتنة إخوانهم الفقراء في دينهم.

- أن يعلم أنّه لا يبقى لصاحب المال من ماله إلا ما تصدق به كما في قوله تعالى:

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٢]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن

رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: «يقول العبد: مالي مالي، إنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفني، أو لبس

فأبلى، أو أعطى فاقتنى، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس» [رواه مسلم: ٢٩٥٩].



وحقيقة الصوم: إمساك المسلم عن ما يُفْسِدُ صَوْمَهُ من المُفْطَرَّات كَأَكْلٍ أو شُرْبٍ أو جِمَاعٍ، من طلوع الفجر من يوم الصيام إلى غروب شمس ذلك اليوم، بنية التقرب إلى الله.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ففرض الله علينا الصيام كما فرضه على الأمم قبلنا.

وقال سبحانه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، هذا فيه تعيين الصيام على القادر الصحيح الحاضر.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْحَافِظِينَ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بُني الإسلام على خمس:

شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان» [رواه البخاري: ٨، ومسلم: ١٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله ﻋَليهِ السَّلَام: كل عمل ابن آدم إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جُنة، وإذا كان صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل: إني امرؤ صائم. والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، للصائم فرحتان يفرحهما إذا أفطر فرح، وإذا لقي ربه فرح بصومه» [رواه البخاري: ١٩٠٤، ومسلم: ١١٥١].

قوله: «جُنة»: أي وقاية من المعاصي والنار. «ولا يرفث»: لا يتكلم الكلام الفاحش. «ولا يصخب»: أي لا يرفع صوته. «لخلوف فم الصائم»: أي تغير رائحة فم الصائم.

وفي رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله ﻋَليهِ السَّلَام: إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به، يدعُ شهوته وطعامه من أجلي» [رواه مسلم: ١١٥١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه» [رواه البخاري: ٣٨، ومسلم: ٧٦٠].

قوله ﷺ: «إيماناً واحتساباً»؛ يعني: إيماناً بفرضية صوم هذا الشهر، لا عن خوف أو استحياء من الناس. واحتساباً: طلباً للثواب من الله تعالى [ينظر: «المفاتيح في شرح المصباح» (٣ / ٨)].

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة باباً يقال له الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة لا يدخل منه أحد غيرهم، يقال أين الصائمون؟ فيقومون لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد» [رواه البخاري: ١٨٩٦، ومسلم: ١١٥٢].

ثمرات الصوم:

من خلال النصوص السابقة من الكتاب والسنة يمكننا استخلاص ثمرات الصوم، وهي:

- مغفرة الذنوب وتكفير السيئات.

- استثناء الصوم من الأعمال المضاعفة، فتكون الأعمال كلها تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصيام فإنه لا ينحصر تضعيفه في هذا العدد، بل يضاعفه الله ﷻ أضعافاً كثيرة بغير حصر عدد؛ فإن الصيام من الصبر، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

- أن تغير رائحة فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

- فرح الصائم عند فطره سروراً بما وُفِّق له من تمام الصوم الموعود عليه بالثواب الجزيل، وفرحه عند لقاء ربه بصومه لما يراه من الثواب وحسن الجزاء. عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «يقول الله ﷻ: الصوم لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وأكله وشربه من أجلي، والصوم جنة، وللصائم فرحتان: فرحة حين يفطر، وفرحة حين يلقى ربه». [البخاري: ٧٤٩٢، مسلم: ١١٥١].

- دخول الجنة من باب الريان، والنجاة من عذاب الله في الآخرة، فالصوم حصن حصين يلجأ إليه من أراد الفوز بالجنة والنجاة من النيران، ومن أراد العصمة من مكاييد الشيطان الرجيم.

- أنه يُنَمِّي في قلب المرء المسلم الإخلاص وتقوى الله تعالى، التي هي الغاية التي شرع من أجلها صوم شهر رمضان؛ فالصوم مدرسة ربانية تعين المرء أن يراقب الله تعالى في جميع أفعاله، فيكف عن المعاصي ويمتنع عن المحرمات، حتى وإن لم يره أحد من الناس، فالصائم يمكنه أن يطعم ويشرب دون أن يراه أحد من الناس، لكنه يمتنع عن ذلك خشية لله وابتغاء مرضاته وطلب الأجر والثواب من الله سبحانه تعالى.

- تهذيب النفس وترويضها، وتدريبها على الصبر، وحبسها عن الشهوات، وفطامها عن المألوفات، ومنعها من كل صفة سيئة وعادة رديئة، ومن كل خلق مذموم، فالصوم يحبس المرء المسلم عن الطعام والشراب والمباحات، مما يقوّي عزمته ويرفع همته ويعينه على الكف عن المحارم والإمساك عن الشهوات. قال جابر رضي الله عنه: «إذا صمتَ فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمحارم، ودع أذى الجار، وليكن عليك وقار وسكينة يوم صومك، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء» [ينظر: «لطائف المعارف» لابن رجب (ص: ١٥٥)].

- الصيام وقاية لنفس الصائم من اتباع الهوى في الدنيا، الذي يعمي المرء ويصمه عن رؤية الحق والانقياد للخير والصواب.

- أنه نقلة حقيقية للأغنياء من حياة التمتع والترف، وإحساسهم بألم الجوع والعطش وخشونة المعيشة، فالصوم يجسد هذا المعنى حقيقةً في نفوس الأغنياء ويجعلهم يشعرون بما يشعر به إخوانهم الفقراء والمساكين، فيدفعهم ذلك إلى المبادرة والمصارعة إلى التصديق والإنفاق والمسابقة في وجوه الخير والبر؛ حتى يرفعوا عن كاهل إخوانهم الفقراء ما هم فيه من فقر وجوع ومعاناة.

الأسباب والوسائل المعينة على الصوم:

- استحضار الثواب الجزيل والأجر العظيم للصوم الذي لا يعدل أجره أجر شيء من أعمال بني آدم.

- الاستعانة بالله تعالى، فلا يعين العبد على الطاعة إلا الله تعالى، وكلما وجد العبد في نفسه مشقة لأداء طاعة من الطاعات فعليه أن يتوجه إلى الله تعالى بالدعاء أن يسر له فعل الطاعات وأن يعينه على ذلك، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه ذلك، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيده وقال: «يا معاذ، والله إني لأحبك، والله إني لأحبك، فلا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن

عبادتك» [رواه أبو داود: ١٥٢٢].

- الإخلاص وقصد الله بالعبادة، فعندما يتذكر المسلم أنه يقصد بطاعته الله تعالى يسهل عليه أداؤها وينشط للقيام بها.
- مما يعين على الطاعة مجاهدة النفس؛ لأن الإنسان إن ترك نفسه لهواها لا تصبر على طاعة، ولا تثبت على خلق قويم.
- إدراك الصائم ما يكون عليه حاله بعد انتهاء فرض الصوم من تطهير النفس وسمو الروح وتخلصه من سيئ الصفات وردئ الأفعال.
- أن ينظر المرء لإخوانه الصائمين، فإذا نظر المرء إلى من هو أصغر منه سنًا أو من كان مريضاً أو مسنناً ثم يجاهد نفسه بالصوم يسهل على المرء الصوم وينشط للقيام به.
- إن من أهم ما يعين المسلم على طاعة الله تعالى أن يتذكر آخرته، وأن ما يفعله في هذه الدنيا إنما هو لآخرته، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فمن استحضر الآخرة هانت عليه الطاعة في الدنيا.



٣٨. صيام التطوع

الصوم من العبادات العظيمة التي يترك فيها العبد محبوبات النفس؛ إيثاراً لمحبة الله ومرضاته، وللصوم تأثير عجيب في حفظ القلب وتقويته؛ فهو من أكبر العون على التقوى، وليس التعبد به مقصوراً على رمضان، بل شرع الله صيام التطوع زيادة لنا في الفضل والأجر.

وصوم التطوع هو كل صوم ليس بواجب على المسلم، وإنما يستحب له فعله والتقرب به إلى الله تعالى.

ولصيام التطوع أنواع كثيرة جداً وردت في الأحاديث الصحيحة التي سيأتي ذكر بعضها، منها: صيام يوم عرفة، وصيام يوم عاشوراء، وصيام يوم الإثنين والخميس من كل أسبوع، وصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وصيام ستة أيام من شوال، والإكثار من صيام شعبان، ومن صيام شهر المحرم، وصيام يوم وإفطار يوم.

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن صيام التطوع من شعب الإيمان:

قال الله تعالى: ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾ شمل ذلك صيام الفرض والنفل [ينظر: «تفسير السعدي» (ص: ٦٦٥)].

وقال ﷺ: ﴿كُلُوا وَشَرِبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ١٩ - ٢٤].

قال ابن رجب رحمته الله: «قال مجاهد وغيره: نزلت في الصَّوْمِ. من ترك لله طعامه وشرابه وشهوته عوضه الله خيراً من ذلك طعاماً وشرباً لا ينفد، وأزواجاً لا تموت» [«لطائف المعارف» (ص ٨٣)].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه، أنه سأل رسول الله ﷺ: أيُّ العمل أفضل؟ قال: «عليك بالصوم فإنه لا عدل له» [رواه النسائي: ٢٢٢٢]. «لا عدل له» أي: لا مثل له.

وعن الحارث الأشعري رضي الله عنه، أن نبي الله ﷺ قال: «إن الله ﻋَظَّمَ أمر يحيى بن زكريا عليهما السلام بخمس كلمات، أن يعمل بهن، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن...»، فذكر الحديث، ومن هذه الخمسة قوله: «وأمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثّل رجل معه صُرّة من مسك في عصابة كلّهم يجد ريح المسك، وإنّ خلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك» [رواه أحمد: ١٧١٧٠]. «عصابة» أي: جماعة. «خلوف» أي: تغير رائحة الفم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم اليوم صائماً؟»، فقال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، قال: «فمن تبع منكم اليوم جنازة؟»، قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، قال: «فمن أطعم منكم اليوم مسكيناً؟»، قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، قال: «فمن عاد منكم اليوم مريضاً؟» قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، فقال رسول الله ﷺ: «ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة» [رواه مسلم: ١٠٢٨].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من صام يوماً في سبيل الله، بعد الله وجهه عن النار سبعين خريفاً» [رواه البخاري: ٢٨٤٠، ومسلم: ١١٥٣]. «في سبيل الله» أي: وهو في الجهاد، أو مخلصاً لله تعالى فيه. «سبعين خريفاً» أي: مسافة سير سبعين سنة.

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة باباً يقال له الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة لا يدخل منه أحد غيرهم، يقال أين الصائمون؟ فيقومون لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد» [رواه البخاري: ١٨٩٦، ومسلم: ١١٥٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله ﻋَظَّمَ كل عمل ابن آدم إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جنة، وإذا كان صوم أحدكم فلا يرفث

ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل: إني امرؤ صائم. والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، للصائم فرحتان يفرحهما، إذا أفطر فرح، وإذا لقي ربه فرح بصومه» [رواه البخاري: ١٩٠٤، ومسلم: ١١٥١].

«جُنة» أي: وقاية من المعاصي والنار. «فلا يرفث» أي: لا يتكلم الكلام الفاحش. «ولا يصخب» أي: لا يرفع صوته.

وفي رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله ﻛُتِبَ: إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي» [(رواه مسلم: ١١٥١)].

وعن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ سئل عن صوم يوم وإفطار يوم؟ قال: «ذاك صوم أخي داود عليه السلام». قال: وسئل عن صوم يوم الاثنين؟ قال: «ذاك يومٌ وُلدت فيه، ويومٌ بُعثت - أو: أنزل عليّ فيه». وقال: «صومُ ثلاثةٍ من كل شهر ورمضانَ إلى رمضانَ صومُ الدهر». قال: وسئل عن صوم يوم عرفة؟ فقال: «يكفّر السنة الماضية والباقية». قال: وسئل عن صوم يوم عاشوراء؟ فقال: «يكفّر السنة الماضية» [رواه مسلم: ١١٦٢]. «صيام الدهر» أي: صيام العمر كله.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أحبُّ الصلاة إلى الله صلاةُ داودَ عليه السلام، وأحبُّ الصيام إلى الله صيامُ داودَ، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، ويصوم يومًا ويفطر يومًا» [رواه البخاري: ١١٣١، ومسلم: ١١٥٩].

قال ابن قدامة رحمته الله: «وهذا النوع من الصوم أفضل الصيام، وتجتمع فيه عدة معانٍ أحدها: أن النفس تُعطى يوم الفطر حظّها، وتستوفي في يوم الصوم تعبّدّها، وفي ذلك جمعٌ بين ما لها وما عليها، وهو العدل. والثاني: أن يوم الأكل يومٌ شكر، ويوم الصوم يومٌ صبر، والإيمان نصفان: شكر وصبر. والثالث: أنه أشقُّ على النفس في المجاهدة؛ لأنها كلما أنست بحالة نُقلت عنها» [مختصر منهاج القاصدين] (ص ٤٥).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصيام بعد رمضانَ شهرُ

الله المحرّم» [رواه مسلم: ١١٦٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أوصاني خليلي بثلاث لا أدعُهن حتى أموت: صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وصلاة الضحى، ونوم على وتر. [رواه البخاري: ١١٧٨، ومسلم: ٧٢١].
وعن مُعاذة العدوية أنها سألت عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم: أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم من كل شهر ثلاثة أيام؟ قالت: نعم، فقلت لها: من أيّ أيام الشهر كان يصوم؟ قالت: لم يكن يبالي من أيّ أيام الشهر يصوم. [رواه مسلم: ١١٦٠].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من صام من كل شهر ثلاثة أيام فذلك صيام الدهر» فأنزل الله تعالى تصديق ذلك في كتابه: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] اليوم بعشرة أيام [رواه الترمذي: ٧٦٢].

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «صيام ثلاثة أيام من كل شهر صيام الدهر، وأيام البيض صبيحة ثلاث عشرة، وأربع عشرة، وخمس عشرة» [رواه النسائي: ٢٤٢٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «تُعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس، فأحب أن يُعرض عملي وأنا صائم» [رواه الترمذي: ٧٤٧].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول: لا يفطر، ويفطر حتى نقول: لا يصوم، فما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استكمل صيام شهر إلا رمضان، وما رأيته أكثر صياماً منه في شعبان» [رواه البخاري: ١٩٦٩، ومسلم: ١١٥٦].

وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر» [رواه مسلم: ١١٦٤].

الشمرات المترتبة على صيام التطوع كثيرة، منها:

- أنه سبيل إلى حصول العبد على المغفرة من الله تعالى.
- الفوز بالأجر العظيم في الجنة، والبعد عن النار.

- أن الصائمين يدخلون من باب الريان في الجنة، ولا يدخل منه أحد غيرهم.
- أن الصوم من أفضل الأعمال وأحبها إلى الله تعالى.
- استثناء الصوم من الأعمال المضاعفة، فتكون الأعمال كلها تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصيام فإنه لا ينحصر تضعيفه في هذا العدد، بل يضاعفه الله ﷻ أضعافاً كثيرة بغير حصر عدد؛ فإن الصيام من الصبر، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].
- أن تغير رائحة فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.
- فرح الصائم عند فطره سروراً بما وُفِّق له من تمام الصوم الموعود عليه بالثواب الجزيل، وفرحه عند لقاء ربه بصومه لما يراه من الثواب وحسن الجزاء.
- أنه مُعين على الإخلاص؛ فالصوم عموماً سرٌّ بين العبد وربّه، لا يراه الخلق ولا يدخله رياء.
- أنه قهر للشيطان عدو الله؛ لأن وسيلة العدو الشهوات، وإنما تقوى الشهوات بالأكل والشرب.
- أنه وسيلة لطهارة الباطن ورقة القلب وحصول التقوى.
- أنه وقاية من الوقوع في المعاصي والمحرّمات.
- أنه معين على غض البصر وتخفيف الشهوة.
- أنه سبيل لزيادة المراقبة لله ﷻ.
- أنه معين على تذكر أحوال الفقراء والمساكين والجوعى، والتصدق والإحسان إليهم.

ومن الوسائل المعينة على صيام التطوع:

- الإخلاص وقصد الله تعالى بالعبادة، فعندما يتذكر المسلم أنه يقصد بطاعته الله تعالى يسهل عليه أداؤها وينشط للقيام بها.

- استحضار الثمرات والفوائد المترتبة على الصيام خاصة صيام التطوع.
- اتخاذ صحبة صالحة تعينه على صيام التطوع، وتحثه عليه.
- استشعار ذهاب تعب الصوم وبقاء الأجر يهون على العبد صيامه.
- الحرص على الأسباب المعينة على الصوم، ومنها السحور فإنه بركة.
- الاستعانة بالله تعالى، فلا يعين العبد على الطاعة إلا الله تعالى، وكلما وجد العبد في نفسه مشقة لأداء طاعة من الطاعات فعليه أن يتوجه إلى الله تعالى بالدعاء أن ييسر له فعل الطاعات وأن يعينه على ذلك، وقد كان النبي ﷺ يعلم أصحابه ذلك، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: «يا معاذ، والله إني لأحبك، والله إني لأحبك، فلا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك» [رواه أبو داود: ١٥٢٢].
- مما يعين على الصوم مجاهدة النفس؛ لأن الإنسان إن ترك نفسه لهواها لا يصبر على طاعة، ولا تثبت على خلق قويم.



٣٩. الاعتكاف

إن من مقاصد الشريعة الإسلامية تربية الفرد المسلم التربية الإيمانية والأخلاقية السليمة، وهذه التربية لا تأتي بلا أسباب، وإنما تتأتى بسلوك طرق معلومة في الشريعة، ومن هذه الطرق الاعتكاف، فإن فيه من الخلوة بالله تعالى، والانقطاع لطاعته، والتفرغ لعبادته، وترك مخالطة الناس، ما يُصنّف نفس المرء وينقّي روحه من شهوات الدنيا؛ ولذا كان الاعتكاف طاعة من أجل الطاعات، وأحد شعب الإيمان.

والاعتكاف: هو لزوم المسجد لطاعة الله تعالى من مسلم عاقل مميز، رجلاً كان أو امرأة، مدةً من الزمن، وذهب بعض العلماء أنه لا ينبغي أن يقل عن يوم وليلة. ويشترط فيه عدم الخروج من المسجد إلا لحاجة الإنسان كقضاء حاجته أو تحصيل ما يلزمه من طعام وشراب، ويبطله الجماع.

والاعتكاف مستحب في جميع الأوقات، ويتأكد استحبابه في العشر الأواخر من شهر رمضان.

الأدلة من الكتاب والسنة على أن الاعتكاف من شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

قال السعدي رحمته الله: «﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أي: أوحينا إليهما، وأمرناهما بتطهير بيت الله من الشرك، والكفر والمعاصي، ومن الرجس والنجاسات والأقذار، ليكون ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ فيه ﴿وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أي: المصلين، قُدِّم الطواف؛ لاختصاصه بالمسجد الحرام، ثم الاعتكاف؛ لأن من شرطه المسجد مطلقاً، ثم الصلاة مع أنها أفضل لهذا المعنى» [تفسير السعدي] (ص: ٦٥).

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَبْسُرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

قال السعدي رحمته الله: «أي: لا تجامعوا نساءكم وأنتم معتكفون في المسجد، ودلت الآية على مشروعية الاعتكاف، وهو لزوم المسجد لطاعة الله تعالى، وانقطاعاً إليه، وأن الاعتكاف لا يصح إلا في المسجد. ويستفاد من تعريف المساجد بالآلف واللام، أنها المساجد المعروفة عندهم، وهي التي تقام فيها الصلوات الخمس. وفيه أن الجماع من مفسدات الاعتكاف» [تفسير السعدي] (ص: ٨٧) بتصرف يسير.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتكف العشر الأول من رمضان، ثم اعتكف العشر الأوسط، في قبة تركية على سُدتها حصير، قال: فأخذ الحصير بيده فنحاهها في ناحية القبة، ثم أطلع رأسه فكلّم الناس، فدنوا منه، فقال: «إني اعتكفت العشر الأول، ألتمس هذه الليلة، ثم اعتكفت العشر الأوسط، ثم أُتيت، فقبل لي: إنها في العشر الآخر، فمن أحب منكم أن يعتكف فليعتكف» فاعتكف الناس معه [رواه البخاري: ٨١٣، ومسلم: ١١٦٧].

«في قبة تركية» أي: قبة صغيرة. «على سُدتها» السدة: هي ظلة على باب أو ما أشبهها لتقي الباب من المطر. «ألتمس هذه الليلة» أي: أطلب ليلة القدر.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يعتكف في العشر الآخر من رمضان، فكنت أضرب له خباء، فيصلّي الصبح ثم يدخله، فاستأذنت حفصةً عائشةً أن تضرب خباء فأذنت لها، فضربت خباء، فلما رآته زينب ابنة جحش ضربت خباء آخر، فلما أصبح النبي صلى الله عليه وسلم رأى الأخبية، فقال: «ما هذا؟»، فأخبر، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «الْبَرُّ تُرُونَ بهن؟»، فترك الاعتكاف ذلك الشهر، ثم اعتكف عشرًا من شوال [رواه البخاري: ٢٠٣٣، ومسلم: ١١٧٢].

«أضرب له خباء» أي: أنصبه له، والخباء: خيمة من وبر أو صوف تُنصب على عمودين أو ثلاثة. «الْبَرُّ تُرُونَ بهن» أي: أظنون أنه أريد بهذه الأخبية الطاعة والخير؟

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الآخر من رمضان [رواه البخاري: ٢٠٢٥، ومسلم: ١١٧١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يعتكف في كل رمضان عشرة أيام، فلما كان العام الذي قُبِضَ فيه اعتكف عشرين يوماً [رواه البخاري: ٢٠٤٤]. «قُبِضَ فيه» أي: توفي فيه صلى الله عليه وسلم.

قال ابن بطال رحمته الله: «قوله: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف في كل رمضان؛ يدل على أن الاعتكاف من السنن المؤكدة؛ لأنه مما واطب عليه النبي صلى الله عليه وسلم فينبغي للمؤمنين الاقتداء في ذلك بنبههم، وذكر ابن المنذر عن ابن شهاب أنه كان يقول: عجباً للمسلمين تركوا الاعتكاف، وإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتركه منذ دخل المدينة كل عام في العشر الأواخر حتى قبضه الله.

وقوله: فلما كان العام الذي قُبِضَ فيه اعتكف عشرين يوماً؛ يحتمل أن يكون إنما ضاعف اعتكافه في العام الذي قُبِضَ فيه من أجل أنه علم بانقضاء أجله، فأراد أن يستكثر من عمل الخير؛ لِيَسُنَّ لأُمَّته الاجتهاد في العمل إذا بلغوا انقضاء العمر؛ ليلقوا الله على خير أحوالهم» [شرح صحيح البخاري لابن بطال (٤/ ١٨١) بتصرف].

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان، فسافر عامًا، فلما كان من العام المقبل اعتكف عشرين يوماً [رواه النسائي في «السنن الكبرى»: ٣٣٣٠]. وعن عائشة رضي الله عنها، أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله، ثم اعتكف أزواجه من بعده [رواه البخاري: ٢٠٢٦، ومسلم: ١١٧٢].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «أوف نذرك؛ فاعتكف ليلة» [رواه البخاري: ٢٠٤٢، ومسلم: ١٦٥٦].

الشمرات المترتبة على الاعتكاف:

- أنه طاعة من الطاعات التي يتقرب بها العبد إلى الله تعالى.
- أن فيه اقتداء بسنة النبي صلى الله عليه وسلم فقد ثبت عنه أنه داوم عليه، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ

كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَأَتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ [آل عمران: ٣١]، وعليه فيكون الاعتكاف من أسباب محبة الله للعبد.

- أن فيه انقطاعاً للطاعة وتفريراً للقلب للإقبال على الله تعالى.
- أنه من أسباب التعرف على الصحبة الصالحة التي هي من أسباب الثبات على الطاعة.
- أنه سبب لرفع الهمة في العبادة؛ فالمرء قد يصيبه الفتور، فإذا رأى أهل العبادة قاموا بين يدي ربهم لعبادته انبعثت نفسه إلى منافستهم فيها.
- في الاعتكاف تربية للنفس، وتزكية لها، لما فيه من الخلوة، فإن النبي ﷺ كان قبل نزول الوحي عليه يذهب إلى غار حراء فينقطع فيه.
- أنه من أسباب إدراك ليلة القدر إذا ما اعتكف العبد في العشر الأواخر من رمضان، كما كان هدي النبي ﷺ فإن الإنسان قد يشغل عنها إذا بقي بين أهله وأصحابه، فالمعتكف أحرى أن يدرك فضل هذه الليلة.
- أن فيه فرصة لأن يراجع الإنسان نفسه على ما اقترف من ذنوب، والتوبة منها، فقد يكون للمرء ذنب يعتاده، فإذا اعتكف انكف عنه غالباً لعدم توافر المقتضي لهذا الذنب، فتكون هذه الأيام التي يعتكفها سبباً للإقلاع عنه تماماً، والتوبة منه.
- الاعتكاف فيه تسليم المعتكف نفسه بالكلية إلى عبادة الله تعالى طلباً لمرضاته وللتقرب منه، وإبعاد النفس من شغل الدنيا التي هي مانعة عما يطلبه العبد من القربى، وفيه استغراق المعتكف أوقاته في الصلاة إما حقيقة أو حكماً، لأن المقصد الأصلي من شرعية الاعتكاف انتظار الصلاة في الجماعات، وتشبيه المعتكف نفسه بالملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ويسبحون الليل والنهار لا يفترون.

الأسباب المعينة على الاعتكاف:

- تربية المسلم نفسه على الاقتداء بالنبي ﷺ.
- النظر في أحوال الصحابة ومن بعدهم ممن سار على دربهم، فقد سبق أن ذكرنا

اعتكاف أصحاب النبي ﷺ وأزواجه معه ومن بعده، فإن هذا مما يرفع الهمة إلى التسابق في الطاعات.

- عدم الانجراف وراء مشاغل الدنيا الفانية، فمثل هذه العبادات التي تحتاج إلى انقطاع عن الدنيا إنما يزهد فيها من يزهد من أجل انشغاله بديناه.

- معرفة أهمية الاعتكاف وما له من ثمرات على النفس والقلب.

- مصاحبة أهل الصلاح والتقوى ممن يكون سبباً في إقبال المرء على طاعة ربه،

فإن الصحبة الصالحة من أعظم ما يعين على مثل هذه العبادات، فالصاحب يشجع صاحبه على الطاعات التي قد يستوحش منها لو لم يكن له من يشجعه عليها.

- الزهد في الدنيا وفي متاعها الزائل.

- الاستعانة بالله تعالى؛ لأن حمل النفس على هذه العبادة شاقٌ عليها، ولا يمكن

للعبد أن يأتي بها على وجهها إلا بإعانة الله له وتوفيقه إليها.



٤٠. الحج

الحج ركن عظيم من أركان الإسلام، لا يكتمل إسلام المرء حتى يأتي به إن استطاع إليه سبيلاً، وهو من أفضل العبادات وأجل الطاعات، وهو من أشرف مقامات العبودية لله جل وعلا؛ لأنه مبني على الحب والاستسلام التام لله تعالى. ومن جحد وجوب الحج؛ فهو كافر.

وحقيقة الحج: هو التعبد لله تعالى بقصد البيت الحرام؛ لأداء المناسك في مكان مخصوص، في وقت مخصوص، على ما جاء في كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ.

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن الحج من أهم شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقال سبحانه: ﴿وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وقال جل وعلا: ﴿الْحُجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَرَوُا فِائَتَ خَيْرِ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

قال السعدي رحمه الله: «المراد بالأشهر المعلومات عند جمهور العلماء: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة، فهي التي يقع فيها الإحرام بالحج غالباً. ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ أي: أحرم به؛ لأن الشروع فيه يُصيرُه فرضاً، ولو كان نفلاً. وقوله: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ أي: يجب أن تعظموا الإحرام بالحج، وتصونوه عن كل ما يفسده أو ينقصه، من الرفث: وهو الجماع ومقدماته الفعلية والقولية، خصوصاً عند النساء بحضرتهم. والفسوق وهو: جميع المعاصي، ومنها محظورات الإحرام. والجidal وهو: المماراة والمنازعة والمخاصمة، لكونها

تثير الشر، وتوقع العداوة.

والمقصود من الحج، الذل والانكسار لله، والتقرب إليه بما أمكن من القربات، والتزهد عن مقارفة السيئات؛ فإنه بذلك يكون مبروراً، والمبرور ليس له جزاء إلا الجنة، وهذه الأشياء وإن كانت ممنوعة في كل مكان وزمان، فإنها يتغلظ المنع عنها في الحج» [تفسير السعدي] بتصرف يسير (ص: ٩١).

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ٢٦ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ٢٧﴾ [الحج: ٢٦، ٢٧].
قوله: ﴿رِجَالًا﴾ أي: مشاة على أرجلهم. ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي: ناقة خفيفة اللحم. ﴿مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي: من كل بلد بعيد.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت» [رواه البخاري: ٨، ومسلم: ١٦].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً» [رواه مسلم: ٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا» فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟! فسكت، حتى قالها ثلاثاً. فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت نعم، لوجبت، ولما استطعتم» [رواه مسلم: ١٣٣٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» [رواه البخاري: ١٧٧٣، ومسلم: ١٣٤٩].

والحج المبرور: الذي لا يخالطه إثم، أو المتقبل الذي لا رياء فيه ولا سمعة.
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «إيمان

بأنه ورسوله». قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد في سبيل الله». قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور». [رواه البخاري: ٢٦، ومسلم: ٨٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق، رجع كما ولدته أمه» [رواه البخاري: ١٨١٩، ومسلم: ١٣٥٠]. «يرفث»: الرفث الجماع ومقدماته والقول الفاحش.

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، ألا نغزو ونجاهد معكم؟ قال: «لكن أحسن الجهاد وأجمله الحج، حج مبرور». قالت عائشة: فلا أدع الحج بعد إذ سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم [رواه البخاري: ١٨٦١].

وعن عمر رضي الله عنه قال: «شدوا الرحيل إلى الحج والعمرة، فإنه أحد الجهادين» [رواه عبد الرزاق في «مصنفه»: ٨٨٠٨].

ثمرات فريضة الحج:

يتبين من خلال نصوص القرآن والسنة السابقة أن للحج ثمرات كثيرة وفضائل جليلة، منها:

- الحج المبرور سبب لتكفير الخطايا والذنوب، بل يرجع المسلم من حجه كيوم ولدته أمه، وليس له ثواب إلا الجنة.

- الحج في منزلة الجهاد في سبيل الله؛ بل هو أحسن الجهاد في حق النساء خاصة، كما سبق في حديث عائشة رضي الله عنها.

- الحج والمتابعة بينه وبين العمرة ينفيان الفقر والذنوب؛ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس للحجة المبرورة ثواب دون الجنة» [رواه الترمذي: ٨١٠].

الكير: هو ما ينفخ فيه الحداد لاشتعال النار لتصفية وسخ الحديد وشوائبه.

- تحقيق الألفة والوحدة بين المسلمين، فيجتمع المسلمون على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وبلدانهم في صعيد واحد في وقت واحد، يدعون ربًّا واحدًا، ويتوجهون لبيت واحد، فتتوحد الأهداف والغايات، وتصبح الأمة على قلب رجل واحد.

وهو أيضًا يعرض مظاهر قوة المسلمين وشوكتهم واجتماعهم وإظهار شريعتهم قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]. مثابة: مرجعًا يأتون إليه من كل جانب.

- موافقة إمام الحنفاء إبراهيم وولده إسماعيل وابنهما محمد ﷺ، وتذكر هذه المواقف والمقامات قال جل وعلا: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٨].

وعن يزيد بن شيان قال: أتانا ابن مربع الأنصاري ونحن بعرفة في مكان بعيد عن الإمام فقال: يقول لكم رسول الله ﷺ: «قفوا على مشاعركم، فإنكم على إرث من إرث أبيكم إبراهيم» [رواه أبو داود: ١٩١٩].

- إعلان العبودية لله وحده وخلع ما سواه، ففي التلبية يعلن الحاج توحيده فيقول: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك. وقد كان أهل الجاهلية يلبون بالشرك فيقولون: إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك.

وفي سائر المواقف والمشاعر يتجرد العبد في توحيده وطاعته لله ﷻ، ومتابعته للنبي ﷺ، فيسير ويقف حيث أمره الله، ويحلق شعره، وينحر أو يذبح هديه حيث أمره الله وشرع له، ويتابع في ذلك كله رسول الله ﷺ؛ فهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه جاء إلى الحجر الأسود فقبله وقال: «إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبي ﷺ يُقبلُك ما قبلُتك» [رواه البخاري: ١٥٩٧، ومسلم: ١٢٧٠].

- تحصيل منافع الدنيا والآخرة، كما ذكر الله تعالى في كتابه: ﴿وَإِذْ فِي النَّاسِ بِالْحِجِّ

يَأْتُوكَ رَجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَفَعَهُمْ وَيَذْكُرُوا
أَسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴿٢٨﴾ [الحج: ٢٧-٢٨].

والمنافع: دنيوية، ودينية. أما الدينية: فلتحصيل رضوان الله تعالى، والعودة بمغفرة
الذنوب جميعاً، وكذا الأجور العظيمة التي لا توجد إلا في تلك المناسك والأماكن،
فمثلاً الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، ولا يوجد طواف ولا سعي إلا في
تلك الأماكن.

وأما المنافع الدنيوية فمنها التجارة، وسائر وجوه المكاسب المتعلقة بالحج، كما
قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].
وعن سعيد بن جبيرة رضي الله عنه قال: «من أمَّ هذا البيت يريد دنيا أو آخرة أُعطيهِ» [رواه عبد
الرزاق في «مصنفه»: ٨٨٣٤].

- إن مات الحاج أثناء تأديته مناسك الحج بُعث يوم القيامة مُلَبَّياً؛ فعن عبد الله
بن عباس رضي الله عنهما قال: بينا رجل واقف مع النبي صلى الله عليه وسلم بعرفة، إذ وقع عن راحلته فوقصته،
فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه في ثوبين، ولا تمسوه طيباً، ولا تخمّروا
رأسه، ولا تحنطوه، فإن الله يبعثه يوم القيامة مُلَبَّياً» [رواه البخاري: ١٨٥٠، ومسلم: ١٢٠٦].
«راحلته» أي جملة. «فوقصته»: أي كسرت عنقه. «ولا تخمّروا»: أي: تغطوا. «ولا
تحنطوه» أي لا تضعوا له طيباً.

الأسباب والوسائل المعينة على أداء تلك الفريضة:

- الإخلاص وقصد الله تعالى بالعبادة، فعندما يتذكر المسلم أنه يقصد بطاعته الله
تعالى يسهل عليه أداؤها وينشط للقيام بها.
- العلم وذلك بمعرفة الأجر العظيم المتحصّل عند أداء تلك الفريضة، ومعرفة
فضلها وثمراتها، واستشعار عظمة كل شعيرة من شعائر الحج.
- الاستعانة بالله تعالى، فلا يعين العبد على الطاعة إلا الله تعالى، وكلما وجد

العبد في نفسه مشقة لأداء طاعة من الطاعات، فعليه أن يتوجه إلى الله تعالى بالدعاء أن ييسر له فعل الطاعات وأن يعينه عليها، وقد كان النبي ﷺ يعلم أصحابه ذلك، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: «يا معاذ، والله إنني لأحبك، والله إنني لأحبك، فلا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك» [رواه أبو داود: ١٥٢٢].

- أن يعلم أن ما ينفقه من مال في سبيل أدائه للحج لن ينقص من ماله شيئاً؛ بل إن مداومته على الحج والعمرة ينفيان عنه الفقر ويوسعان له في الرزق كما سبق في الحديث، وكما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

- أن يسارع إلى الحج متى تيسر له ذلك، ولا يؤجل ولا يؤسّف، فقد يأتي يوم يعجز فيه عن الحج؛ فعن الفضل بن العباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أراد الحج فليتعجل؛ فإنه قد يمرض المريض، وتضل الضالة، وتعرض الحاجة» [رواه ابن ماجه: ٢٨٨٣].



٤١. العمرة

شرع الله تعالى لعباده عددًا من العبادات التي يتوصلون بها إلى نيل ما عنده من ثواب، ويبلغون بها مرضاته سبحانه وتعالى، ومن هذه العبادات: العمرة، وهي من شعب الإيمان، ومن الشعائر التي يعظمها المسلمون قاطبة، بل تتوقُّ قلوب كثير منهم إلى أن ينال شرف القيام بها. والعمرة سنة مؤكدة، بل ذهب بعض العلماء إلى وجوبها، وتؤكد العمرة في شهر رمضان؛ فإن ثوابها يعدل ثواب الحج.

وهي عبارة عن الإحرام من الميقات، مقترن بالتجرد من المخيط، ثم الطواف بالبيت الحرام سبع أشواط، ثم السعي بين الصفا والمروة سبع مرات، ثم الحلق أو التقصير.

الأدلة من الكتاب والسنة على أن العمرة من شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿وَاتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

قال السعدي رحمته الله: يُستدل بقوله تعالى: ﴿وَاتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ على أمور: أحدها: وجوب الحج والعمرة، وفرضيتهما. الثاني: وجوب إتمامهما بأركانهما، وواجباتهما، التي قد دل عليها فعل النبي صلى الله عليه وسلم وقوله: «خذوا عني مناسككم». الثالث: أن فيه حُجة لمن قال بوجوب العمرة. الرابع: أن الحج والعمرة يجب إتمامهما بالشروع فيهما، ولو كانا نفلًا. الخامس: الأمر بإتقانهما وإحسانهما. السادس: الأمر بإخلاصهما لله تعالى... [أنظر: «تفسير السعدي» (ص: ٩٠)].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوَّاعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨].

قال السعدي رحمته الله: يخبر تعالى أن الصفا والمروة ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أي: أعلام دينه الظاهرة، التي تعبَّد الله بها عباده، وإذا كانا من شعائر الله، فقد أمر الله بتعظيم شعائره

فقال: ﴿وَمَنْ يُعْظِمُ شَعْبَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ فدل مجموع النصين أنهما من شعائر الله، وأن تعظيم شعائره، من تقوى القلوب. والتقوى واجبة على كل مكلف، وذلك يدل على أن السعي بهما فرض لازم للحج والعمرة، كما عليه الجمهور، ودلت عليه الأحاديث النبوية.

﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ هذا دفع لوهم من توهم وتخرج من المسلمين عن الطواف بينهما، لكونهما في الجاهلية تُعبد عندهما الأصنام، فنفي تعالى الإثم لدفع هذا الوهم، لا لأنه غير لازم. وقوله: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ﴾ أي: فعل طاعة مخلصاً بها لله تعالى ﴿حَيْثُ﴾ من حج، وعمرة، وطواف، وصلاة، وصوم، وغير ذلك.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ الشاكر والشكور من أسماء الله تعالى، الذي يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه العظيم من الأجر، ومع أنه شاكر فهو عليم بمن يستحق الثواب الكامل، بحسب نيته وإيمانه وتقواه، ممن ليس كذلك [أنظر: «تفسير السعدي» (ص: ٧٦)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: اعتمر رسول الله ﷺ أربع عُمَر، كلهن في ذي القعدة، إلا التي كانت مع حجته [رواه البخاري: ٤١٤٨، ومسلم: ١٢٥٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما» [رواه البخاري: ١٧٧٣، ومسلم: ١٣٤٩].

قال النووي رحمته الله: «هذا ظاهر في فضيلة العمرة، وأنها مكفرة للخطايا الواقعة بين العمرتين» [شرح مسلم (٩/ ١١٧)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما رجع النبي ﷺ من حجته قال لأُم سنان الأنصارية: «ما منعك من الحج؟». قالت: زوجي كان له ناضحان، حج على أحدهما، والآخر يسقي أرضاً لنا، قال: «إذا جاء رمضان فاعتمري؛ فإن عمرة فيه تعدل حجة» [رواه البخاري: ١٨٦٣، ومسلم: ١٢٥٦].

«ناضحان» أي: بغير ان نستقي بهما. «تعدل حجة» أي: يعدل ثوابها ثواب حجة. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة» [رواه الترمذي: ٨١٠].

«تابعوا بين الحج والعمرة» أي: إذا اعتمرتم فحجوا، وإذا حججتم فاعتمروا. «ينفيان الفقر والذنوب» أي: يزيلان الفقر، ويمحوان الذنوب. «الكير»: هو ما ينفخ فيه الحداد لاشتعال النار لتصفية وسخ الحديد وشوائبه.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من طاف بالبيت، وصلى ركعتين، كان كعتق رقبة» [رواه ابن ماجه: ٢٩٥٦].

وعن عمر رضي الله عنه قال: «شدوا الرحيل إلى الحج والعمرة، فإنه أحد الجهادين» [رواه عبد الرزاق في «مصنفه»: ٨٨٠٨].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال: «وفد الله ثلاثة: الحاج، والمعتمر، والغازي، أولئك الذين يسألون الله فيعطيههم سؤالهم» [رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦/ ١٩)]. وعن سعيد بن جبیر رضي الله عنه قال: «من أمَّ هذا البيت يريد دنيا أو آخرة أعطيه» [رواه عبد الرزاق في «مصنفه»: ٨٨٣٤].

ثمرات أداء العمرة:

- أنها أداء شعيرة من شعائر الإسلام التي يُنال بها رضی الله وعظيم ثوابه.
- أن فيها اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، فقد اعتمر صلى الله عليه وسلم أربع مرات.
- أنها سبب لمحو الذنوب والسيئات.
- أن بها يتسع الرزق وتنزل البركات؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد وعد من تابع بين الحج والعمرة بأن يتنفي عنه الفقر، وإذا انتفى الفقر جاء الغنى ولا بد.
- أن العمرة في رمضان تعدل ثواب حجة.

- أن أداء العمرة يستلزم الذهاب إلى مكة المكرمة وإلى البيت الحرام، والصلاة هناك تعدل مائة ألف صلاة.

- أن في العمرة إعلان العبودية لله وحده وخلع ما سواه، ففي التلبية يعلن المعتمر توحيده فيقول: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك. وقد كان أهل الجاهلية يلون بالشرك فيقولون: إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك. وفي سائر المواقف والمشاعر يتجرد العبد في توحيده وطاعته لله ﷻ، ويتابع في ذلك كله رسول الله ﷺ؛ فهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه جاء إلى الحجر الأسود فقبله وقال: «إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقبلك ما قبّلتك» [رواه البخاري: ١٥٩٧، ومسلم: ١٢٧٠].

- اجتماع المسلمين من أقطار الدنيا في مكان واحد على هيئة ولباس واحد فيتعرف بعضهم على بعض وتذوب الفوارق بينهم، حيث لا فرق بين غني وفقير، ولا بين عربي وعجمي، إلا بالتقوى.

الأسباب والوسائل المعينة على أداء شعيرة العمرة:

- العلم؛ وذلك بمعرفة الأجر العظيم المتحصّل عند أداء تلك الشعيرة، ومعرفة فضلها وثمراتها.

- الإخلاص وقصد الله تعالى بالعبادة، فعندما يتذكر المسلم أنه يقصد بطاعته الله تعالى يسهل عليه أداؤها وينشط للقيام بها.

- الاستعانة بالله تعالى، فلا يعين العبد على الطاعة إلا الله تعالى، وكلما وجد العبد في نفسه مشقة لأداء طاعة من الطاعات فعليه أن يتوجه إلى الله تعالى بالدعاء أن ييسر له فعل الطاعات وأن يعينه عليها، وقد كان النبي ﷺ يعلم أصحابه ذلك، فعن معاذ بن جبل رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: «يا معاذ، والله إني لأحبك، فلا تدعنّ في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن

عبادتك» [رواه أبو داود: ١٥٢٢].

- أن يعلم أنَّ ما ينفقه من مال في سبيل أدائه للعمرة لن ينقص من ماله شيئاً، بل إن مداومته على الحج والعمرة ينفيان عنه الفقر ويوسعان له في الرزق كما سبق في الحديث، وكما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].



٤٢. التعاون على البر والتقوى

إن التعاون على البر والتقوى من أهم صفات المؤمنين، وهو قيمة اجتماعية عظيمة، وسر نجاح الأمم وفلاحها، فبالتعاون تحقق الأمة غاياتها وأهدافها، ويعيش المجتمع في رخاء وسعادة، وتسوده المحبة والألفة، وبه يكون الوقوف في وجه الأعداء وحماية الأمة من أي خطر خارجي، ويمنع الشر والظلم والعدوان.

وحقيقة التعاون على البر والتقوى هو: أن يُعين بعض المسلمين بعضاً قولاً وفعلاً على الخير، وأن يمتنعوا عن المشاركة في كل إثم أو عدوان، ويأخذوا على يد من يفعل ذلك، وكل ذلك ابتغاء مرضاة الله تعالى.

يقول السعدي رحمه الله: «الإعانة هي الإتيان بكل خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها، والامتناع عن كل خصلة من خصال الشر المأمور بتركها، فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه، وبمعاونة غيره من إخوانه المؤمنين عليها، بكل قول يبعث عليها، وينشط لها، وبكل فعل كذلك. وكل معصية وظلم يجب على العبد كُفُّ نفسه عنه، ثم إعانة غيره على تركه» [ينظر: «تفسير السعدي» (ص ٢١٨)].

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن التعاون على البر والتقوى من شعب الإيمان:

قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

يقول ابن القيم في تأويل هذه الآية الكريمة: «اشتملت هذه الآية على جميع مصالح العباد في معاشهم ومعادهم فيما بينهم بعضهم بعضاً، وفيما بينهم وبين ربهم، فإن كل عبد لا ينفك عن هاتين الحالتين، وهذين الواجبين، واجب بينه وبين الله، وواجب بينه وبين الخلق من المعاشرة والمعاونة والصُّحبة، فالواجب عليه فيها أن يكون اجتماعهم بهم

وصحبته لهم تعاوناً على مرضاة الله وطاعته التي هي غاية سعادة العبد وفلاحه، ولا سعادة له إلا بها، وهي البر والتقوى اللذان هما جماع الدين كله» [زاد المهاجر إلى ربه] (ص ٦).
وقال ابن تيمية: «حياة بني آدم وعيشهم في الدنيا لا يتم إلا بمعاونة بعضهم لبعض» [الفتاوى الكبرى] (٦ / ٣٦٤).

وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].
وقال سبحانه عن موسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾ هَرُونَ أَخِي ﴿أَشَدَّ بِهِ أَزْرًى﴾ وَأَشْرَكَهُ فِي أَمْرِي ﴿طه: ٢٩ - ٣٢].

قوله تعالى: ﴿أَشَدَّ بِهِ أَزْرًى﴾ أي: يؤنسني ويقوّني فيما أمرتني به من هذا المقام العظيم، وهو القيام بأعباء النبوة والرسالة إلى هذا الملك المتكبر الجبار العنيد [ينظر: «تفسير ابن كثير» (٦ / ٢١٢)].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادّهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى». [رواه البخاري: ٦٠١١، ومسلم: ٢٥٨٦].

قوله ﷺ: «تداعى له» أي: دعا بعضه بعضاً إلى المشاركة في الألم، ووجه التشبيه فيه: هو التوافق في المشقة، والراحة، والنفع، والضرر [ينظر: «البحر المحيط الثجاج» (٤٠ / ٦٠٦)].
وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان معه فضل ظهر، فليعُد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعُد به على من لا زاد له» [رواه مسلم: ١٧٢٨]. «زاد» أي: طعام وشراب.

قوله ﷺ: «فضل ظهر» أي: زيادة ما يركب على ظهره من الدواب، وفي العصر الحاضر: السيارات ونحوها (فليعد به) أي فليحسن به ويتصدق به على من لا يجد ما يركب عليه [ينظر: «الكوكب الوهاج» (١٩ / ٨٣)].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «على كل مسلم صدقة»،

فقالوا: يا نبي الله، فمن لم يجد؟ قال: «يعمل بيده، فينفع نفسه ويتصدق» قالوا: فإن لم يجد؟ قال: «يعين ذا الحاجة الملهوف» قالوا: فإن لم يجد؟ قال: «فليعمل بالمعروف، وليمسك عن الشر، فإنها له صدقة» [رواه البخاري: ١٤٤٥، ومسلم: ١٠٠٨].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أيضاً قال: قال النبي ﷺ: «إن الأشعرين إذا أرمलो في الغزو، أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني وأنا منهم» [رواه البخاري: ٢٤٨٦، ومسلم: ٢٥٠٠]. قوله: «أرمलो» أي: فرغ زادهم وطعامهم.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «يد الله مع الجماعة» [رواه الترمذي: ٢١٦٧]. أي: يكون الله تعالى مع المجتمعين على الخير؛ يؤيدهم وينصرهم ويحفظهم. وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه [رواه البخاري: ٢٤٤٦، ومسلم: ٢٥٨٥].

ثمرات التعاون على البر والتقوى:

من خلال النصوص السابقة من الكتاب والسنة يمكننا استخلاص ثمرات التعاون على البر والتقوى، وهي:

- أن في التعاون على البر والتقوى العصمة من الوقوع في التفرق والاختلاف المذموم المبعّد عن الدين وعن طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

- أن الله ﻋﻠﻴﻪ يكون مع المتعاونين على البر والتقوى يؤيدهم ويعينهم ويبارك في أعمالهم كما في الحديث السابق.

- شعور الفرد بالقوة ونزع شعور العجز من نفسه.

- ازدياد تماسك المجتمع بشكل كبير في مختلف النواحي، ولا سيما الناحية الاجتماعية، فيساعد الأفراد بعضهم في جميع الأحوال، في السراء والضراء، وفي الأفراح والأحزان، مما يؤدي إلى استقرار المجتمع وترابطه وتكاتفه، وبالتالي تطويره

- والنهوض به نحو المعالي والتقدم بين سائر الشعوب والأمم.
- التعاون على البر والتقوى يقوي أواصر الترابط والتآخي والمحبة والألفة بين أفراد المجتمع.
- إنجاز الأعمال الكبيرة التي يعجز الإنسان بمفرده عن القيام بها.
- توزيع المسؤولية لتشمل عدد أكبر من الأفراد مما يؤدي إلى شيوخ أعمال الخير والبر.
- مواجهة الأخطار المحدقة بالإنسان ممن حوله من إنسان وحيوان.
- أنه أساس التقدم والإنتاج والنجاح والتفوق.

الأسباب والوسائل المعينة على التعاون على البر والتقوى:

- الإخلاص وقصد الله تعالى بالعبادة، فعندما يتذكر المسلم أنه يقصد بتعاونه مع الناس على البر والتقوى وجه الله وحده؛ يسهل ذلك عليه وينشط للقيام به.
- ابتغاء الأجر والثواب من الله سبحانه وتعالى في الآخرة، فيتذكر ما أعدّه الله تعالى لعباده المؤمنين - المتصفين بهذه الشعبة وغيرها - في الآخرة من الأجر والثواب.
- الاستعانة بالله تعالى، فلا يعين العبد على الطاعة إلا الله تعالى، وكلما وجد العبد في نفسه مشقة لأداء طاعة من الطاعات فعليه أن يتوجه إلى الله تعالى بالدعاء أن ييسر له فعل الطاعات وأن يعينه عليها.
- تقوى الله ﷻ؛ فهي سبب توفيق الله للعبد لكل عمل رشيد يريجو به رضا الله جل وعلا في دينه ودنياه.
- معرفة الأدلة الشرعية الدالة على الاتصاف بخلق التعاون على البر والتقوى.
- مجالسة العلماء والمصلحين والصالحين ومصاحبتهم والتعاون معهم في القيام بأعمال الخير والبر وسائر الأعمال الصالحة.
- البعد عن أصدقاء السوء الذين يشبطونه عن عمل الخير، ويريدونه أن يتعاون

معهم على الإثم والعدوان.

- الإصلاح بين الناس، وترك المخاصمات والمنازعات، ونشر روح الحب والألفة؛ فإنهم إذا كانوا إخوة متحابين سهل عليهم التعاون على البر والتقوى فيما بينهم؛ أما إذا كانوا متخاصمين متقاطعين فكيف يتعاونون؟!



٤٣. النصيحة

إن الله تعالى واسع الرحمة لطيف بعباده، لا يرضى لعباده الكفر وإن يشكروا ويرضه لهم، ومن رحمته ولطفه بعباده أن أرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب؛ ليرشدوا الناس وينصحوهم، وأمر الخلق بنصح بعضهم بعضاً؛ ليفلحوا في الدنيا ويفوزوا في الآخرة؛ لذا كانت النصيحة من فضائل الأعمال، وشعبة من أجل شعب الإيمان.

والنصيحة هي إرشاد الآخرين لما فيه الصلاح، ونهيهم عما فيه الفساد. وأول النصح أن ينصح الإنسان نفسه، بأن يجتهد في طلب العلم والفقه؛ ليعرف به ما يجب عليه، ويعلم عداوة الشيطان له وكيف الحذر منه، ويعلم قبيح ما تميل إليه النفس حتى يخالفها بعلم [ينظر: «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (١/ ١٣٠)].

وقيل: حقيقة النصح: إرادة الخير لغيرك مما تريده لنفسك، أو النهاية في صدق العناية.

وينبغي على مَنْ طُلِبَ منه النصيحة أن يخلص في النصيحة ويجتهد في إسدائها له، ويجتنب غش الذي استنصحه أو إضلاله.

والنصيحة تكون لله تعالى، ولرسوله ﷺ، ولكتابه ﷻ، ولأئمة المسلمين، وعامتهم.

فأما النصيحة لله تعالى: فهي الاعتراف بوحدانية الله، وتفرد بصفات الكمال على وجه لا يشاركه فيها مشارك بوجه من الوجوه، والقيام بعبوديته ظاهراً وباطناً، والطلب رغبة ورهبة، مع التوبة والاستغفار الدائم.

وأما النصيحة لكتاب الله تعالى: فبحفظه، وتدبره، وتعلم ألفاظه ومعانيه، والاجتهاد في العمل به في نفسه وفي غيره.

وأما النصيحة للرسول ﷺ: فهي الإيمان به ومحبة، وتقديمه فيها على النفس

والمال والولد، واتباعه في أصول الدين وفروعه، وتقديم قوله على قول كل أحد، والاجتهاد في الاهتداء بهديه، والنصر لدينه.

وأما النصيحة لأئمة المسلمين - وهم ولاتها من الإمام الأعظم إلى الأمراء والقضاة إلى جميع من لهم ولاية عامة أو خاصة -: فباعثها ولايتهم، والسمع والطاعة لهم في غير معصية الله تعالى، وبذل ما يستطيعه من إرشادهم، وتنبههم إلى كل ما ينفعهم وينفع الناس.

وأما النصيحة لعامة المسلمين: فبأن يحبَّ لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، ويسعى في ذلك بحسب الإمكان، فإن من أحبَّ شيئاً سعى له، واجتهد في تحقيقه وتكميله [انظر: «بهجة قلوب الأبرار» للسعدي (ص: ١٩، ٢٠)].

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن النصيحة من شعب الإيمان:

قال الله ﷻ: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩١].

قال السعدي رحمه الله: «﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾ في أبدانهم وأبصارهم الذين لا قوة لهم على الخروج والقتال ﴿وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾ وهذا شامل لجميع أنواع المرض الذي لا يقدر صاحبه معه على الخروج والجهاد ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ﴾ أي: لا يجدون زاداً، ولا راحلة يتبَلَّغون بها في سفرهم، فهؤلاء ليس عليهم حرج، بشرط أن ينصحوا لله ورسوله، بأن يكونوا صادقي الإيمان، وأن يكون من نيتهم وعزمهم أنهم لو قدروا لجاهدوا، وأن يفعلوا ما يقدرون عليه من الحث والترغيب والتشجيع على الجهاد [انظر: «تفسير السعدي» (ص: ٣٤٧)].

وقال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولًا لِيَمِيزَكُمْ الْبَاطِلَ مِنَ الْحَقِّ وَتُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢].

قال السعدي رحمته الله: «أي: وظيفتي تبليغكم، بيان توحيده وأوامره ونواهيه، على وجه النصيحة لكم والشفقة عليكم» [«تفسير السعدي» (ص: ٢٩٣)].
وقال سبحانه في شأن هود عليه السلام: ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولًا لِّبَيِّنَاتٍ لِّكُمْ وَأَنَا لَكُم نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨].

قال الطبري رحمته الله: «يقول: وأنا لكم ناصح في أمري إياكم بعبادة الله دون ما سواه من الأنداد والآلهة، ودعائكم إلى تصديقي فيما جئتكم به من عند الله، ناصح فاقبلوا نصيحتي، أمين على وحي الله، وعلى ما أتمنني الله عليه من الرسالة، لا أكذب فيه ولا أزيد ولا أبدل، بل أبلغ ما أمرت به كما أمرت» [«تفسير الطبري» (١٠ / ٢٦٥)].
وقال تعالى في شأن صالح عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ التَّصْحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].
وقال في شأن شعيب عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آتَيْنِي عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

وعن تميم الداري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الدين النصيحة» قلنا: لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» [رواه مسلم: ٥٥].
وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: «بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم» [رواه البخاري: ٥٧، ومسلم: ٥٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «حق المسلم على المسلم ست» قيل: ما هن يا رسول الله؟ قال: «إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فسمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه» [رواه مسلم: ٢١٦٢].

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «ما من عبد استرعاه الله رعية، فلم يحطها بنصيحة، إلا لم يجد رائحة الجنة» [رواه البخاري: ٧١٥٠، ومسلم: ١٤٢].

وقال بعض أصحاب النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، إن شئتم لأقسمن لكم بالله، إن أحب عباد الله إلى الله الذين يحبون الله إلى عبادته، ويحبون عباد الله إلى الله، ويسعون في الأرض بالنصيحة» [جامع العلوم والحكم] (١ / ٢٢٤).

وقال الحسن البصري رحمه الله: «ما زال الله ناسٍ ينصحون الله في عبادته، وينصحون لعباد الله في حق الله عليهم، ويعملون له في الأرض بالنصيحة، أولئك خلفاء الله في الأرض» [شرح صحيح البخاري] لابن بطال (١ / ١٣٠).

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: «ما أدرك عندنا مَنْ أدرك بكثرة الصلاة والصيام، وإنما أدرك عندنا بسخاء الأنفس، وسلامة الصدور، والنصح للأمة» [جامع العلوم والحكم] (١ / ٢٢٥). «أدرك» أي: بلغ المكانة العالية.

وقال معمر بن راشد رحمه الله: «كان يقال: أنصح الناس لك من خاف الله فيك» [جامع العلوم والحكم] (١ / ٢٢٥).

الثمرات المترتبة على النصيحة كثيرة، منها:

- النصيحة هي أصل الدين، وقد ذكر العلماء أن مدار الدين على النصيحة، فهي تجمع الدين كله.
- حصول الناصح على الأجر والثواب من الله تعالى.
- أنها طريقة الأنبياء والمرسلين والمصلحين.
- أن في القيام بها تحصيلاً للخير وللصلاح للخلق وتقليلاً للشر وللفساد؛ مما يؤدي إلى صلاح الفرد والمجتمع.
- أن في القيام بها نشرًا لروح الرحمة والتآلف بين الأمة، وهي من باب التعاون على البر والتقوى.
- أن بها يصلح الأفراد وتسعد الشعوب، لما فيها من إرشاد الناس إلى المصالح الدنيوية والأخروية.

الوسائل المعينة على النصيحة:

- الخوف من الله تعالى، والغيرة على ترك العباد لما أمر الله به، أو فعلهم ما نهى الله عنه.
- الرغبة في الخير للآخرين.
- العلم بمكانة النصيحة وفضلها.
- الحرص على الأجر والثواب المترتب على النصيحة.
- أن يعلم المسلم أن هذا الطريق فيه تشبه بالأنبياء والصالحين وسلوك مسالكهم.
- العلم بالشرع والفقه في الدين؛ ليعلم ما ينبغي النصيحة به.
- الاستعانة بالله تعالى؛ لأن النصيحة تحتاج إلى علم وصبر وحسن خلق فهي شاقة على النفس، ولا يمكن لعبد أن يأتي بها على وجهها إلا بإعانة الله له وتوفيقه إليها.



٤٤. تعظيم شعائر الله وحرماته

ينبغي على المسلم أن يفعل ما أمر الله تعالى به وينتهي عما نهى الله عنه، وأن يعظم أوامر الله ونواهيه؛ فينتفع بذلك في خاصة نفسه، وترتفع درجته عند ربه، وتحصل للمجتمع السلامة والهداية.

وشعائر الله ﷻ يراد بها أوامر الله تعالى ونواهيه، وتعظيمها يكون بفعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه. ويراد بشعائر الله أيضًا: أعلام دينه الظاهرة التي أمر بتعظيمها. والحرمات هي ما يجب احترامه وحفظه من الحقوق والأشخاص والأزمنة والأماكن. فمن شعائر الله تعالى المكانية: بيت الله المحرم، ومناسك الحج، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى، وسائر بيوت الله تعالى.

ومن الشعائر الزمانية: شهر رمضان، والأشهر الحرم، لاسيما العشر الأوائل من ذي الحجة، وأفضلها يوم عرفة ويوم النحر (عيد الأضحى). وتعظيم شعائر الله وحرماته يعني توفيتها حقها، وحفظها من الإضاعة؛ فيدخل في ذلك فعل ما أمر الله تعالى به، وترك ما نهى الله عنه، واجتناب الإفراط والتفريط.

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن تعظيم شعائر الله وحرماته من

شعب الإيمان:

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الْأَصْفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﷻ﴾ [البقرة: ١٥٨].

يعني: من معالم الله التي جعلها تعالى لعباده معلماً ومشعراً يعبدونه عندها، إما بالدعاء، وإما بالذكر، وإما بأداء ما فرض عليهم من العمل عندها، وإذا كانا من شعائر الله، فقد أمر الله بتعظيم شعائره. [ينظر: «تفسير الطبري» (٢/ ٧١٠)، و«تفسير السعدي» (ص: ٧٦)].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَجْلُوْا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا أَقْلَيدَ وَلَا أَمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ [المائدة: ٢].

قال السعدي رحمه الله: «يقول تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَجْلُوا شَعِيرَ اللَّهِ﴾ أي: محرماته التي أمركم بتعظيمها، وعدم فعلها، والنهي يشمل النهي عن فعلها، والنهي عن اعتقاد حلها؛ فهو يشمل النهي عن فعل القبيح، وعن اعتقاده، ويدخل في ذلك النهي عن محرمات الإحرام، ومحرمات الحرم، ويدخل في ذلك ما نص عليه بقوله: ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ أي: لا تتهكوه بالقتال فيه وغيره من أنواع الظلم.

وقوله: ﴿وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ أي: ولا تحلوا الهدى الذي يهدى إلى بيت الله في حج أو عمرة أو غيرهما، فلا تصدوه عن الوصول إلى محله، ولا تأخذوه بسرقة أو غيرها، ولا تقصروا به، أو تحملوه ما لا يطيق، خوفاً من تلفه قبل وصوله إلى محله، بل عظموه وعظموا من جاء به.

﴿وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ هذا نوع خاص من أنواع الهدى، وهو الهدى الذي يُقتل له قلائد أو عرى، فيُجعل في أعنقه إظهاراً لشعائر الله، وحملاً للناس على الاقتداء، وتعليماً لهم للسنة، وليُعرف أنه هدى فيُحترم، ولهذا كان تقليد الهدى من السنن والشعائر المسنونة. ﴿وَلَا ءِاقِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ أي: قاصدين له ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ أي: من قصد هذا البيت الحرام، وقصدَه فضل الله بالتجارة والمكاسب المباحة، أو قصدَه رضوان الله بحجّه وعمرته والطواف به والصلاة وغيرها من أنواع العبادات، فلا تتعرضوا له بسوء، ولا تهينوه، بل أكرموا، وعظموا الوافدين الزائرين لبيت ربكم [ينظر: «تفسير السعدي» (ص: ٢١٨)].

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

قال السعدي رحمه الله: «أي: ذلك الذي ذكرنا لكم من تعظيم حرّماته وشعائره، والمراد بالشعائر: أعلام الدين الظاهرة، ومنها المناسك كلها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ ومنها الهدايا والقربان للبيت، وتقدم أن معنى تعظيمها، إجلالها، والقيام بها، وتكميلها على أكمل ما يقدر عليه العبد، ومنها الهدايا، فتعظيمها، باستحسانها في شكلها، واستسمانها في حجمها، وأن تكون مكّلة من كل وجه، فتعظيم

شعائر الله صادر من تقوى القلوب، فالمعظم لها يبرهن على تقواه وصحة إيمانه؛ لأن تعظيمها، تابع لتعظيم الله وإجلاله». [تفسير السعدي] (ص: ٥٣٨).

وقال **عَلِيٌّ**: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمَ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠]. قال ابن كثير **رحمته**: «يقول تعالى: هذا الذي أمرنا به من الطاعات في أداء مناسك الحج، وما لفاعلها من الثواب الجزيل ﴿وَمَنْ يُعْظِمَ حُرْمَتَ اللَّهِ﴾ أي: ومن يجتنب معاصيه ومحارمه ويكون ارتكابها عظيمًا في نفسه، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي: فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل، فكما على فعل الطاعات ثواب جزيل وأجر كبير، كذلك على ترك المحرمات واجتناب المحظورات.

قال ابن جريج **رحمته**: قال مجاهد **رحمته** في قوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمَ حُرْمَتَ اللَّهِ﴾ قال: الحرمة: مكة والحج والعمرة، وما نهى الله عنه من معاصيه كلها» [تفسير ابن كثير] (٥/ ٤١٩).

وعن **المُسَوِّر** بن مَحْرَمَةَ ومروان بن الحكم قالا: خرج رسول الله **ﷺ** زمنَ الْحُدَيْيَةِ... فساقا الحديث وفيه: ثم قال **ﷺ**: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني حُطَّةً يعظمون فيها حرمة الله إلا أعطيتهم إياها» [رواه البخاري: ٢٧٣١].

يعني: لا تطلب مني قریش خصلة يريدون بها تعظيم ما عظمه الله وتحريم هتك حرمة - وهو الحرم المكي - إلا أعطيتهم إياها [ينظر: «مرقاة المفاتيح» (٦/ ٢٦١٣)]. وعن عائشة **رضي الله عنها** أنها قالت: ما انتقم رسول الله **ﷺ** لنفسه إلا أن تُتْهَكَ حرمة الله، فينتقم الله بها [رواه البخاري: ٣٥٦٠، ومسلم: ٢٣٢٧].

«تنتهك حرمة الله» أي: تُتْجَاوَز حدوده، ويُخَالَف أمره أو نهيه. «فينتقم الله بها» أي: ينتصر الله تعالى بعقوبة من ارتكبها.

قال الشيخ ابن عثيمين **رحمته**: «من أسباب الغضب: الغضب لله **ﷻ**، بأن يرى الإنسان شخصًا ينتهك حرمة الله، فيغضب غيره لدين الله، وحمية لدين الله، فإن هذا محمود ويثاب الإنسان عليه؛ لأن الرسول **ﷺ** كان هذا من سنته، ولأنه داخل

في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠]، ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرُ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، فتعظيم شعائر الله وتعظيم حرمانات الله أن يجدها الإنسان عظيمة، وأن يجد امتهاها عظيمًا، فيغضب ويثار لذلك، حتى يفعل ما أمر به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك» [شرح رياض الصالحين] (٣/ ٦١٦).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: فتلتُ قلائد هدي النبي ﷺ، ثم أشعرها وقلدها، ثم بعث بها إلى البيت [رواه البخاري: ١٦٩٩، ومسلم: ١٣٢١].

«قلائد»: جمع قلادة، وهو ما يعلق بالعنق. «أشعرها»: الإشعار هو أن يكشط جلد البدنة (الجمل أو الناقة أو البقرة) حتى يسيل منها دم ثم يسلمته، فيكون ذلك علامة على كونها هديًا للكعبة.

قال ابن القيم رحمته الله: «ولو لم يكن في حكمة الإشعار إلا تعظيم شعائر الله وإظهارها وعلم الناس بأن هذه قرايين الله ﷻ، تُساق إلى بيته تُذبح له ويتقرب بها إليه عند بيته، كما يتقرب إليه بالصلاة إلى بيته، عكس ما عليه أعداؤه المشركون الذين يذبحون لأربابهم ويصلون لها؛ فشرع لأوليائه وأهل توحيدهم أن يكون نسكهم وصلاتهم لله وحده، وأن يُظهروا شعائر توحيدهم غاية الإظهار؛ ليعلموا دينه على كل دين» [إعلام الموقعين عن رب العالمين] (٢/ ٢٥٥).

وعن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قعد على بعيره، وأمسك إنسان بزمامه ثم قال ﷺ: «أيُّ يوم هذا»، فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه، قال: «أليس يوم النحر» قلنا: بلى، قال: «فأيُّ شهر هذا» فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: «أليس بذي الحجة» قلنا: بلى، قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ليلِّغَ الشاهد الغائب، فإن الشاهد عسى أن يبلِّغَ من هو أوعى له منه» [رواه البخاري: ٦٧، ومسلم: ١٦٧٩].

الثمرات المترتبة على تعظيم شعائر الله وحرماته:

- تحقيق العبودية لله تعالى بتعظيم شعائره وحرماته.
- أن ذلك يحول بين العبد وبين الجرأة على المعاصي والذنوب.
- أنه معين على الإقبال على طاعة الله وعدم التفريط فيها.
- زيادة إيمان العبد بسبب طاعته لله تعالى بتعظيم شعائره وحرماته.
- أنه سبب لنيل رضا الله والفوز بالأجر والثواب.
- أنه علامة على تقوى القلب.
- أنه من باب نصرة دين الله تعالى، والله ينصر من ينصره.

ومن الوسائل المعينة على تعظيم العبد لشعائر الله وحرماته:

- العلم بالله تعالى؛ بأسمائه وصفاته ودينه وشرعه، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨]، وكما في حديث عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» [رواه البخاري: ١٠٤٤، ومسلم: ٩٠١]. فعلى قدر علم العبد بربه يكون تعظيمه لشعائره وحرماته.
- أن يعلم العبد أن تعظيم شعائر الله وحرماته هو تعظيم لله تعالى؛ فهو سبحانه الأمر الناهي، وهو أهل أن يُعبد، ويستحق تعالى أن يُعظم وأن تعظم شعائره وحرماته.
- الخوف من الله تعالى يورث تعظيم شعائره وعدم الوقوع في الحرمات، قال ابن رجب: «والقدر الواجب من الخوف ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم، فإن زاد على ذلك بحيث صار باعثاً للنفوس على التشمير في نوافل الطاعات والانكفاف عن دقائق المكروهات والتبسط في فضول المباحات - كان ذلك فضلاً محموداً» [التخويف من النار] (ص ٢٨).

- محبة الله تعالى تؤدي إلى تعظيم شعائر الله وحرماته.
- طلب العلم الشرعي؛ ليعرف العبد ما ينبغي تعظيمه ويحفظ نفسه من تعدي

حدود الله وتضييع حقه وحقوق عباده.

- عدم تتبع خطوات الشيطان وطرقه وإغوائه.

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعينان القائم بهما على تعظيم شعائر الله

وحرماته، ويؤديان إلى ذلك أيضًا في نفس المأمور بالمعروف والمنهي عن المنكر.

- الغيرة المنضبطة بالشرع تعين على تعظيم شعائر الله وحفظ حدوده.

- الشدة مع المنتهكين لحدود الله، فيها ردع لأمثالهم وتحقيق للسلامة والأمن

بالمجتمع، وهذا لمن كان مستطيعًا دون أن تترتب على ذلك مفسدة أعظم.



٤٥. الزهد وقصر الأمل

خلق الله الحياة الدنيا وجعل فيها من زينتها ما ابتلى به الخلق، فافتتن بها الكثيرون، وأعرض عنها الموفقون، وهذا الإعراض منهم كان زهداً فيها لما رأوه من قصر البقاء فيها، وتكدر العيش في لياليها، فانصرفت عنها نفوسهم وخلت منها قلوبهم، وقصُر فيها أملهم، فكانوا هم -والله- أهل العقل عن الله والتفطن لمراده من الخلق. هذا وإن الزهد في الدنيا وقصر الأمل فيها من أهم شعب الإيمان، ومن الأمور التي حثت عليها الشريعة في كثير من نصوصها.

وحقيقة الزهد في الدنيا: الإعراض عن كل ما لا ينفع المرء في آخرته، ويعين على الزهد: قصر الأمل؛ بأن يتيقن بقرب رحيله عن الدنيا، وقدومه على الله ﷻ للحساب. فليس الزهد هو ترك كل ما في الدنيا أو إتلاف المال وتضييع المرء لما أنعم الله به عليه من النعم، بل من أخذ من الدنيا ما يعينه على أمور الآخرة، واستعملها في طاعة الله تعالى؛ لم يخرج عن دائرة الزهد ولا عن كونه زاهداً، فمن أكل وشرب للتقوي على طاعة ربه لم يكن بهذا من طلاب الدنيا، وقس على هذا باقي ما أحله الله؛ كتحصيل المال للتصدق، وصلة الرحم، والإنفاق على الأهل والأولاد.

الأدلة على أن الزهد في الدنيا وقصر الأمل من أهم شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَن زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

قال السعدي رحمه الله: «هذه الآية الكريمة فيها التزهد في الدنيا بفنائها وعدم بقائها، وأنها متاع الغرور، تفتن بزخرفها، وتخدع بغرورها، وتغر بمحاسنها، ثم هي منتقلة، ومُنتقل عنها إلى دار القرار، التي توفى فيها النفوس ما عملت في هذه الدار، من خير وشر.

﴿فَمَنْ نُحْزِجْ﴾ أي: أخرج ﴿عَنِ النَّارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ أي: حصل له الفوز العظيم من العذاب الأليم، والوصول إلى جنات النعيم، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» [تفسير السعدي] (ص: ١٥٩).

وقال ﷺ: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا لَآ مَتَّعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

قال السعدي رحمه الله: «أي: هو وحده يوسع الرزق ويبسطه على من يشاء ويقدره ويضيقه على من يشاء، ﴿وَفَرِحُوا﴾ أي: الكفار ﴿بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فرحاً أوجب لهم أن يطمئنوا بها، ويغفلوا عن الآخرة، وذلك لنقصان عقولهم، ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا لَآ مَتَّعٌ﴾ أي: شيء حقير يُتَمَتَّعُ به قليلاً، ويفارق أهله وأصحابه ويعقبهم ويلاً طويلاً» [تفسير السعدي] (ص: ٤١٧).

وقال تبارك اسمه: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهُمْ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

﴿وَيُلْهِهُمْ الْأَمَلُ﴾ أي: يؤملون البقاء في الدنيا فيلهيهم عن الآخرة، قال الجزائري رحمه الله في تفسير هذه الآية: أي اترك الكافرين -أيها الرسول- يأكلوا ما شاءوا من الأطعمة، ويتمتعوا بما حصل لهم من الشهوات والملذات، ويلههم الأمل عن التفكير في عاقبة أمرهم؛ إذ همهم طول أعمارهم، وتحقيق أغراضهم، فسوف يعلمون إذا رُدُّوا إلى الله مولا هم الحق أنهم كانوا في الدنيا مخطئين بإعراضهم عن الحق ودعوة الحق والدين الحق [أنظر «أيسر التفاسير» (٣/ ٧١)].

وقال تبارك وتعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ

أَلْفِكْمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿﴾ [القصص: ٦٠، ٦١].

قال السعدي رحمه الله: «هذا حُضٌّ من الله تعالى لعباده على الزهد في الدنيا وعدم الاغترار بها، وعلى الرغبة في الآخرة، وجعلها مقصود العبد ومطلوبه، ويخبرهم أن جميع ما أوتيهِ الخلق، من الذهب، والفضة، والحيوانات، والأمتعة، والنساء، والبنين، والمأكُل، والمشارب، واللذات، كلها متاع الحياة الدنيا وزينتها، أي: يُتَمَتَّعُ به وقتًا قصيرًا، متاعًا قاصرًا، محشورًا بالمنغصات، ممزوجًا بالغصص، ويُزَيَّن به زمانًا يسيرًا، للفخر والرياء، ثم يزول ذلك سريعًا، وينقضي جميعًا، ولم يستفد صاحبه منه إلا الحسرة والندم، والخيبة والحرمان.

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من النعيم المقيم، والعيش السليم ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أي: أفضل في وصفه وكميته، وهو دائم أبدًا، ومستمر سرمدًا.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا يكون لكم عقول بها ترنون أيَّ الأمور أولى بالإيثار، وأيِّ الدارين أحق للعمل لها؟! فدل ذلك أنه بحسب عقل العبد، يؤثر الأخرى على الدنيا، وأنه ما أثر أحد الدنيا إلا لنقص في عقله، ولهذا نبه العقول على الموازنة بين عاقبة مؤثر الدنيا ومؤثر الآخرة، فقال: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ أي: هل يستوي مؤمن ساعٍ للآخرة سعيها، قد عمل على وعد ربه له، بالثواب الحسن، الذي هو الجنة، وما فيها من النعيم العظيم، فهو لاقية من غير شك ولا ارتياب؛ لأنه وعدٌ من كريم صادق الوعد، لا يُخلف الميعاد، لعبد قام بمرضاته وجانب سخطه، ﴿كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فهو يأخذ فيها ويعطي، ويأكل ويشرب، ويتمتع كما تتمتع البهائم، قد اشتغل بدنياء عن آخرته، ولم يرفع بهدي الله رأسًا، ولم يَنقُدْ للمرسلين، فهو لا يزال كذلك، لا يتزود من دنياه إلا الخسار والهلاك.

﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمُ أَلْفِكْمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ أي: محضر للحساب، وقد علم أنه لم يقدم خيرًا لنفسه، وإنما قدم جميع ما يضره، وانتقل إلى دار الجزاء بالأعمال، فما ظنكم إلى

ما يصير إليه؟ وما تحسبون ما يُصنع به؟ فليختر العاقل لنفسه، ما هو أولى بالاختيار، وأحق الأمرين بالإيثار» [تفسير السعدي] (ص: ٦٢١).

وقال **عليه السلام**: ﴿اعْلَمُوا أَنَّما الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أُنْجَبَ الْكُفَّارُ بَنَاتُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَعُ الْعُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

قال ابن كثير **رحمته الله**: «يقول تعالى موهناً أمر الحياة الدنيا ومحقرًا لها: ﴿اعْلَمُوا أَنَّما الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ أي: إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا.

ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا في أنها زهرة فانية ونعمة زائلة فقال: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ وهو المطر ﴿أُنْجَبَ الْكُفَّارُ بَنَاتُهُ﴾ أي: يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالمطر؛ وكما يعجب الزراع ذلك، كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار، فإنهم أحرص شيء عليها وأميل الناس إليها، ﴿ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾ أي: يهيج ذلك الزرع فتراه مصفرًا بعد ما كان خضرًا نضراً، ثم يكون بعد ذلك كله حطماً، أي: يصير يبساً متحطماً.

هكذا الحياة الدنيا تكون أولاً شابة، ثم تكتهل، ثم تكون عجوزاً شوهاء، والإنسان كذلك في أول عمره وعنفوان شبابه غصّاً طريّاً لين الأعطاف بهي المنظر، ثم إنه يشرع في الكهولة فتتغير طباعه وينفذ بعض قواه، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً، ضعيف القوى، قليل الحركة، يعجزه الشيء اليسير، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

ولما كان هذا المثل دالاً على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة، وأن الآخرة كائنة لا محالة، حذر من أمرها، ورغب فيما فيها من الخير، فقال: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَعُ الْعُرُورِ﴾ أي: وليس في الآخرة

الآتية القريبة إلا إما هذا وإما هذا: إما عذاب شديد، وإما مغفرة من الله ورضوان. وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَعُ الْغُرُورِ﴾ أي: هي متاع فانٍ غارٌّ لمن ركن إليه، فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أنه لا دار سواها، ولا معاد وراءها، وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة» [تفسير ابن كثير] (٨ / ٢٤) باختصار.

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

قال السعدي رحمته الله: «يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإكثار من ذكره، فإن في ذلك الربح والفلاح، والخيرات الكثيرة، وينهاهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن ذكره، فإن محبة المال والأولاد مجبولة عليها أكثر النفوس، فتقدمها على محبة الله، وفي ذلك الخسارة العظيمة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي: يلهمه ماله وولده، عن ذكر الله ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ للسعادة الأبدية، والنعيم المقيم؛ لأنهم آثروا ما يفنى على ما يبقى، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾» [تفسير السعدي] (ص: ٨٦٥).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل». وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك [رواه البخاري: ٦٤١٦].

معنى الحديث: لا تركز إلى الدنيا ولا تتخذها وطنًا، ولا تحدث نفسك بطول البقاء فيها، ولا بالاعتناء بها، ولا تتعلق منها إلا بما يتعلق به الغريب في غير وطنه، ولا تشتغل فيها بما لا يشتغل به الغريب الذي يريد الذهاب إلى أهله. وقوله: «خذ من صحتك لمرضك» أي: اشتغل حال الصحة بالطاعات بقدر يسد الخلل والنقص الحاصل بسبب المرض الذي قد يُقعد عنها. وقوله: «ومن حياتك لموتك» أي: اغتم أيام حياتك بالأعمال التي تنفعك عند الله تعالى بعد موتك.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بالسوق، والناس كنفته، فمر بجدي أسك ميت، فتناوله فأخذ بأذنه، ثم قال: «أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟» فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: «أتحبون أنه لكم؟» قالوا: والله لو كان حيًّا كان عيبًا فيه؛ لأنه أسك، فكيف وهو ميت؟ فقال: «فوالله للدنيا أهون على الله، من هذا عليكم» [رواه مسلم: ٢٩٥٧].

«كنفته» أي: جانبه. «جدي أسك» أي: صغير الأذنين.

وعن مستورد الفهري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه -وأشار بالسبابة- في اليم، فلينظر بم ترجع» [رواه مسلم: ٢٨٥٨].

«اليم» البحر. «بم ترجع» أي: بم ترجع به الإصبع من الماء ومعناه: لا يعلق بها كثير شيء من الماء. ومعنى الحديث: ما الدنيا بالنسبة إلى الآخرة في قصر مدتها وفناء لذاتها، ودوام الآخرة ودوام لذتها ونعيمها، إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالإصبع إلى باقي البحر.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم» [رواه البخاري: ٦٤٩٠، ومسلم: ٢٩٦٣ واللفظ له].

«من هو أسفل منكم» أي: أقل منكم في المال والأولاد والجاه والصحة وغيرها من أمور الدنيا. «من هو فوقكم» أي: أكثر منكم في أمور الدنيا. «أجدر» أي: أحق. «تزدروا» أي: تحتقروا. قال النووي رحمته الله: «قال ابن جرير وغيره: هذا حديث جامع لأنواع من الخير؛ لأن الإنسان إذا رأى من فضل عليه في الدنيا طلبت نفسه مثل ذلك، واستصغر ما عنده من نعمة الله تعالى، وحرص على الزيادة ليلحق بذلك أو يقاربه، هذا هو الموجود في غالب الناس. وأما إذا نظر في أمور الدنيا إلى من هو دونه فيها، ظهرت له نعمة الله تعالى عليه فشكرها، وتواضع، وفعل الخير» [شرح مسلم (٩٧ / ١٨)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر» [رواه مسلم: ٢٩٥٦].

قال النووي رحمته الله: «معناه: أن كل مؤمن مسجون ممنوع في الدنيا من الشهوات المحرمة والمكروهة، مكلف بفعل الطاعات الشاقة، فإذا مات استراح من هذا، وانقلب إلى ما أعد الله تعالى له من النعيم الدائم والراحة الخالصة من النقصان. وأما الكافر فإنما له من ذلك ما حصّل في الدنيا، مع قلته وتكديره بالمنغصات، فإذا مات صار إلى العذاب الدائم وشقاء ٨» [شرح مسلم (١٨ / ٩٣)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يقول العبد: مالي، مالي، إنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفني، أو لبس فأبلى، أو أعطى فاقتنى، وما سوى ذلك فهو ذاهب، وتاركة للناس» [رواه مسلم: ٢٩٥٩].

«مالي، مالي» أي: مالي كذا، مالي كذا، والمعنى: أنه يعدّه افتخارًا. «وإنما له من ماله ثلاث» أي: أن الذي يحصل له من ماله ثلاث منافع في الجملة، لكن منفعة واحدة منها حقيقة باقية، والباقي منها صورية فانية. «ما أكل فأفني» أي: ما أكل فأنتهى أمر هذا الذي أكله. «أو لبس فأبلى» أي: لبس الثوب ثم بعد ذلك يتقطع وينتهي. «أو أعطى» أي: أعطى الله تعالى فتصدق به على الفقراء والمساكين والأقارب وذوي الحاجات. «فاقتنى» أي: ادّخره لآخرته وهذا هو الذي ينفعه فقط. «وما سوى ذلك» أي: وما عدا ما ذكر من سائر أنواع المال من المواشي والعقار والخدم والنقود والجواهر ونحو ذلك «فهو ذاهب» أي: فإن العبد ذاهب عنه بالموت. «وتاركة للناس» أي: تاركة للورثة أو غيرهم بلا فائدة راجعة إليه، مع أن الحساب والعقاب عليه؛ إن لم يستعمله بما يرضي الله تعالى.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه» [رواه مسلم: ١٠٥٤].

«كفافاً» أي: ما يكفيه دون زيادة. «وقنعه الله بما آتاه» أي: جعله قانعاً بما أعطاه

إياه، وجعله شاكراً لما أعطاه، راضياً بكل ما قدره وقضاه.

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: لقد رأيت نبيكم صلى الله عليه وسلم وما يجد من الدقل ما يملأ به بطنه. [رواه مسلم: ٢٩٧٧]. «الدقل» أي: التمر الرديء.

وعن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: ما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم من خبز شعير يومين متتابعين، حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم. [رواه البخاري: ٥٤١٦، ومسلم: ٢٩٧٠]. «قبض» أي: توفي.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء» [رواه الترمذي: ٢٣٢٠].

أي: لو كان للدنيا أدنى قدر عند الله ما متّع الكافر منها أدنى تمتع، وهذا أوضح دليل وأعدل شاهد على حقارة الدنيا.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سأله رجل، فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم، قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم، قال: فأنت من الأغنياء، قال: فإن لي خادماً، قال: فأنت من الملوك. وجاء ثلاثة نفر إلى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، فقالوا: يا أبا محمد إنا والله ما نقدر على شيء، لا نفقة، ولا دابة، ولا متاع، فقال لهم: ما شئتم، إن شئتم رجعتم إلينا فأعطيناكم ما يسر الله لكم، وإن شئتم ذكرنا أمركم للسلطان، وإن شئتم صبرتم، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفاً» قالوا: فإنا نصبر، لا نسأل شيئاً [رواه مسلم: ٢٩٧٩]. «بأربعين خريفاً» أي: بأربعين سنة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لقد رأيت سبعين من أصحاب الصفة ما منهم رجل عليه رداء، إما إزار وإما كساء، قد ربطوا في أعناقهم، فمنها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده، كراهية أن ترى عورته [رواه مسلم: ٤٤٢].

«أصحاب الصفة» هم فقراء المهاجرين، ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه، فكانوا يأوون إلى موضع مظلل في مسجد المدينة يسكنونه. «رداء» هو ما يستر أعلي

البدن فقط. «إزار» أي: يلبس إزارًا فقط وهو ما يستر أسفل البدن. يعني: لم يكن رجل منهم عليه رداء وإزار، بل لم يكن له إلا إزار واحد يستر به عورته، أو كساء واحد.

وعن سفیان الثوري رحمته الله قال: «الزهد في الدنيا: قَصْرُ الأمل، ليس بأكل الغليظ، ولا لبس الصوف» [«الزهد» لوكيع (ص: ٢٢٢)، «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٥٦٨٣)].

وعن محمد بن كعب القرظي قال: «إذا أراد الله بعد خيرًا زهده في الدنيا، وفقهه في الدين، وبصره عيوبه، ومن أوتيهن أوتي خير الدنيا والآخرة» [«الزهد» لوكيع (ص: ٢١٧)].

وعن يوسف بن أسباط رحمته الله قال: «من صبر على الأذى، وترك الشهوات، وأكل الخبز من حاله، فقد أخذ بأصل الزهد» [«الزهد» لابن أبي الدنيا (ص: ٢١٣)].

الثمرات المترتبة على الزهد في الدنيا وقصر الأمل فيها:

- الزاهد لا يفرح فرح بَطَرٍ وتكبرٍ بما يأتيه من الدنيا، وإنما يحمد الله على ذلك ويشكره على إنعامه، بخلاف من امتلأ قلبه بالدنيا فإنه يبطر ويتكبر إذا ما أتته النعم.
- الزاهد لا يحزن على شيء فاته من الدنيا، بل يصبر، ويوقن أن ما عند الله في الآخرة هو خير له من متاع الدنيا الزائل.
- الزاهد قد ضمن له الرسول صلوات الله عليه الفلاح في الدنيا والآخرة.
- الزهد في الدنيا والصبر على شوائبها ثوابه الجنة، بل فقراء المسلمين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة.
- الزهد من أعظم ما ينبجي من عذاب الآخرة؛ لأنه يُخرج من النفس كل شهوة حرمها الله.
- الزهد هو مفتاح الإخلاص في الأعمال؛ فإنك تجد الذي في قلبه حب الدنيا كثيرًا ما تكون أعماله التي ظاهرها طلب الآخرة يقصد بها تحصيل بعض متاع الدنيا، كتحصيل الثناء من الناس ونحو ذلك.
- قَصْرُ الأمل هو الطريق الأعظم لإصلاح القلوب، والإقبال بها على الله تعالى.

- من قَصُرَ أمله انقطع حب الدنيا من قلبه، وأقبل بكليته على ما ينفعه في آخرته، بخلاف من طال به الأمل واستدرجه الشيطان باستبعاد الأجل.

الوسائل المعينة على الزهد وقصر الأمل:

- إن مما يعين على الزهد في الدنيا النظر إليها بعين الزوال لتصغر في عين العبد، فيسهل عليه الإعراض عنها.

- التدبر في نصوص الوحي من كتاب وسنة، وكيف أن الله تعالى احتقرها وهَوَّنَ من شأنها.

- أن ينظر فيما أعده الله تعالى لعباده الصالحين ويقارن بينه وبين متاع الدنيا، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بأهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيُصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا، والله يا رب. ويؤتى بأشد الناس بُؤساً في الدنيا، من أهل الجنة، فيُصبغ صبغة في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بُؤساً قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا، والله يا رب ما مر بي بُؤس قط، ولا رأيت شدة قط» [رواه مسلم: ٢٨٠٧].

- الاقتداء بالنبي ﷺ وما كان عليه هو وأصحابه من الزهد والتقلل من الدنيا.

- النظر في سير سلف الأمة وتراجم أهل العلم والفضل، وما كانوا عليه من الزهادة والورع.

- النظر إلى نعيم الدنيا وكيف أنه لا يصفو لأحد، فإنه ما من نعيم من نعيم الدنيا إلا والغالب أن فيه كدرًا، فالطعام الذي يأكله الإنسان إن زاد منه أمرضه في أحيان كثيرة، والجماع من أكثر منه أضر ببدنه وأضعف القوة، وكذا في كثير من ملاذ الدنيا، وهذا بعكس ملاذ الآخرة ومتاعها فإنه لا كدر فيه البتة، وليس فيه ما تُخشى عاقبته.

- الاستعانة بالله تعالى؛ لأن حمل النفس على الزهد في الدنيا شاقٌ عليها، ولا يمكن للعبد أن يأتي به على وجهه إلا بإعانة الله له وتوفيقه إليه.

٤٦. بر الوالدين

إن بر الوالدين من أهم المهمات، وأوجب الواجبات، وأعظم القربات، وأجل الطاعات، ويأتي في المنزلة الثانية بعد توحيد الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ، وذلك لما للوالدين من عظيم الفضل على الأبناء، فإنهما سبب وجودهم في هذه الحياة، وهما من أفنيا أعمارهما في رعايتهم وتربيتهم حتى كبروا.

وحقيقة بر الوالدين: الإحسان إليهما بالقول والفعل، وترك عقوقهما أو الإساءة إليهما بالقول والفعل، وطاعتهما فيما يأمران به في غير معصية لله تعالى، وتحمل ما يحصل منهما من أذى تقريباً إلى الله تعالى.

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن بر الوالدين من أهم شعب الإيمان:

قال تعالى سبحانه: ﴿وَعَبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقال ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤].

وقال سبحانه: ﴿وَوَضَّيْنَا لِلْإِنْسَانِ يُولَدِيَهُ حِمْلَتَهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٤، ١٥].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: «الصلاة على ميقاتها». قلت: ثم أي؟ قال: «ثم بر الوالدين». قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» [رواه البخاري: ٢٧٨٢، ومسلم: ١٣٧].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فاستأذنه في الجهاد، فقال: «أحي والداك؟». قال: نعم. قال: «ففيهما فجاهد» [رواه البخاري: ٣٠٠٤، ومسلم: ٢٥٤٩]. أي: ابذل جهدك في إرضائهما وبرهما، فيكتب لك أجر الجهاد في سبيل الله تعالى.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أهلك». قال: ثم من؟ قال: «ثم أهلك». قال: ثم من؟ قال: «ثم أهلك». قال: ثم من؟ قال: «ثم أبوك» [رواه البخاري: ٥٩٧١، ومسلم: ٢٥٤٨].

ومعنى قوله: «من أحق الناس بحسن صحابتي؟» أي: من أولى الناس بمعروفي وبري ومصاحبتي المقرونة بدين الجانِب وطيب الخلق وحسن المعاشرة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف». قيل: من يا رسول الله؟ قال: «من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة» [رواه مسلم: ٢٥٥١]. «رغم أنف»: أي: ذل وصغر.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، أن رجلاً من الأعراب لقيه بطريق مكة، فسلم عليه عبد الله، وحمله على حمار كان يركبه، وأعطاه عمامة كانت على رأسه فقال له أصحابه: أصلحك الله، إنهم الأعراب وإنهم يرضون باليسير. فقال عبد الله: إن أبا هذا كان وداً -أي: صديقاً ومحباً- لعمر بن الخطاب، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أبر البر صلة الولد أهل وداً أبيه» [رواه مسلم: ٢٥٥٢].

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: إن أبي شكاني إلى رسول الله ﷺ، فقال لي رسول الله ﷺ: «أطع أباك ما دام حياً ولا تعصه» [رواه أحمد: ٦٩٢٩].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن يُمدَّ له في عمره، ويزاد في رزقه، فليبر والديه، وليصل رحمه» [رواه أحمد: ١٣٨١١].

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: جئت أبايعك على الهجرة، وتركت أبوي يبكيان، فقال: «ارجع عليهما فأضحكهما كما أبكيتهما» [رواه أبو داود: ٢٥٢٨].

وعن عطاء بن يسار، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنه أتاه رجل فقال: إني خطبت امرأة فأبْتُ أن تنكحني، وخطبتها غيري فأحبت أن تنكحه، فغرتُ عليها فقتلتها؛ فهل لي من توبة؟ قال: أمك حية؟ قال: لا، قال: تب إلى الله ﻋَظِيمُ وتقرب إليه ما استطعت. قال عطاء: فذهبت فسألت ابن عباس: لم سألته عن حياة أمه؟ فقال: إني لا أعلم عملاً أقرب إلى الله ﻋَظِيمُ من بر الوالدة [رواه البخاري في «الأدب المفرد»: ٤].

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «رضا الرب في رضا الوالد، وسخط الرب في سخط الوالد» [رواه البخاري في «الأدب المفرد»: ٢].

ثمرات بر الوالدين:

من خلال النصوص السابقة من الكتاب والسنة يمكننا استخلاص ثمرات بر الوالدين، وهي:

- بر الوالدين من أعظم ما يقرب العبد إلى الله تعالى.
- أنه سبب لرضا الله تعالى عن العبد.
- أنه من أسباب غفران الذنوب، وسبب لدخول جنة الخلد.
- أنه من أسباب طول العمر، وزيادة الرزق.
- من بر والديه كان ذلك سبباً في بر أبنائه له.
- أنه يضمن للعبد عدم الشقاء في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَبِرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢].

- أنه من أسباب ترابط الأسرة وشيوع الألفة والتعاون بين أفرادها.
- أنه يرفع عن كاهل المجتمع عبء رعاية كبار السن، بما في ذلك الحاجة لإنشاء دور رعاية المسنين التي نجدها منتشرة في البلاد غير المسلمة.

الأسباب والوسائل المعينة على بر الوالدين:

- استعانة العبد بالله عَلَيْهِ السَّلَام، وذلك بإحسان الصلة به؛ عبادة ودعاء والتزامًا بما شرع، عسى أن يوفقه ويعينه على بر والديه.
- استحضار فضائل البر وعواقب العقوق؛ فإن معرفة ثمرات البر واستحضار حسن عواقبه من أكبر الدواعي إلى فعله وتمثله والسعي إليه، كذلك النظر في عواقب العقوق، وما يجلبه من هم وغم وحسرة وندامة، كل ذلك مما يعين على البر ويحمي من العقوق.
- توطئ النفس على البر: فينبغي للمرء أن يوطن نفسه على بر والديه، وأن يتكلف ذلك ويجاهد نفسه عليه؛ حتى يصبح سجية له وطبعًا.
- استحضار فضل الوالدين على الإنسان، فهما سبب وجوده في هذه الدنيا، وهما اللذان تعبنا من أجله، وأولياؤه خالص الحنان والمودة، وربيّاه حتى كبر.
- معرفة أن الوالدين هما أحق الناس بحسن الصحبة والمعاملة.
- أن يعلم العبد أن بر الوالدين من أعظم أسباب البركة في الحياة الدنيا.
- التربية السليمة من الوالدين لأبنائهما؛ بأن يعلم الوالد ولده كيف يعامل أباه وأمه وكيف يحترمهما.
- أن يربي الوالدان أبناءهما على الشرع والعمل به، فينشأ الولد صالحًا يعرف حق والديه.
- أن يعلم أنه مهما أحسن إلى والديه فإنه لم يجزهما حقهما، وأن حقهما أعظم من جميع إحسانه، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يجزي ولدٌ والدًا،

إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه» [رواه مسلم: ١٥١٠]. أي: لا يقوم ولد بما لأبيه عليه من حق، ولا يكافئه بإحسانه به، إلا أن يصادفه مملوكًا فيعتقه.

ورأى ابن عمر رضي الله عنهما رجلًا قد حمل أمه على رقبتة وهو يطوف بها حول الكعبة، فقال الرجل: يا ابن عمر، أتراني جازيتها؟ قال: لا، ولا بطلقة واحدة من طلقاتها، ولكن قد أحسنت، والله يشبك على القليل كثيرًا. [ينظر: «الكبائر» للذهبي (ص: ٤٢)].



٤٧. صلة الرحم

صلة الرحم من أهم شعب الإيمان، ومن أعظم أخلاق الإسلام، ومن أوجب واجبات الدين، فقد خلق الله البشر وجعلهم نسباً وصهراً، فجعل بينهم روابط وصلات، وأوجب عليهم المحافظة على هذه الروابط وعدم قطع هذه الصلات، وأمر بوصلها بالمال والسؤال وكل أنواع البر، وحذر سبحانه وتعالى من قطع هذه الأرحام أشد التحذير، فجعله من كبائر الذنوب.

ولقد كان من الأمور الظاهرة لبعثة النبي ﷺ أنه يأمر بصلة الرحم، ففي قصة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في حديثه مع النجاشي أنه قال له: «وَأَمَرْنَا بِصَدَقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحَسَنِ الْجَوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْدِمَاءِ» [رواه أحمد: ١٧٤٠].
والأرحام: هم الأقارب من جهة الأب ومن جهة الأم.

وصلة الرحم: هي الإحسان إلى الأقارب على حسب حال الواصل والموصول، فتارة تكون بالمال، وتارة بالخدمة، وتارة بالزيارة والسلام، وتارة بالدعوة وتعليم العلم وغير ذلك.

ولا خلاف أن صلة الرحم واجبة في الجملة، وقطيعتها معصية كبيرة، ولكن الصلة درجات بعضها أرفع من بعض، وأدناها ترك المهاجرة بالكلام ولو بالسلام، ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة فمنها واجب، ومنها مستحب، ولو وصل بعض الصلة، ولم يصل غايتها لا يسمى قاطعاً، ولو قصر عما يقدر عليه وينبغي له لا يسمى واصلاً. وقطيعة الرحم تكون بهجرهم، والإعراض عن الزيارة المستطاعة لهم، وعدم مشاركتهم في مسراتهم، وعدم مواساتهم في أحزانهم، كما تكون بتفضيل غيرهم عليهم في الصلات والعطاءات الخاصة، التي هم أحق بها من غيرهم.

الأدلة من الكتاب والسنة على أن صلة الرحم من أهم شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْفُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَنْفُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ أي: ويقطعون الرحم التي أمرهم الله بوصلها. [تفسير الطبري] (١٣ / ٥١٤).

وقال ﷺ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ، وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].
أي: واتقوا الأرحام أن تقطعوها، ولكن برؤوها وصلوها [تفسير ابن كثير] (٢ / ٢٠٦).
وقال تبارك اسمه: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦].
﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ أي: الأقارب، قربوا أو بعدوا ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾
أي: في حكمه، فيرث بعضهم بعضًا، ويبر بعضهم بعضًا، فهم أولى من الحلف والنصرة. [تفسير السعدي] (ص: ٦٥٩).

وقال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢-٢٣].

وقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: عن الجهاد ونكلتهم عنه ﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ أي: تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجاهلاء، تسفكون الدماء وتقطعون الأرحام؛ ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عمومًا، وعن قطع الأرحام خصوصًا، بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال وبذل الأموال. [تفسير ابن كثير] (٧ / ٣١٧).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خلق الله الخلق، فلما فرغ منه قامت الرحم، فأخذت بحقو الرحمن، فقال: مه، قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك، قالت: بلى يا رب، قال: فذاك». قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢] [رواه البخاري: ٤٨٣٠، ومسلم: ٢٥٥٤].

«هذا مقام العائذ بك من القطيعة» أي: إني ألتجئ إليك وأستغيث بك أن يقطعني أحد. «أصل من وصلك» صلة الله لعباده عبارة عن لطفه بهم ورحمته إياهم وعطفه بإحسانه ونعمه، أو صلتهم بأهل ملكوته الأعلى وشرح صدورهم لمعرفة وطاعته. «وأقطع من قطعك» أي: فلا أرحمه.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله» [رواه البخاري: ٥٩٨٩، ومسلم: ٢٥٥٥].

وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: دلني على عمل أعمله يدينني من الجنة، ويباعدني من النار، قال: «تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل ذا رحمك»، فلما أدبر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن تمسك بما أمر به دخل الجنة» [رواه البخاري: ١٣٩٦، ومسلم: ١٣].

وعن ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها، أنها أعتقت وليدة ولم تستأذن النبي صلى الله عليه وسلم، فلما كان يومها الذي يدور عليها فيه، قالت: أشعرت يا رسول الله أني أعتقت وليدي، قال: «أو فعلت؟»، قالت: نعم، قال: «أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك» [رواه البخاري: ٢٥٩٢، ومسلم: ٩٩٩].

قوله: «وليدة» أي: جارية. «يدور عليها فيه» أي: بيت عندها. «أشعرت» أي: أعلمت. «أعظم لأجرك» أي: أكثر ثواباً لك.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من سره أن يُيسر له

في رزقه، أو يُنسأ له في أثره، فليصل رحمه» [رواه البخاري: ٢٠٦٧، ومسلم: ٢٥٥٧]. «وينسأ له في أثره»؛ أي: يؤخر في أجله.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «تعلّموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثرة في المال، منسأة في الأثر» [رواه الترمذي: ١٩٧٩].

قال الملا علي القاري رحمته الله: «تعلّموا من أنسابكم» أي: من أسماء آبائكم وأجدادكم وأعمامكم وأخوالكم وسائر أقاربكم. «ما تصلون به أرحامكم» المعنى: تعرفوا أقاربكم من ذوي الأرحام ليتمكنكم صلة الرحم، وهي التقرب لديهم والشفقة عليهم والإحسان إليهم. «فإن صلة الرحم محبة في الأهل» أي: سبب للحب والمودة في أهل الرحم. «مثرة في المال» أي: سبب لكثرة المال. «منسأة في الأثر» أي: سبب لتأخير الأجل وموجب لزيادة العمر [مرقاة المفاتيح (٧/ ٣٠٩١)].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من سره أن يُمدد له في عمره، ويوسّع له في رزقه، ويُدفع عنه ميتة السوء، فليقلق الله وليصل رحمه» [رواه أحمد: ١٢١٣].

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها: «صلة الرحم، وحسن الخلق، وحسن الجوار، يعمران الديار، ويزيدان في الأعمار» [رواه أحمد: ٢٥٢٥٩].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: أمرني خليلي صلى الله عليه وسلم بسبع: أمرني بحب المساكين، والدنو منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني، ولا أنظر إلى من هو فوقني، وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت... [رواه أحمد: ٢١٤١٥].

قوله: «وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت» أي: وإن غابت أو بعدت، وقيل: وإن قُطعت كما ورد: «صل من قطعك».

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي: «يا عقبة بن عامر، صل من قطعك، وأعط من حرمك، واعفُ عمن ظلمك» [رواه أحمد: ١٧٤٥٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رجلاً قال: يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني،

وأحسن إليهم ويسيتئون إليّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليّ، فقال: «لئن كنتَ كما قلتَ، فكأنما تُسِفُّهم المَلّ ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك» [رواه مسلم: ٢٥٥٨].

قوله: «ويجهلون عليّ» أي: يسيتئون إليّ ويشتموني. «تُسِفُّهم» أي: تطعمهم. «المَلّ» هو الرماد الحار، أي: كأنما تطعمهم الرماد الحار. «ظهير» أي: معين ودافع لأذاهم.

وعن حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن الصدقات أيها أفضل؟ قال: «عليّ ذي الرحم الكاشح» [رواه أحمد: ١٥٣٢٠].

قوله: «الكاشح» أي: الذي يضمّر عداوته في كشحه، وهو خصره (أي: وسطه)؛ يعني: أن أفضل الصدقة الصدقة على ذي الرحم المضمر العداوة في باطنه.

وعن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: «إن أعجل الطاعة ثواباً صلة الرحم، حتى إن أهل البيت ليكونوا فجرة، فتنمو أموالهم، ويكثر عددهم إذا تواصلوا، وما من أهل بيت يتواصلون فيحتاجون» [رواه ابن حبان: ٤٤٠].

الثمرات المترتبة على صلة الرحم:

لصلة الرحم من الآثار الحميدة والفوائد الجليلة ما يحفز كل عاقل للقيام بها، نذكر منها:

- أنها علامة كمال الإيمان وحسن الإسلام.
- أنها من أسباب دخول الجنة، والبعد عن النار.
- أن فعل الخير في ذي الرحم يضاعف ثوابه على غيره، فالصدقة عليهم يضاعف أجرها على الصدقة على غيرهم.
- أنها من أحب الأعمال إلى الله تعالى، فيها يرتفع مقام العبد عند ربه، كما أن الجزاء من جنس العمل فمن عمل ما يحبه الله، أحياء الله على ما يحبه، وأعطاه في

الآخرة ما يسره.

- أنها تدفع العذاب عن العبد؛ فمن لم يصل رحمه كان قاطعاً، وقد توعد الله تعالى القاطع بعدم دخول الجنة ولعنه ووصفه بالمفسد في الأرض.
- أنها من أعظم أسباب السعة في الأرزاق، وكثرة الأموال والأولاد، والبركة فيهم.
- أنها من أسباب طول العمر والبركة فيه.
- أنها سبب في الفوز برضى الرب سبحانه وتعالى.
- أن بها يوفق الله تعالى العبد إلى طاعته والتقرب إليه.
- أن فيها تقوية لأواصر العلاقات الاجتماعية بين أفراد الأسرة الواحدة، مع كثرة الخيرات في أرجاء المجتمع المسلم، وانتشار روح المحبة والألفة بين الناس.
- أنها سبب للمحبة بين الأقارب والأهل، فيها يطيب العيش وتحصل السعادة.
- أنها سبب لاستصحاب العبد الواصل لمعية النصر والتأييد من الله القوي العزيز.
- أنها تدفع عن العبد الشرور وميته السوء.

الأسباب والوسائل المعينة على صلة الرحم:

- الخوف من الله تعالى؛ فإنه قد لعن قاطع الرحم، ووصفه بالإفساد في الأرض.
- التربية السليمة من الأهل لأبنائهم، وتعويدهم على صلة الرحم؛ ليقصدوا بذلك ويطبقوه عندما يكبروا، وعدم بث روح العداوة في نفوسهم تجاه أقاربهم، حتى وإن كان هؤلاء الأقارب ممن صدر منهم ما يوجب التقاطع.
- أن يتذكر المسلم فضل صلة الرحم، فيكون باعثاً له على المحافظة عليها، ويكون ذلك بطلب العلم النافع من الكتاب والسنة.
- ترك سوء الظن، فإن كثيراً من الأقارب إنما حصل بينهم التقاطع لأجل سوء الظن بينهم.
- أن يتيقن من تسوّل له نفسه بترك صلة الرحم أنه ما يدفعه إلى ذلك إلا الشيطان؛

فإن أعظم ما يحاول الشيطان بثه بين الناس هي العداوة والبغضاء، خصوصاً بين الأقارب، قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [المائدة: ٩١].

- قبول الأعذار والصفح عن الإساءة، فهي من أخلاق الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم، ويُضرب المثل في ذلك بيوسف عليه السلام رغم ما فعله إخوته به؛ إلا أنه عفى عنهم وتجاوز عن فعلتهم؛ ليبقي حبل الود موصولاً بينهم.
- الجود بالنفس والمال على الأرحام دون انتظار المقابل منهم، واجتناب المنة عليهم وتحميلهم ما لا طاقة لهم به، والتواضع وحسن الخلق معهم، والصبر والترفع عن أخطائهم وزلاتهم، وإحسان الظن بهم، وعدم الإكثار من لومهم ومعائبتهم.
- الحرص على تجميع الأقارب فيما بينهم؛ كدعوتهم في المناسبات والولائم، وزيارتهم، والتواصل معهم على الهاتف.
- حل المشكلات العائلية بالمشورة واللطف، خاصة ما يتعلق بقضايا الميراث.
- الحذر من أن تتسرب إلينا ثقافة غير المسلمين مما هو مبثوث في إعلامهم الفاسد، وما هو واقع في مجتمعاتهم، من تفكك العلاقات الاجتماعية بين الأسرة الواحد وبين الشخص وأقاربه، بل بعض ما يعرضونه في قنواتهم المضلة يصور للعداوة بين الإخوة والتقاتل بينهم.



٤٨. التوبة

من مظاهر رحمة الله بعباده أن شرع لهم التوبة والإنابة إليه، وحَثَّهم عليها، ورَغَّبهم فيها، ووعد التائب بالرحمة والغفران مهما بلغت ذنوبه، وهي دعوة الأنبياء قاطبة لأقوامهم، وقد تضافرت دلائل الكتاب والسنة على وجوب التوبة على كل مسلم، ولزوم المبادرة إليها، وأجمع على ذلك أئمة الإسلام رحمهم الله تعالى. والتوبة: هي الندم على ما سلف من المعاصي، مع الإقلاع عنها في الحال، والعزم على عدم العودة إليها؛ خوفاً من الله وحياءً منه.

إذا علم ذلك، فإن التائب لا يكون تائباً حقاً إلا إذا توفرت في توبته ستة شروط:

الشرط الأول: الإخلاص لله، بأن يكون قصد الإنسان بتوبته وجه الله ﷻ، لا يقصد بذلك مراعاة الناس والتقرب إليهم، ولا يقصد بذلك دفع الأذية من السلطات وولي الأمر، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

الشرط الثاني: ندم القلب على المعصية، والندم هو توجع القلب على الشيء. عن ابن معقل، قال: دخلت مع أبي على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فسمعتة يقول: قال رسول الله ﷺ: «الندم توبة»، فقال له أبي: أنت سمعت النبي ﷺ يقول: «الندم توبة»، قال: «نعم». [ابن ماجه: ٤٢٥٢].

الشرط الثالث: الإقلاع عن المعصية في الحال، فإن ادعى العاصي أنه قد تاب دون إقلاع فهذه توبة كاذبة.

الشرط الرابع: العزم على عدم العودة إليها في المستقبل.

الشرط الخامس: أن تكون قبل معاينة الموت، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ﴾ [النساء: ١٨].

الشرط السادس: أن تكون التوبة قبل طلوع الشمس من مغربها، وهي علامة من علامات الساعة الكبرى، قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ» [رواه مسلم: ٢٧٠٣].

فهذه الشروط فيما إذا كان الذنب بين العبد وربّه، كشرّب الخمر مثلاً. وأما إذا كان الذنب يدخل فيه حق العباد، فلا بد من إبراء الذمة من هذا الحق، فإن كان مظلمة استحلّها منه، أو حقاً رده إليه، بالإضافة إلى الشروط الخمسة الآتية الذكر. عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء، فليتحلله منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه». [البخاري: ٢٤٤٩].

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن التوبة من أهم شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣].

وقال هود عليه السلام لقومه: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

وقال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

وذكر الله عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝ وَبَدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ يَنْبَغِي لَكُمْ جَنَّتٍ وَجَعَلَ لَكُمُ أَنْهَرًا ۝﴾ [نوح: ١٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلِيَّ لَعْفَارٍ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢].
 وقال سبحانه: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].
 وقال جل وعلا: ﴿قُلْ يِعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣ - ٥٤].
 وقال تبارك اسمه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التحریم: ٨].
 قال الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآية: «ارجعوا من ذنوبكم إلى طاعة الله، وإلى ما يرضيه عنكم ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ أي: رجوعاً لا تعودون فيها أبداً» [تفسير الطبري (٢٣ / ١٠٥)].
 وقال تعالى: ﴿وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ﴾ [ق: ٣١ - ٣٣].

قال ابن كثير رحمه الله: «﴿أَزَلَّتِ﴾ قُرِبَتْ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَيْسَ بِبَعِيدٍ؛ لِأَنَّهُ وَاقِعٌ لَا مُحَالَةٍ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ ﴿هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ أَي: رَجَاعُ تَائِبٍ مَقْلَعٌ عَنِ الذُّنُوبِ ﴿حَفِيفٌ﴾ أَي: يَحْفَظُ الْعَهْدَ فَلَا يَنْقُضُهُ وَلَا يَنْكُثُهُ. وَقَالَ عُبَيْدُ بْنُ عَمِيرٍ: الْأَوَّابُ: الْحَفِيفُ الَّذِي لَا يَجْلِسُ مَجْلِسًا فَيَقُومُ حَتَّى يَسْتَغْفِرَ اللَّهُ تعالى» [تفسير ابن كثير (٧ / ٤٠٦)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة» [رواه البخاري: ٦٣٠٧].
 وعن الأغرب بن يسار المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب في اليوم إليه مئة مرة» [رواه مسلم: ٢٧٠٢].
 وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه» [رواه مسلم: ٢٧٠٣].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله تعالى يبسط يده بالليل

ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها» [رواه مسلم: ٢٧٥٩].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن عبداً أذنب ذنباً، فقال: رب أذنبت، فاغفر لي، فقال ربه: أَعْلِمَ عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء الله ثم أذنب ذنباً، فقال: رب أذنبت آخر، فاغفره؟ فقال: أَعْلِمَ عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنباً، فقال: رب أذنبت آخر، فاغفره لي، فقال: أَعْلِمَ عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي ثلاثاً، فليعمل ما شاء» [رواه البخاري: ٧٥٠٧، ومسلم: ٢٧٥٨].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه، من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح» [رواه البخاري: ٦٣٠٩، ومسلم: ٢٧٤٧].

«أرض فلاة» أي: صحراء. «بخطامها» الخطام: الزمام الذي يوضع على رأس الدابة لتقاده به.

والصحابة رضوان الله عليهم ضربوا لنا أروع الأمثلة في توبتهم لله ﷻ ويأتي في مقدمتهم الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله في غزوة تبوك وهم: كعب بن مالك، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أمية رضي الله عنهم، فلما تابوا إلى الله تاب الله عليهم وأنزل فيهم قرآناً يتلى إلى يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى التَّيِّبِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: إن امرأة من جُهينة أتت نبي الله ﷺ وهي حبلى من الزنى، فقالت: يا نبي الله، أصبت حذًا فأقمه عليّ، فدعا نبي الله ﷺ وليها، فقال: «أحسن إليها، فإذا وضعت فأتني بها»، ففعل، فأمر بها نبي الله ﷺ، فشكت عليها ثيابها، ثم أمر بها فُرْجمت، ثم صلى عليها، فقال له عمر: تصلي عليها يا نبي الله وقد زنت؟ فقال: «لقد تابت توبة لو قُسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى؟» [رواه مسلم: ١٦٩٦].

«أصبت حذًا: أي ارتكبت أمرًا يوجب الحد، وهو الزنى». «فشكت عليها ثيابها» أي: شُدَّتْ أثوابها عليها حتى لا تنكشف عورتها في تقلبها وتكرار اضطرابها عند رجمها. «جادت بنفسها» أي: أخرجت روحها ودفعتها لله تعالى.

ثمرات التوبة:

يتبين لنا من خلال نصوص القرآن والسنة السابقة أن للتوبة ثمرات عظيمة، منها:

- أنها سبب لمغفرة الذنوب وتكفير السيئات، ورفع العقوبة المتوعد بها على المعصية.

- أنها سبب لمحبة الله تعالى للتائبين.
- أن الله تعالى يفرح بتوبة عبده، وهنيئًا للعبد بذلك.
- أنها من أسباب الفلاح في الدنيا والآخرة.
- أن الله تعالى أعد الجنة ومنازلها للتائبين.
- أن التوبة اجتناء واصطفاء من الله تعالى لعبده التائب، كما قال تعالى عن آدم عليه السلام: ﴿ثُمَّ اجْعَلْنَاهُ رَبُّهُ وَفَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢].

- تبديل السيئات حسنات، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ۖ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

الأسباب والوسائل المعينة على تحقيق التوبة:

- الإخلاص وقصدُ الله تعالى بالتوبة، فعندما يتذكر المسلم أنه يقصد بتوبته وجه الله وحده؛ يسهل ذلك عليه وينشط للقيام به.
- ابتغاء الأجر والثواب من الله سبحانه وتعالى في الآخرة، فيتذكر ما أعدّه الله تعالى لعباده التائبين من جزيل الأجر والثواب.
- الاستعانة بالله تعالى، فلا يعين العبد على التوبة إلا الله تعالى، وكلما وجد العبد في نفسه مشقة للتوبة من ذنبٍ ما فعليه أن يتوجه إلى الله تعالى بالدعاء أن ييسر له التوبة، وأن يُعينه عليها.
- تقوى الله ﷻ؛ فهي سبب توفيق الله للعبد لكل عمل رشيد يرضو به رضا الله جل وعلا في دينه ودنياه.
- مراقبة النفس ومحاسبتها للوقوف على أخطائها وذنوبها، ومن ثم التوبة من كل معصية توبةً نصوحًا قبل الموت، ويتدارك ما فرط من تقصير في حق الله وحق العباد.
- ترك مواطن المعصية، ومفارقة قرناء السوء ومقاطعتهم، واستبدالهم بصحبة أهل الخير، الذين يُذكّرونه إذا نسي، ويعينونه إذا ذكر، ويقومونه إذا اعوج، ويقودونه إلى الحق وإلى الطريق المستقيم.
- استشعار عظم المعاصي والذنوب وعواقبها الوخيمة، ووجود حرقة في قلب العبد على ما فرط في جنب الله، وأن ينظر لنفسه بعين التقصير في حق الله الجليل.
- طلب العلم الشرعي ومعرفة كيفية التوبة وشروطها وفضلها.



٤٩. تلاوة القرآن

أنزل الله تعالى على كل نبي من الأنبياء من الآيات ما يكون حجة له على قومه، وجعل آية نبينا ﷺ كتاباً يُتلى إلى يوم القيامة، من آمن به فقد وفق، ومن قال به فقد صدق، ومن تمسك به فقد هُدي، ومن عمل به فقد فاز، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ومن أسباب حفظه في القلوب والمصاحف: المداومة على تلاوته، والمواظبة على دراسته، مع القيام بآدابه.

وتلاوة القرآن تشمل ثلاثة أمور:

الأول: قراءته مجوداً على الوجه الصحيح كما أنزله الله تعالى، فينبغي مراعاة أحكام التجويد، ومعرفة المخارج السليمة للحروف، والتمرن على النطق بها نطقاً صحيحاً. وينبغي مراعاة الآداب التي نص عليها العلماء في قراءة القرآن من: قراءته على طهارة، والخشوع والخضوع، وتحسين الصوت بالقراءة.

الثاني: تدبر القرآن والتفكر في معانيه وأحكامه، ولا يتم ذلك إلا بمعرفة تفسيره ودراسة أحكامه.

الثالث: اتباعه، بامثال ما يأمر به، واجتناب ما ينهى عنه، والاهتداء بهداه، وتصديق أخباره، والتحاكم إليه.

فتلاوة القرآن تشمل إقامة الدين كله.

الأدلة من الكتاب والسنة على أن تلاوة القرآن من أهم شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

قال السعدي رحمه الله: «يقول تعالى مرغباً للخلق في الإقبال على هذا الكتاب الكريم، بذكر أوصافه الحسنة الضرورية للعباد فقال: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾

أي: تعظكم، وتذكركم عن الأعمال الموجبة لسخط الله، المقتضية لعقابه، وتحذركم عنها ببيان آثارها ومفاسدها.

﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ وهو هذا القرآن، شفاء لما في الصدور من أمراض الشهوات الصادرة عن الانقياد للشرع، وأمراض الشبهات القاذحة في العلم اليقيني، فإن ما فيه من المواعظ والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، مما يوجب للعبد الرغبة والرغبة.

﴿وَهْدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالهدى هو العلم بالحق والعمل به، والرحمة هي ما يحصل من الخير والإحسان والثواب العاجل والآجل لمن اهتدى به، فالهدى أجل الوسائل، والرحمة أكمل المقاصد والرغائب، ولكن لا يهتدي به ولا يكون رحمة إلا في حق المؤمنين. وإذا حصل الهدى، وحلت الرحمة الناشئة عنه، حصلت السعادة والفلاح، والربح والنجاح، والفرح والسرور» [انظر: «تفسير السعدي» (ص: ٣٦٦)].

وقال ﷺ: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]. قال ابن كثير ﷺ: «يقول تعالى مخبراً عن رسوله ونبيه محمد ﷺ أنه قال: ﴿يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾، وذلك أن المشركين كانوا لا يصغون للقرآن ولا يسمعون، وكانوا إذا تلى عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره حتى لا يسمعه، فهذا من هجرانه، وترك علمه وحفظه أيضاً من هجرانه، وترك الإيمان به وتصديقه من هجرانه، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به وامتنال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره - من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره - من هجرانه» [انظر: «تفسير ابن كثير» (٦ / ١٠٨)].

وقال تبارك اسمه: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٢٧]. وقال ﷺ: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

قال السعدي ﷺ: «يأمر تعالى بتلاوة وحيه وتنزيله، وهو هذا الكتاب العظيم، ومعنى تلاوته: اتباعه، بامتنال ما يأمر به، واجتناب ما ينهى عنه، والاهتداء بهداه، وتصديق أخباره، وتدبر معانيه، وتلاوة ألفاظه، فصار تلاوة لفظه جزء المعنى وبعضه،

وإذا كان هذا معنى تلاوة الكتاب، علم أن إقامة الدين كله، داخله في تلاوة الكتاب»
[تفسير السعدي] (ص: ٦٣٢).

وقال سبحانه: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾
[ص: ٢٩].

وقال تبارك اسمه: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُتُونِ أَمْرٌ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].
وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة، ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة، لا ربح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة، ليس لها ربح وطعمها مر» [رواه البخاري: ٥٤٢٧، ومسلم: ٧٩٧].

«الأترجة»: ثمرة طيبة الرائحة حلوة الطعم تشبه البرتقالة. «الحنظلة»: نوع من ثمار أشجار الصحراء التي لا تؤكل.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران» [رواه البخاري: ٤٩٣٧، ومسلم: ٧٩٨].

«الماهر بالقرآن» هو الحاذق الكامل الحفظ الذي لا يتوقف ولا يشق عليه القراءة لجودة حفظه وإتقانه. «السفرة الكرام البررة» هم الملائكة الذين ينقلون الوحي إلى الأنبياء. «ويتتعتع فيه» أي: يتردد في تلاوته لضعف حفظه. «له أجران» أي: أجر بالقراءة، وأجر بتتعتعه في تلاوته ومشقته.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده» [رواه مسلم: ٢٦٩٩].

«السكينة» أي: الوقار والطمأنينة وسكون القلب. «غشيتهم الرحمة» أي: أتمتهم

وغطتهم. «حفتهم الملائكة» أي: أحاطت بهم ملائكة الرحمة والبركة يستمعون القرآن ودراستهم، ويحفظونهم من الآفات. «وذكرهم الله فيمن عنده» أي: يباهي بهم الملائكة الأعلى من الملائكة.

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ونحن في الصُفَّة فقال: «أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو إلى العقيق، فيأتي منه بناقتين كَوْماوين في غير إثم ولا قطع رحم؟»، فقلنا: يا رسول الله نحب ذلك، قال: «أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله ﷻ، خير له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل» [رواه مسلم: ٨٠٣].

«الصُفَّة»: موضع مظلل من المسجد النبوي الشريف كان فقراء المهاجرين يأوون إليه. «يغدو» أي: يذهب في أول النهار. «بطحان»: اسم موضع بقرب المدينة. «العقيق»: وادٍ بالمدينة. «كَوْماوين»: الكوماء من الإبل هي العظيمة السنام.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال لأبي بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرئك القرآن» قال: «الله سماني لك؟ قال: «نعم» قال: وقد ذكرت عند رب العالمين؟ قال: «نعم» فذرفت عيناه. [رواه البخاري: ٤٩٦١، ومسلم: ٧٩٩]. «فذرفت عيناه» أي: سالت بالدموع.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ عليّ القرآن» قال: فقلت: يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «إني أشتهي أن أسمع من غيري»، فقرأت النساء حتى إذا بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] رفعت رأسي فرأيت دموعه تسيل [رواه البخاري: ٥٠٥٠، ومسلم: ٨٠٠].

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرأوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف، تحاجبان عن أصحابهما، اقرأوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة» [رواه مسلم: ٨٠٤].

«غمامتان» أي: سحابتان تظل صاحبهما، والمراد أن ثواب تلاوة السورتين يأتي كسحابتين. «فرقان من طير صواف» أي: جماعتان من الطيور تبسط أجنحتها في الهواء. «تحاجان» أي: تدافعان. «لا تستطيعها البطلة» أي: لا تقدر على صاحبها السحرة. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ﴿الـ﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف» [رواه الترمذي: ٢٩١٠].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتّل كما كنت ترتّل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها» [رواه الترمذي: ٢٩١٤].

«يقال» أي: عند دخول الجنة. «لصاحب القرآن» أي: من يلازمه بالتلاوة والعمل. «وارتق» أي: اصعد إلى درجات الجنة.

الثمرات المترتبة على تلاوة القرآن:

- تلاوة القرآن سبيل الهداية ودخول الجنة، والنجاة من النار.
- القرآن فيه شفاء لأمراض القلوب من الشهوات، وكذا من الشكوك والشبهات، بل ولأمراض الأبدان أيضًا.
- القرآن من أعظم الزواجر عن المعاصي وارتكاب الفواحش، إذ إنه يمتلئ بالآيات الزاجرة المخوفة من عذاب الله تعالى.
- قراءة القرآن من أعظم أسباب تحصيل الحسنات، فإن كل حرف بعشر حسنات، والله يضاعف لمن يشاء، فالحسنة قد تتضاعف إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.
- أنه من أعظم أسباب رقة القلب وذهاب قسوته، فمن شعر بجمود عينه عن البكاء لله تعالى، فعليه بقراءة القرآن بتدبر وخشوع.
- أنه سبب لذكر الله تعالى للعبد في الملاء الأعلى.

- الاجتماع على تلاوته ومدارسته لاسيما في المساجد من أسباب نزول السكينة، وغشيان الرحمة، واقتراب الملائكة من أهل هذا المجلس.
- أنه من أسباب الشفاعة يوم القيامة للعبد، فإن القرآن يأتي يوم القيامة يدافع عن قارئه، ويشفع له عند الله تعالى.
- أن الماهر بالقرآن مع الملائكة الكرام البررة، والذي يقرؤه وهو عليه شاق له أجران.
- أنه كلما ازداد العبد من قراءة كتاب الله تعالى ازداد صعودًا في درجات الجنة.
- أن ذلك من أسباب حفظه بالصدور وعدم نسيان آياته، والقراءة بها في الصلاة ووعظ الناس وتذكيرهم.

الوسائل المعينة على تلاوة القرآن:

- مما يعين المسلم على المداومة على قراءة القرآن: معرفة فضل قراءة القرآن، وذلك بالنظر في الكتاب والسنة ومطالعة ما كتبه العلماء في ذلك.
- ترك سماع الغناء؛ فإن القلب لا يجتمع فيه كلام الشيطان وكلام الرحمن، فلا يجمع القلب إلا على أحدهما.
- ينبغي للمسلم أن يحدد لنفسه وردًا يوميًا من القرآن، يداوم عليه مهما كانت شواغله، وأن يكون هذا الورد في أول يومه؛ لئلا ينشغل عنه بشيء بعد ذلك.
- ترك تضييع الأوقات فيما لا ينفع، حتى وإن كان من المباحات؛ ليتسنى للمسلم أن يجد وقتًا كافيًا لقراءة القرآن.
- أن لا يكون همُّ المسلم هو قراءة ورده حتى يختمه فقط، بل ينبغي عليه أن يتدبر فيما يقرأ.
- أن يعتني المسلم بمعرفة تفسير آيات الله، عن طريق مطالعة كتب التفسير لاسيما كتب تفاسير أهل السنة، مثل: تفسير الطبري، وتفسير ابن كثير، وتفسير السعدي، حتى

يسهل عليه تدبر القرآن، وبالتالي يسهل عليه العمل بما فيه من أحكام.
 - أن يعلم العبد أن ترك قراءة القرآن نوع من الهجر له، فليحذر من ذلك.
 - أن يعلم أنه لا أحسن من القرآن من كلام، لأنه كلام الله، وفضل كلام الله على
 سائر الكلام كفضل الله على خلقه.



٥٠. الدعاء

الدعاء نعمة عظيمة من الله تعالى، امتنَّ الله بها على عباده ووعدهم بالإجابة والثواب، كما أن الدعاء يتضمن توحيد الله وإفرادَه بالعبادة دون مَنْ سواه، فالخلق بأمرس الحاجة للدُّعاء؛ ليصلوا بذلك إلى خيري الدُّنيا والآخرة؛ لذا كان الدعاء عبادة من أعظم العبادات، وشعبة من أهم شعب الإيمان.

والدعاء هو الرِّغبة إلى الله ﷻ وسؤاله والافتقار إليه والاستكانة له.

وهو نوعان: دعاء العبادة، ودعاء المسألة.

أمَّا دعاء المسألة فهو طلب ما ينفع، أو طلب دفع ما يضر، بأن يسأل الله تعالى ما ينفعه في الدنيا والآخرة، ودفع ما يضره في الدنيا والآخرة. كالدعاء بالمغفرة والرحمة، والهداية والتوفيق، والفوز بالجنة، والنجاة من النار، وأن يؤتیه الله حسنة في الدنيا، وحسنة في الآخرة ونحو ذلك.

وأمَّا دعاء العبادة، فالمراد به أن يكون الإنسان عابداً لله تعالى، بأي نوع من أنواع العبادات، القلبية أو البدنية أو المالية، كالخوف من الله ومحبة رجائه والتوكل عليه، والصلاة والصيام والحج، وقراءة القرآن والتسبيح والذكر، والزكاة والصدقة والجهد في سبيل الله، والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها من العبادات. فكل قائم بشيء من هذه العبادات فهو داعٍ لله تعالى بحاله، وبما يرجوه من رضوان الله والدار الآخرة.

الأدلة الشرعية على أن الدعاء من أهم شعب الإيمان:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

قال السعدي رحمه الله: «مَنْ دعا ربَّه بقلب حاضر، ودعاء مشروع، ولم يمنع مانعٌ من

إجابة الدعاء كأكل الحرام ونحوه، فإن الله قد وعده بالإجابة، وخصوصاً إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء، وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية، والإيمان به الموجب للاستجابة، فلهذا قال: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي: يحصل لهم الرشd الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة» [تفسير السعدي] (ص: ٨٧).

وقال **عليه السلام**: ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].
﴿تَضَرُّعًا﴾: تَذَلُّلاً واستِكانَةً ﴿وَخُفْيَةً﴾ أي: سرّاً، فالمسلمون يجتهدون في الدعاء وما يُسمع لهم صوت، بل همسٌ بينهم وبين ربهم. [ينظر: «تفسير البغوي» (٣/ ٢٣٧)].
وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال السعدي **عليه السلام**: «من تمام كون أسمائه تعالى حسنى أنه لا يدعى إلا بها، ولذلك قال: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾، وهذا شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة، فيدعى في كل مطلوب بما يناسب ذلك المطلوب، فيقول الداعي مثلاً: اللهم اغفر لي وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم، وتب عليّ يا تواب، وارزقني يا رزاق، والطف بي يا لطيف ونحو ذلك» [تفسير السعدي] (ص: ٣١٠).

وقال تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].
قال الطبري **عليه السلام**: «يقول: وأخلصوا له الدعاء والعمل، ولا تشركوا في عملكم له شيئاً غيره من الآلهة والأصنام وغير ذلك، وليكن ما يكون منكم من ذلك خوفاً من عقابه، وطمعاً في ثوابه» [تفسير الطبري] (١٠/ ٢٥٠).

وقال عزّ من قائل: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

قال السعدي **عليه السلام**: «أي: هل يجيب المضطر الذي أفلقته الكروب وتعرّس عليه المطلوب واضطر للخلاص مما هو فيه إلا الله وحده؟ ومن يكشف السوء أي: البلاء والشر والنقمة إلا الله وحده؟... إلله مع الله يفعل هذه الأفعال؟ لا أحد يفعل مع الله

شيئاً من ذلك» [تفسير السعدي] (ص: ٦٠٨).

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

قال ابن كثير رحمته الله: «هذا من فضله تبارك وتعالى وكرمه، أنه ندب عباده إلى دعائه، وتكفل لهم بالإجابة، كما كان سفيان الثوري يقول: يا مَنْ أَحَبَّ عِبَادَهُ إِلَيْهِ مِنْ سَأَلِهِ فَأَكْثَرَ سَوْأَلِهِ، وَيَا مَنْ أَبْغَضَ عِبَادَهُ إِلَيْهِ مِنْ لَمْ يَسْأَلِهِ، وَلَيْسَ أَحَدٌ كَذَلِكَ غَيْرَكَ يَا رَبَّ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ أي: عن دعائي وتوحيدي ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين حقيرين» [تفسير ابن كثير] باختصار (٧/ ١٥٣ - ١٥٥).
وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِلَٰهُهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠، ٤١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّكْرِينَ ﴿٣٩﴾ قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣].
وقال سبحانه حاكياً دعاء إبراهيم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩، ٤٠].

وبيّن سبحانه إجابته دعاء موسى وهارون عليهما السلام: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩].

وقال عن عباده الصالحين من الأنبياء وغيرهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وذكر تعلّق الخلق برّبهم عند البلاء ودعائهم إياه فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٣].

وعن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه، عن النبي صلّى الله عليه وآله قال: «الدعاء هو العبادة»، ﴿وَقَالَ

رَبُّكُمْ أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴿[غافر: ٦٠]﴾ [رواه أبو داود: ١٤٧٩].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر، فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أيها الناس اربعوا على أنفسكم، إنكم ليس تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً، وهو معكم» [رواه البخاري: ٢٩٩٢، ومسلم: ٢٧٠٤]. «اربعوا» أي: ارفعوا بأنفسكم وخفضوا أصواتكم؛ فإن رفع الصوت إنما يفعله الإنسان البعد من يخاطبه لئسمعه، وأنتم تدعون الله تعالى، وليس هو بأصم ولا غائب، بل هو سميع قريب وهو معكم بالعلم والإحاطة [ينظر: «شرح مسلم» للنووي (١٧ / ٢٦)].

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن ربكم تبارك وتعالى حيي كريم، يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً» [رواه أبو داود: ١٤٨٨]. «أن يردهما صفراً» أي: فارغتين خاليتين.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء» [رواه الترمذي: ٣٣٧٠].

أي: ليس شيء أفضل عند الله من الدعاء؛ لأن فيه إظهار الفقر والعجز والتذلل والاعتراف بقوة الله وقدرته [ينظر: «تحفة الأحوذى» (٩ / ٢١٨)].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله إياها أو صرف عنه من السوء مثلها ما لم يدع باثم أو قطيعة رحم»، فقال رجل من القوم: إذن نكثر، قال: «الله أكثر» [رواه الترمذي: ٣٥٧٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنه من لم يسأل الله يغضب عليه» [رواه الترمذي: ٣٣٧٣].

وقال ابن عيينة: «لا يمنن أحدًا الدعاء ما يعلم في نفسه - يعني من التقصير - فإن الله قد أجاب دعاء شر خلقه وهو إبليس حين قال: ﴿رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر: ٣٦]» [فتح الباري لابن حجر (١١ / ١٤٠)].

الثمرات المترتبة على الدعاء كثيرة، منها:

- أن الدعاء من أسباب زيادة الإيمان.
- أنه نوع من الذكر متضمنٌ للطلب منه سبحانه والثناء عليه بأسمائه الحسنی وأوصافه العلی، فهو ذِكرٌ وزيادة.
- أنه من أعظم أنواع العبادة، فيُقصد لذاته كما يُقصد لقضاء الحاجة ولدفع المضرة.
- أنه سبب شرعي لسرعة الفرج وتفريج الكرب وحصول المطلوب.
- أنه سبيل لنيل الأجر والثواب.
- أن فيه إظهار التذلل والانكسار والفقر والحاجة لله تعالى.
- أن الحرص على الدعاء والمداومة عليه من صفات الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين.

الوسائل المعينة على الدعاء:

- أن يعلم المسلم أن الدعاء من أهم العبادات، وأفضل الأعمال التي تقرب إلى الله تعالى.
- أن يعلم الداعي أن الله لا يردّه خائبًا؛ فإنه إن لم تتحقق حاجته فقد يرفع عنه بلاء بسبب دعائه، أو يُخفف عنه البلاء، أو يدّخر له الأجر والثواب يوم القيامة.
- أن يستشعر العبد فقره وحاجته إلى الله فيقبل على دعائه سبحانه.
- تعلّم فضائل الدعاء وآدابه فإنها تجعل العبد حريصًا عليه غير متهاون به.
- معرفة أسباب إجابة الدعاء والأوقات والأحوال والأماكن التي يستجاب فيها الدعاء؛ فإن هذا كله يحثُّ على الدعاء ويُعين عليه.
- صحبة أهل التقوى والصلاح ومجانبة أهل الغفلة والفساد؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ

عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِيعَ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾
[الكهف: ٢٨].

- طلب العلم، ومطالعة كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وحفظ ما تيسر من الأدعية الواردة فيهما.
- أن يعلم العبد أن الدعاء أعظم معين على قضاء حوائج الدنيا والدين، فهو استعانة بالله الذي على كل شيء قدير وبالإجابة جدير.



٥١. الذِّكْرُ

ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى مِنْ أَسْهَلِ الْعِبَادَاتِ وَأَيْسَرِهَا عَلَى مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ، وَالْأَذْكَارُ مَتْنُوعَةٌ وَيُمْكِنُ لِلْعَبْدِ أَنْ يَأْتِيَ بِهَا فِي مَعْظَمِ أَحْوَالِهِ، وَمَعَ سَهُولَةِ هَذِهِ الْعِبَادَةِ وَيَسْرُهَا فَتَوَابَهَا عَظِيمٌ وَأَجْرُهَا كَبِيرٌ، إِضَافَةً إِلَى مَا يَحْصُلُ لِلْعَبْدِ مِنْ زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَعِبَادَةِ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ؛ لِذَا كَانَ ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى طَاعَةً مِنْ أَفْضَلِ الطَّاعَاتِ، وَشَعْبَةٌ مِنْ أَهَمِّ شُعَبِ الْإِيمَانِ.

وَالذِّكْرُ هُوَ مَا أَمَرَ الشَّرْعُ بِالتَّلْفِظِ بِهِ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِتَعْظِيمِ اللهِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَتَمْجِيدِهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَشُكْرِهِ وَتَعْظِيمِهِ، أَوْ بِتِلَاوَةِ كِتَابِهِ، أَوْ بِمَسْأَلَتِهِ وَدَعَائِهِ. وَأَفْضَلُ الذِّكْرِ مَا كَانَ بِاللِّسَانِ مَعَ حُضُورِ الْقَلْبِ.

وَمِنْ صُورِ الذِّكْرِ الَّتِي نَدَبَ إِلَيْهَا الشَّرْعُ قَوْلَ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَكَذَا الْاسْتِغْفَارُ مِثْلَ قَوْلِ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَوْ غَيْرِهَا مِنْ صَيَغِ الْاسْتِغْفَارِ الثَّابِتَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَكَذَا الدُّعَاءُ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَكَذَا الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ.

وَكَذَا أَذْكَارُ الصُّبْحِ وَالْمَسَاءِ، وَالْأَذْكَارُ الْمَشْرُوعَةُ عِنْدَ النَّوْمِ وَعِنْدَ الْاسْتِيقَاضِ، وَقَبْلَ الْأَكْلِ وَبَعْدَهُ، وَعِنْدَ الْخُرُوجِ مِنَ الْمَنْزِلِ وَعِنْدَ الدُّخُولِ إِلَيْهِ، وَكَذَا عِنْدَ الدُّخُولِ إِلَى الْمَسْجِدِ وَعِنْدَ الْخُرُوجِ مِنْهُ، وَكَذَا سَائِرُ الْأَذْكَارِ الْمَشْرُوعَةِ عَلَى مَدَارِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ. وَيُطْلَقُ ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى أَيْضًا وَيُرَادُ بِهِ الْمَوَاطَبَةُ عَلَى الْعَمَلِ بِمَا أَوْجَبَهُ اللهُ تَعَالَى أَوْ نَدَبَ إِلَيْهِ؛ كَالصَّلَاةِ، وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَقِرَاءَةِ الْحَدِيثِ، وَمَدَارَسَةِ الْعِلْمِ.

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن ذكر الله تعالى من أهم شعب الإيمان:

قال الله ﷻ: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

قال السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية: «الذكر لله تعالى يكون بالقلب، ويكون باللسان، ويكون بهما، وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله، فأمر الله عبده ورسوله محمداً أصلاً وغيره تبعاً، بذكر ربه في نفسه، أي: مخلصاً خالياً ﴿تَضَرَّعًا﴾ أي: متضرعاً بلسانك، مكرراً لأنواع الذكر، ﴿وَحَيْفَةً﴾ في قلبك بأن تكون خائفاً من الله، وَجَلَّ القلب منه، خوفاً أن يكون عملك غير مقبول، وعلامة الخوف أن يسعى ويجتهد في تكميل العمل وإصلاحه، والنصح به ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي: كن متوسطاً، لا تجهر بصلاتك، ولا تخافت بها، وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴿يَالْعُدُوِّ﴾ أول النهار ﴿وَالْأَصَالِ﴾ آخره، وهذان الوقتان لذكر الله فيهما مزية وفضيلة على غيرهما.

﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فإنهم حُرِّمُوا خير الدنيا والآخرة، وأعرضوا عما من كل السعادة والفوز في ذكره وعبوديته، وأقبلوا على من كل الشقاوة والخيبة في الاشتغال به.

وهذه من الآداب التي ينبغي للعبد أن يراعيها حق رعايتها، وهي الإكثار من ذكر الله أثناء الليل والنهار، خصوصاً طرفي النهار، مخلصاً خاشعاً متضرعاً، متذللاً ساكناً، وتواظماً عليه قلبه ولسانه، بأدب ووقار، وإقبال على الدعاء والذكر، وإحضار له بقلبه وعدم غفلة، فإن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاهٍ» [تفسير السعدي] (ص: ٣١٤).

وقال سبحانه: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

أي: اذكروني أذكركم برحمتي إياكم ومغفرتي لكم.

وقال ﷻ: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: ٤١]. أي:

أول النهار وآخره.

وقال تبارك اسمه لموسى عليه السلام: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِأَيَّتِي وَلَا تَنِيَا فِي

ذِكْرِي﴾ [طه: ٤٢].

قال ابن كثير رحمه الله: «﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِأَيَّتِي﴾ أي: بحججي وبراهيني

ومعجزاتي، ﴿وَلَا تَيَّافِي ذِكْرِي﴾ أي: لا تبطئا، ولا تضعفا. والمراد أنهما لا يفتران في ذكر الله، بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون؛ ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه، وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له» [تفسير ابن كثير] باختصار (٥ / ٢٩٤).

وقال تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

قال السعدي رحمته الله: «يأمر تعالى المؤمنين، بذكره ذكراً كثيراً، من تهليل، وتحميد، وتسبيح، وتكبير وغير ذلك، من كل قول فيه قربة إلى الله، وأقل ذلك، أن يلازم الإنسان أوراد الصباح، والمساء، وأدبار الصلوات الخمس، وعند العوارض والأسباب. وينبغي مداومة ذلك، في جميع الأوقات، على جميع الأحوال، فإن ذلك عبادة يسبق بها العامل، وهو مستريح، وداعٍ إلى محبة الله ومعرفته، وعون على الخير، وكف اللسان عن الكلام القبيح.

﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: أول النهار وآخره، لفضلها، وشرفها، وسهولة العمل فيها». [تفسير السعدي] (ص: ٦٦٧).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١]
وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

قال السعدي رحمته الله: «﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ أي: طائفة من الكفار تقاتلكم ﴿فَاثْبُتُوا﴾ لقتالها، واستعملوا الصبر وحبس النفس على هذه الطاعة الكبيرة، التي عاقبتها العز والنصر.

واستعينوا على ذلك بالإكثار من ذكر الله ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: تدركون

ما تطلبون من الانتصار على أعدائكم، فالصبر والثبات والإكثار من ذكر الله من أكبر الأسباب للنصر» [تفسير السعدي] (ص: ٣٢٢).

وقال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقال الله سبحانه: ﴿فِي يَوْمٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَيُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْعُدُوِّ وَالْإِصْلَاحِ﴾ (٣٦) رَجُلًا لَا تُلْهِمُهُمْ تَجَرَّةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٧، ٣٨]. ﴿بِالْعُدُوِّ﴾ أول النهار ﴿وَالْإِصْلَاحِ﴾ آخره.

وقال سبحانه: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقال ﷻ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة، فمرَّ على جبل يقال له جُمُدَان، فقال: «سيروا، هذا جُمُدَان، سبق المُفَرَّدُونَ» قالوا: وما المُفَرَّدُونَ يا رسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات» [رواه مسلم: ٢٦٧٦].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خرج معاوية على حلقة في المسجد، فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله، قال: الله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إني لم أستحلفكم تَهْمَةً لكم، وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه، فقال: «ما أجلسكم؟» قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومنَّ به علينا، قال: «الله ما أجلسكم إلا ذاك؟» قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: «أما إني لم أستحلفكم تَهْمَةً لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله ﷻ يُباهي بكم الملائكة» [رواه مسلم: ٢٧٠١].

وعن عبد الله بن بُسْرٍ رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد

كُثِرَتْ عَلَيَّ، فَأَخْبَرَنِي بِشَيْءٍ أُتَشَبَّثُ بِهِ، قَالَ: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ» [رواه الترمذي: ٣٣٧٥].

وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَا أُبَيِّنُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعُهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرَقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟» قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى». قَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: مَا شَيْءٌ أَنْجَى مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ. [رواه الترمذي: ٣٣٧٧]. «الْوَرَقُ» أَي: الْفُضَّةُ.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ ﻋَظَّمَ يَقُولُ: أَنَا مَعَ عَبْدِي إِذَا هُوَ ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ» [ذكره البخاري في صحيحه: (١٥٣ / ٩) معلقاً بصيغة الجزم]. وعن الحارث الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ ﻋَظَّمَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِخُمْسِ كَلِمَاتٍ، أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَ، وَأَنْ يَأْمَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَ...»، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ، وَمِنْ هَذِهِ الْخَمْسَةِ قَوْلُهُ: «وَأْمُرْكُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﻋَظَّمَ كَثِيرًا، وَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ الْعَدُوُّ سِرَاعًا فِي أَثَرِهِ، فَأَتَى حَصَنًا حَصِينًا، فَتَحَصَّنَ فِيهِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ أَحْصَنُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ ﻋَظَّمَ» [رواه أحمد: ١٧١٧٠].

الثمرات المترتبة على ذكر العبد لله كثيرة، منها:

- الذكر هو أفضل العبادات، بل هو الغرض المقصود من العبادات كلها؛ فإنها ما شُرِعَتْ إِلَّا لَتَعِينَ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﻋَظَّمَ، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].
- أي: أقم الصلاة لتذكرني فيها.
- دخول العبد تحت معية الله الخاصة إذا ذكر الله سبحانه.
- أن الذاكرين يباهي الله تعالى بهم الملائكة.
- أن ذكر الله نجاة من العذاب يوم القيامة.
- أن العبد إذا أكثر من الذكر وداوم عليه كان من المفلحين، كما سبق في الآيات الكريمة.

- أن الله أثنى علىِ الذاكرين، وأخبر بما أعد لهم من المغفرة والأجر العظيم.
 - أن الذكر يورث المراقبة حتى يدخل العبد في باب الإحسان فيعبد الله كأنه يراه.
 - أنه سبب للنجاة من الخسران والعذاب؛ قال الله ﷻ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]

- أن المنشغلين بذكر الله هم أهل الانتفاع بآياته وهم أولو الأبواب دون غيرهم، وهم الفائزون في الدنيا والآخرة.

- أن ذكر الله سبب لاطمئنان قلب العبد وانسراح صدره.
 - أنه من علامات الإيمان بخلاف شأن أهل النفاق الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَآؤْنَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، فإن المنافقين يقصدون رؤية الناس وتعظيمهم واحترامهم ولا يخلصون لله، فلهذا ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لا امتلاء قلوبهم من الرياء، فإن ذكر الله تعالى وملازمته لا يكون إلا من مؤمن ممتلئ قلبه بمحبة الله وعظمته [ينظر: «تفسير السعدي» (ص: ٢١١)].

- أنه حصن حصين من الشياطين.
 - أنه نعم العون للعبد في مواجهة الشدائد، وجهاد الأعداء، ومن أكبر أسباب النصر.

الوسائل المعينة على ذكر العبد لله:

- الرغبة في الربح في الآخرة، واستحضار ما يكون يوم القيامة من الفضل الكبير والثواب العظيم للمداومين على ذكره.
 - صحبة أهل التقوى والصلاح ومجانبة أهل الغفلة والفساد؛ قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ

عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِيعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ [الكهف: ٢٨].

- الحذر من الشيطان وطرقه في إضلال العباد وصرفهم عن طاعة الله وعن ذكره؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾ [المائدة: ٩١]، فإن هذه الأشياء التي من عمل الشيطان تصد القلب ثم البدن عن ذكر الله وعن الصلاة اللذين خلق لهما العبد، وبهما سعادته؛ وهذه المعاصي تفسد صاحبها، وتجعله من أهل الخبث، وتوقعه في أعمال الشيطان وشباكه، فينقاد له كما تنقاد البهيمة الذليلة لراعيتها، وتحول بين العبد وبين فلاحه، وتوقع العداوة والبغضاء بين المؤمنين، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة [ينظر: «تفسير السعدي» (ص: ٢٤٣)].

- طلب العلم، ومطالعة كتاب الله تعالى وسنة رسوله، وحفظ ما تيسر من الأذكار الواردة فيهما.

- الدعاء بأن يعينه الله تعالى على الذكر، وأن يجعله دائم الذكر له، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي صلوات الله وسلامه عليه يدعو: «اللهم اجعلني لك شاكراً، لك ذاكراً» [رواه أبو داود: ١٥١٠].



٥٢. حسن الخلق

جاءت الشريعة بكل ما يُزين الإنسان وينفعه في دينه ودنياه، فكان مما أمر به الشرع وكان له به غاية الحفاوة وأعظم الاعتناء: حسن الخلق، بل بلغ الأمر أن قصر النبي ﷺ سبب بعثته على إتمام مكارم الأخلاق.

وحسن الخلق: هو أن يكون المرء سهل الطباع، لئِن الجانب، طَلِيق الوجه، قليل التَّفُور، طَيِّب الكلمة، مُحْتَمِلًا لأذى غيره، يبذل الخير والمعروف للناس.

الأدلة على أن حُسن الخلق من أهم شعب الإيمان:

قال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

قال السعدي رحمه الله: «هذه الشرائع من أصول الدين، التي أمر الله بها في كل شريعة، لاشتغالها على المصالح العامة في كل زمان ومكان، فلا يدخلها نسخ كأصل الدين، فقلوه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ هذا من قسوتهم أن كل أمر أمروا به استعصوا فلا يقبلونه إلا بالآيمان الغليظة والعهود الموثقة ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ هذا أمر بعبادة الله وحده، ونهى عن الشرك به، وهذا أصل الدين، فلا تقبل الأعمال كلها إن لم يكن هذا أساسها، فهذا حق الله تعالى على عباده، ثم قال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: أحسنوا بالوالدين إحسانًا، وهذا يعم كل إحسان قولِي وفعلِي مما هو إحسان إليهم، وفيه النهي عن الإساءة إلى الوالدين، وكذا يقال في صلة الأقارب واليتامى والمساكين. ثم أمر بالإحسان إلى الناس عموماً فقال: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ ومن القول الحسن: أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليمهم العلم، وبذل السلام، والبشاشة، وغير ذلك من كل كلام طيب. ولما كان الإنسان لا يسع الناس بماله، أمر بأمر يقدر به على الإحسان إلى كل مخلوق، وهو الإحسان بالقول، فيكون في ضمن

ذلك النهي عن الكلام القبيح للناس حتى للكفار، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُجِدُوا أَهْلَ
الْكِتَابِ إِلَّا بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

ومن أدب الإنسان الذي أدب الله به عباده، أن يكون الإنسان نزيهاً في أقواله
وأفعاله، غير فاحش ولا بذيء، ولا شاتم، ولا مخاصم، بل يكون حسن الخلق، واسع
الحلم، مجاملاً لكل أحد، صبوراً على ما يناله من أذى الخلق، امتثالاً لأمر الله، ورجاء
لثوابه» [تفسير السعدي] باختصار (ص: ٥٧).

وقال تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾
[الإسراء: ٥٣].

قال ابن كثير رحمته الله: «يأمر تعالى رسوله صلوات الله عليه أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا
في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة؛ فإنه إذا لم يفعلوا ذلك،
نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة،
فإن الشيطان عدو لأدم وذريته من حين امتنع من السجود لأدم، فعداوته ظاهرة بينة»
[تفسير ابن كثير] (٥ / ٨٦).

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ أَدْفَعُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي
بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا ذُو
حِظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤ - ٣٥].

قال ابن كثير رحمته الله: «وقوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ أي: فرق عظيم
بين هذه وهذه فلا يستوي الإحسان إلى الخلق، ولا الإساءة إليهم، لا في ذاتها، ولا
في وصفها، ولا في جزائها ﴿أَدْفَعُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: من أساء إليك فادفعه عنك
بالإحسان إليه، كما قال عمر رضي الله عنه: ما عاقبت من عصي الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه.
وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ أي: إذا أحسنت
إلى من أساء إليك قادتة تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك، حتى

يصير كأنه ولي لك حميم أي: قريب إليك من الشفقة عليك والإحسان إليك.
ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي: وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك؛ فإنه يشق على النفوس ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والأخرى.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم. [تفسير ابن كثير] بتصرف يسير (٧/ ١٨١).
وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

قال ابن كثير رحمته الله: «هذه صفات عباد الله المؤمنين ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي: بسكينة ووقار من غير مرح ولا استكبار، وقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ أي: إذا سفه عليهم الجاهل بالسيئ، لم يقابلوهم عليه بمثله، بل يعفون ويصفحون، ولا يقولون إلا خيراً، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تزيد شدة الجهل عليه إلا حلماً، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]. [تفسير ابن كثير] (٦/ ١٢١).

وقال الله تعالى عن موعظة لقمان لابنه: ﴿يَبْنِيْ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ وَلَا تَصْعَرَ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَعْصِ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ [لقمان: ١٧ - ١٩].

قال ابن كثير رحمته الله: «﴿يَبْنِيْ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ أي: بحدودها وفروضها وأوقاتها ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي: بحسب طاقتك وجهدك ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ عليم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد أن يناله من الناس أذى، فأمره بالصبر.

وقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: إن الصبر على أذى الناس من الأمور التي يُعزَم عليها، ويهتم بها.

وقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول: لا تُعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك، احتقاراً منك لهم، واستكباراً عليهم، ولكن أَلِنْ جانبك، وابسط وجهك إليهم.

وقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: متكبراً جباراً عنيداً، لا تفعل ذلك ييغضك الله؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: مختال معجب في نفسه، فخور أي: على غيره، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

وقوله: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي: امش مشياً مقتصدًا ليس بالبطيء المتشبث، ولا بالسريع المفرط، بل عدلاً وسطاً بين بين.

وقوله: ﴿وَأَعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ أي: لا تبالغ في الكلام، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ قال مجاهد وغير واحد: إن أقبح الأصوات لصوت الحمير، أي: غاية من رفع صوته أنه يشبه بالحمير في علوه ورفعه، ومع هذا هو بغض إلى الله تعالى. [تفسير ابن كثير] بتصرف يسير (٦ / ٣٣٨).

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

قال السعدي رحمه الله: «أي: عاليًا به، مستعليًا بخُلُقك الذي منَّ الله عليك به، وحاصل خلقه العظيم، ما فسرته به أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لمن سألها عنه، فقالت: «كان خلقه القرآن»، وذلك نحو قوله تعالى له: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقوله: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ لَفُتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ

مَا عَيْتُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨]، وما أشبه ذلك من الآيات الدالات على اتصافه ﷺ بمكارم الأخلاق، والآيات الحاثات على الخلق العظيم، فكان له منها أكملها وأجلها، وهو في كل خصلة منها في الذروة العليا، فكان ﷺ سهلاً لنا قريباً من الناس، مجيباً لدعوة من دعاه، قاضياً لحاجة من استقضاه، جابراً لقلب من سأله، لا يحرمه ولا يرده خائباً، وإذا أراد أصحابه منه أمراً وافقهم عليه، وتابعهم فيه إذا لم يكن فيه محذور، وإن عزم على أمر لم يستبد به دونهم، بل يشاورهم ويؤامرهم، وكان يقبل من محسنهم، ويعفو عن مسيئهم، ولم يكن يعاشر جلساً له إلا أتم عشرة وأحسنها، فكان لا يعبس في وجهه، ولا يغلظ عليه في مقاله، ولا يمسك عليه فلتات لسانه، ولا يؤاخذ به بما يصدر منه من جفوة، بل يحسن إلى عشيره غاية الإحسان، ويحتمله غاية الاحتمال ﷺ» [تفسير السعدي] (ص: ٨٧٩).

وعن حكيم بن أفلح قال: يا أم المؤمنين -يعني: عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ، قالت: أأستقرأ القرآن؟ قلت: بلى. قالت: فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن [رواه مسلم: ٧٤٦].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما بلغ أبا ذر مبعث النبي ﷺ قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله ثم اتنني، فانطلق الأخ حتى قدمه وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق... [رواه البخاري: ٣٨٦١، ومسلم: ٢٤٧٤].

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً، وكان يقول: «إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً» [رواه البخاري: ٣٥٥٩، ومسلم: ٢٣٢١].

«فاحشاً» أي: ناطقاً بالفحش. «متفحشاً» أي: متكلفاً في الفحش، يعني: أنه لم يكن الفحش فيه خُلُقاً أصلياً ولا مكتسباً. والمراد بالفحش هنا: سوء الخلق وبذاءة اللسان ونحو ذلك.

وعن النّوّاس بن سميعان الأنصاري رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البر والإثم فقال: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس» [رواه مسلم: ٢٥٥٣].

قال النووي رحمته الله: «قال العلماء: البر يكون بمعنى: الصلة، وبمعنى اللطف، والمبرّة، وحسن الصّحبة والعشرة، وبمعنى الطاعة، وهذه الأمور هي مجامع حسن الخلق. ومعنى «حاك في صدرك» أي: تحرك فيه وتردد ولم ينشرح له الصدر، وحصل في القلب منه الشك وخوف كونه ذنباً» [شرح مسلم (١٦ / ١١١)].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالف الناس بخلق حسن» [رواه الترمذي: ١٩٨٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً» [رواه أبو داود: ٤٦٨٢].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا زعيم بيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه». [رواه أبو داود: ٤٨٠٠]. «زعيم» أي: ضامن وكفيل.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم» [رواه أبو داود: ٤٧٩٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق» [رواه أحمد: ٨٩٥٢].

وعن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً» [رواه الترمذي: ٢٠١٨].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء» [رواه الترمذي: ٢٠٠٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال: «تقوى الله وحسن الخلق» [رواه الترمذي: ٢٠٠٤].

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقًا، فأرسلني يومًا لحاجة، فقلت: والله لا أذهب، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله ﷺ، فخرجت حتى أمرت على صبيان وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاي من ورائي، قال: فنظرت إليه وهو يضحك، فقال: «يا أنيس أذهبت حيث أمرتك؟»، قال: قلت: نعم، أنا أذهب، يا رسول الله. [رواه مسلم: ٢٣١٠].

الثمرات المترتبة على حسن الخلق:

- لحسن الخلق فوائد جليلة وثمرات كثيرة، نذكر منها:
- أن فيه تشبهاً بنبينا محمد ﷺ.
- أنه امتثال لأمر الله تعالى، وتنفيذ ما أمر به عباده.
- أنه مخالفة للشيطان، فإنه يسعى لنشر العداوة بين البشر، وإن أعظم ما يجلب العداوة سوء الخلق.
- أنه من أعظم أسباب دخول الجنة، والنجاة من النار.
- أن حسن الخلق يذهب العداوة بين المرء وخصومة، حتى لربما صار العدو صديقاً حميماً.
- أن فيه سلامة عرض المرء، فإن من اعتاد حسن الخلق لم يباذ أحداً بسوء من القول، فسلم من أن يسبه أحد أو أن يشتمه.
- أنه من أسباب تجاوز الله تعالى عن العبد يوم القيامة.
- أنه من أسباب كمال الإيمان، فإن من استكمل صالح الأخلاق فقد استكمل الإيمان؛ لأن الأخلاق الحسنة تدعو إلى حسن المعاملة مع الخالق بشكره ورؤية التقصير في حقه، وإلى حسن معاملة الخلق أيضاً، وهذا هو الدين كله.
- أنه سبب رفعة درجة العبد يوم القيامة، بل قد ضمن له النبي ﷺ بيتاً في أعلى الجنة.

- أن به يصير العبد في درجة الصائم القائم الذي لا يفتر عن العبادة.
- أنه سبب لحب رسول الله ﷺ للعبد، بل به يصير المرء من أقرب الناس منزلة منه ﷺ يوم القيامة.
- أنه نوع من أنواع البر، ففاعله من أهل البر والخير.
- أنه مما يثقل ميزان العبد يوم القيامة، بل هو أثقل ما يوضع في هذا الميزان.
- أنه من أعظم أسباب محبة الناس.
- إن التزام الأخلاق الحسنة لا يأتي إلا بالخير على الفرد الذي التزم بها والمجتمع من حوله، فلحسن الخلق فوائد كثيرةٌ أُخرويَّةٌ ودنيويَّةٌ لا يمكن حصرها وعدّها.

الأسباب والوسائل المعينة على حسن الخلق:

- إن حسن الخلق من الأمور التي يمكن أن يكتسبها العبد بأمور، نذكر منها:
- الحرص على زيادة الإيمان، وتوقُّد شعلته في القلب؛ لأن حسن الخلق من الإيمان، فكلما كان إيمان العبد كاملاً كانت أخلاقه مستقيمة.
- الاقتداء والتأسي بخير البشر وهو نبينا ﷺ، فقد كان أحسن الناس أخلاقاً.
- التخلق بأخلاق وآداب القرآن، فقد سبق أن ذكرنا عن عائشة رضي الله عنها حين سئلت عن خلق النبي ﷺ أن خلقه كان القرآن.
- النظر في سير السلف الصالح والاقتداء بهم، وبما كانوا عليه من جميل الأخلاق، نحو ما جاء عن وكيع بن الجراح شيخ الإمام أحمد بن حنبل أنه سبه رجل، ف قيل له: أفلا ترد عليه؟ فقال: ولماذا تعلمنا العلم إذن؟!
- التربية السليمة منذ الصغر، فالتعليم في الصغر كالنقش على الحجر، فمن شبَّ على شيء نشأ عليه، بل وشاب أيضاً عليه، فعلى الوالدين دور عظيم في هذا الباب.
- مصاحبة الصالحين، ومن علِّم منه جميل الأخلاق، ومجانبة أهل السوء ممن علِّم عنهم سوء الخلق والتفحش؛ فإن الطباع تنتقل بالمجالسة والمخالطة.

- الاستعانة بالله تعالى؛ لأن حمل النفس على حسن الخلق في جميع الأحوال شاقٌّ عليها، ولا يمكن لعبد أن يأتي به على وجهه إلا بإعانة الله له وتوفيقه إليه.
- مجاهدة النفس، وهي من أهم وسائل حسن الخلق، فإن ملازمته شاقة على النفس، وإذا جدَّ المرء وجاهد نفسه وألزمها حسن الخلق، وفقه الله لذلك.
- معرفة ثواب حسن الخلق وما أعدّه الله لمن حسن خلقه. وعاقبة سوء الخلق في الدنيا والآخرة، من بغض الله وبغض خلقه.



﴿ ٥٣. الإحسان إلى الخلق ﴾

إن من محاسن الشريعة الإسلامية أنها لم تأت لتنظيم العلاقة بين الخلق وخالقهم فقط، وإنما لتنظيمها أيضًا بين الخلق بعضهم البعض، ولذا فإن الناظر في نصوص الشرع الحنيف يجده مليئًا بالحث على حسن المعاملة مع الخلق والإحسان إليهم، بل قد جعل ذلك من شعب الإيمان، ورتب عليه جزيل الثواب.

والإحسان: هو بذل النفع للخلق جميعًا، سواء منهم الآدمي وغيره، فيكون الإحسان إلى الناس، وكذلك يكون إلى الحيوانات والبهائم ونحوها.

فمن الإحسان: بذل كل معروف من مال وطعام وسقي للمسلمين، بل وإلى غيرهم ممن لم تنه الشريعة عن الإحسان إليهم كأهل الذمة ونحوهم، فالإحسان إلى الفقير يكون بالتصدق عليه وبذل المال له، والإحسان إلى الضعيف بإعانتة في حمل شيء ونحوه، والإحسان إلى الكبير بإكرامه وتوقيره وإعانتة فيما يحتاج إلى إعانة فيه. والإحسان إلى المسلمين كافة يكون بلين الكلام معهم، والبشاشة في وجوههم، وبذل السلام لهم، وكف الأذى عنهم، وتعليمهم ما يجهلون من أمور دينهم ودنياهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

والإحسان إلى الحيوان بإطعامه وسقيه وترك الأذية له، بل ويكون الإحسان إليه حتى في ذبحه، وذلك بحد السكين وإخفائها عنه دفعًا لتعذيبه برؤيته لها. ومن أعظم وجوه الإحسان: الإحسان إلى الوالدين، والأقارب، والزوجة، والأولاد، فهؤلاء أولى بالإحسان من غيرهم.

الأدلة من الكتاب والسنة على أن الإحسان إلى الخلق من شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

قال السعدي رحمته الله: وهذه الشرائع من أصول الدين، التي أمر الله بها في كل شريعة، لاشتمالها على المصالح العامة في كل زمان ومكان، فلا يدخلها نسخ كأصل الدين.

﴿وَبِالْوَلَدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: أحسنوا بالوالدين إحساناً، وهذا يعم كل إحسان قولي وفعلي مما هو إحسان إليهم، وفيه النهي عن الإساءة إلى الوالدين.

وللإحسان ضدان: الإساءة، وهي أعظم جرماً، وترك الإحسان بدون إساءة، وهذا محرم، لكن لا يجب أن يلحق بالأول، وكذا يقال في صلة الأقارب واليتامى، والمساكين.

ثم أمر بالإحسان إلى الناس عموماً فقال: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ ومن القول الحسن: أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليمهم العلم، وبذل السلام، والبشاشة، وغير ذلك من كل كلام طيب.

ولما كان الإنسان لا يسع الناس بماله، أمر بأمر يقدر به على الإحسان إلى كل مخلوق، وهو الإحسان بالقول، فيكون في ضمن ذلك النهي عن الكلام القبيح للناس حتى للكفار، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

ومن أدب الإنسان الذي أدب الله به عباده، أن يكون الإنسان نزيهاً في أقواله وأفعاله، غير فاحش ولا بذيء، ولا شاتم، ولا مخاصم، بل يكون حسن الخلق، واسع الحلم، مجاملاً لكل أحد، صبوراً على ما يناله من أذى الخلق، امتثالاً لأمر الله، ورجاء لثوابه.

ثم أمرهم بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، لما تقدم أن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة متضمنة للإحسان إلى العبيد [أنظر: «تفسير السعدي» (ص: ٥٧)].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبِ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَّ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨].

قال السعدي رحمه الله: يمتن تعالى على عباده المؤمنين، بأنه فرض عليهم ﴿الْقَصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ أي: المساواة فيه، وأن يُقتل القاتل على الصفة التي قتل عليها المقتول، إقامة للعدل والقسط بين العباد.

ثم قال: ﴿فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ أي: عفا ولي المقتول عن القاتل وقبل منه الدية، وجب على ولي المقتول أن يتبع القاتل ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ من غير أن يشق عليه، ولا يحمله ما لا يطيق، بل يحسن الاقتضاء والطلب، ولا يحرجه.

وعلى القاتل ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ من غير تسويف ولا نقص، ولا إساءة فعلية أو قولية، فهل جزاء الإحسان إليه بالعفو، إلا الإحسان بحسن القضاء، وهذا مأمور به في كل ما ثبت في ذمم الناس للإنسان، مأمور من له الحق بالاتباع بالمعروف، ومن عليه الحق بالأداء بإحسان [أنظر: «تفسير السعدي» (ص: ٨٤)].

وقال رحمته الله: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

قال السعدي رحمته الله: «لما كانت النفقة في سبيل الله نوعاً من أنواع الإحسان، أمر بالإحسان عموماً فقال: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان؛ لأنه لم يقيده بشيء دون شيء، فدخل فيه الإحسان بالمال كما تقدم، ويدخل فيه الإحسان بالجاء بالشفاعات ونحو ذلك، ويدخل في ذلك الإحسان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم العلم النافع، ويدخل في ذلك قضاء حوائج الناس، من تفريج كرباتهم وإزالة شداتهم، وعيادة مرضاهم، وتشجيع جنائزهم، وإرشاد ضالهم، وإعانة من يعمل عملاً، والعمل لمن لا يحسن العمل ونحو ذلك، مما هو من الإحسان الذي أمر الله به.

ويدخل في الإحسان أيضاً الإحسان في عبادة الله تعالى، وهو كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك».

فمن اتصف بهذه الصفات، كان من الذين قال الله فيهم: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وكان الله معه يسدده ويرشده ويعينه على كل أموره» [تفسير السعدي] (ص: ٩٠). وقال تبارك اسمه: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَطْلَقُوا مَرْثَانًا فَأَمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِحَ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. قال ابن كثير رحمته الله: «أي: إذا طلقتهما واحدة أو اثنتين، فأنت مخير فيها ما دامت عدتها باقية، بين أن تردّها إليك ناوياً الإصلاح بها والإحسان إليها، وبين أن تتركها حتى تنقضي عدتها، فتطلق سراحها محسناً إليها، لا تظلمها من حقها شيئاً، ولا تضار بها. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: إذا طلق الرجل امرأته تطليقتين، فليترك الله في الثالثة، فإما أن يمسكها بمعروف فيحسن صحابتهما، أو يسرحها بإحسان فلا يظلمها من حقها شيئاً» [تفسير ابن كثير] (١ / ٦١١).

وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ١٣٣ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالضَّرَّاءِ وَالْغَيْظِ وَالْعَافِيَةِ عَنِ النَّاسِ ١٣٤ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤].

ذكر تعالى صفة أهل الجنة، وهم الذين ينفقون في السراء والضراء أي: في الشدة والرخاء، والمنشط والمكره، والصحة والمرض، وفي جميع الأحوال، والمعنى: أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى والإنفاق في مرضيه، والإحسان إلى خلقه من قرباتهم وغيرهم بأنواع البر. ومن صفاتهم أيضاً أنهم إذا ثار بهم الغيظ كظموه، بمعنى: كتموه فلم يعملوه، وعفوا مع ذلك عن أساء إليهم، وهذا أكمل الأحوال.

وأما قوله ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: فإن الله يحب من عمل بهذه الأمور التي وصف أنه أعدّ للعاملين بها الجنة التي عرضها السماوات والأرض، والعاملون بها هم المحسنون، وإحسانهم هو عملهم بها. [ينظر: «تفسير الطبري» (٦ / ٥٨)، و«تفسير ابن كثير» (٢ / ١١٩)].

وقال رحمته الله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

قال السعدي رحمته الله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: المحسنين في عبادة

الله، المحسنين إلى عباد الله، فكلما كان العبد أكثر إحساناً، كان أقرب إلى رحمة ربه، وكان ربه قريباً منه برحمته، وفي هذا من الحث على الإحسان ما لا يخفى» [تفسير السعدي] (ص: ٢٩٢).

وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٣٠﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠-٣١].

الحسنة في الدنيا: هي الرزق الواسع، والعيشة الهنية، وطمأنينة القلب، والأمن والسرور.

وقال تبارك اسمه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل: ٩٠]. قال السعدي رحمته: «الإحسان فضيلة مستحب، وذلك كنعف الناس بالمال والبدن والعلم، وغير ذلك من أنواع النفع، حتى إنه يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره.

وخص الله إيتاء ذي القربى - وإن كان داخلاً في العموم - لتأكد حقهم وتعين صلتهم وبرهم، والحرص على ذلك، ويدخل في ذلك جميع الأقارب قريبههم وبعيدهم، لكن كل ما كان أقرب كان أحق بالبر» [تفسير السعدي] (ص: ٤٤٧).

وقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، قال: أقبل رجل إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد، أبتغي الأجر من الله، قال: «فهل من والديك أحد حي؟» قال: نعم، بل كلاهما، قال: «فتبتغي الأجر من الله؟» قال: نعم، قال: «فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما». [رواه مسلم: ٦].

وعن سليمان بن عمرو بن الأحوص قال: حدثني أبي أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحمد الله، وأثنى عليه، وذكر، ووعظ، فقال: «ألا واستوصوا بالنساء

خيرًا، فإنما هن عوان عندكم، ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً، ألا إن لكم على نسائكم حقًا، ولنسائكم عليكم حقًا، فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذنن في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن» [رواه الترمذي: ١١٦٣].

«عوان عندكم» أي: أسرى في أيديكم. «إلا أن يأتين بفاحشة مبينة» كالنشوز وسوء العشرة وشراسة الخلق. «مبرح» أي: شاق شديد. «فلا يوطئن فرشكم من تكرهون» أي: لا يأذنن لأحد تكرهونه في دخول بيوتكم والجلوس في منازلكم، سواء كان المأذون له رجلًا أجنبيًا أو امرأة أو أحد من محارم الزوجة، فالنهي يتناول جميع ذلك.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يُسمَّى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحمًا» [رواه مسلم: ٢٥٤٣].

«القيراط»: جزء من أجزاء الدينار والدرهم وغيرهما، وكان أهل مصر يكثرون من استعماله والتكلم به. «ذمة»: الذمة هي الحرمة والحق. «ورحمًا» الرحم لكون هاجر أم إسماعيل عليه السلام منهم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الميت إذا وُضع في قبره إنه يسمع خفق نعالهم حين يولّون عنه، فإن كان مؤمنًا كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصيام عن يمينه، وكانت الزكاة عن شماله، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجله. فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى عن يمينه فيقول الصيام: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى عن يساره فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى من قبل رجله فتقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس: ما قبلي مدخل...» [رواه ابن حبان: ٣١١٣].

«يسمع خفق نعالهم» أي: يسمع صوت نعالهم على الأرض إذا مشوا. «ما قبلي مدخل» أي: لا توجد ثغرة كي ينفذ منها العذاب إلى هذا الرجل.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل سُلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته فيحمله عليها أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة» [رواه البخاري: ٢٩٨٩، ومسلم: ١٠٠٩].

«سُلامى» أي: مفصل. «يعدل بين الاثنين صدقة» أي: يصلح بينهما بالعدل.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بينا رجل يمشي، فاشتد عليه العطش، فنزل بئراً، فشرب منها، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه، ثم أمسكه بفيه، ثم رقي، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له». قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجراً؟ قال: «في كل كبد رطبة أجر» [رواه البخاري: ٢٣٦٣، ومسلم: ٢٢٤٤].

«يلهث» أي: يرتفع نفسه بين أضلاعه، أو يُخرج لسانه من شدة العطش. «الثرى» أي: التراب الندي. «رقي» أي: صعد. «وإن لنا في البهائم لأجراً» أي: أيكون لنا في سقي البهائم والإحسان لها أجر؟ «في كل كبد رطبة أجر» معناه: في الإحسان إلى كل حيوان حي يسقيه ويطعمه أجر، وسمي الحي ذا كبد رطبة؛ لأن الميت يجف جسمه وكبدته.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أن امرأة بغياً رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر، قد أدلع لسانه من العطش، فنزعت له بموقها، فغفر لها» [رواه البخاري: ٣٤٦٧، ومسلم: ٢٢٤٥].

«بغياً» البغي هي الزانية المجاهرة بالفجور. «يطيف» أي: يدور حوله. «أدلع لسانه» أي: أخرجه من شدة العطش. «نزعت له بموقها» الموق: الخف، والمعنى: أنها استقت له بخفها.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلا هي أطعمتها، ولا هي أرسلتها تأكل من خَشَاشِ الأرض، حتى ماتت هزلاً» [رواه البخاري: ٣٣١٨، ومسلم: ٢٦١٩].

«في هرة» أي: بسبب قطة صغيرة. «خَشَاشِ الأرض» أي: حشراتنا. «هزلاً» أي: ضعفاً بسبب الجوع.

وعن شداد بن أوس، قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ، قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلَةَ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذَّبْحَ، وليُحَدِّدْ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وليُريحْ ذبيحته» [رواه مسلم: ١٩٥٥].

«شفرته» الشفرة هي السكين. «ليُريحْ ذبيحته» أي: بإحداذ السكين، وإمرارها بسرعة، وغير ذلك، ويستحب أن لا يحد السكين بحضرة الذبيحة، وأن لا يذبح واحدة بحضرة أخرى، ولا يجرها إلى مذبحتها.

الآثار المترتبة على الإحسان إلى الخلق:

- أنه من أسباب رضَى الله ﷻ عن العبد.
- أنه من أسباب محبة الله تعالى للعبد، قال سبحانه: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].
- أنه من أعظم أسباب الرحمة، فمن أراد أن تنزل عليه الرحمة الإلهية فعليه بالإحسان إلى الخلق.
- أنه من أسباب دفع البلاء عن العبد ونزول الخيرات والبركات عليه، فإن الجزاء من جنس العمل؛ فمن أحسن لعباد الله أحسن الله إليه، قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]. وقال ابن القيم رحمته: «وقد دل العقل والنقل والفطر وتجارب الأمم - على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها - على أن التقرب إلى رب العالمين وطلب مرضاته، والبر والإحسان إلى خلقه، من أعظم الأسباب الجالبة لكل

خير، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر، فما اسْتُجِلِبَتْ نِعْمُ الله واستُدْفِعَتْ نِقْمُهُ بمثل طاعته والتقرب إليه، والإحسان إلى خلقه» [«الداء والدواء» (ص: ٣١)].

- أنه من أسباب رفع الدرجات في الآخرة.
- أنه من أسباب دفع أهوال القبر عن العبد.
- أنه من أعظم أسباب مغفرة الذنوب، ومحو الخطايا، فإن الله تعالى غفر لامرأة تمتن الزنا - وهو من أكبر الكبائر - بسقيها لكلب، فما بالك بمن يحسن إلى الناس خصوصاً أولياء الله.

الوسائل المعينة على الإحسان:

- صحة الإيمان وسلامة العقيدة، فالقلب هو ملك الجوارح، فإذا صح القلب وسلم من الآفات، انجمع عزمه على فعل الخيرات، ومنها الإحسان إلى الخلق رغبة في ثواب الله تعالى.
- من أهم ما يعين على الإحسان إلى المخلوقات: معرفة العبد ما يعود عليه من خير بسبب هذا الإحسان، فإن من يقابل إحسانه هذا ويكافئه عليه هو الله تعالى، وهو أكرم من كل كريم فلا يكافئ بالمثل، وإنما مكافئته تكون بأضعاف مضاعفة، فالعبد هو الرابع أولاً وأخيراً.
- التربية على الأخلاق الحميدة، فهي من الأسباب الواضحة الدافعة إلى الإحسان إلى الخلق، فعلى الوالد أن يربي ولده على الإحسان إلى الخلق، ويدربه على ذلك فيعطيه الصدقات ليوصلها إلى الفقراء، ويأمره بمساعدة كبير السن، حتى ينشأ الولد وقد تعود على صنائع الخير.
- أن يطالع المسلم سيرة النبي ﷺ ويقتدي بأخلاقه؛ فقد كان ﷺ أكثر الناس إحساناً إلى الخلق.

- النظر في أحوال الصحابة رضي الله عنهم والسلف الصالح وما كانوا عليه من الإحسان إلى الخلق.

- البعد عن التشبه بأخلاق الكفار وعادات الحضارة الغربية وتقاليدها، فقد عُلِمَ أنها حضارة تقوم على المادية المحضّة، وتخلو من كل قيم الأخلاق والمروءة والإحسان إلى الخلق.

- تذكر فناء هذه الدنيا، وأن الباقي هو ما يقدمه الإنسان لآخرته، فهذا يدفعه إلى بذل ما في يده إلى غيره، وعدم انتظار مقابل من المخلوقين، بل ينتظر ثواب الله في الآخرة.



٥٤. الصبر

الصبر من أعظم شعب الإيمان وأجمعها، وهو من صفات الأنبياء والصالحين من عباد الله، وبه تُنال أعلى الدرجات، وتُتَبوأ أعلى المنازل، وأهله أجراً غير معلوم، بل مدَّخر عند الذي خزائن كل شيء بيده، وعطاؤه لا ينفد ولا ينقضي، وهو علاج البلاءات والمدلهمات.

والصبر: هو حبس النفس على طاعة الله واجتناب معاصيه، وعدم التسخط على قضاء الله وقدره.

وبهذا يعرف أن للصبر ثلاث مراتب هي:

١ - صبر على الطاعة؛ وذلك بأن يصبر على طاعة الله وأداء أوامره؛ من غير ضجر ولا كراهة.

٢ - صبر عن المعصية؛ وذلك بأن يحمل نفسه على الكف عن معصية الله إذا دعت نفسه إليها.

٣ - صبر على أقدار الله تعالى المؤلمة؛ من فقر ومرض وموت ونحوها، وذلك بأن لا يتسخط من المقدور، ولا يتضجر، ولا يقول قولاً أو يفعل فعلاً يدل على عدم رضاه وتسليمه للقدر؛ من الدعاء على نفسه، ولطم الخدود، وشق الثياب، ونحوه.

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن الصبر من أهم شعب الإيمان:

قال سبحانه: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

قال السعدي رحمته الله: «أمرهم الله أن يستعينوا في أمورهم كلها بالصبر بجميع أنواعه، وهو الصبر على طاعة الله حتى يؤديها، والصبر عن معصية الله حتى يتركها، والصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها، فبالصبر وحبس النفس على ما أمر الله بالصبر عليه معونة عظيمة على كل أمر من الأمور، ومن يتصبر يصبره الله» [تفسير السعدي] (ص: ٥١).

وقال **عليه السلام**: ﴿وَلْتَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٩﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٦٠﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩ - ١٥٧].

قال ابن كثير **رحمته الله**: أخبر تعالى أنه يبتلي عباده المؤمنين أي: يختبرهم ويمتحنهم، تارة بالسراء، وتارة بالضراء من خوف وجوع، ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾ أي: ذهاب بعضها ﴿وَالْأَنْفُسِ﴾ كموت الأصحاب والأقارب والأحباب ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ أي: لا ثمر الحداثق والمزارع كعادتها، وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده، فمن صبر أثابه الله، ومن قنط وسخط أحل الله به عقابه، ولهذا قال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ ثم بين تعالى من الصابرون الذين شكرهم، قال: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أي: تسلوا بقولهم هذا عما أصابهم، وعلموا أنهم ملك لله يتصرف في عبيده بما يشاء، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة، فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده، وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة، ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك فقال: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أي: ثناء من الله عليهم ورحمة، أي: أمان من العذاب ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [أنظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٦٧)].

وقال تعالى: ﴿كَمْ مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

أي: الله تعالى مع الصابرين يعينهم وينصرهم.
وقال جل وعلا: ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ سَّوْهُمُ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

قال ابن كثير **رحمته الله** في تفسير هذه الآية: وهذه الحال دالة على شدة عداوة المنافقين للمؤمنين، وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب ونصر وتأييد، وكثروا وعز أنصارهم، ساء ذلك المنافقين، وإن أصاب المسلمين قحط أو انتصر عليهم الأعداء - لما لله في

ذلك من الحكمة كما جرى يوم أحد - فرح المنافقون بذلك، قال الله تعالى مخاطباً عباده المؤمنين: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار، باستعمال الصبر والتقوى، والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيئته، ومن توكل عليه كفاه [أنظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٠٨)].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].
وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

قال السعدي رحمته الله: «حض الله المؤمنين على ما يوصلهم إلى الفلاح - وهو الفوز والسعادة والنجاح - وأن الطريق الموصل إلى ذلك لزوم الصبر، الذي هو حبس النفس على ما تكرهه، من ترك المعاصي، ومن الصبر على المصائب، وعلى الأوامر الثقيلة على النفوس، فأمرهم بالصبر على جميع ذلك. والمصابرة أي: الملازمة والاستمرار على ذلك على الدوام، ومقاومة الأعداء في جميع الأحوال.

والمرابطة: وهي لزوم المحل الذي يخاف من وصول العدو منه، وأن يراقبوا أعداءهم، ويمنعوا من الوصول إلى مقاصدهم، لعلهم يفلحون: يفوزون بالمحسوب الديني والدنيوي والأخروي، وينجون من المكروه كذلك.

فَعُلِمَ من هذا أنه لا سبيل إلى الفلاح بدون الصبر والمصابرة والمرابطة المذكورات، فلم يُفْلَحَ من أفلح إلا بها، ولم يفت أحداً الفلاح إلا بالإخلال بها أو ببعضها» [«تفسير السعدي» (ص: ١٦٢)].

وقال جل وعلا بعد قصة نوح عليه السلام: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

قال الطبري رحمته الله: «فاصبر على القيام بأمر الله، وتبليغ رسالته، وما تلقى من

مشركي قومك، كما صبر نوح؛ ﴿إِنَّ الْعَقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يقول: إن الخير من عواقب الأمور لمن اتقى الله فأدى فرائضه، واجتنب معاصيه، فهم الفائزون بما يؤملون من النعيم في الآخرة والظفر في الدنيا بالطلبة، كما كانت عاقبة نوح إذ صبر لأمر الله أن نجاه من الهلكة مع من آمن به، وأعطاه في الآخرة ما أعطاه من الكرامة، وغرق المكذبين به فأهلكهم جميعهم» [تفسير الطبري (١٢ / ٤٤١)].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا أَبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ عِبَادِنَا هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ وَذُرِّيَّتُهُمُ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢ - ٢٤].

قال أبو يزيد الرقي: سألت الفضيل بن عياض عن قوله: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ فقال: «صبروا أنفسهم على ما أمرهم به من طاعته، وصبروا أنفسهم عما نهاهم عنه من معصيته، فقالت لهم الملائكة حين أكرمهم الله: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾» [«الصبر» لابن أبي الدنيا (ص ٣٣)].

وقال **رحمته** بعد ذكره صفات عباد الرحمن: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرَّةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلْقَوْنَ فِيهَا خَيْرًا وَسَلَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥].

قال ابن كثير **رحمته**: «لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من هذه الصفات الجميلة والأفعال والأقوال الجليلة، قال بعد ذلك كله: ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: المتصفون بهذه ﴿يُجْزَوْنَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿الْغُرَّةَ﴾ وهي الجنة ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: على القيام بذلك ﴿وَيُلْقَوْنَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿خَيْرًا وَسَلَامًا﴾ أي: يُبتَدَرُونَ فيها بالتحية والإكرام، ويلقون فيها التوقير والاحترام، فلهم السلام وعليهم السلام، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار».

[«تفسير ابن كثير» (٦ / ١٣٣)].

وقال تبارك اسمه: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

قال السعدي رحمته الله: «هذا عام في جميع أنواع الصبر، الصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها، والصبر عن معاصيه فلا يرتكبها، والصبر على طاعته حتى يؤديها، فوعده الله الصابرين أجرهم بغير حساب، أي: بغير حد ولا عد ولا مقدار، وما ذاك إلا لفضيلة الصبر ومحله عند الله، وأنه معين على كل الأمور» [تفسير السعدي] (ص: ٧٢١).

وقال جل جلاله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

قال السعدي رحمته الله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على ما يناله من أذى الخلق ﴿وَغَفَرَ﴾ لهم، بأن سمح لهم عما يصدر منهم ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: لمن الأمور التي حث الله عليها وأكدها، وأخبر أنه لا يلقاها إلا أهل الصبر والحظوظ العظيمة، ومن الأمور التي لا يوفق لها إلا أولو العزائم والهمم، وذوو الألباب والبصائر.

فإن ترك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل، من أشق شيء عليها، والصبر على الأذى، والصفح عنه، ومغفرته، ومقابلته بالإحسان، أشق وأشق، ولكنه يسير على من يسره الله عليه، وجاهد نفسه على الاتصاف به، واستعان الله على ذلك، ثم إذا ذاق العبد حلاوته، ووجد آثاره، تلقاه برحب الصدر، وسعة الخلق، والتلذذ فيه. [تفسير السعدي] (ص: ٧٦١).

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الصبر ضياء» [رواه مسلم: ٢٢٣].

أي: ضياء يهتدي به العبد في الدنيا إلى الصواب، وضياء له في ظلمة القبر ويوم القيامة.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من يتصبر يصبره الله، وما أُعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر» [رواه البخاري: ١٤٦٩، ومسلم: ١٠٥٣].

قال الشيخ ابن عثيمين رحمته الله: «من يتصبر يصبره الله»، أي: يعطيه الله الصبر، فإذا تصبرت، وحبست نفسك عما حرم الله عليك، وصبرت على ما عندك من الحاجة والفقر، ولم تلح على الناس بالسؤال، فإن الله تعالى يصبرك ويعينك على الصبر.

ثم قال النبي ﷺ: «وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر» أي: ما من الله على أحد بعطاء من رزق، أو غيره؛ خيراً وأوسع من الصبر؛ لأن الإنسان إذا كان صبوراً تحمل كل شيء؛ إن أصابته الضراء صبر، وإن عرض له الشيطان بفعل المحرم صبر، وإن خذله الشيطان عن ما أمر الله به صبر. فإذا كان الإنسان قد من الله عليه بالصبر؛ فهذا خير ما يعطاه الإنسان، وأوسع ما يعطاه، ولذلك تجد الإنسان الصبور لو أودي من قبل الناس، لو سمع منهم ما يكره، لو حصل منهم اعتداء عليه، تجده هادئ البال، لا يتصلب، ولا يغضب؛ لأنه صابر على ما ابتلاه الله به؛ فلذلك تجد قلبه دائماً مطمئناً ونفسه مستريحة، والله الموفق [أنظر: «شرح رياض الصالحين» (١/ ١٩٦)].

وعن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» [رواه مسلم: ٢٩٩٩].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: مر النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، فقال: «اتقي الله واصبري» قالت: إليك عني، فإنك لم تُصَبْ بمصيبتي، ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت باب النبي ﷺ، فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى» [رواه البخاري: ١٢٨٣، ومسلم: ٩٢٦].

«إليك عني» أي: ابتعد عني. «إنما الصبر عند الصدمة الأولى» أي: إذا وقع الشبات عند أول المصيبة وبدايتها، فذلك هو الصبر الكامل الذي يترتب عليه الأجر.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون، فقال: «إنه عذاب يبعثه الله على من يشاء، وإن الله جعله رحمة للمؤمنين، ليس من أحد يقع الطاعون، فيمكث في بلده صابراً محتسباً، يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له، إلا كان له مثل أجر شهيد» [(رواه البخاري: ٣٤٧٤)].

قوله: «صابراً» أي: غير منزعج ولا قلق. «محتسباً» أي: طالباً للثواب من الله على

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الله قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر، عوضته منهما الجنة» [رواه البخاري: ٥٦٥٣].

«إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه» يعني: عينيه فيعمى، ثم صبر، إلا عوضه الله بهما الجنة؛ لأن العين محبوبة للإنسان، فإذا أخذهما الله سبحانه وصبر الإنسان واحتسب الأجر عند الله تعالى، فإن الله يعوضه بهما الجنة [ينظر: «شرح رياض الصالحين» لابن عثيمين (١/ ٢٣٤)].

وعن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس رضي الله عنهما: «ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبي ﷺ فقالت: إني أُصرع، وإني أتكشّف، فادع الله لي، قال: «إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك» فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشّف، فادع الله لي أن لا أتكشّف، فدعا لها [رواه البخاري: ٥٦٥٢، ومسلم: ٢٥٧٦].

قولها: «أُصرع» أي: يصيبني الصرع فأفقد وعيي. «أتكشّف» أي: ينكشف جسمي أثناء فقدان الوعي، فأخشى أن تظهر عورتي وأنا لا أشعر.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: «الصبر صبران: صبر عند المصيبة حسن، وأحسن منه الصبر عن محارم الله» [رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٠٢)].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قُطع الرأس باد الجسد، ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له» [رواه ابن أبي الدنيا في «الصبر»: ٨].

وقال الحسن البصري رحمته الله: «الصبر كنز من كنوز الخير، لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عليه» [رواه ابن أبي الدنيا في «الصبر»: ١٦].

ثمرات الصبر وفضائله:

- الصبر يعين المسلم على التغلب على مصاعب الدنيا وشدائدها.
- الصبر يقي المسلمين شر أعدائهم وينجيهم من كيدهم ومكرهم.

- الصابرون يهديهم الله ﷻ، ويرحمهم، ويشي عليهم في المأ الأعلً.
- الله تعالى يحب الصابرين، وهو معهم يعينهم وينصرهم.
- الصابرون هم أهل الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة.
- الصابرون يوفون أجرهم يوم القيامة بلا حد محدود ولا عدد معدود.
- الصبر ضياء يهتدي به العبد في الدنيا إلى الحق، وضياء له في ظلمة القبر ويوم القيامة.
- الصبر يقي المسلم شر الفتن.
- الصبر يعصم من التخطب ويحفظ من اليأس والقنوط، وهو أعظم معين على أمور الدنيا والآخرة.

الوسائل المعينة على الصبر:

- مطالعة سيرة النبي ﷺ والمواقف التي مر بها، والأذى الذي تعرض له، وصبره في سبيل تبليغ رسالة ربه، والاقتداء به في ذلك.
- مطالعة سير الأنبياء عليهم السلام وصبرهم على أذى قومهم.
- مطالعة سير السلف الصالح رحمهم الله، وما كانوا عليه من الصبر على المصائب وعلى ملازمة الطاعة واجتناب المعصية.
- استحضار فضائل الصبر وعواقب الجزع والتسخط؛ فإن معرفة ثمرات الصبر واستحضار حسن عواقبه من أكبر الدواعي إلى فعله وتمثله والسعي إليه، كذلك النظر في عواقب الجزع والتسخط، وما يجلبه من هم وغم وحسرة وندامة، كل ذلك مما يعين على الصبر ويحمي من الجزع والتسخط.
- تمرين النفس وحملها على الصبر حملاً، فإنما الصبر بالتصبر.
- الاستعانة بالله تعالى؛ لأن حمل النفس على الصبر في جميع الأحوال شاقٌ عليها، ولا يمكن للعبد أن يأتي به على وجهه إلا بإعانة الله له وتوفيقه إليه.

- أن يوصي المسلمون بعضهم بعضًا بالصبر، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾
[العصر: ١-٣].



٥٥. العدل

إن أهم ركيزة في البناء والتنمية، وأعظم أساس تُقام عليه الدول والنظم هي العدالة التي جاء الإسلام حاملاً لواءها ومقيماً لمعاملها، وإن من خصائص الإسلام العدل في التكاليف والأوامر، فالناس أمام الشرع كأسنان المشط سواسية؛ لذلك اتصفت الشريعة الإسلامية بالعدل، فالإسلام يدعو إلى العدل، ويعطي الجزاء الأوفى للقائمين بين الناس بالقسط، ويمنع في مقابله الظلم وكل ما يرتبط به من أقوال وأفعال، وينهى عنه أشد النهي.

والعدل: إعطاء كل شيء ما يستحقه، وهو واجب على كل المسلمين باختلاف أحوالهم؛ فالحاكم يجب عليه العدل بين رعيته، ورئيس العمل يجب عليه العدل بين عماله، والوالد يجب عليه العدل بين أولاده، والزوج يجب عليه العدل بين زوجاته، والمدرس يجب عليه العدل بين تلاميذه،... وهكذا.

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن العدل من أهم شعب الإيمان:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

قال ابن كثير رحمته الله: «هذا إرشاد منه تعالى لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها؛ ليكون ذلك أحفظ لمقذارها وميقاتها، وأضبط للشاهد فيها... وقوله: ﴿وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ أي: بالقسط والحق، ولا يظلم في كتابته أحداً، ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان» [تفسير ابن كثير] بتصرف يسير (١/ ٧٢٢-٧٢٤).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّٰهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط، أي: بالعدل، فلا يميلوا عنه يمينًا ولا شمالًا، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا يصرفهم عنه صارف، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاشرين متناصرين فيه. وقوله: ﴿شُهَدَاءَ لِلّٰهِ﴾ كما قال: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلّٰهِ﴾ أي: ليكن أداؤها ابتغاء وجه الله، فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقًا، خالية من التحريف والتبديل والكتمان؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: أشهد الحق ولو عاد ضرره عليك، وإذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه، وإن كان مضرة عليك، فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجًا ومخرجًا من كل أمر يضيق عليه.

وقوله: ﴿أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ أي: وإن كانت الشهادة على والديك وقرابتك، فلا تراهم فيها، بل اشهد بالحق وإن عاد ضررها عليهم، فإن الحق حاكم على كل أحد، وهو مقدم على كل أحد. وقوله: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّٰهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أي: لا ترعاه لغناه، ولا تشفق عليه لفقره، الله يتولاهما، بل هو أولى بهما منك، وأعلم بما فيه صلاحهما.

وقوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ أي: فلا يحملنكم الهوى والعصية وبغضة الناس إليكم على ترك العدل في أموركم وشؤونكم، بل الزموا العدل على أي حال كان، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وقوله: ﴿وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تُعْرَضُوا﴾ قال مجاهد وغير واحد من السلف: ﴿تَلَوْا﴾ أي: تحرفوا الشهادة وتغيروها، واللي هو: التحريف وتعمد الكذب، والإعراض هو: كتمان

الشهادة وتركها، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، ولهذا توعدهم الله بقوله: ﴿إِنْ أَلَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي: وسيجازيكم بذلك» [تفسير ابن كثير] (٢/ ٤٣٣).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

قال السعدي رحمته الله: «﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ﴾ أي: لا يحملنكم بغض ﴿قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ كما يفعله من لا عدل عنده ولا قسط، بل كما تشهدون لوليكم، فاشهدوا عليه، وكما تشهدون علىٰ عدوكم فاشهدوا له، ولو كان كافراً أو مبتدعاً، فإنه يجب العدل فيه، وقبول ما يأتي به من الحق؛ لأنه حق لا لأنه قاله، ولا يُردُّ الحق لأجل قوله، فإن هذا ظلم للحق. ﴿ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: كلما حرصتم علىٰ العدل واجتهدتم في العمل به، كان ذلك أقرب لتقوىٰ قلوبكم، فإن تم العدل كملت التقوىٰ» [تفسير السعدي] (ص: ٢٢٤).

وقال تعالى لنبيه صلوات الله عليه عن اليهود: ﴿إِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَاقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَبْغِيَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ تَ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ

يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿[الحجرات: ٩].

﴿حَتَّى تَوَّءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ يعني: حتى ترجع إلى أمر الله.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

قال ابن كثير رحمته الله: «يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالمعجزات والحجج الباهرات والدلائل القاطعات ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهو النقل المصدق ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ وهو العدل، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧]؛ ولهذا قال في هذه الآية: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالحق والعدل، وهو اتباع الرسل فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا به، فإن الذي جاؤوا به هو الحق الذي ليس وراءه حق، كما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأوامر والنواهي» [تفسير ابن كثير باختصار (٨ / ٢٧)].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن وعنه، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا» [رواه مسلم: ١٨٢٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: - وذكر منهم - الإمام العادل...» [رواه البخاري: ٦٦٠، ومسلم: ١٠٣١].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: أعطاني أبي عطية، فقالت عمرة بنت رواحة -يعني: أم بشير-: لا أرضى حتى تشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطية، فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله، قال: «أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟»، قال: لا، قال: «فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم» [رواه البخاري: ٢٥٨٧، ومسلم: ١٦٢٣].

ولما بعث النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن رواحة رضي الله عنه إلى يهود خيبر ليقدر عليهم ثمارهم

وزرعهم ليأخذ نصفها للمسلمين كما اشترط ذلك عليهم النبي ﷺ حين فتح خيبر، فأراد اليهود أن يرشوا عبد الله بن رواحة ليرفق بهم، فقال: «والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إليّ، ولأنتم أبغض إليّ من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم على ألا أعدل فيكم». فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض [رواه ابن حبان: ٥١٩٩].

ثمرات العدل:

من خلال النصوص السابقة من الكتاب والسنة يمكننا استخلاص ثمرات العدل، وهي:

- أن العادل يظله الله تعالى يوم القيامة في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، كما أخبر الرسول ﷺ بذلك.

- العدل سبيل للتقوى، قال تعالى: ﴿أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨].

- علو المنزلة عند الله تعالى يوم القيامة، فقد أخبر الرسول ﷺ أن المقسطين الذين

تخلقوا بخلق العدل واتصفوا به، على منابر من نور في الجنة عن يمين الرحمن ﷻ.

- نيل العادل رضا الله سبحانه وتعالى وحبه، قال الله ﷻ: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، وبذا ينال السعادة في الدنيا والآخرة.

- تحقق الأمن بين فئات المجتمع المختلفة؛ فحينما يشعر المظلوم أن العدالة متحققة في المجتمع، وأن الشرع كفل له حقه، وانتزعه ممن ظلمه واعتدى على حقوقه، فبذلك يتحقق الاستقرار والطمأنينة في المجتمع، إضافة إلى القضاء على الفتن والنزاعات والمشاكل المهلكة للطاقات والموارد والأفراد.

- ازدياد تماسك المجتمع بشكل كبير في مختلف النواحي، ولا سيما الناحية الاجتماعية، فيساعد الأفراد بعضهم بعضاً في جميع الأحوال، في السراء والضراء، وفي الأفراح والأحزان، مما يؤدي إلى استقرار المجتمع وترابطه وتكاتفه، وبالتالي تطويره

والنهوض به نحو المعالي والتقدم بين سائر الشعوب والأمم.

- دوام الدول، والنصر على الأعداء، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: «إن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة، ولهذا يُروى: إن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة» [«مجموع الفتاوى» (٢٨ / ٦٣)]. وكما يقال: العدل أساس الملك.

- تعزيز خلق التسامح، والعفو عن الآخرين، والاحترام المتبادل بين أفراد المجتمع.

الأسباب والوسائل المعينة على العدل:

- الإخلاص، وأن يقصد العبد المسلم رضا الله تعالى باتصافه بالعدل، فعندما يتذكر العبد أنه فعل ذلك طاعة لله وابتغاء رضاه سهل عليه القيام بالعدل بين الناس، وانتصف المرء للناس حتى من نفسه.

- ابتغاء الثواب الجزيل والأجر العظيم من الله سبحانه وتعالى؛ فإن من اتصف بخلق العدل وعده الله تعالى بعظيم الأجر والثواب في الدنيا والآخرة.

- الإكثار من تلاوة القرآن الكريم، والاستماع له، والتدبر في آياته، والتفكير في معانيه، بقلب حاضر ورغبة صادقة، تجعل المرء يتخلق بخلق العدل، خاصة عند تلاوة الآيات الأمرة بالعدل، والآيات الدالة على هلاك الظالمين، وأن الله تعالى انتقم منهم، وجعلهم عبرة لمن بعدهم.

- قراءة الأحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم الدالة على الاتصاف بخلق العدل، والمحذرة من الظلم.

- مجالسة الأخيار والصالحين ومصاحبتهم ممن اتصفوا بخلق العدل وصار خلقاً ملازماً لهم.

- النظر في عاقبة الظلم في الدنيا والآخرة، وأنه يُعَجَّلُ للظالم العقوبة في الدنيا مع

ما ينتظره من عذاب شديد في الآخرة، عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أجدر أن يُعَجَّلَ الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم» [رواه الترمذي: ٢٥١١]. «البغي» أي: الظلم.

- الاتعاظ بحال الأمم السابقة التي أهلكها الله بسبب كفرهم وظلمهم، قال تعالى بعد ذكره إهلاك فرعون وجنوده: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠]. وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لِيُمْلِي للظالم، فإذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] [رواه البخاري: ٤٦٨٦، ومسلم: ٢٥٨٣]. «ليملي» أي: لِيُمَهِّلَ. «لم يفلته» لم يخلصه ولم يتركه حتى يستوفي عقابه. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: كما ذكر سبحانه من إهلاك الأمم وأخذهم بالعذاب. ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾ أي: إهلاكه وعذابه. ﴿أَخْذَ الْقُرَىٰ﴾ أي: أهلك أهلها.

- نصرة المظلوم، ورد الظالم عن ظلمه بما يُستطاع؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً». فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلوماً، أرايت إن كان ظالماً كيف أنصره؟ قال: «تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره» [رواه البخاري: ٦٩٥٢].



٥٦. الرحمة

إن الرحمة من صفات الله تعالى العظيمة، فالله ﷻ رحيم بعباده، وقد حث سبحانه عباده على التراحم فيما بينهم، ومدح منهم من تخلق بهذا الخلق، وأخبر رسوله ﷺ أنه سبحانه إنما يرحم من عباده الرحماء الذين يرحمون الناس، فينبغي على المسلم المطيع لربه أن يتخلق بهذا الخلق العظيم.

والرحمة من المخلوق: هي رقة في النفس تبعث على إيصال الخير والإحسان إلى المرحوم.

ومثالها: رحمة الوالدين بأبنائهم الصغار، ورحمة الأبناء بوالديهم إذا كبروا وشاخوا، ورحمة الكبير بالصغير، والقوي بالضعيف، والزوج بزوجه، ورحمة المخدوم بخادمه، ورحمة الإنسان بالحيوان، وغير ذلك.

ويدخل في الرحمة أيضًا: إعطاء المحتاجين والفقراء، وإعانة المرضى والضعفاء، وتعليم الجاهلاء، ولين الكلام مع المؤمنين، والبشاشة في وجوههم، وكف الأذى عنهم. وخلق الرحمة منه ما هو محمود وهو الأصل، ومنه ما هو مذموم. أما الم محمود: فهو ما ذكرناه آنفاً.

وأما المذموم: فهو ما حصل بسببه تعطيل لشرع الله، أو تهاون في تطبيق حدوده وأوامره.

ومن الرحمة المذمومة ما يكون سببا في فساد المرحوم وهلاكه، كما يفعل كثير من الآباء من ترك تربية الأبناء وتأديبهم، عطفًا عليهم، فيتسببون في فسادهم وهلاكهم وهم لا يشعرون.

الأدلة من الكتاب والسنة على أن الرحمة من أهم شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ

وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿المائدة: ٥٤﴾.

قال السعدي رحمه الله: «أَذِلَّةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ» فهم للمؤمنين أذلة من محبتهم لهم، ونصحهم لهم، ولينهم ورفقهم وراقتهم، ورحمتهم بهم، وسهولة جانبهم، وقرب الشيء الذي يطلب منهم. وعلى الكافرين بالله، المعاندين لآياته، المكذبين لرسله - أعزة، قد اجتمعت همهم وعزائمهم على معاداتهم، وبذلوا جهدهم في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم» [تفسير السعدي] (ص: ٢٣٦).

وقال رحمه الله: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴿الفتح: ٢٩﴾».

قال ابن كثير رحمه الله: «وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديداً عنيفاً على الكفار، رحيماً برّاً بالأخيار، غضوباً عبوساً في وجه الكافر، ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن» [تفسير ابن كثير] (٧/ ٣٦٠).

وقال سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَأَخْفِصْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَانِي صَغِيرًا ﴿الإسراء: ٢٣، ٢٤﴾».

قال السعدي رحمه الله: «وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا» أي: أحسنوا إليهما بجميع وجوه الإحسان القولي والفعلية؛ لأنهما سبب وجود العبد، ولهما من المحبة للولد والإحسان إليه والقرب ما يقتضي تأكيد الحق ووجوب البر.

﴿إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ أي: إذا وصلا إلى هذا السن الذي تضعف فيه قواهما ويحتاجان من اللطف والإحسان ما هو معروف ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ وهذا أدنى مراتب الأذى نبه به على ما سواه، والمعنى لا تؤذهما أدنى أذية. ﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ أي: تزجرهما وتكلم لهما كلاماً خشناً ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ بلفظ يحبانه

وتأدب وتلطف بكلام لين حسن يلذ على قلوبهما وتطمئن به نفوسهما، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والعوائد والأزمان.

﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي: تواضع لهما ذلاً لهما ورحمة واحتساباً للأجر، لا لأجل الخوف منهما أو الرجاء لهما، ونحو ذلك من المقاصد التي لا يؤجر عليها العبد. ﴿وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا﴾ أي: ادع لهما بالرحمة أحياء وأمواتاً، جزاء على تربيتهما إياك صغيراً» [تفسير السعدي] (ص: ٤٥٦).

وقال ﷺ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

قال ابن كثير رحمه الله: «وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: خلق لكم من جنسكم إناثاً يكنن لكم أزواجاً ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ ولو أنه جعل بني آدم كلهم ذكوراً وجعل إناثهم من جنس آخر إما من جان أو حيوان، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس. ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم، وجعل بينهم وبينهن مودة: وهي المحبة، ورحمة: وهي الرأفة، فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبتها لها، أو لرحمته بها، بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجة إليه في الإنفاق، أو للألفة بينهما، وغير ذلك» [تفسير ابن كثير] (٦ / ٣٠٩).

وقال تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَصَّوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۝١٧﴾ [البقرة: ١٧، ١٨].

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ أي: أوصى بعضهم بعضاً بمرحمة الناس، من إعطاء محتاجهم، وتعليم جاهلهم، والقيام بما يحتاجون إليه من جميع الوجوه، ومساعدتهم على المصالح الدينية والدنيوية، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ أي: أولئك الذين قاموا بهذه الأوصاف أصحاب اليمين، الذين يؤخذ بهم يوم القيامة ذات اليمين إلى الجنة؛ لأنهم أدوا ما أمر الله به من

حقوقه وحقوق عباده، وتركوا ما نهوا عنه، وهذا عنوان السعادة وعلامتها. [ينظر: «تفسير الطبري» (٤٣١/٢٤)، و«تفسير السعدي» (ص: ٩٢٥)].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ، فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ فقال ﷺ: «نعم». فقالوا: لكننا والله ما نقبل، فقال رسول الله ﷺ: «أو أملك إن كان الله نزع من قلوبكم الرحمة» [رواه البخاري: ٥٩٩٨، ومسلم: ٢٣١٧]. «أو أملك...» أي: لا أقدر أن أجعل في قلوبكم الرحمة، إن كان الله تعالى قد نزعها منكم.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قبل رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسًا، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدًا، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «من لا يرحم لا يرحم» [رواه البخاري: ٥٩٩٧، ومسلم: ٢٣١٨]. أي: من لا يرحم المخلوقين لا يرحمه الله تعالى.

وعن جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس» [رواه البخاري: ٧٣٧٦، ومسلم: ٢٣١٩].

وعن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن ابنه للنبي ﷺ أرسلت إليه، أن ابني قد حضر فاشهدنا... فقام النبي ﷺ وقمنا، فرفع الصبي في حجر النبي ﷺ ونفسه تققع، ففاضت عينا النبي ﷺ، فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «هذه رحمة وضعها الله في قلوب من شاء من عباده، ولا يرحم الله من عباده إلا الرحماء» [رواه البخاري: ١٢٨٤، ومسلم: ٩٢٣].

«حُضِرَ» أي: حضره الموت. «تقعقع» أي: تتحرك وتضطرب.

وعن مالك بن الحويرث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتيت النبي ﷺ في نفر من قومي، فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان ﷺ رحيماً رفيقاً، فلما رأى شوقنا إلى أهلينا، قال: «ارجعوا فكونوا فيهم وعلموهم...» [رواه البخاري: ٦٢٨، ومسلم: ٦٧٤].

وعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ترى المؤمنين في تراحمهم

وتوادهم وتعاطفهم، كمثل الجسد، إذا اشتكى عضوًا تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى» [رواه البخاري: ٦٠١١، ومسلم: ٢٥٨٦].

«تراحمهم» أي: رحمة بعضهم بعضًا. «توادهم» أي: تحابهم. «تعاطفهم» أي: تعاونهم. «الجسد» أي: الجسم الواحد بالنسبة إلى جميع أعضائه. «اشتكى عضوًا» لمرض أصابه. «تداعى» شاركه فيما هو فيه. «السهر» أي: عدم النوم بسبب الألم. «الحمى» أي: حرارة البدن وألمه.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» [رواه الترمذي: ١٩٢٤].
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: «لا تُنزع الرحمة إلا من شقي» [رواه أبو داود: ٤٩٤٢].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من لم يرحم صغيرنا، ويعرف حق كبيرنا، فليس منا» [رواه أبو داود: ٤٩٤٣].
وعن ابن عمر رضي الله عنه، دعا بغيلاً له فرأى بظهره أثراً، فقال له: أوجعتك؟ قال: لا، قال: فأنت عتيق، قال: ثم أخذ شيئاً من الأرض، فقال: ما لي فيه من الأجر ما يزن هذا، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ضرب غلاماً له حدًّا لم يأتِه، أو لطمه، فإن كفرته أن يعتقه» [رواه مسلم: ١٦٥٧].

«غلام» أي: عبد. «حدًّا لم يأتِه» أي: ضربه لغير ذنب فعله.
وعن أبي مسعود البصري رضي الله عنه أنه قال: كنت أضرب غلاماً لي بالسوط، فسمعت صوتاً من خلفي: «اعلم، أبا مسعود». فلم أفهم الصوت من الغضب، قال: فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ، فإذا هو يقول: «اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود». قال: فألقيت السوط من يدي، فقال: «اعلم أبا مسعود، أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام». قال: فقلت: لا أضرب مملوكاً بعده أبداً.

«السوط» ما يُضرب به من جلد ونحوه. «دنا» أي: اقترب.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «بينا رجل يمشي، فاشتد عليه العطش، فنزل بئراً، فشرب منها، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه، ثم أمسكه بفيه، ثم رقي، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له». قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجراً؟ قال: «في كل كبد رطبة أجر» [رواه البخاري: ٢٣٦٣، ومسلم: ٢٢٤٤].

«يلهث» أي: يرتفع نَفْسُهُ بين أضلّاعه، أو يُخرج لسانه من شدة العطش. «الثرى» أي: التراب الندي. «رقي» أي: صعد. «وإن لنا في البهائم لأجرًا» أي: أكون لنا في سقي البهائم والإحسان لها أجر. «في كل كبد رطبة أجر» معناه: في الإحسان إلى كل حيوان حي يسقيه ويطعمه أجر، وسمي الحي ذا كبد رطبة؛ لأن الميت يجف جسمه وكبده. وعن معاوية بن قرة، عن أبيه رضي الله عنه، أن رجلاً قال: يا رسول الله، إني لأذبح الشاة، وأنا أرحمها. فقال ﷺ: «والشاة إن رحمتها رحمك الله، والشاة إن رحمتها رحمك الله» [رواه أحمد: ١٥٥٩٢].

وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قال: دخل رسول الله ﷺ حائطاً لرجل من الأنصار فإذا جمل، فلما رأى النبي ﷺ حن وذرفت عيناه، فأتاه النبي ﷺ فمسح ذِفْرَاهُ فسكت، فقال: «من رب هذا الجمل، لمن هذا الجمل؟». فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله. فقال ﷺ: «أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؟ فإنه شكا إليّ أنك تجيعه وتُدْبِيه» [رواه أبو داود: ٢٥٤٩].

«حائطاً» أي: بستاناً. «حن وذرفت عيناه» أي: بكى الجمل وجرت عيناه بالدموع. «ذِفْرَاهُ» أي: مؤخر رأسه. «وتُدْبِيه» أي: وتُتعبه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلا هي أطعمتها، ولا هي أرسلتها تأكل من خَشَاشِ الأرض، حتى ماتت هزلاً» [رواه البخاري: ٣٣١٨، ومسلم: ٢٦١٩].

«في هرة» أي: بسبب قطة صغيرة. «خشاش الأرض» أي: حشراتهما. «هزلاً» أي: ضعفاً بسبب الجوع.

الآثار والثمرات المترتبة على التخلق بصفة الرحمة:

- أنها من أعظم أسباب رحمة الله تعالى لعباده، فإن الجزاء من جنس العمل، فمن لا يرحم الخلق لا يرحمه الله تعالى، وكلما كان العبد أرحم بخلق الله كان نصيبه من رحمة الله أعظم وأكبر.
- أنها صفة عظيمة يختص الله بها تعالى من يشاء من عباده، وهذا يدل على شرف صاحبها ومكانته واصطفائه من الله تعالى.
- أن الاتصاف بصفة الرحمة علامة على الإيمان، وهي من موجبات دخول الجنة.
- أن في الاتصاف بهذه الصفة امتثالاً لأمر من أوامر الله تعالى، حيث أمر سبحانه وتعالى عباده بالترحم بينهم، ومعلوم أن امتثال أوامر الله من أعظم ما يجلب على العبد خيري الدنيا والآخرة.
- أنها سبب في ائتلاف القلوب واجتماعها، كما كان الحال في أصحاب رسول الله ﷺ مع بعضهم البعض.
- أنها من أعظم أسباب انتشار الدعوة، لذلك أودع الله تعالى منها نصيباً كبيراً في قلب نبيه ﷺ؛ لئلا تنفر عنه النفوس وينفض الناس من حوله، قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنْ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].
- أنها ركيزة عظيمة، يبنى عليها مجتمع مسلم متماسك يحس بعضه ببعض، ويعطف بعضه على بعض، ويرحم بعضه بعضاً، وتشيع المحبة بين أبنائه.

الأسباب والوسائل المعينة على الاتصاف بصفة الرحمة:

- أن يعلم العبد ما يصيبه من رحمة الله جزاءً لرحمته لخلق الله، فهذا أعظم دافع له على رحمة الخلق.

- أن يعلم ما يصيبه من سخط الله وعقوبته بسبب عدم رحمته للخلق، فقد سبق أن النبي ﷺ قال: «إن الرحمة لا تُنزع إلا من شقي»، فكلما ضعفت الرحمة في قلب العبد كلما اقتربت منه أسباب الشقاوة في الدنيا والآخرة.
- أن يطالع المسلم سيرة النبي ﷺ ويقتدي بأخلاقه؛ فقد كان ﷺ من أرحم الخلق بالخلق.
- النظر في أحوال الصحابة رضي الله عنهم وما كانوا عليه من التراحم فيما بينهم، حتى إن الواحد من الأنصار كان يقسم ماله بينه وبين أخيه من المهاجرين.
- ترك مصاحبة أهل الجفاء والقسوة، فإن الطبع - كما يقولون - سراق.
- عدم الغلظة على الصغار، حتى لا ينشأ الصغير وقد تشبعت نفسه بخلق الغلظة والقسوة.
- كظم الغيظ، وعدم الإسراع بالعقاب وقت الغضب.
- الاستعانة بالله تعالى؛ لأن حمل النفس على الرحمة - لاسيما عند الغضب - شاقٌّ عليها، ولا يمكن لعبد أن يأتي بها على وجهها إلا بإعانة الله له وتوفيقه.



٥٧. التواضع

من المعروف لدى كل مسلم أن الشرع قد جاء بكل خلق جميل، ونهى عن كل ما هو قبيح، ومن أجل ما أمر به الشرع الحنيف وحث عليه هو خلق التواضع وترك الكبر، وهو من أهم شعب الإيمان، وهو خلق الصالحين جميعاً، فلا يصلح دين عبد مع الكبر، وهو من أخلاق العقلاء أيضاً، فمن استقامت نفسه واستقام عقله؛ لم يجد بداً من التواضع.

والتواضع هو: قبول الحق من كل من جاء به، ولين الجانب مع الناس، وأن لا يرى لنفسه مزية على أحد، وترك احتقار الخلق.

الأدلة على أن التواضع من أهم شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

قال ابن كثير رحمته الله: «قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ هذه صفات المؤمنين الكُمَّل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه، متعزِّزاً على خصمه وعدوه، كما قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وفي صفة النبي صلى الله عليه وآله أنه: «الضحوك القتال»، فهو ضحوك لأوليائه قتال لأعدائه». [تفسير ابن كثير] (٣/ ١٣٦).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿لَا تَمْدَنَّ عَيْنَكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ألن لهم جانبك، وحسن لهم خلقك، محبة وإكراماً وتودُّداً. [تفسير السعدي] (ص: ٤٣٥).

وقال سبحانه: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

وقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْسُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

﴿هَوْنًا﴾ أي: بسكينة ووقار متواضعين، غير مَرَحِين ولا متكبرين.
وقال: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

قال ابن كثير رحمته الله: «قوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول: لا تُعْرِضْ بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك، احتقارًا منك لهم، واستكبارًا عليهم، ولكن أَلِنْ جانبك، وابسط وجهك إليهم.

وقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: متكبرًا جبارًا عنيدًا، لا تفعل ذلك ييغضك الله؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: مختال معجب في نفسه، فخور أي: على غيره، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧] «تفسير ابن كثير» بتصرف يسير (٦/ ٣٣٨).

وعن عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم خطيبًا، فقال: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرُ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ» [رواه مسلم: ٢٨٦٥]. «يَبْغِي» أي: يظلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله» [رواه مسلم: ٢٥٨٨].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: ذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا عنده الدنيا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَلَا تَسْمَعُونَ، أَلَا تَسْمَعُونَ، إِنَّ الْبَذَاذَةَ مِنَ الْإِيمَانِ، إِنَّ الْبَذَاذَةَ مِنَ الْإِيمَانِ» [رواه أبو داود: ٤١٦١]. «البذاذة»: التواضع.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة، قال:

«إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس» [رواه مسلم: ٩١]. «بطر الحق» أي: دفعه وإنكاره ترفعاً وتجبُّراً. «غمط الناس» أي: احتقارهم.

وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: العز إزارى، والكبرياء ردائي، فمن نازعني بشيء منهما عذبت» [رواه مسلم: ٢٦٢٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزيكهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زان، ومملك كذاب، وعائل مستكبر» [رواه مسلم: ١٠٧]. «عائل» أي: فقير.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» [رواه مسلم: ٩١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «تحات النار والجنة، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين...» الحديث [رواه مسلم: ٢٨٤٦].

وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله فقال ﷺ: «كل بيمينك»، قال: لا أستطيع، قال: «لا استطعت»، ما منعه إلا الكبر. قال: فما رفعها إلى فيه [رواه مسلم: ٢٠٢١] أي: فما استطاع رفع يده بعد ذلك إلى فمه.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى: من تواضع لي هكذا - وجعل باطن كفه إلى الأرض، وأدناها إلى الأرض - رفعته هكذا» وجعل باطن كفه إلى السماء ورفعها نحو السماء. [رواه أحمد: ٣٠٩].

وعن سهل بن معاذ بن أنس الجهني، عن أبيه رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من ترك اللباس تواضعاً لله وهو يقدر عليه، دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيره من أي حُلٍّ الإيمان شاء يلبسها» [رواه الترمذي: ٢٤٨١].

«من ترك اللباس» أي: ترك لبس الثياب الحسنة المرتفعة القيمة. «تواضعاً لله» أي: لا ليقال إنه متواضع أو زاهد ونحوه. «من أي حُلٍّ الإيمان» أي: من أي ثياب أهل الجنة.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: إن النبي ﷺ دخل عليّ، فألقيت له وسادة من أدم حشوها ليف، فجلس على الأرض وصارت الوسادة بيني وبينه. [رواه البخاري: ٦٢٧٧، ومسلم: ١١٥٩]. «أدم» أي: جلد.

قال النووي رحمته الله: «قوله: «فجلس على الأرض وصارت الوسادة بيني وبينه» فيه بيان ما كان عليه النبي ﷺ من التواضع ومجانبة الاستئثار على صاحبه وجليسه» [«شرح صحيح مسلم» (٨ / ٤٧)].

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ ركب على حمار، على إكاف عليه قطيفة، وأردف أسامة وراءه [رواه البخاري: ٥٩٦٤، ومسلم: ١٧٩٨].

«إكاف» هو برذعة الحمار. «أردف أسامة وراءه» أي: جعله خلفه على الحمار. قال العيني رحمته الله: «فيه: تواضع النبي ﷺ من وجوه: ركوبه الحمار، وركوبه على قطيفة، وإردافه الغلام، وفيه: بيان أن النبي ﷺ - مع منزلته من الله ﻋﻠﻴﻪ ﺳﻼﻡ - لم يكن يرفع نفسه على الردف على الدابة، وكان يردف لتأسي به في ذلك أمته، فلا يأنفوا مما لم يكن يأنف منه رسول الله ﷺ، ولا يستنكفوا مما لم يستنكف منه» [«عمدة القاري» (١٤ / ٢٤٠)].

وعن طارق بن شهاب قال: خرج عمر بن الخطاب إلى الشام ومعنا أبو عبيدة بن الجراح، فأتوا على مخاضة وعمر على ناقة له، فنزل عنها وخلع خفيه فوضعهما على عاتقه، وأخذ بزمام ناقته فخاض بها المخاضة، فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين أنت تفعل هذا، تخلع خفيك وتضعهما على عاتقك، وتأخذ بزمام ناقتك، وتخوض بها المخاضة؟ ما يسرني أن أهل البلد استشفروك، فقال عمر: أوه، لو قال ذا غيرك أبا عبيدة جعلته نكالا لأمة محمد ﷺ، إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله [رواه الحاكم: ٢٠٧].

«مخاضة» أي: الموضع القليل الماء الذي يعبر فيه الناس النهر مشاة وركبانا. «عاتقه»: كتفه. «استشفروك» أي: خرجوا إلى لقاءك. «جعلته نكالا» أي: عاقبه فجعلته عبرة لغيره.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه أخذ بركاب زيد بن ثابت فقال له زيد: لا تفعل يا ابن عم رسول الله. فقال ابن عباس: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا. فأخذ زيد يد ابن عباس فقبلها فقال له ابن عباس: لا تفعل. فقال زيد: هكذا أمرنا أن نفعل بآل بيت نبينا صلوات الله عليهم. [ينظر: «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (٥ / ١٤٩)].

وسئل الفضيل بن عياض عن التواضع؟ فقال: «يخضع للحق، وينقاد له، ويقبله ممن قاله». [«مدارج السالكين» (٢ / ٣١٤)].

وعن عبد الرحمن بن عمرو قال: سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول: دخلت على محمد بن الحسن صاحب الرأي، فرأيت عنده كتاباً قد صنفه، فأخذته ونظرت فيه فإذا هو قد أخطأ وقاس على الخطأ، فقلت: هذا ليس هكذا، قال: كيف هو؟ فأخبرته، قال: صدقت، ثم جاء بالمقراض فقرضه من كتابه. [«الضعفاء الكبير» للعقيلي (٤ / ٥٤)]. «قرضه» أي: محاه.

وعن الحسين بن الحسن المروزي قال: سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول: كنا في مجلس عبيد الله بن الحسن القاضي: فسألته عن مسألة، فغلط فيها، فقلت: أصلحك الله، القول في هذه المسألة كذا وكذا، فأطرق ساعة، ثم رفع رأسه، فقال: إذن أرجع وأنا صاغر، إذن أرجع وأنا صاغر، لأن أكون ذنباً في الحق، أحب إليّ من أن أكون رأساً في الباطل. [«تاريخ بغداد» (١٢ / ٧)]. «صاغر» أي: ذليل. «ذنباً» أي: ذيلًا.

الثمرات المترتبة على الاتصاف بخلق التواضع:

- التواضع خلق كريم من أخلاق المؤمنين، وهو دليل على حسن الخلق.
- أنه طريق موصل إلى مرضاة الله وإلى جنته.
- أنه من أسباب الرفعة يوم القيامة، فإن صاحبه يُعطى ما يشاء من حلل أهل الإيمان يومئذ.
- أن الله تعالى قد وعد المتواضعين بالرفعة في الدنيا والآخرة، ووعدّه لا يُخلف.

- أنه سبيل موصل إلى القرب من الله، فإن فيه طاعة لله تعالى، حيث أمر عباده بالتواضع وعدم التفاخر فيما بينهم.
- أنه من أعظم ما يقرب العبد من قلوب الناس ومن محبتهم.
- أنه من أسباب رفعة المرء عند أقرانه، فإن العادة جرت أن من سلك طريق الترفع على الناس احتقر في نظرهم، ومن تواضع لهم ارتفع مقامه عندهم وعظموه.
- أنه من أسباب الوقاية من عذاب الله وسخطه على العبد، فإن من لم يتخلق بالتواضع سرى إليه داء الكبر ولا بد، ومعلوم أن الكبر من أعظم الذنوب، وصاحبه متوعد بعدم دخول الجنة.
- أن الله تعالى يحب المتواضعين ويكلؤهم برعايته ويحيطهم بعنايته.
- أنه من أخلاق سيد البشر ﷺ.
- أن التواضع يؤدي إلى حصول النصر والبركة في المال والعمر.
- أنه من صفات عباد الرحمن وصفوة خلقه.

الأسباب والوسائل المعينة على التواضع:

- أن يتذكر الإنسان أصل خلقه، وأن أصله من تراب، وأن نسله من ماء مهين.
- أن يعرف قدر نفسه، ويعرف ربه حق المعرفة، حينها لا تتشوف نفسه إلى الكبر، بل تركز إلى التواضع رغماً عنها.
- أن يدرك العبد أنه إن لم يتواضع لله صار من المتكبرين، وأن الكبر مهلك له لا محالة، فإن المتكبرين يُحشرون يوم القيامة أمثال النمل.
- أن يعلم أن الرفعة إنما تكون من عند الله، فإن تواضع لله رفعه، وإلا فإنه لا يقدر أن يجلب لنفسه ضرراً ولا نفعاً، فلا يقدر أن يرفع نفسه فوق ما يريد الله له، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ [فاطر: ١٠].
- أن ينظر العبد في عواقب المتكبرين وما آل إليه أمرهم من الخسران في الدنيا

قبل الآخرة، فإن قارون كان من أكثر الناس مألًا فتكبر على قومه، فكان عاقبة أمره أن خسف الله به وبداره الأرض.

- الاستعانة بالله تعالى؛ لأن حمل النفس على التواضع في جميع الأحوال شاقٌ عليها، ولا يمكن لعبد أن يأتي به على وجهه إلا بإعانة الله له وتوفيقه إليه.

- مجاهدة النفس، فإن ملازمة التواضع لاسيما التواضع للحق وقبوله من أي أحد جاء به - شاق على النفس، وإذا جدَّ المرء وجاهد نفسه وألزمها التواضع، وفقه الله لذلك.

- التأسى بأخلاق النبي ﷺ فإنه كان من أكثر الناس تواضعًا؛ حيث كان يأكل وهو جالس جلسة العبد، وكان يستند على الوسادة وحشوها من ليف، ويقبل الدعوة من أي أحد كان كبير الشأن أو كان من الضعفاء، ويجلس على الحصير، ويركب الحمار، ويردف عليه.

- التأسى بأخلاق السلف الصالحين رضي الله عنهم في تواضعهم مع الناس وتواضعهم للحق.



٥٨. الرضا

لقد أثنى الله تعالى على أهل الرضا، وأخبر أن ثوابه سبحانه رضاه عنهم الذي هو أعظم وأكبر وأجل من الجنات وما فيها، فمن رضي عن ربه رضي الله عنه، ومن رضي بما قدره الله تعالى عليه فاز في الدنيا والآخرة.

ورضا العبد عن الله ﷻ: ألا يكره ما يجري به قضاؤه، وما شرعه من شرائع، وعدم الجزع في أي حكم كان من الله تعالى، وسكون قلب العبد لما أَراده الله سبحانه. والرضا نوعان:

أحدهما: الرضا بفعل ما أمر به الله تعالى وترك ما نهى عنه، وتناول ما أباحه الله سبحانه من غير تعدٍّ إلى المحظور، كما قال: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، وهذا الرضا واجب؛ ولهذا ذم الله من تركه.

والنوع الثاني: الرضا بالمصائب كالفقر والمرض، فهذا الرضا مستحب في أحد قولي العلماء، وقد قيل: إنه واجب، والصحيح أن الواجب هو الصبر [ينظر: «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٠ / ٦٨٢)].

أما الرضا بما حرمه الله كالرضا بالفسوق أو العصيان فهو محرم؛ فالعبد المؤمن لا يرضيه إلا ما يرضي ربه تبارك وتعالى. ففي الحديث عن العرس بن عميرة الكِنْدِي، عن النبي ﷺ قال: «إِذَا عُمِلَتِ الْخَطِيئَةُ فِي الْأَرْضِ؛ كَانَ مِنْ شَهْدِهَا فَكْرُهَا كَمَنْ غَاب عَنْهَا، وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيهَا كَانَ كَمَنْ شَهَدَهَا» [رواه أبو داود: ٤٣٤٥].

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن الرضا من شعب الإيمان:

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَاهُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٨، ٥٩].

قال السعدي رحمه الله: «أي: ومن هؤلاء المنافقين من يعيبك في قسمة الصدقات، ويتنقد عليك فيها، وليس انتقادهم فيها وعيهم لقصد صحيح، ولا لرأي رجيح، وإنما مقصودهم أن يُعطوا منها ﴿ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رِضْوَانًا لَمْ يَعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ وهذه حالة لا تنبغي للعبد أن يكون رضاءه وغضبه تابعاً لهوى نفسه الدنيوي وغرضه الفاسد، بل ينبغي أن يكون هواه تبعاً لمرضاة ربه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به».

وقال هنا: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ أي: أعطاهم من قليل وكثير ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾ [ص: ٣٤١] أي: كافينا الله، فترضى بما قسمه لنا، وليؤمّلوا فضله وإحسانه إليهم بأن يقولوا: ﴿ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ أي: متضرعون في جلب منافعنا، ودفع مضارنا، لَسَلِمُوا مِنَ النِّفَاقِ، وَلَهْدُوا إِلَى الْإِيمَانِ والأحوال العالية» [تفسير السعدي] (ص: ٣٤٠).

وقال سبحانه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

قال ابن كثير رحمه الله: «يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة: أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول صلى الله عليه وسلم في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً؛ ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ أي: إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم، فلا يجدون في أنفسهم حرجاً وضيقة مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن، فيسلمون لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة» [تفسير ابن كثير] (٢/ ٣٤٩) بتصرف يسير.

وقال صلى الله عليه وسلم: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١١].

قال السعدي رحمه الله: «هذا عام لجميع المصائب، في النفس والمال والولد

والأحباب ونحوهم، فجميع ما أصاب العباد فبقضاء الله وقدره، قد سبق بذلك علم الله تعالى وجرى به قلمه، ونفذت به مشيئته واقتضته حكمته، والشأن كل الشأن هل يقوم العبد بالوظيفة التي عليه في هذا المقام، أم لا يقوم بها؟ فإن قام بها فله الثواب الجزيل والأجر الجميل في الدنيا والآخرة، فإذا آمن أنها من عند الله، فرضي بذلك وسلم لأمره، هدى الله قلبه فاطمأن ولم ينزعج عند المصائب، كما يجري لمن لم يهد الله قلبه، بل يرزقه الثبات عند ورودها والقيام بموجب الصبر، فيحصل له بذلك ثواب عاجل، مع ما يدخر الله له يوم الجزاء من الثواب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْتِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [تفسير السعدي] (ص: ٨٦٧).

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً» [رواه مسلم: ٣٤].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قال حين يسمع المؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، رضيت بالله رباً وبمحمد رسولاً وبالإسلام ديناً - غُفر له ذنبه» [رواه مسلم: ٣٨٦].

قال ابن القيم رحمته الله: «هذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين وإليهما ينتهي، وقد تضمننا الرضا بربوبيته سبحانه وإلهيته، والرضا برسوله ﷺ والانقياد له، والرضا بدينه والتسليم له. ومن اجتمعت له هذه الأربعة فهو الصديق حقاً.

فالرضا بإلهيته يتضمن الرضا بمحبته وحده وخوفه ورجائه والإنابة إليه والتبتل إليه، وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له.

والرضا بربوبيته يتضمن الرضا بتدبيره لعبده، ويتضمن إفراده بالتوكل عليه والاستعانة به والثقة به والاعتماد عليه، وأن يكون راضياً بكل ما يفعله به.

فالأول يتضمن رضاه بما يأمره به، والثاني يتضمن رضاه بما يُقدَّر عليه. وأما الرضا بنبيه رسولاً فيتضمن كمال الانقياد له والتسليم المطلق إليه، بحيث يكون أولى به من نفسه، فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته، ولا يحاكم إلا إليه، ولا

يُحْكَمُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وَلَا يَرْضَىٰ بِحُكْمِ غَيْرِهِ الْبَتَّةَ.

وأما الرضا بدينه فإذا قال أو حكم أو أمر أو نهى رضي كل الرضا، ولم يبق في قلبه حرج من حكمه، وسلم له تسليمًا، ولو كان مخالفًا لمراد نفسه وهواها وقول شيخه وطائفته» [مدارج السالكين (٢/ ٤٧٧-٤٧٩) باختصار].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إِنْ عَظِمَ الْجَزَاءُ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنْ اللَّهُ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ» [رواه الترمذي: ٢٣٩٦].

«إِنْ عَظِمَ الْجَزَاءُ» أي: كثرة الثواب والأجر. «مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ» أي: مع كثرة المصائب والمحن، فمن كان ابتلاؤه أعظم كان ثوابه وأجره أعظم. «ابْتَلَاهُمْ» أي: اختبرهم بالمحن والمصائب. «فَمَنْ رَضِيَ» أي: رضي بما ابتلاه الله تعالى به. «فَلَهُ الرِّضَى» أي: له الرضا من الله تعالى وجزيل الثواب. «وَمَنْ سَخِطَ» أي: كره بلاء الله وفزع ولم يصبر ولم يرض بقضائه تعالى. «فَلَهُ السَّخَطُ» أي: فله الغضب من الله تعالى [ينظر: «تحفة الأحوذى» (٧/ ٦٥)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لَمَّا كَانَ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَبَيْنَ أَهْلِهِ مَا كَانَ خَرَجَ بِإِسْمَاعِيلَ وَأُمَ إِسْمَاعِيلَ، وَمَعَهُمْ شَنَّةٌ فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَتْ أُمُ إِسْمَاعِيلَ تَشْرَبُ مِنَ الشَّنَّةِ، فَيَدْرُ لَبْنُهَا عَلَى صَبِيَّهَا، حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ فَوَضَعَهَا تَحْتَ دَوْحَةٍ، ثُمَّ رَجَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى أَهْلِهِ، فَاتَّبَعَتْهُ أُمُ إِسْمَاعِيلَ، فَنَادَتْهُ مِنْ وَرَائِهِ: يَا إِبْرَاهِيمُ إِلَى مَنْ تَرُكُنَا؟ قَالَ: إِلَى اللَّهِ، قَالَتْ: رَضِيتُ بِاللَّهِ» [رواه البخاري: ٣٣٦٥]. «شَنَّةٌ» أي: قربة عتيقة. «دَوْحَةٌ» أي: شجرة عظيمة.

وعن أبي مجلز قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «مَا أَبَالِي عَلَى أَيِّ حَالٍ أَصْبَحْتُ، عَلَى مَا أَحَبُّ أَوْ عَلَى مَا أَكْرَهُ؛ لِأَنِّي لَا أَدْرِي الْخَيْرَ فِيمَا أَحَبُّ أَوْ فِيمَا أَكْرَهُ» [«الزهد والرفاق» لابن المبارك (١/ ١٤٣ رقم ٤٢٥)].

وعن الأغر قال: نظر علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى عدي بن حاتم كئيبي فقال: يا عدي، ما لي أراك كئيبيًا حزينًا؟ قال: وما يمنعني وقد قُتِلَ ابْنَايَ وَفُقِّتْ عَيْنِي؟ فقال: يا

عدي، إنه مَنْ رضي بقضاء الله جرى عليه وكان له أجر، ومن لم يرَضْ بقضاء الله جرى عليه وحبط عمله [«الرضا عن الله بقضائه» لابن أبي الدنيا: ١٥].

وقال عبد الواحد بن زيد رحمه الله: «الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العابدين» [«الرضا عن الله بقضائه» لابن أبي الدنيا: ١٣].

ومن الثمرات المترتبة على الرضا:

- أنه يورث العبدَ الفرح والسُرور بربه تبارك وتعالى.
- أنه سبيل لنيل العبد رضوان الله مع الفوز بالجنة.
- أنه يدل على حسن الظن بالله.
- أنه علامة على كمال إيمان العبد وحسن إسلامه.
- حصول الراحة النفسية والطمأنينة القلبية والثبات والصبر.
- أن الراضي يجد حلاوة الإيمان في قلبه.
- أنه يُجَنَّب المسلم الأزمات النفسية من قلق زائد وتوتر.

ومن الوسائل المعينة على الرضا:

- من أعظم أسباب حصول الرضا أن يلزم العبدُ ما جعل الله رضاه فيه، فإنه يوصله إلى مقام الرضا ولا بد.
- التوكل على الله، فإن الرضا آخر التوكل، فمن رسخ قدمه في التوكل والتسليم والتفويض حصل له الرضا ولا بد.
- إيمان العبد بالقدر خيره وشره، فما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.
- الإيمان بأن الله هو المالك لهذه الدنيا بما فيها، بل العبد نفسه مملوك لله، وجميع الخلائق مملوكون له سبحانه وهم عباده، وهم جميعاً راجعون إليه، فإذا رجع المملوك إلى مالكة فعلام الحزن؟ وعلام الأسى؟ ولم الاعتراض؟ ولماذا التسخط؟

- العلم بأن البلاء مهما طال فهو إلى زوال؛ لأن الدنيا نفسها زائلة، وهي دار امتحان وابتلاء.

- العلم بأن أشد الناس بلاء هم الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل.

- ذكر الله سبيل إلى اطمئنان القلب وحصول الرضا.

- تلاوة القرآن، فهو شفاء لما في الصدور، ورييع القلوب، ومعين على الثبات والرضا.

- دعاء الله تعالى أن يوفق العبد للرضا، فعن عمار بن ياسر رضي الله عنه أنه كان من دعاء النبي ﷺ: «وأسألك الرضا بعد القضاء» [رواه النسائي: ١٣٠٥]. وكما في حديث الاستخارة عن جابر رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كالسورة من القرآن، وفيها قوله ﷺ: «واقدر لي الخير حيث كان، ثم رَضِّنِي بِهِ» [رواه البخاري: ٦٣٨٢].



٥٩. الشكر

خلق الله تعالى الإنس وعمَّهم بنعمه، وبلغ فضلُ الله على الناس من السعة، وبلغت نعمته عليهم من السبوغ، ما لو أن أقلهم حظًّا وأقلهم منه نصيبًا عاش حياته كلها عابدًا لله لا يعصيه طرفة عين ما استطاع أن يوفي نعمة الله عليه شكرًا، فنعمة الخلق وحدها لا يقدر العبد على إيفاء خالقه ما له عليه من حق بسببها، فما بالنا بباقي النعم؟! وحقيقة الشكر: هو الثناء على الله تعالى بما أولاه من المعروف، والاعتراف بنعمه على وجه الخضوع، واستفراغ الطاقة في الطاعة، وأن لا يُعصى الله بنعمه.

وقد يظن بعض الناس أن نعم الله تعالى التي ينبغي الشكر عليها هي المال والولد ونحو ذلك، وهذا نظر قاصر يقع للجهلة، وأما أهل البصيرة فيعرفون حقيقة النعم؛ كنعمة الإسلام والهداية، ونعمة العلم والفقه في الدين، وكذا ما أولاه الله للعبد من سمع وبصر وجوارح، ونعمة الأمن والصحة، وراحة البال وطيب النفس، وغير ذلك مما لا يقدر العبد على عدِّه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

والشكر يكون بالقول وهو ذكر النعمة والثناء على منعمها، وبالفعل وهو طاعة الله سبحانه وعدم استعمال نعمه فيما يكره، وبالقلب بمحبته والامتنان له، وأنه المنعم وحده لا شريك له.

الأدلة من الكتاب والسنة على أن الشكر من شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].
وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وقال ﷺ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾
[آل عمران: ١٢٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَعَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

قال ابن كثير رحمه الله: «وقوله: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أي: لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ﴾ أي: كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ وذلك بسلبها عنهم، وعقابه إياهم على كفرها» [تفسير ابن كثير] (٤/ ٤٧٩).

وقال سبحانه: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِتِيَاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤].

وقال ﷺ عن سليمان عليه السلام: ﴿فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]. ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أي: ألهمني ووفقني.

وقال سبحانه عن سليمان عليه السلام أيضًا لما جاءه عرش ملكة سبأ: ﴿فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

وقال ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢].

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥].

وقال ﷺ: ﴿اعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

قال الجزائري رحمه الله: «وقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ أي: اعملوا الصالحات شكرًا لله تعالى على هذا الإفضال والإنعام، أي: أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا ربكم في أمره ونهيه يكن ذلك منكم شكرًا لله على نعمه. وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ هذا إخبار بواقع، وصدق الله العظيم، الشاكرون لله على نعمه قليل، وفي كل زمان ومكان، وذلك لاستيلاء الغفلة على القلوب من جهة، ولجهل الناس بربهم وإنعامه من جهة أخرى» [«أيسر التفاسير» (٤/ ٣١٠)].

وقال سبحانه: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها» [رواه مسلم: ٢٧٣٤].

وعن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شُكْرًا، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبْرًا، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» [رواه مسلم: ٢٩٩٩].

وعن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال: «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَىٍّ مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلْ تَسْبِيحَةً صَدَقَةٌ، وَكُلْ تَحْمِيدَةً صَدَقَةٌ، وَكُلْ تَهْلِيلَةً صَدَقَةٌ، وَكُلْ تَكْبِيرَةً صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيَجْزِيْ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى» [رواه مسلم: ٧٢٠].

«سُلامى» هي العظام والمفاصل. والمعنى: أن كل عظم من عظام ابن آدم يصبح سليماً عن الآفات، باقياً على الهيئة التي تتم بها منفعة وأفعاله، فعليه صدقة؛ شكراً لمن صوّره ووقاه عما يغيره ويؤذيه. [ينظر: «تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة» (١/ ٣٧٧)].

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: قام النبي ﷺ حتى ورمت قدماه، قالوا: قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً» [رواه البخاري: ١١٣٠، ومسلم: ٢٨١٩].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ لما قدم المدينة، وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فسألهم عنه، فقالوا: هذا يوم عظيم، وهو يوم نجى الله فيه موسى وأغرق آل فرعون، فصام موسى شكراً لله، فقال ﷺ: «أنا أولى بموسى منهم» فصامه وأمر بصيامه [رواه البخاري: ٣٣٩٧، ومسلم: ١١٣٠].

وقال الحسن البصري رضي الله عنه: «إن الله ﻋَظِيمٌ إذا أنعم على قوم سألهم الشكر، فإذا شكروه كان قادراً على أن يزيدهم، فإذا كفروا كان قادراً على أن يقلب نعمته عليهم عذاباً» [رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر»: ٦٠].

وقال ابن السماك رضي الله عنه: كتب إلي محمد بن الحسن حين ولي القضاء بالرقّة: «أما بعد، فلتكن التقوى من بالك على كل حال، وخِفِ الله في كل نعمة عليك؛ لقلّة الشكر عليها مع المعصية بها، فإن النعمة حجة، وفيها تبعه، فأما الحجة فيها بالمعصية بها، وأما التبعه فيها فقلّة الشكر عليها، ففعلى الله عنك كلما ضيّعت من شكر، أو ركبت من ذنب، أو قصّرت من حق» [رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر»: ٨٩].

وعن سفيان رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] قال: «نسبغ عليهم النعم، ونمنعهم الشكر» [رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر»: ١١٦].

قال ابن القيم رحمته الله: «ولما كان سبحانه هو الشكور على الحقيقة، كان أحب خلقه إليه من اتصف بصفة الشكر، كما أن أبغض خلقه إليه من عطلها واتصف بضدها» [عدة الصابرين (ص، ٢٨٢)].

الثمرات المترتبة على أداء الشكر:

- رضى الله تعالى عن العبد، كما سبق في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
- أنه السبيل لحفظ النعم، بل هو سبب زيادة النعم.
- أنه سبب للأمان من عذاب الله.
- شكر الله تعالى سبب لاستكمال إيمان العبد، فلا يكتمل إيمان العبد إلا بشكر الله تعالى، قال المغيرة بن عامر رضي الله عنه: «الشكر نصف الإيمان، والصبر نصف الإيمان» [رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر»: ٥٨].
- كثرة النعم من المنعم سبحانه لا يمكن أن يؤدي الإنسان حقها إلا بالشكر عليها.
- الإنسان الشكور قريب من الناس حبيب إليهم.
- الشكر دليل على سمو النفس ووفور العقل.
- الشكور قرير العين، يحب الخير للآخرين، ولا يحسد من كان في نعمة.

الوسائل المعينة على الشكر:

- من أعظم ما يعين على شكر الله استحضار النعم والتفكير فيها؛ قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: «ذكر النعمة شكرها» [رواه هناد بن السري في «الزهد»: ٢ / ٤٠٠].
- أن يعود المرء نفسه على النظر إلى كل فضل قلَّ أو كثر أنه تكرم ممن أسداه له، فكما قالوا: من لم يكن لقليل المعروف عنده وقعٌ أو شكٌ ألا يشكر الكثير منه.
- مصاحبة أهل الورع والتقوى ممن يعدُّون النعم على أنفسهم عدًّا، وترك مصاحبة أهل التسخط؛ فإن من الناس من تجده ساخطًا أبدًا على ربه، فمثل هذا مصاحبته بلاء.
- أن يعلم أن تخلُّقه بالشكر يجعله من أهل الشرف والكرم والمروءة.
- أن ينظر إلى كل ما يملك على أنه محض فضل من الله تعالى، فلا يظن أن خلق الله له سمعًا وبصرًا شيء مستحق لكل مخلوق؛ فإن الله قادر على أن يخلق الناس بلا

سمع ولا بصر، ويكلفهم بما أراد وهم عميان أصماء، فأعطاهم مثل هذه الجوارح مجرد تفضل منه سبحانه عليهم.

— أن يدعو الله تعالى أن يوفقه للشكر، وأن يجعله من الشاكرين، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ [النمل: ١٩]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو: «اللهم اجعلني لك شاكرًا، لك ذاكِرًا» [رواه أبو داود: ١٥١٠].



١٠. الحياء

الحياء من شعب الإيمان، ومن أخلاق الإسلام، والواجب على العاقل لزوم الحياء؛ لأنه أصل العقل وبذر الخير، وتركه أصل الجهل وبذر الشر، والحياء يدل على العقل كما أن عدمه دال على الجهل؛ ولذلك جاء الشرع حائثاً المؤمنين على لزوم هذا الخلق العظيم، وجعله الله من أظهر أخلاق سيد المرسلين ﷺ حيث كان أشد حياءً من البكر في خدرها.

وحقيقة الحياء: أنه خلق يبعث على اجتناب القبيح ويمنع من التقصير في حق صاحب الحق.

والحياء نوعان: حياء من الخالق، إذا همَّ العبد بمعصيته. وحياء من المخلوقين عند إرادة ارتكاب ما يكرهون من القول أو الفعل، فالحياء من المخلوقين كأن يستحيي المرء من الأكل وهو يسير في الطريق، أو أن يلبس ثياباً لا تناسب سنَّه أو مقامه، وكاستحيائه أن يجلس ومن هو أكبر منه سنّاً واقفٌ لا يجد ما يجلس عليه.

الأدلة من الكتاب والسنة على أن الحياء من شعب الإيمان:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون - شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» [رواه البخاري: ٩، ومسلم: ٣٥].

وعن أبي مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت» [رواه البخاري: ٣٤٨٣].

ومعنى قوله: «النبوة الأولى» أن الحياء لم يزل أمره ثابتاً واستعماله واجباً منذ زمان النبوة الأولى، وأنه ما من نبي إلا وقد ندب إلى الحياء وبُعث عليه، وأنه لم يُنسخ

فيما تُسَخ من شرائعهم ولم يُبَدَل فيما بُدِّل منها؛ وذلك أنه أمر قد عُلِم صوابه وبان فضله واتفقت العقول على حسنه، وما كان هذا صفته لم يجز عليه النسخ والتبديل، وقوله: «فافعل ما شئت» معناه: إذا لم يمنعك الحياء فعلت ما شئت أي: ما تدعوك إليه نفسك من القبيح.

وفيه: تهديد ووعد لمنزوع الحياء، فإن الحياء يكف صاحبه عن ارتكاب القبائح ودناءة الأخلاق، ويحثه على مكارم الأخلاق ومعاليتها [ينظر: «معالم السنن» (٤ / ١٠٩)، و«تطريز رياض الصالحين» (ص: ١٠٤٦)].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ مر على رجل من الأنصار، وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال رسول الله ﷺ: «دعه فإن الحياء من الإيمان» [رواه البخاري: ٢٤، ومسلم: ٣٦].

قوله: «يعظ أخاه في الحياء» أي: ينهاه عنه ويزجره عن كثرته، كأنه يقول له: إنك تستحيي كثيراً حتى أضرب بك الحياء وأضاع بعض حقوقك، فقال له النبي ﷺ: «دعه» أي: اتركه على هذا الخلق السني، ثم زاد في ذلك ترغيباً ببيان الحكمة بأن الحياء من الإيمان [ينظر: «تحفة الأحوذى» (٧ / ٣٠٣)].

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «الحياء لا يأتي إلا بخير»، وفي رواية: «الحياء كله خير». [رواه مسلم: ٣٧].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه» [رواه البخاري: ٦١٠٢، ومسلم: ٢٣٢٠].

قال النووي رحمته الله: «العذراء: البكر؛ لأن عذرتها باقية، وهي جلدة البكارة. والخدر: ستر يُجعل للبكر في جنب البيت. ومعنى عرفناه كراهته في وجهه أي: لا يتكلم به لحيائه، بل يتغير وجهه، فنفهم نحن كراهته. وفيه: فضيلة الحياء، وهو من شعب الإيمان، وهو خير كله ولا يأتي إلا بخير» [«شرح صحيح مسلم» (١٥ / ٧٨)].

وعن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ مضطجعاً في بيتي، كاشفاً عن فخذه، أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر فأذن له، وهو على تلك الحال، فتحدث، ثم استأذن عمر، فأذن له، وهو كذلك، فتحدث، ثم استأذن عثمان، فجلس رسول الله ﷺ وسوى ثيابه، فدخل فتحدث، فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك فقال: «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة» [رواه مسلم: ٢٤٠١].

قولها: «فلم تهتش له» أي: لم تتحرك لأجله. «لم تباله» أي: لم تكثر به وتحتفل لدخوله.

وفي رواية أخرى قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يا رسول الله مالي لم أرك فزعت لأبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، كما فزعت لعثمان؟ قال رسول الله ﷺ: «إن عثمان رجل حيي، وإني خشيت إن أذنت له على تلك الحال، أن لا يبلغ إليَّ في حاجته» [رواه مسلم: ٢٤٠٢].

قولها: «فزعت» أي: اهتممت. «لا يبلغ إلي في حاجته» أي: إن أذنت له في تلك الحالة أخاف أن يرجع حياء مني عندما يراني على تلك الهيئة، ولا يعرض عليَّ حاجته لغلبة أدبه وكثرة حيائه.

وعن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت رجلاً مَذَّاءً وكنت أستحيي أن أسأل النبي ﷺ لمكان ابنته، فأمرت المقداد بن الأسود فسأله فقال: «يغسل ذكره ويتوضأ» [رواه البخاري: ١٧٨، ومسلم: ٣٠٣].

قوله: «مذاء» أي: كثير المذي، والمذي: ماء أبيض رقيق لزج يخرج عند شهوة، لا بدفق ولا يعقبه فتور، وربما لا يحس بخروجه. قال النووي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وفيه استحباب حسن العشرة مع الأصهار، وأن الزوج يُستحب له أن لا يذكر ما يتعلق بجماع النساء والاستمتاع بهن بحضرة أبيها وأخيها وابنها وغيرهم من أقاربها، ولهذا قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فكنتم أستحيي أن أسأل رسول الله ﷺ لمكان ابنته، معناه: أن المذي يكون غالباً عند

ملاعبة الزوجة وقبلتها ونحو ذلك من أنواع الاستمتاع والله أعلم» [شرح صحيح مسلم] (٣/ ٢١٤).

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: جاءت امرأة بريدة، فقالت: يا رسول الله إني نسجت هذه بيدي أكسوكها، فأخذها النبي صلى الله عليه وسلم محتاجاً إليها، فخرج إلينا وإنها إزاره، فقال رجل من القوم: يا رسول الله، اكسنيها. فقال: «نعم». فجلس النبي صلى الله عليه وسلم في المجلس، ثم رجع، فطواها ثم أرسل بها إليه، فقال له القوم: ما أحسنت، سألتها إياه، لقد علمت أنه لا يرد سائلاً. فقال الرجل: والله ما سألته إلا لتكون كفني يوم أموت، قال سهل: فكانت كفنه [رواه البخاري: ٢٠٩٣].

قوله: «بردة» أي: بثوب. وعدم رده صلى الله عليه وسلم للسائل كان حياء منه أن يرد سائلاً يسأله شيئاً ولو كان محتاجاً إليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء، والجفاء في النار» [رواه الترمذي: ٢٠٠٩].

قوله: «الحياء من الإيمان» أي: من شعبه. «والإيمان في الجنة» أي: أهل الإيمان في الجنة. «والبذاء» عكس الحياء والناشئ منه الفحش في القول والسوء في الخلق. «من الجفاء» وهو عكس البر الصادر منه الوفاء «والجفاء» أي: أهل الجفاء التاركون للوفاء، الثابتون على غلاظة الطبع وقساوة القلب «في النار» إما مدة إذا كان معهم أصل الإيمان، أو أبداً إذا كانوا كفاراً [ينظر: «تحفة الأحوذى» (٦/ ١٢٥)].

وعن يعلى بن أمية رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً يغتسل بالبراز بلا إزار، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إن الله عز وجل حيي ستر، يحب الحياء والستر، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر» [رواه أبو داود: ٤٠١٢].

قوله: «بالبراز» أي: الفضاء الواسع. «حيي» أي: كثير الحياء. «ستر» أي: من شأنه وإرادته حب الستر والصون.

وعن الحسن البصري رحمته الله أنه ذكر عثمان بن عفان رضي الله عنه وشدة حيائه، فقال: إن كان ليكون في البيت والباب عليه مغلق، فما يضع عنه الثوب ليفيض عليه الماء، يمنعه الحياء أن يقيم صلبه [رواه أحمد: ٥٤٣].

وعن عروة بن الزبير، عن أبيه، أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال وهو يخطب الناس: «يا معشر المسلمين استحيوا من الله سبحانه، فوالذي نفسي بيده إني لأظل حين أذهب إلى الغائط في الفضاء مغطياً رأسي استحياء من ربي سبحانه» [رواه أحمد في «الزهد»: ١١٦٨].

وعن عيسى بن عمر بن موسى، أن زيد بن ثابت رضي الله عنه خرج يأتي المسجد يصلي، فرأى الناس قد رجعوا، فدخل داراً قريباً منه فصلى فيها، فقليل له: أتستحي من الناس؟ فقال: «إنه من لم يستح من الناس لم يستح من الله» [رواه أبو داود في «الزهد»: ٣٥٩، وهناد بن السري في «الزهد»: (٢/ ٦٢٩)].

الثمرات المترتبة على التخلق بخلق الحياء:

- الحياء دليل على إيمان صاحبه، وفاعله قائم بشعبة من شعب الإيمان.
- أنه من أسباب تقوى الله تعالى، فإن من تخلق به استحياء من الله أن يعصيه، فحفظ سمعه وبصره ولسانه وفرجه عما حرمه الله تعالى عليه.
- أنه يورث الأدب مع الخلق، والأدب والخشية من الخالق.
- أنه فعل لأمر يحبه الله تعالى، ومعلوم أن الجزاء من جنس العمل، فمن أتى ما يحبه الله أعطاه الله ما يحب، كما أن من يأتي ما يبغضه الله أصابه بما يكرهه.
- أنه موصل لصاحبه إلى الجنة، كما سبق في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم.
- أنه من أسباب محبة الله تعالى للعبد.
- أن الحياء لا يأتي لصاحبه إلا بالخير، فهو حائل بينه وبين قبيح الأفعال مما يشينه بين الناس، فإذا لزم المرء الحياء كانت أسباب الخير منه موجودة؛ لأن الحياء هو

الحائل بين المرء وبين المعاصي كلها، فبقوة الحياء يضعف ارتكابه إياها، وبضعف الحياء تقوى مباشرته لها.

- إذا اشتد حياء العبد صان عرضه ودفن مساويه ونشر محاسنه.

- أن الحياء صفة جميلة من صفات الملائكة.

الأسباب والوسائل المعينة على التخلق بالحياء:

- من أعظم ما يعين العبد على التخلق بالحياء صحة الإيمان، فإن الحياء من الإيمان كما سبق.

- أن يربي المسلم نفسه على هذا الخلق العظيم؛ فإن كثيرا من الأخلاق تكتسب بتعويد النفس وتدريبها عليها، كما قيل: إنما الصبر بالتصبر.

- على الأسرة الدور الأعظم في اكتساب مثل هذه الأخلاق الحميدة، فإن الطفل إذا نشأ على الحياء، لم ينفك عنه طيلة حياته، فكما قيل: التعليم في الصغر كالنقش على الحجر.

- مدارس سيرة النبي ﷺ وشمائله، والاقتداء به، فإنه ﷺ كان من أعظم الناس حياء.

- الاقتداء بالسلف الصالح فيما كانوا عليه من الحياء من الله تعالى ومن الخلق.



٦١. الغيرة

إن الغيرة من الأمور الجبلية التي خلقها الله تعالى في نفوس عباده، فهي أمر فطري، وهذه الغيرة أمر محمود قد حث عليه الشرع إذا ما كانت في محلها، وهو أن يغير الرجل على عرضه وأهل بيته، لكنها قد تصير أمراً مذموماً إذا ما كانت سبباً في كثرة الشكوك والظن الكاذب من صاحبها.

وحقيقة الغيرة: أنها كراهة الإنسان شراكة غيره له فيما هو حق له، فهي خلق يحمل على بذل نفس المحب وماله وعرضه لمحبهه، حتى يزول ما يكرهه.

فالمسلم الغيور على أهله يمنعهم من التعلق بأجنبي بنظر أو حديث أو غيره. قال البيهقي رحمته الله: «قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: ٦] يدخل في جملة ذلك أن يحمي الرجل امرأته وبنته مخالطة الرجال ومحادثتهم والخلوة بهم» [«شعب الإيمان» (١٣ / ٢٦٠)].

وإذا لم يحقق الإنسان الغيرة المطلوبة وقع في الديانة - عياداً بالله تعالى -، وهي من الذنوب الكبيرة، وهي أن يُقَرَّ الإنسانُ أهله على فعل الفاحشة، يعني: يستحسنه فيهم ويرضى به. فالديوث هو من لا غيرة له على أهله وحريمه.

الأدلة من الكتاب والسنة على أن الغيرة من شعب الإيمان:

عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «يا أمة محمد، ما أحد أغير من الله أن يرى عبده أو أمته تزني» [رواه البخاري: ٥٢٢١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يغار، وإن المؤمن يغار، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم عليه» [رواه مسلم: ٢٧٦١].

وعن سعد بن عباد رضي الله عنه قال: لو رأيت رجلاً مع امرأتى لضربته بالسيف غير مُصْفَح عنه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أتعجبون من غيرة سعد، فوالله لأنا أغير

منه، والله أغير مني، من أجل غيرة الله حرم الفواحش، ما ظهر منها وما بطن، ولا شخص أغير من الله» [رواه البخاري: ٧٤١٦، ومسلم: ١٤٩٩].

قوله: «غير مصفح» أي: أنه لن يضربه بصفحة السيف وهو باطنه، وإنما سيضربه بحد سيفه ليقنتله.

وغيرة الله تعالى من جنس صفاته التي يختص بها، فهي ليست مماثلة لغيرة المخلوق، بل هي صفة تليق بعظمته، مثل الغضب، والرضا، ونحو ذلك من صفاته التي لا يشاركه الخلق فيها. وغيرته ﷻ تكون من إتيان محارمه، ووجه ذلك؛ أن المسلم الذي يطيع هواه أو ينقاد للشيطان ويقع في محارم الله، فكأنه جعل لغير الله فيه نصيباً، ولما كانت الطاعة خاصة بالله ﷻ، ويأبى أن يشاركه فيها غيره، كان ذلك مبعثاً لأن يستثير العاصي غضب مولاه وغيرته عليه، وما ذلك إلا لأن المولى سبحانه وتعالى لا يرضى لعباده المعصية كما لا يرضى لهم الكفر، ومن ثم تكون من جانب الله تعالى غيرة حقيقية على ما يليق بجلاله وكماله، ومن لوازمها: كراهية وقوع العبد في المعاصي وإشراكه غير الله فيما هو حق المولى وحده، من التزام بأوامره، واجتناب لمعاصيه.

وعن جابر بن عتيك رضي الله عنه، أن نبي الله ﷺ كان يقول: «من الغيرة ما يحب الله، ومنها ما يبغض الله: فأما التي يحبها الله ﷻ فالغيرة في الريبة، وأما التي يبغضها فالغيرة في غير ريبة» [رواه أبو داود: ٢٦٥٩].

قال الشوكاني رحمته الله: «الغيرة في الريبة: نحو أن يغار الرجل على محارمه إذا رأى منهم فعلاً محرماً؛ فإن الغيرة في ذلك ونحوه مما يحبه الله. والغيرة في غير ريبة: نحو أن يغار الرجل على أمه أن ينكحها زوجها، وكذلك سائر محارمه، فإن هذا مما يبغضه الله تعالى» [«نيل الأوطار» (٧/ ٢٨٧)].

ومن ذلك الغيرة الزائدة من كثرة الشكوك والظن السيء بدون داعٍ وسبب لذلك. وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة قد حرم الله عليهم الجنة: مدمن الخمر، والعاق، والديوث الذي يقر في أهله الخبث» [رواه أحمد: ٥٣٧٢].

وما أجمل كلام العلامة ابن القيم رحمته الله إذ يقول عن الغيرة: «ومن عقوبات الذنوب: أنها تطفئ من القلب نار الغيرة التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن، فالغيرة حرارته وناره التي تُخرج ما فيه من الخبث والصفات المذمومة، كما يُخرج الكير خبث الذهب والفضة والحديد، وأشرف الناس وأعلاهم همة أشدهم غيرة على نفسه وخاصته وعموم الناس، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وآله أغير الخلق على الأمة، والله سبحانه أشد غيرة منه، كما ثبت في الأحاديث الصحيحة.

فالغيور قد وافق ربه سبحانه في صفة من صفاته، ومن وافق الله في صفة من صفاته قادته تلك الصفة إليه بزمومه، وأدخلته على ربه، وأدنته منه، وقربته من رحمته، وصيرته محبوباً، فإنه سبحانه رحيم يحب الرحماء، كريم يحب الكرماء، عليم يحب العلماء، جميل يحب أهل الجمال.

وكلما اشتدت ملابسة العبد للذنوب أخرجت من قلبه الغيرة على نفسه وأهله وعموم الناس، وقد تضعف في القلب جداً حتى لا يستقبح بعد ذلك القبيح لا من نفسه ولا من غيره، وإذا وصل إلى هذا الحد فقد دخل في باب الهلاك.

وكثير من هؤلاء لا يقتصر على عدم الاستقباح، بل يحسن الفواحش والظلم لغيره ويُزيّنه له، ويدعوه إليه، ويحثه عليه، ويسعى له في تحصيله، ولهذا كان الديوث أخبث خلق الله، والجنة حرام عليه، وكذلك محلل الظلم والبغي لغيره ومزيّنه له، فانظر ما الذي حملت عليه قلة الغيرة؟!

وهذا يدل على أن أصل الدين الغيرة، ومن لا غيرة له لا دين له، فالغيرة تحمي القلب فتحمي له الجوارح، فتدفع السوء والفواحش، وعدم الغيرة تमित القلب، فتموت له الجوارح؛ فلا يبقى عندها دفع البتة. ومثل الغيرة في القلب مثل القوة التي تدفع المرض وتقاومه، فإذا ذهبت القوة وجد الداء المحلّ قابلاً، ولم يجد دافعاً، فتمكّن، فكان الهلاك» [«الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» (ص: ٦٦) بتصرف واختصار].

الثمرات المترتبة على الغيرة:

- الغيرة مجلبة لكل فضيلة، فيها يحمي المرء عرضه، ويصون بها شرفه، ويدفع عن نفسه كل ذلة ومهانة.
- الغيرة دالة على طيب الطوية، وحسن السريرة، فإنَّ مَنْ لم يتحلَّ بالغيرة صار ديوثاً ولا بد، ولا أخبث ممن كان على هذه الصفة.
- أنها سبب لحفظ حدود الله وشعائره، والذود عنها، فمن ماتت الغيرة في قلبه لن تجده يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر أبداً، بل لا تجده يغضب عند انتهاك محارم الله.
- أنها تدل على شرف المتخلق بها، فقد سبق ذكر غيرة سعد، وأن النبي ﷺ أغير منه، وأن الله تعالى أغير من النبي ﷺ، وفي هذا إشارة إلى أنَّ مَنْ كان في غاية العظمة والشرف كان في غاية الغيرة، فكلما ارتفعت المنزلة كانت غيرة صاحبها أعظم وأشد.
- أنها تدل على الإيمان وصحة الدين، فقد سبق أنه ﷺ وصف نفسه بأنه أشد غيرة من أصحابه، وهذا فيه إشارة إلى أن الغيرة من الدين.
- أن الغيور قد وافق ربه سبحانه في صفة من صفاته، ومن وافق الله في صفة من صفاته كان محبوباً عنده مقرباً لديه.
- أن بالغيرة يتطهر المجتمع من الرذيلة، فإن المجتمعات ما انحطت إلا حين فقدت غيرتها على أعراضها، والناظر لما وصل إليه الغرب الأوروبي والأمريكي يجد فيهم أصدق دليل على ذلك.
- أنها دليل على حياة القلب، فإن الغيرة هي نار القلب التي تُخرج منه الخبث والصفات المذمومة، كما تنقي النار الحديد من الخبث.
- أنها سبب موصل إلى رضی الله تعالى ومحبه.

الأسباب والوسائل المعينة على التخلص بالغيرة:

- أن يتخذ المسلمُ رسولَه ﷺ قدوةً له في كل شيء، فقد كان ﷺ من أعظم الناس غيرة.

- أن يعلم العبد أن الغيرة من صفات الله تعالى، فهو بتحليلها يوافق صفة من صفات الله ﷻ، ومن وافق صفة من صفاته تعالى كان محبوباً عنده مقرباً لديه.
- أن ينظر المسلم في أخلاق الصحابة والسلف الصالح وسيرتهم، فإنهم كانوا من أشد الناس غيرة وحماية لأعراضهم، ويقتدي بهم في ذلك.
- أن يربي الآباء والأمهات أبناءهم على الغيرة، وحب العفاف، والشرف، ورفعة النفس.
- الحذر من التخلق بأخلاق غير المسلمين، فإنهم من أقل الناس غيرة على أنفسهم ونسائهم، فمنهم من يبادل زوجته مع غيره، ومنهم من تدخل ابنته وصديقها إلى غرفتها وهو يشاهد ذلك، فعلى المسلم أن يهجر كل أخلاقهم حتى لا تموت الغيرة في قلبه.
- ترك مشاهدة الأفلام الخليعة والمسلسلات الهابطة وكل ما فيه ديانة، حتى لا تألف النفس هذه الأمور، فتذهب الغيرة من القلب.
- البعد عن الذنوب والتوبة منها، فإن الذنوب عموماً تطفئ الغيرة في القلب.
- عدم تناول شيء من الأطعمة أو المواد التي تُذهب الغيرة من القلب، كأكل لحم الخنزير وشرب الخمر وتعاطي المخدرات.



١٦. مراعاة حق الزوج

إن مراعاة المرأة لحق زوجها من أهم شعب الإيمان، ومن أعظم الواجبات في الإسلام، وإن حق الزوج على زوجته من أعظم الحقوق التي أوجبها الله تعالى على المرأة، بل إن حقه عليها أعظم من حقها عليه؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وليس على المرأة بعد حق الله ورسوله أوجب من حق الزوج.

ويمكن تعريف حق الزوج على زوجته: بأنه كل ما أوجبه عليها الشرع تجاه زوجها من واجبات اقتضاها عقد النكاح، نحو: حقه عليها بأن تطيعه في غير معصية الله، وحقه في الاستمتاع بها، وحقه في عدم خروجها من بيته إلا بإذنه، وألا تصوم غير الفريضة إلا بإذنه، وكذا خدمته والقيام على شؤونه، وألا تأذن لمن يكره في دخول بيته، وحق العدة بعد الطلاق، وغير ذلك من الحقوق.

الأدلة على أن مراعاة المرأة لحق زوجها من أهم شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَنَاطٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعُظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يعني: أمراء عليها، أي: تطيعه فيما أمرها الله به من طاعته، وطاعته أن تكون محسنة إلى أهلها حافظة لماله، وفضله عليها بنفقته وسعيه» [تفسير الطبري] (٦/ ٦٨٧).

وقال السعدي رحمته الله: «يخبر تعالى أن الرجال قوامون على النساء» أي: قوامون عليهن بإلزامهن بحقوق الله تعالى، من المحافظة على فرائضه وكفهن عن المفساد،

والرجال عليهم أن يُلْزَمُوهُنَ بذلك، وقوامون عليهن أيضًا بالإنفاق عليهن، والكسوة والمسكن، ثم ذكر السبب الموجب لقيام الرجال على النساء فقال: ﴿يَمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَيَمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي: بسبب فضل الرجال على النساء وإفضالهم عليهن، فتفضيل الرجال على النساء من وجوه متعددة: من كون الولايات مختصة بالرجال، والنبوة، والرسالة، واختصاصهم بكثير من العبادات كالجهاد والأعياد والجُمُوع، وبما خصهم الله به من العقل والرزانة والصبر والجلد الذي ليس للنساء مثله، وكذلك خصهم بالنفقات على الزوجات، بل وكثير من النفقات يختص بها الرجال ويتميزون عن النساء.

فَعُلِمَ من هذا كله أن الرجل كالوالي والسيد لامرأته، وهي عنده أسيرة خادمة، فوظيفته أن يقوم بما استراحه الله به. ووظيفتها: القيام بطاعة ربها، وطاعة زوجها، فلهذا قال: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ﴾ أي: مطيعات لله تعالى ﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ أي: مطيعات لأزواجهن حتى في الغيب تحفظ زوجها في نفسها وماله، وذلك بحفظ الله لهن وتوفيقه لهن، لا من أنفسهن، فإن النفس أماراة بالسوء، ولكن من توكل على الله كفاه ما أهمه من أمر دينه ودنياه.

ثم قال: ﴿وَالَّتِي تَخَافُوتُ نُشُوزَهُنَّ﴾ أي: ارتفاعهن عن طاعة أزواجهن بأن تعصيه بالقول أو الفعل فإنه يؤديها بالأسهل فالأسهل، ﴿فَعُظُوهُنَّ﴾ أي: ببيان حكم الله في طاعة الزوج ومعصيته، والترغيب في الطاعة، والترهيب من معصيته، فإن انتهت فذلك المطلوب، وإلا فيهجرها الزوج في المضجع بأن لا يضاجعها ولا يجامعها بمقدار ما يحصل به المقصود، وإلا ضربها ضرباً غير مبرح، فإن حصل المقصود بواحد من هذه الأمور وأطعنكم ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ أي: فقد حصل لكم ما تحبون فاتركوا معاتبها على الأمور الماضية، والتنقيب عن العيوب التي يضر ذكرها ويحدث بسببه الشر» [تفسير السعدي] (ص: ١٧٧) باختصار].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت،

فبات غضبان عليها، لعنتها الملائكة حتى تصبح» [رواه البخاري: ٣٢٣٧، ومسلم: ١٤٣٦].
 «إلى فراشه» أي: ليجامعها. «فأبت» أي: امتنعت عن إجابته. «لعنتها» دعت الله تعالى أن يطردها من رحمته، ويبعدها من جنته، أو يعاقبها عقوبة شديدة.
 قال النووي رحمته: «هذا دليل على تحريم امتناعها من فراشه لغير عذر شرعي، وليس الحيض بعذر في الامتناع؛ لأن له حقاً في الاستمتاع بها فوق الإزار. ومعنى الحديث: أن اللعنة تستمر عليها حتى تزول المعصية بطلوع الفجر والاستغناء عنها، أو بتوبتها ورجوعها إلى الفراش» [شرح مسلم (١٠ / ٧)].
 وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه، وما أنفقت من نفقة عن غير أمره فإنه يؤدى إليه شطره» [رواه البخاري: ٥١٩٥، ومسلم: ١٠٢٦].

«لا يحل للمرأة أن تصوم» أي: صيام تطوع. «وزوجها شاهد» أي: حاضر، يعني: مقيم في البلد؛ لأنه ربما احتاج إلى أن يستمتع بها. «ولا تأذن في بيته إلا بإذنه» أي: لا تسمح بالدخول إلى مسكنه لأحد يكرهه، وتعلم عدم رضاه بدخوله، امرأة كانت أم رجلاً يجوز له الدخول عليها، وأما الرجل الذي لا يجوز الدخول عليها فلا تسمح له بالدخول حتى ولو كان زوجها يرضى بذلك. «وما أنفقت من نفقة عن غير أمره فإنه يؤدى إليه شطره» أي: فلزوجها نصف الأجر.

وعن سليمان بن عمرو بن الأحوص قال: حدثني أبي أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ، فحمد الله، وأثنى عليه، وذكّر، ووعظ، فقال: «ألا واستوصوا بالنساء خيراً، فإنما هن عوان عندكم، ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً، ألا إن لكم على نسائكم حقاً، ولنسائكم عليكم حقاً، فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تکرهون، ولا يأذنن في بيوتكم لمن تکرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن» [رواه الترمذي: ١١٦٣].

«عوان عندكم» أي: أسرى في أيديكم. «إلا أن يأتين بفاحشة مبينة» كالنشوز وسوء العشرة وشراسة الخلق. «مبرح» أي: شاق شديد. «فلا يوطئن فرشكم من تكرهون» أي: لا يأذن لأحد تكرهونه في دخول بيوتكم والجلوس في منازلكم، سواء كان المأذون له رجلاً أجنبياً أو امرأة أو أحد من محارم الزوجة، فالنهي يتناول جميع ذلك، فلا يحل لها أن تأذن لرجل ولا امرأة لا محرم ولا غيره في دخول منزل الزوج، إلا مَنْ علمت أو ظنت أن الزوج لا يكرهه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لو كنت أمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» [رواه الترمذي: ١١٥٩].

وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها: ادخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئت». [رواه أحمد: ١٦٦١].

«خمسها» أي: الصلوات الخمس. «شهرها» أي: شهر رمضان.

وعن عبد الله بن مسعود وعائشة رضي الله عنهما أنهما قالوا: «من حق الزوج على المرأة: أن تلزم فراشه، وتجنب سخطه، وتتبع مرضاته، وتوفر كسبه، ولا تعصي له أمراً، وتحفظه في نفسها، ولا تخونه في فرجها، وإذا فعلت ذلك فدخل زوجها الجنة كانت زوجته في الجنة» [أدب النساء] لعبد الملك بن حبيب (ص ٢٦١).

الثمرات المترتبة على قيام الزوجة بحقوق زوجها:

يترتب على قيام الزوجة بحقوق زوجها من جميل الآثار في الدنيا والآخرة ما لا يحصى، ونذكر من ذلك:

- طاعة الزوج والقيام بحقوقه من أسباب رضى الله تعالى عن الزوجة.
- أنه من أكبر أسباب دخول الجنة.
- أنه يجنب الزوجة التعرض للعن من يُرجى استجابة دعائهم، وهم الملائكة الكرام.

- أنه سبب من أهم أسباب استمرار الحياة الزوجية بين المرأة وزوجها، وهي الحياة التي يسعى الشيطان بكل طريق حتى يفسدها، كما في الحديث الذي رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً، ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه ويقول: نعم أنت» [رواه مسلم: ٢٨١٣]. وكذا فإن استمرار هذه الحياة هو استمرار لبناء المجتمع، فمعلوم أن فساد الحياة بين الرجل وامرأته يؤدي إلى تقويض بنيان المجتمع كله.

- قيام المرأة بحقوق زوجها وطاعتها له من أكبر أسباب محبة الرجل لامرأته، هذه المحبة التي تجعلها تعيش عمرها كله في سعادة، فإن من أهم ما تبحث عنه المرأة هو حب زوجها لها، ولن تجد أفضل من طاعة زوجها لاكتساب محبته.

- إن البيت الذي بُني على هذه الخصلة، تخرج منه بنات قد تربين على هذا، فيكن طائعات لأزواجهن أيضاً، فالبيت تأخذ من طباع أمها ما لا تأخذه من غيرها.

الأسباب والوسائل المعينة على قيام المرأة بحق زوجها:

- التحلي بتقوى الله تعالى، والبحث عما يرضيه من الأقوال والأعمال.

- استعانة الزوجة بالله ﷻ، وذلك بإحسان الصلة به؛ عبادة ودعاء والتزاماً بما شرع، عسى أن يوفقها ويعينها على أداء حق زوجها.

- أن تعرف المرأة أن الله تعالى قد قَدَّمَ حق الزوج على كل حق عليها لغيره، عدا ما أوجبه الله تعالى عليها من فرائض، فحقُّه مقدم على أدائها للنوافل كالصيام، وحقُّه مقدم على حق والديها.

- أن تنظر المرأة في عواقب طاعة الزوج من محبته لها، وبقاء عشرينها، والمحافظة على بيت الزوجية، وما يترتب على عكس ذلك عند نشوزها عليه وترك طاعته من

- تحول حياتها إلى حياة مليئة بالنزاع، مليئة بالكدر، قد تصل بها إلى الطلاق.
- أن تعلم المرأة المسلمة أن النظام الأسري في الإسلام من ولاية الزوج وحق الطاعة له، ما هو إلا لمصلحة المرأة ومصلحة المجتمع، ودور المرأة مع الرجل دور تكاملي وليس تنافسي.
- التربية السليمة للبنات منذ الصغر على القيام بحقوق الزوج حتى تصبح هذه الخصلة صفة راسخة لهن.
- التوعية الدينية من خلال الحلقات العلمية وغيرها، مما يقام خصيصاً للنساء، وتعريفهن بما عليهن تجاه أزواجهن.
- قيام الأب والأم بعد زواج البنت بدورهم تجاه بناتهم من حضن علي طاعة أزواجهن والقيام بحقوقهم، بخلاف ما قد يحصل من البعض من حث البنت على النشوز على الزوج حتى تكون نداءً له.
- على الزوج في هذا الأمر دور، وهو معاملته زوجته بما يرضي الله ﷻ وعدم تكليفها فوق طاقتها، وأداءه حقوقها أيضاً؛ لئلا يكون تقصيره في ذلك دافعاً لها لترك حقوقه عليها أو التقصير فيها.
- الحذر من وسائل الإعلام التي ما دأبت تحرض على الإفساد بين الزوج وزوجته، وتصور الرجل أنه ظالم مستبد، فأفسدت الود، وقطعت علائق المحبة. ثم هي في الجانب الآخر تأتي بالحبيب والصديق والعشيق لتزيّن العلاقة المحرمة، وتجمل حديثه وتلطف عباراته، وتهون العلاقة بين الرجل الأجنبي والمرأة، فتشعر الزوجة بنقص زوجها وعدم إشباعه لحاجاتها، فتصبح وقد تقلّب قلبها وكرهت زوجها.
- الحذر من صديقات السوء اللاتي يزينن للمرأة النشوز على زوجها وعدم طاعته، أو القيام بحقوقه.



﴿ ٦٢. مراعاة حق الزوجة ﴾

لقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يجعل الحياة من ذكر وأنثى، فجعل آدم ذكراً وخلق منه أنثاه ليسكن إليها، وجعل بينهما رابطة الزواج، وهذه الرابطة تقتضي حقوقاً لكل منهما على الآخر، ولذا فإن مراعاة الرجل لحق زوجته من شعب الإيمان، ومن الواجبات في الإسلام.

وحقوق المرأة على زوجها هي كل ما أوجبه الله لها عليه بموجب عقد الزوجية، كحقها في حسن العشرة والمعاملة، وحقها عليه في الاستمتاع، وكذا أن يعلمها أمور دينها، وحقها في المهر، وحقها في أن ينفق عليها، وأن يعدل بينها وبين غيرها من زوجاته إن كان قد جمع بينها وبين غيرها، وأن يصبر على ما يحصل منها من خطأ في حقها، وغير ذلك من الحقوق التي أوجبها الله تعالى للمرأة على الرجل.

الأدلة على أن للمرأة حقوق على زوجها ينبغي عليه مراعاتها:

قال سبحانه: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. قال الطبري: «فقوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ بتفضّلهم عليهن، وصفحهم لهن عن بعض الواجب لهن عليهن، وهذا هو المعنى الذي قصده ابن عباس بقوله: ما أحب أن أستنظف جميع حقي عليها؛ لأن الله تعالى ذكره يقول: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ ومعنى الدرجة: الرتبة، والمنزلة، وهذا القول من الله - تعالى ذكره - وإن كان ظاهره ظاهر الخبر، فمعناه ندب الرجال إلى الأخذ على النساء بالفضل ليكون لهن عليهن فضل درجة» [تفسير الطبري] (١٢٤ / ٤).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحْشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۝١٩﴾ وَإِنْ أَرَدْتُمْ

أَسْتَبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا
أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِنَّمَا مُبِينًا ﴿١٩﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ
وَأَخَذَنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢٠﴾ [النساء: ١٩-٢١].

قال السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات: «كانوا في الجاهلية إذا مات أحدهم عن
زوجته، رأى قريبه - كأخيه وابن عمه ونحوهما - أنه أحق بزوجه من كل أحد، وحماها
عن غيره، أحبت أو كرهت، فإن أحبها تزوجها على صداق يحبه دونها، وإن لم يرضها
عضلها فلا يزوجه إلا من يختاره هو، وربما امتنع من تزويجها حتى تبذل له شيئاً من
ميراث قريبه أو من صداقها.

وكان الرجل أيضاً يعضل زوجته التي يكرها ليذهب ببعض ما آتاها، فنهى الله
المؤمنين عن جميع هذه الأحوال إلا حالتين: إذا رضيت واختارت نكاح قريب زوجها
الأول، كما هو مفهوم قوله: ﴿كَرْهًا﴾، وإذا أتت بفاحشة مبينة كالزنا والكلام الفاحش
وأذيتها لزوجها، فإنه في هذه الحال يجوز له أن يعضلها، عقوبة لها على فعلها لتفتدي
منه إذا كان عضلاً بالعدل.

ثم قال: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهذا يشمل المعاشرة القولية والفعلية، فعلى
الزوج أن يعاشر زوجته بالمعروف، من الصحبة الجميلة، وكف الأذى، وبذل الإحسان،
وحسن المعاملة، ويدخل في ذلك النفقة والكسوة ونحوهما، فيجب على الزوج لزوجته
المعروف من مثله لمثلها في ذلك الزمان والمكان، وهذا يتفاوت بتفاوت الأحوال.

﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي:
ينبغي لكم - أيها الأزواج - أن تمسكوا زوجاتكم مع الكراهة لهن، فإن في ذلك خيراً
كثيراً، من ذلك امتثال أمر الله، وقبول وصيته التي فيها سعادة الدنيا والآخرة.

ومنها أن إجباره نفسه - مع عدم محبته لها - فيه مجاهدة النفس، والتخلق
بالأخلاق الجميلة، وربما تزول الكراهة وتخلفها المحبة، كما هو الواقع في ذلك،

وربما رُزق منها ولداً صالحاً نفع والديه في الدنيا والآخرة، وهذا كله مع الإمكان في الإمساك وعدم المحذور.

فإن كان لا بد من الفراق، وليس للإمساك محل، فليس الإمساك بلازم، بل متى ﴿أَرَدْتُمْ أَسْبَدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ أي: تطليق زوجة وتزوج أخرى. أي: فلا جناح عليكم في ذلك ولا حرج. ولكن إذا ﴿وَأَتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ﴾ أي: المفارقة أو التي تزوجها ﴿قَطَارًا﴾ أي: ما لا كثيراً ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ بل وفروه لهن ولا تطلوا بهن.

ثم قال: ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ فإن هذا لا يحل، ولو تحيَّلت عليه بأنواع الحيل، فإن إثمه واضح.

وقد بين تعالى حكمة ذلك بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ وبيان ذلك: أن الزوجة قبل عقد النكاح محرمة على الزوج، ولم ترض بحلها له إلا بذلك المهر الذي يدفعه لها، فإذا دخل بها وأفضى إليها وباشرها المباشرة التي كانت حراماً قبل ذلك، والتي لم ترض ببذلها إلا بذلك العوض، فإنه قد استوفى المعوض فثبت عليه العوض.

فكيف يستوفي المعوض ثم بعد ذلك يرجع على العوض؟ هذا من أعظم الظلم والجور، وكذلك أخذ الله على الأزواج ميثاقاً غليظاً بالعقد، والقيام بحقوقها» [تفسير السعدي] (ص: ١٧٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلَّى الله عليه وآله وسلم قال: «استوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خُلِقن من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً» [رواه البخاري: ٥١٨٦، ومسلم: ١٤٦٨].

قوله: «استوصوا بالنساء خيراً» أي: أوصيتكم بهن خيراً، فاقبلوا وصيتي فيهن. «وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه» يعني: أنها خُلقت من أعوج أجزاء الضلع، فلا يتهاى الانتفاع بها إلا بالصبر على أعوجاجها. «فإن ذهبت تقيمه كسرته» أي: إن أردت منها

أن تترك اعوجاجها أفضى الأمر إلى فراقها وطلاقها.

قال النووي رحمته الله: «وفي هذا الحديث: ملاطفة النساء، والإحسان إليهن، والصبر على عوج أخلاقهن، واحتمال ضعف عقولهن، وكراهة طلاقهن بلا سبب، وأنه لا يطمع باستقامتها، والله أعلم» [شرح مسلم] (١٠ / ٥٧).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر» [رواه مسلم: ١٤٦٩].

«لا يفرك مؤمن مؤمنة» أي: لا يبغضها؛ لأنه إن وجد فيها خلقاً يكرهه، وجد فيها خلقاً مرضياً، بأن تكون شرسة الخلق، لكنها دينية، أو جميلة، أو عفيفة، أو رفيقة به، أو نحو ذلك [ينظر: «شرح مسلم» للنووي (١٠ / ٥٨)].

وعن سليمان بن عمرو بن الأحوص قال: حدثني أبي أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ، فحمد الله، وأثنى عليه، وذكّر، ووعظ، فقال: «ألا واستوصوا بالنساء خيراً، فإنما هن عوان عندكم، ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً، ألا إن لكم على نسائكم حقاً، ولنسائكم عليكم حقاً، فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذنن في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن» [رواه الترمذي: ١١٦٣].

قوله: «عوان عندكم» أي: أسرى في أيديكم. «إلا أن يأتين بفاحشة مبينة» كالنشوز وسوء العشرة وشراسة الخلق. «مبرح» أي: شاق شديد. «فلا يوطئن فرشكم من تكرهون» أي: لا يأذنن لأحد تكرهونه في دخول بيوتكم والجلوس في منازلكم، سواء كان المأذون له رجلاً أجنبياً أو امرأة أو أحد من محارم الزوجة، فالنهي يتناول جميع ذلك، فلا يحل لها أن تأذن لرجل ولا امرأة لا محرم ولا غيره في دخول منزل الزوج، إلا من علمت أو ظنت أن الزوج لا يكرهه.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الله في

النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف». [رواه مسلم: ١٢١٨].

قوله: «اتقوا الله في النساء» أي: في حقهن. «فإنكم أخذتموهن بأمانة الله» أي: تزوجتموهن بعهد الله الذي عاهدكم عليه من الرفق بهن وحسن العشرة. «واستحللتم فروجهن بكلمة الله» أي: بشرعه، أو بأمره وحكمه، وهو قوله تعالى: ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ﴾ [النساء: ٣]، وقيل: بالكلمة التي أمر الله بها لإتمام الزواج وهو الإيجاب والقبول.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «دينار أنفقت في سبيل الله، ودينار أنفقت في رقة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقت على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقت على أهلك» [رواه مسلم: ٩٩٥]. «في رقة» أي: في فك رقة وإعتاقها.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أمر النبي ﷺ بالصدقة، فقال رجل: يا رسول الله عندي دينار، قال: «تصدق به على نفسك» قال: عندي آخر، قال: «تصدق به على ولدك» قال: عندي آخر، قال: «تصدق به على زوجتك» قال: عندي آخر، قال: «تصدق به على خادمك» قال: عندي آخر، قال: «أنت أبصر» [رواه أبو داود: ١٦٩١].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال له: «إنك لست بنافق نفقة تبغي بها وجه الله، إلا أجرك الله بها حتى اللقمة تجعلها في في امرأتك» [رواه البخاري: ٣٩٣٦، ومسلم: ١٦٢٨]. «في في امرأتك» أي: في فم امرأتك.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من كانت له امرأتان، فمال إلى إحدهما جاء يوم القيامة وشقه مائل» [رواه أبو داود: ٢١٣٣].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «والله لقد رأيت رسول الله ﷺ يقوم على باب حجرتي، والحبشة يلعبون بحراهم في مسجد رسول الله ﷺ، يسترني بردائه، لكي أنظر إلى لعبهم، ثم يقوم من أجلي، حتى أكون أنا التي أنصرف، فاقدروا قدر الجارية الحديثة

السن، الحريصة على اللهو» [رواه البخاري: ٤٥٤، ومسلم: ٨٩٢].
«فاقدروا قدر الجارية» أي: راعوا فيها أنها تحب اللهو واللعب وتحرص عليه،
واقدروا رغبته على ذلك إلى أن تنتهي. «الحديث السن» أي: الشابة الصغيرة.
وعن عائشة رضي الله عنها، أنها كانت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر قالت: فسابقته، فسبقته على رجلي،
فلما حملت اللحم سابقته فسبقني فقال صلى الله عليه وسلم: «هذه بتلك السبقة» [رواه أبو داود: ٢٥٧٨].
«حملت اللحم»: أي: سمنت.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن
خرج سهمها خرج بها معه، وكان يقسم لكل امرأة منهن يومها وليلتها، غير أن سودة
بنت زمعة وهبت يومها وليلتها لعائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، تبتغي بذلك رضا رسول الله
صلى الله عليه وسلم» [رواه البخاري: ٢٦٨٨]. «أقرع بين نسائه» أي: أجرى قرعة بينهن.
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم
خلقاً، وخيركم خيركم لنسائهم» [رواه الترمذي: ١١٦٢].

الثمرات المترتبة على أداء الزوج لحقوق زوجته عليه:

- رضی الله عنه، وتجنب عقوبته المترتبة على مخالفة أمره بحسن العشرة والعدل بين الزوجات.
- أن أفضل المؤمنين عند الله تعالى هو أفضلهم معاملة لزوجته.
- أن النفقة على الزوجة والأولاد من أعظم النفقات أجراً عند الله تعالى.
- أن أداء الرجل لحق زوجته من الأسباب الدافعة للزوجة على أداء حق زوجها عليها.
- أنه من أعظم الأسباب الجالبة للسعادة للأسرة؛ فإن في حسن عشرة الرجل لزوجته اجتلاب محبتها له، ولا شك أن هذا أيضاً ينعكس على الأبناء.
- أداء الرجل واجبه تجاه زوجته من أسباب بقاء بنيان الأسرة، ولا يخفى ما ينعكس

من هذا أيضًا على المجتمع، فهذا البنيان الصغير هو نواة البنيان الكبير وهو المجتمع. - أنه من أسباب راحة المجتمع من كثير من المشاكل التي بات يعاني منها كثير من الآباء والأمهات بسبب ما يحدث بين بناتهن وأزواجهن من مشاكل.

الأسباب والوسائل المعينة للزوج على أدائه حقوق زوجته:

- الخوف من الله تعالى، قال ﷺ: ﴿فَإِنْ أَطَعَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

قال ابن كثير رحمه الله: «وقوله: ﴿فَإِنْ أَطَعَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ أي: فإذا أطاعت المرأة زوجها في جميع ما يريد منها، مما أباحه الله له منها، فلا سبيل له عليها بعد ذلك، وليس له ضربها ولا هجرانها. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ تهديد للرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب، فإن الله العلي الكبير وليهن وهو منتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن» [تفسير ابن كثير (٢/ ٢٩٥)].

- الاقتداء بالنبي ﷺ واتخاذ أسوة حسنة في الأقوال والأفعال، فقد سبق وأن ذكرنا في الأدلة بعضًا من حسن عشرة النبي ﷺ لزوجاته، كستره عائشة رضي الله عنها لترى الحبشة وهم يلعبون، ومسابقتها لها، وغير ذلك مما جاء في سنته ﷺ.

- أن يعلم الزوج أن أداءه حقوقه تجاه زوجته من أعظم الأسباب التي تدفعها إلى أن تؤدي له حقوقه عليها.

- التوعية الدينية السليمة للشباب خصوصًا من كان منهم في سن الزواج بما عليهم من حقوق تجاه زوجاتهم.

- أن يعلم أنه إن أخلص النية لله تعالى، فكل شيء ينفق على زوجته، وكل معاملة طيبة يعاملها بها، حتى اللقمة يضعها في فمها، له بها أجر عند الله تعالى.

- أن يعلم أنه لن يستطيع أن يقوم زوجته كما يريد، فليترك الاشتغال بما لا يستطيع، وليستمع بها على عوجها، وليصبر على ما يلقاه منها؛ فإن له بذلك أجرًا عظيمًا.

﴿١٤﴾ مراعاة حقوق الأولاد

جعل الله تعالى الأبناء من زينة الحياة الدنيا، حيث قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، لكن هذه النعمة وهذه الزينة إن لم يشكر العبدُ ربه عليها، ويعمل فيها بما أمره تعالى، ربما انقلبت نعمة في حقه وصارت سبباً في شقائه في الدنيا والآخرة، فهؤلاء الأبناء لهم حقوق على والديهم ينبغي مراعاتها، وهذا هو شكر هذه النعمة.

وحقوق الأولاد: هي كل ما يجب على الوالدين تجاه أبنائهم، ويبدأ ذلك بأن يختار له أمًا صالحة، وأن يسميه اسمًا حسنًا لا يُشينه، وأن يدعو الله تعالى له بالصلاح، وأن يحسن تربيته وتنشئته سواء من الناحية المادية والبدنية من إطعام وكسوة، أو كان ذلك من ناحية التربية على التوحيد ثم على الأخلاق السليمة من: الصدق، والأمانة، والتواضع، والحياء، ونحوها، وترك الأخلاق المذمومة من: الكذب، والغدر، والخيانة، والكبر، والغش، ونحوها، وكذا تعليمهم أمور دينهم من طهارة وصلاة وصيام، وترك للفواحش والمحرمات، وكل ما يجب عليهم من حقوق تجاه ربهم وخالقهم، وأيضًا يعلم الوالدُ ولده حقوق والديهم وكيفية البر بهم، وكذا تعليمهم حسن الخلق مع غيرهم من أقارب وأصدقاء وجيران، وحسن المعاملة مع عموم الناس، وأن يعدل الوالد بين أولاده في المعاملة والعطية. فهذا من حق الولد على والده، فإنه بذلك يضمن له سعادة الدنيا والآخرة.

الأدلة على أن مراعاة حقوق الأبناء من شعب الإيمان:

قال ﷺ عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. وقال عنه أيضًا: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠]. هذا دعاء من إبراهيم عليه السلام بأن يجعل الله ذريته على التوحيد وأن يجنبهم

الشرك، وأن يجعلهم من المقيمين للصلاة.

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَكُمْ تَنْزُرُفُهُمْ وَإِنَّا لَنَاقِلُونَ كَاتِبَ خَطَاكُمْ كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١]. ﴿إِمَّا لَكُمْ﴾ أي: فقر.

وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ [طه: ١٣٢].

قال السعدي رحمه الله: «أي: حثَّ أهلك على الصلاة، وأزعجهم إليها من فرض ونفل. والأمر بالشيء أمر بجميع ما لا يتم إلا به، فيكون أمراً بتعليمهم ما يصلح الصلاة ويفسدها ويكملها» [تفسير السعدي] (ص: ٥١٧).

وقال تبارك وتعالى: ﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «علموهم، وأدبوهم». [تفسير الطبري] (١٢/ ١٥٧).

وقال ابن كثير رحمه الله: «أي: مروهم بالمعروف، وانهوهم عن المنكر، ولا تدعوهم هملاً، فتأكلهم النار يوم القيامة» [تفسير ابن كثير] (٥/ ٢٤٠).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنِي لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

ثم قال تعالى: ﴿يَبْنِي إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (١٦) ﴿يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١٧) ﴿وَلَا تَصْغُرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (١٨) ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَعْصِصْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٦ - ١٩].

قال ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده، وقد ذكره الله تعالى بأحسن الذكر، فإنه آتاه الحكمة، وهو يوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبههم إليه، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف؛ ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً، ثم قال محذراً له: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أي: هو أعظم الظلم...

﴿يَبْتَغِي إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ أي: إن المظلّمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة من خردل ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ أي: أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط، وجزاء عليها إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر،

ولو كانت تلك الذرة محصّنة محجّبة في داخل صخرة صماء، أو غائبة ذاهبة في أرجاء السماوات أو الأرض فإن الله يأتي بها؛ لأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: لطيف العلم، فلا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت ﴿خَبِيرٌ﴾ بدبيب النمل في الليل البهيم.

ثم قال: ﴿يَبْتَغِي أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ أي: بحدودها وفروضها وأوقاتها ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي: بحسب طاقتك وجهدك ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ علم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا بد أن يناله من الناس أذى فأمره بالصبر. وقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: إن الصبر على أذى الناس لمن الأمور المؤكدة التي حث الله تعالى عليها.

وقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول: لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك، احتقارًا منك لهم، واستكبارًا عليهم، ولكن ألن جانبك، وابسط وجهك إليهم. وقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: متكبرًا جبارًا عنيدًا، لا تفعل ذلك فيغيضك الله؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: مختال معجب في نفسه، فخور: أي: على غيره.

وقوله: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي: امش مشيًا مقتصدًا ليس بالبطيء المتشبّط، ولا بالسريع المفرط، بل عدلًا وسطًا بين بين.

وقوله: ﴿وَأَعْضِضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ أي: لا تبالح في الكلام، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ أي: إن أقبح الأصوات

لصوت الحمير، أي: غاية مَنْ رفع صوته أنه يشبه بالحمير في علوه ورفعته، ومع هذا هو بغض إلى الله تعالى». [تفسير ابن كثير] (٦/ ٣٣٦ وما بعدها) باختصار وتصرف].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا كلكم راعٍ، وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راعٍ، وهو مسئول عن رعيته، والرجل راعٍ على أهل بيته، وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده، وهي مسئولة عنهم، والعبد راعٍ على مال سيده وهو مسئول عنه، ألا فكلكم راعٍ، وكلكم مسئول عن رعيته» [رواه البخاري: ٨٩٣، ومسلم: ١٨٢٩]. «بعلها» أي: زوجها.

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: أعطاني أبي عطية، فقالت عمرة بنت رواحة -يعني: أم بشير-: لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ، فأتى رسول الله ﷺ فقال: إني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطية، فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله، قال: «أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟»، قال: لا، قال: «فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم» [رواه البخاري: ٢٥٨٧، ومسلم: ١٦٢٣].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع» [رواه أبو داود: ٤٩٥].

في هذا الحديث: مشروعية أمر الأولاد، ذكوراً كانوا أو إناثاً بالصلاة إذا بلغوا سبع سنين، وهو سن التمييز، وتأديبهم عليها إذا بلغوا عشر سنين، والتفريق بينهم في المضاجع حينئذ؛ لأنها تنتشر فيها الشهوة. [ينظر: «تطريز رياض الصالحين» (ص: ٢١٥)].

يقول الإمام ابن أبي زيد القيرواني رحمته الله تعالى: «وقد جاء أن يؤمروا بالصلاة لسبع سنين، ويضربوا عليها لعشر، ويفرق بينهم في المضاجع، فذلك ينبغي أن يعلموا ما فرض الله على العباد من قول وعمل قبل بلوغهم ليأتي عليهم البلوغ وقد تمكن ذلك من قلوبهم، وسكنت إليه أنفسهم، وأنست بما يعملون به من ذلك جوارحهم».

[«مقدمة أبي زيد القيرواني» (ص: ٥)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «دينار أنفقت في سبيل الله، ودينار أنفقت في رقة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقت على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقت على أهلك» [رواه مسلم: ٩٩٥]. «في رقة» أي: في فك رقة وإعتاقها.

عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: جاءني امرأة معها ابنتان تسألني، فلم تجد عندي غير تمر واحدة، فأعطيتها، فقسمتها بين ابنتيها، ثم قامت فخرجت، فدخل النبي ﷺ فحدثته، فقال: «من يلي من هذه البنات شيئاً، فأحسن إليهن، كنَّ له سترًا من النار» [رواه البخاري: ٥٩٩٥، ومسلم: ٢٦٢٩]. «يلي» من الولاية، وهي القيام بالشؤون والعناية.

وعن عثمان الحاطبي قال: سمعت ابن عمر رضي الله عنهما يقول لرجل: «أدب ابنك، فإنك مسئول عن ولدك، ماذا أدبته؟ وماذا علمته؟ وإنه مسئول عن برك وطواعيته لك» [«شعب الإيمان» (١١ / ١٣٥)].

الثمرات المترتبة على مراعاة الآباء لحقوق الأبناء:

إن مراعاة الآباء لحقوق الأبناء لها آثار عظيمة على الفرد والجماعة منها:

- أنها طاعة لله تعالى، وتنفيذ لما أمر به تجاه الرعية التي استرعى الله الوالدين عليها، من حفظها ورعايتها والنصح لها.

- أنها من شكر نعمة الله على العبد؛ فإن الولد هبة من الله تعالى لوالديه، كما قال تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ ۖ أَوْ يَرْجُهُم ذَكَرًا وَإِنثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠]، ومعلوم أن الشكر هو أكبر مقيد للنعمة من الزوال.

- أن الإنفاق على الأهل والأولاد من أعظم النفقات عند الله تعالى وأعلاها منزلة.

- أن قيام الوالدين على شئون أولادهم وحسن تربيتهم ومعاملتهم - لاسيما

البنات - سترٌ للوالدين من النار.

- أن تربية الأولاد من أسباب صلاح المجتمع، فمتى قام الآباء والأمهات بواجبهم تجاه أولادهم، نشأ الأولاد صالحين، فصلح المجتمع كله.
- أنها ضمان السعادة في الدنيا؛ فالأبناء الذين رُبوها التربية السليمة، وعُلموا من دينهم ما ينبغي؛ فإنهم يكونون بارين بآبائهم، وهذا من أكبر نعم الدنيا على المرء أن يكون له أبناء يبرونه، خصوصاً عند كبره وضعفه.
- أنها من أسباب السعادة في الآخرة ورفعة المنزل في الجنة؛ فالولد من كسب أبيه؛ فمتى كان صالحاً كان في ميزان حسناته، بل وكان في دعائه لهما من أسباب رفعتهما في الآخرة، ومتى أهمله والداه حتى صار فاسداً كان عليهما من وزره يوم القيامة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» [رواه مسلم: ١٦٣١].

الأسباب والوسائل المعينة على قيام الآباء برعاية حقوق أبنائهم:

- أن يعرف الوالدان أن هذا طاعة لله تعالى، فيستحضران في ذلك نية التعبد لله وطاعة أمره، ولا يكون الدافع لذلك حبهما لأبنائهما فقط؛ حتى يعينهما الله على ذلك الأمر.
- الاستعانة بالله تعالى، فإن العبد إذا توجه إلى مولاه جل في علاه أن يعينه على تربية أولاده والقيام بحقوقهم، هان عليه كل ما صعب عليه، وتيسر له كل عسير.
- مطالعة كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وتدبرهما؛ فإن كثيراً من نصوصهما تحض على تربية الأولاد والقيام بحقوقهم.
- أن يستحضر المرء ما يعود عليه من وجود أبناء صالحين حوله، وما سيؤول إليه حاله حين يكون أبنائه من أهل الفساد، من عقوقه وتكدير الحياة عليه.
- التوعية الدينية السليمة للآباء عن كيفية تربية أبنائهم وتنشأتهم الصحيحة.

- الدعاء، وهو من أعظم الأسباب المعينة على تربية الأولاد وإصلاحهم والقيام بحقوقهم، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

- الأب هو القدوة الأول والموجه الأول لأولاده؛ فعليه أن يراقب أفعاله وأقواله فإن الولد يتخذ قدوة له.



٦٥. مراعاة حق اليتيم

حثت الشريعة الإسلامية على محاسن الأخلاق وجميل الأفعال، ومما حثت عليه من ذلك حقوق اليتيم التي تجب له على أفراد المسلمين، والتي لا تكاد تجد مثلها في أي تشريع آخر من تشريعات البشر، مهما ادَّعوا من تقدم وإنسانية، فقد جعلت الشريعة الغراء مراعاة حق اليتيم من أفضل القربات إلى الله تعالى، وشعبة من أهم شعب الإيمان، ووعدت على ذلك بجزيل الثواب.

واليتيم هو الصبي الذي لم يبلغ الحلم، وقد فقد أبوه، فلا يدخل فيه من فقد أمه، ولا من فقد أباه بعد بلوغه.

والمقصود بمراعاة حق اليتيم: هو مواساته بكل ما يمكن من قول أو فعل، سواء كان ماديًا ككفالاته بالمال والرعاية، أو معنويًا كإدخال السرور عليه وإلانة الجانب له. ومن أهم هذه الحقوق التي ذكرناها لليتيم هو حقه في الكفالة، وكفالة اليتيم هي: القيام بأمره ورعاية مصالحه، وتربيته وتعليمه ما يحتاجه من أمور دينه، والإحسان إليه، حتى يبلغ مبلغ الرجال إن كان ذكرًا، أو تتزوج إن كانت بنتًا.

الأدلة من الكتاب والسنة على أن مراعاة حق اليتيم من شعب الإيمان:

قال تعالى عن مريم: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ [آل عمران: ٣٧]. أي: جعل زكريا عليه السلام كافلاً لمريم، وذلك لأنها كانت يتيمة [ينظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٥)].

وقال ﷺ: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقوله: ﴿ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ أي: أخرجه، وهو محب له راغب فيه، للأقارب

واليتامى والمساكين.

وقال تبارك اسمه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِأُولَئِذٍ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾ [البقرة: ٨٣].
وقال ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: ٨].

قال السعدي رحمه الله: «وهذا من أحكام الله الحسنة الجليلة الجارية للقلوب فقال: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ أي: قسمة الموارث ﴿أُولُو الْقُرْبَىٰ﴾ أي: الأقارب غير الوارثين ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾ أي: المستحقون من الفقراء ﴿فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ أي: أعطوهم ما تيسر من هذا المال الذي جاءكم بغير كد ولا تعب، فإن نفوسهم متشفوة إليه، وقلوبهم متطلعة، فاجبروا خواطرها بما لا يضركم وهو نافعهم.

فإن لم يمكن الإعطاء - لكونه حق سفهاء أو هناك أهم من ذلك - فليقولوا لهم ﴿قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ يردوهم ردًا جميلًا بقول حسن غير فاحش ولا قبيح» [تفسير السعدي (ص: ١٦٥) باختصار].

وقال سبحانه: ﴿كَأَلَّا بَلَّ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ﴾ [الفجر: ١٧].

قال السعدي رحمه الله: «لام الله تعالى الناس على عدم اهتمامهم بأحوال الخلق المحتاجين، فقال: ﴿كَأَلَّا بَلَّ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ﴾ الذي فقد أباه وكاسبه، واحتاج إلى جبر خاطره والإحسان إليه، فأنتم لا تكرمونه بل تهينونه، وهذا يدل على عدم الرحمة في قلوبكم، وعدم الرغبة في الخير» [تفسير السعدي (ص: ٩٢٤) بتصرف يسير].

وقال ﷺ: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ ① إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ② إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا ③ فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ④ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَزَاءً وَحَرِيرًا ⑤ [الإنسان: ٨ - ١٢].

وقال تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۚ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۚ فَكُ رَقَبَةً ۚ أَوْ كَاطْعَمٌ فِي يَوْمِ ذِي مَسْعَبَةٍ ۚ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۚ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۚ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۚ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۚ﴾ [البلد: ١١ - ١٨].

قال الجزائري رحمه الله: «﴿فَلَا اقْتَحَمَ﴾ أي: فهلاً تجاوز ﴿الْعَقَبَةَ﴾ أي: الطريق الصعب في الجبل، والمراد به النجاة من النار ﴿فَكُ رَقَبَةً﴾ أي: أعتق عبداً في سبيل الله تعالى ﴿فِي يَوْمِ ذِي مَسْعَبَةٍ﴾ أي: في يوم ذي مجاعة وشدة ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي: أطعم يتيماً من ذوي قرابته ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أي: أطعم فقيراً لا صفياً بالتراب ليس له شيء. ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ أي: أوصى بعضهم بعضاً بالصبر على طاعة الله ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ أي: أوصى بعضهم بعضاً برحمة الفقراء والمساكين ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ أي: أصحاب اليمين وهم المؤمنون المتقون» [أيسر التفاسير للجزائري (٥/ ٥٧٤)].

وقال رحمه الله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩].

قال السعدي رحمه الله: «أي: لا تُسئ معاملته اليتيم، ولا يضق صدرك عليه، ولا تنهره، بل أكرمه، وأعطه ما تيسر، واصنع به كما تحب أن يُصنع بولدك من بعدك» [تفسير السعدي] (ص: ٩٢٨).

وقال تبارك اسمه: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ۚ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ [الماعون: ١، ٢].

قال ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى: أرأيت - يا محمد - الذي يكذب بالدين؟ وهو: المعاد والجزاء والثواب ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ أي: هو الذي يقهر اليتيم، ويظلمه حقه، ولا يطعمه، ولا يحسن إليه» [تفسير ابن كثير] (٨/ ٤٩٣).

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال: رسول الله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئاً [رواه البخاري: ٥٣٠٤]. «فرج» أي: فرق قليلاً لبيان التفاوت بين الأنبياء وغيرهم.

وعن زينب امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنها كانت تنفق على عبد الله وأيتام في حجرها، فسألت رسول الله ﷺ: أيجزئ عني أن أنفق على زوجي وأيتام لي في حجري من الصدقة؟ فقال ﷺ: «نعم، لها أجران؛ أجر القرابة، وأجر الصدقة» [رواه البخاري: ١٤٦٦، ومسلم: ١٠٠٠].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه حدث أن النبي ﷺ جلس ذات يوم على المنبر وجلسنا حوله، فقال: «إن هذا المال خضرة حلوة، فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل» [رواه البخاري: ١٤٦٥].

«خضرة حلوة» شبه المال في الرغبة فيه والميل إليه وحرص النفوس عليه بالفاكهة الخضراء الحلوة المستلذة. «ما أعطى» أي: إن أعطى.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات قالوا: يا رسول الله وما هن قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم...» [رواه البخاري: ٢٧٦٦، ومسلم: ٨٩]. «الموبقات» أي: المهلكات.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم إني أخرج حق الضعيفين: اليتيم، والمرأة» [رواه ابن ماجه: ٣٦٧٨]. «أخرج حق الضعيفين» أي: أضيّق على الناس في تضييع حقهما، وأشدّد عليهم في ذلك، وأحذّر من ذلك تحذيرًا بليغًا.

الثمرات المترتبة على مراعاة حقوق اليتيم:

- أنه طاعة لله تعالى، ولا شيء أنفع للعبد من طاعة ربه.
- أنه تشبه بالأنبياء والصالحين، فإن كفالة اليتيم من سماتهم كما أخبر بذلك القرآن عن زكريا عليه السلام.
- أنه سبب للنجاة من عذاب الله تعالى يوم القيامة ووقاية شري يوم القيامة.
- أنه سبب لحصول النضرة والسرور.
- الإحسان إلى اليتيم سبب لتفريج ضيق الرزق.

- أنه من أسباب علو الدرجة في الجنة، بل ومرافقة النبي ﷺ فيها.
- أن فيه مضاعفة الأجور إذا كانت على يتيم قريب، فله أجر الصدقة وأجر الصلة.
- كفالة اليتيم تزكية للمال وتطهير له، وتجعله نِعْمَ الصاحب للمسلم.
- أنها تساهم في بناء مجتمع سليم خالٍ من الحقد والكراهية، وتسوده روح المحبة والود.
- مراعاة حقوق الأيتام من أهم عوامل استقامة المجتمع، فإن هؤلاء متى تركوا بلا رعاية صاروا نواة إجرامية في المجتمع تعمل على إفساده.

الوسائل المعنية على القيام بحق اليتيم:

- معرفة أن ذلك مما أمرت به الشريعة، فليس أمراً عُرفياً ولا اجتماعياً محضاً يقوم به المرء أو لا يقوم.
- الإخلاص وقصد الله تعالى بالعبادة، فعندما يتذكر المسلم أنه يقصد بإكرامه للضيف وجه الله وحده؛ يسهل ذلك عليه وينشط للقيام به.
- شعور المسلم بتحمل مسؤولية أفراد مجتمعه المسلم، وأن كل طفل من أطفال المسلمين هم أبناء له، فمن فقد أبوه فإن له في المسلمين من يقوم مقامه.
- استحضار ثواب الله تعالى على هذا الأمر العظيم، خصوصاً ما ورد في مرافقة النبي ﷺ في الجنة.
- التربية السليمة على الأخلاق الحميدة التي تعمق مشاعر الإنسانية السليمة في قلوب المرء، مما يجعله رقيق القلب رحيماً بكل ضعيف محتاج، بعيداً عن القسوة والغلظة.
- تيقن المسلم أن ما ينفقه من مال على كفالة الأيتام ورعايتهم فإن الله ﷻ يعوّضه خيراً مما أنفق؛ من رزق واسع وبركة وصحة وعافية، هذا مع ما أعده الله له من الثواب العظيم في الآخرة.

- تعلّم خلق الإيثار ومجاهدة النفس عليه، مما يجعل المسلم يجود بما في يده لإكرام اليتيم.
- تربية النفس على الشكر، وأن يعلم أن كفالة اليتيم ما هي إلا صورة من صور شكر العبد لمولاه على ما أنعم به عليه.
- أن يضع الإنسان نفسه أو أولاده محل هذا اليتيم؛ فإن هذا مما يعين على تصور حال اليتيم والحاجة للقيام بحقه.



٦٦. عيادة المريض

المرض أحد حالات الضعف التي يمر بها الإنسان، وقد يسبب للمريض آثارًا نفسية حادة فضلًا عن الآثار الجسدية، وهذا يستلزم من أقارب المريض وأصدقائه ومعارفه الوقوف معه، وتقديم كافة أنواع الدعم والمساندة له، ولعل أكثر أنواع الدعم هي عيادته (زيارته) وتفقد أحواله والتلطف به؛ حيث تدل هذه الزيارة على رحمة الزائر وخوفه وحرصه على صحة أخيه المريض؛ لذا أمر الشرع بزيارة المريض، وجعلها من حق المسلم على أخيه المسلم، ومن فضائل الأعمال وشعب الإيمان.

الأدلة من الكتاب والسنة على أن زيارة المريض من شعب الإيمان:

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: أمرنا النبي ﷺ بسبع ونهانا عن سبع: أمرنا بعيادة المريض، واتباع الجنائز... [رواه البخاري: ١٢٣٩، ومسلم: ٢٠٦٦]. «عيادة المريض» أي: زيارته.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العطس» [رواه البخاري: ١٢٤٠، ومسلم: ٢١٦٢].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أطعموا الجائع، وعودوا المريض، وفكوا العاني» [رواه البخاري: ٥٣٧٣]. «العاني» أي: الأسير.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عودوا المريض، وامشوا مع الجنائز تذكركم الآخرة» [رواه أحمد: ١١١٨٠].

وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: «من عاد مريضًا لم يزل في خُرفة الجنة». قيل يا رسول الله: وما خُرفة الجنة؟ قال: «جناها» [رواه مسلم: ٢٥٦٨]. «خُرفة الجنة» أي: ما يُجتنى ويُقطف من ثمارها، شبه ﷺ ما يحوزه عائد المريض

من الثواب بما يحوزه المجتني من الثمار، والمراد أنه بسعيه إليه يستوجب الجنة وما فيها من ثمار وبساتين.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح اليوم منكم صائماً؟». قال أبو بكر: أنا. قال: «من عاد منكم اليوم مريضاً؟». قال أبو بكر: أنا. قال: «من أطعم منكم اليوم مسكيناً؟». قال أبو بكر: أنا. قال رسول الله ﷺ: «ما اجتمعن في رجل إلا دخل الجنة» [رواه مسلم: ١٠٢٨]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من عاد مريضاً أو زار أخاه في الله نادى مناد من السماء: طبت وطاب ممشاك، وتبوأ من الجنة منزلاً» [رواه الترمذي: ٢٠٠٨]. «طبت» دعاء له بأن يطيب عيشه في الدنيا والآخرة. «وطاب ممشاك» أي: عظم ثوابك. «وتبوأ من الجنة منزلاً» أي: اتخذت منها داراً تنزله.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يعود مريضاً إلا خرج معه سبعون ألف ملك كلهم يستغفر له، إن كان مصباحاً حتى يمسي، وكان له خريف في الجنة، وإن كان ممسياً خرج معه سبعون ألف ملك، كلهم يستغفر له حتى يصبح، وكان له خريف في الجنة» [رواه أحمد: ٩٧٦]. «خريف» أي: بستان.

وكانت عيادة المريض من أخلاق النبي ﷺ؛ فعن عثمان بن عفان رضي الله عنه في خطبة له أنه قال: إنا - والله - قد صحبنا رسول الله ﷺ في السفر والحضر، فكان يعود مرضانا، ويتبع جنازتنا، ويغزو معنا، ويواسينا بالقليل والكثير [رواه أحمد: ٥٠٤].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: عادني النبي ﷺ وأبو بكر في بني سلمة ماشيين، فوجدني النبي ﷺ لا أعقل شيئاً، فدعا بماء فتوضأ منه، ثم رش عليّ فأفقت [رواه البخاري: ٤٥٧٧، ومسلم: ١٦١٦].

وعن زيد بن أرقم قال: عادني رسول الله ﷺ من وجع كان بعيني [رواه أبو داود: ٣١٠٢]. ومرض قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه مرة، فاستبطل إخوانه في العيادة، فسأل عنهم، فقالوا: إنهم كانوا يستحيون مما لك عليهم من الدين. فقال: أخزى الله مالاً

يمنع الإخوان من الزيارة. ثم أمر منادياً ينادي: من كان لقيس عليه مال فهو منه في حل. فما أمسى حتى كُسرَت عتبة بابه لكثرة من عاده. [مدارج السالكين لابن القيم (٢ / ٢٧٨)]. وعن عون بن عبد الله قال: أتى أمّ الدرداء رجلٌ فقال: إن بي داء من أعظم الداء، فهل عندك له دواء؟ قالت: «وما ذاك؟». قال: إني أجد قسوة في القلب. فقالت: «أعظم الداء داؤك، عُذِ المرضي، واتبع الجنائز، واطَّلَع في القبور، لعل الله أن يلين قلبك». قال: ففعل الرجل، فكأنه أحس من نفسه رقة، فجاء إلى أم الدرداء يشكر لها. [رواه أبو داود في «الزهد»: ٢٠٧].

وقال الأعمش: كنا نقعد في المجلس فإذا فقدنا الرجل ثلاثة أيام سألنا عنه فإن كان مريضاً عدناه [«غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب» (٢ / ٨)].

ثمرات عيادة المريض:

من خلال النصوص السابقة يتبين لنا ما لعيادة المريض من فوائد جلييلة وثمرات عظيمة، منها:

- أن عيادة المريض سبب من أسباب دخول الجنة.
- أنها سبب من أسباب استغفار الملائكة لعائد المريض.
- أن عائد المريض يكون في معية الله وحفظه وعنايته وكرامته ويؤيده في جميع أموره.
- في عيادة المريض تذكير بالآخرة، وترقيق للقلب.
- عيادة المريض تخفف من الضغط النفسي الذي يتعرض له المريض نتيجة لزومه لسريره واستمرار تفكيره في مرضه، وربما كان ذلك سبباً لنشاطه واستعادة قوته.
- في عيادة المريض جبر لخاطر أهله وإشاعة روح المحبة بين الناس.
- عيادة المريض تقوي الأواصر الاجتماعية، وتزيد من تماسك المجتمع وتآلف أفراد.

- في عيادة المريض اتباع لسنة النبي ﷺ وطاعة لأمره واقتداء بهديه.
- في العيادة رجاء شفاء المريض ببركة دعاء العائد له.
- في عيادة المريض رجاء بركة دعاء المريض للعائد؛ فإنه ممن تجاب دعوتهم؛ لضعفه وانكساره فهو قريب من الله تعالى في هذه الحالة.

الأسباب والوسائل المعينة على عيادة المريض وزيارته:

- الإخلاص وقصد الله تعالى بالعبادة، فعندما يتذكر المسلم أنه يقصد بعيادة المريض وجه الله وحده؛ يسهل ذلك عليه وينشط للقيام به.
- استشعار عظم ثواب هذا الخلق العظيم، وما يناله العبد من ثواب جزيل، فإن معرفة ثمرات الأشياء واستحضار حسن عواقبها من أكبر الدواعي إلى فعلها، والسعي إليها.
- الاستعانة بالله تعالى، فلا يعين العبد على الطاعة إلا الله تعالى، وكلما وجد العبد في نفسه مشقة لأداء طاعة من الطاعات فعليه أن يتوجه إلى الله تعالى بالدعاء أن ييسر له فعل الطاعات وأن يعينه عليها.
- تقوى الله ﷻ؛ فهي سبب توفيق الله للعبد لكل عمل رشيد يرضو به رضا الله جل وعلا في دينه ودنياه.
- معرفة العبد أن عيادة المريض حق من حقوق الأخوة، مما يحمله على أداء هذا الحق إلى أخيه.
- الاقتداء بالنبي ﷺ فقد كانت عيادة المريض من أخلاقه الكريمة، ولا بد للعبد من التأسي بالنبي ﷺ.
- مجاهدة النفس على فعل الخيرات، فإنه من أعظم الأسباب المعينة على التخلص بهذا الخلق، والذي يجاهد نفسه في ذات الله فليشرب بالخير والهداية، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].
- صحبة الصالحين الذين يعينون العبد على فعل الخير وتجنب الشر.

٦٧. أداء حق الميت

إن من أعظم الحقوق التي يجب علينا أداؤها والوفاء بها، حقوق إخواننا الذين ماتوا ورحلوا عنا وفارقوا الدنيا، فلهم علينا حقوق ينبغي الوفاء بها، لعل الله أن يعفو عنهم وعنا، وإن من أجل الحقوق للميت على المسلمين: التلقين، والغسل، والتكفين، والصلاة عليه، والدفن، والتعزية، وإنفاذ وصيته، والمبادرة إلى قضاء ما عليه من دين؛ إبراء لذمته، وفكاً لرقبته من النار.

إن أداء حق الميت يبدأ من وقت الاحتضار، فإن العبد المحتضر يحتاج في هذه الساعة الحرجة إلى رفيق صالح يؤنس ويثبته، ويلقنه «لا إله إلا الله»؛ طلباً لحسن الخاتمة، ثم يغمض عينيه، ويغطيهِ صيانةً له، ثم تُنفذ وصيته، ويغسل ويكفن ويصلى عليه، ويُدفن، ويُدعى له على قبره، ويُسدّد دينه، ويُعزّى أهله فيه.

ومن الحقوق للأموات على ذويهم وأقاربهم: البعد عن كل ما يخالف شرع الله عند وفاتهم، وبعد دفنهما؛ من النياحة، وندب الميت، ولطم الوجه، وشق الثوب، وحلق الشعر وتقطيعه، وكل ذلك يدل على عدم الرضا بالقضاء وعدم الصبر على المصيبة.

الأدلة من الكتاب والسنة على أن أداء حق الميت من شعب الإيمان:

قال الله تعالى في حق المنافقين: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَمَا تُوُوا وَهُمْ فَلْيَسِقُوا﴾ [التوبة: ٨٤].

قال السعدي رحمته الله: «في هذه الآية دليل على مشروعية الصلاة على المؤمنين، والوقوف عند قبورهم للدعاء لهم، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك في المؤمنين، فإن تقييد النهي بالمنافقين يدل على أنه قد كان متقررًا في المؤمنين» [تفسير السعدي] (ص: ٣٤٧).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا

الله» [رواه مسلم: ٩١٦]. «موتاكم» أي: من كان في الاحتضار مُقَدِّم على الموت.
وعن أم عطية الأنصارية رضي الله عنها قالت: دخل علينا رسول الله ﷺ حين تُوفِّيَتْ ابنته، فقال: «اغسلنها ثلاثاً، أو خمساً، أو أكثر من ذلك إن رأيْتَنّ ذلك، بماء وسدر، واجعلن في الآخرة كافوراً، فإذا فرغتن فأذْنِنِي»، فلما فرغنا أذْنَاهُ، فأعطانا حقوه، فقال: «أشعرنها إياه».

«سدر» أي: ورق شجر السدر يُطحن ويُستعمل في التنظيف. «كافورا» هو شجر يُتخذ منه مادة شفافة يميل لونها إلى البياض رائحتها عطرية. «فأذْنِنِي» أي: فأعلِمْنِي. «حقوه» أي: إزاره، وهو الثوب الذي يُلبس على أسفل البدن. «أشعرنها» من الإشعار، وهو إلباس الثوب الذي يلي بشرة الإنسان، ويسمى شعاراً لأنه يلامس شعر الجسد.
وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «حق المسلم على المسلم ست» قيل: ما هن يا رسول الله؟ قال: «إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعُده، وإذا مات فاتبعه» [رواه البخاري: ١٢٤٠، ومسلم: ٢١٦٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد الجنازة حتى يُصلى عليها فله قيراط، ومن شهدا حتى تُدفن فله قيراطان»، قيل: وما القيراطان؟ قال: «مثل الجبلين العظيمين». وكان ابن عمر يصلي عليها ثم ينصرف، فلما بلغه حديث أبي هريرة قال: لقد ضيعنا قراريط كثيرة. [رواه البخاري: ١٣٢٥، ومسلم: ٩٤٥].
«شهد» أي: حضر. والمعنى: أن من صلى على الجنازة فله أجر عظيم مثل الجبل، ومن صلى عليها وكان معها حتى تُدفن كان له ضعف هذا الأجر.

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة وقد شق بصره، فأغمضه، ثم قال: «إن الروح إذا قبض تبعه البصر»، فضجَّ ناس من أهله، فقال: «لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير، فإن الملائكة يؤمّنون على ما تقولون»، ثم قال: «اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله

يا رب العالمين، وافسح له في قبره، ونور له فيه» [رواه مسلم: ٩٢٠].
 «شق بصره» أي: رفع بصره. «واخلفه في عقبه في الغابرين» الغابرين أي: الباقين، والمعنى: كن خليفة له في ذريته.
 وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أسرعوا بالجنائز، فإن تك صالحة فخير تقدمونها، وإن يك سوى ذلك، فشر تضعونه عن رقابكم» [رواه البخاري: ١٣١٥، ومسلم: ٩٤٤].

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أنه مات ابن له فقال: يا كريب، انظر ما اجتمع له من الناس، قال: فخرجت، فإذا ناس قد اجتمعوا له، فأخبرته، فقال: تقول هم أربعون؟ قال: نعم، قال: أخرجه، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما من رجل مسلم يموت، فيقوم على جنازته أربعون رجلاً، لا يشركون بالله شيئاً، إلا شفّعهم الله فيه» [رواه مسلم: ٩٤٨].
 وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصلي على رجل مات وعليه دين، فأُتي بميت، فقال: «أعليه دين؟». قالوا: نعم، ديناران. قال: «صلوا على صاحبكم». فقال أبو قتادة الأنصاري: هما عليّ يا رسول الله، قال: فصلّي عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم [رواه أبو داود: ٣٣٤٣].

وامتناع النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة على المديون الذي لم يدع وفاء إما للتحذير عن الدين والزجر عن المماطلة والتقصير في الأداء، أو كراهة أن يوقف دعاؤه بسبب ما عليه من حقوق الناس ومظالمهم. [ينظر: «عون المعبود» (٩/ ١٣٨)].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب يوماً، فذكر رجلاً من أصحابه قُبِضَ فُكُنٌّ في كفن غير طائل، وقُبِرَ ليلاً، فزجر النبي صلى الله عليه وسلم أن يُقْبَرَ الرجل بالليل حتى يُصَلَّى عليه، إلا أن يضطر إنسان إلى ذلك، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا كفن أحدكم أخاه فليحسن كفنه» [رواه مسلم: ٩٤٣].

«كفن غير طائل» أي: غير كامل الستر. «وقبر» أي: دُفِنَ. «فزجر» أي: فنهى.
 وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «البسوا من ثيابكم البياض؛ فإنها

من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم» [رواه أبو داود: ٣٨٧٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه قال: نعى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم النجاشي صاحب الحبشة، في اليوم الذي مات فيه، فقال: «استغفروا لأخيك»، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم صف بهم بالمصلى، فصلى فكبّر عليه أربع تكبيرات [رواه البخاري: ١٣٢٧، ومسلم: ٩٥١]. «نعى» أي: أخبر أصحابه بموته.

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم، إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه، فقال: «استغفروا لأخيك»، وسلوا له التثبيت، فإنه الآن يُسأل» [رواه أبو داود: ٣٢٢١].

ثمرات أداء حق الميت:

من خلال النصوص السابقة من الكتاب والسنة يمكننا استخلاص ثمرات أداء حق الميت، وهي:

- حسن الخاتمة للمحتضر: وهذا من أجل الثمرات؛ لأن العبد المحتضر إذا لقّن: لا إله إلا الله، وختم له بها، كان ذلك سبباً في دخوله الجنة ونجاته من النار.

- الشفاعة للميت: إن الميت إذا حرص إخوانه ممن ولي دفنه على جمع الناس للصلاة عليه كان ذلك سبباً في أن يُشفّعهم الله تعالى فيه، وأن يعفو عنه ويغفر له ويرحمه.

- الزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة: إن العبد المؤمن إذا أدّى حق أخيه الميت عليه فولي غسله وكفنه والصلاة عليه ودفنه، زهد في الدنيا وأقبل على الآخرة، وكانت حادثة الوفاة موعظة له وذكرى.

- رقة القلب: إن الموت أعظم واعظ وأجل مذكّر، وإن من ثمرات الموت أن يزلزل نفوس الجبابرة والمتكبرين، وأن يأخذ بقلوب الصالحين، فتراها تخشع وتلين، ويؤثر على النفس فتخضع وتنكسر، وعلى العين فتدرف الدمع الغزير.

- أن من يصلي على الجنازة ويكون معها حتى تُدفن له أجر عظيم عند الله تعالى.

- في أداء حق الميت اتباع لسنة النبي صلى الله عليه وسلم وطاعة لأمره واقتداء بهديه.

- في أداء حق الميت جبر لخاطر أهله وإشاعة روح المحبة بين الناس.

الأسباب والوسائل المعينة على أداء حق الميت:

- الإخلاص وقصد الله تعالى بالعبادة، فعندما يتذكر المسلم أنه يقصد بأداء حق الميت وجه الله وحده؛ يسهل ذلك عليه وينشط للقيام به.
- أن يعلم العبد المؤمن أنه إذا حرص على أداء حق أخيه الميت قيَّض الله تعالى له من يقوم بذلك عنه عند وفاته؛ فإن الجزاء من جنس العمل.
- استشعار عظم ثواب هذا العمل، وما يناله العبد من ثواب جزيل، فإن معرفة ثمرات الأشياء واستحضار حسن عواقبها من أكبر الدواعي إلى فعلها، والسعي إليها.
- الاستعانة بالله تعالى، فلا يعين العبد على الطاعة إلا الله تعالى، وكلما وجد العبد في نفسه مشقة لأداء طاعة من الطاعات فعليه أن يتوجه إلى الله تعالى بالدعاء أن ييسر له فعل الطاعات وأن يعينه عليها.
- تقوى الله ﷻ؛ فهي سبب توفيق الله للعبد لكل عمل رشيد يرضو به رضا الله جل وعلا في دينه ودنياه.
- معرفة العبد أن أداء حق الميت من حقوق الأخوة، مما يحمله على أداء هذا الحق إلى أخيه.
- الاقتداء بالنبي ﷺ فقد كان أداء حق الميت من أفعاله الكريمة، ولا بد للعبد من التأسي بالنبي ﷺ.
- مجاهدة النفس على فعل الخيرات، فإنه من أعظم الأسباب المعينة على التخلص بهذا الخلق، والذي يجاهد نفسه في ذات الله فليبشر بالخير والهداية، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].
- الصحبة الصالحة التي تعين العبد على أداء حق الميت، والبعد عن المشبطين الذين يجرونه جرًّا إلى الوراء.

٦٨. إكرام الضيف

دعا الإسلام إلى التزام مكارم الأخلاق، وجعلها سبباً لدخول الجنة، وإكرام الضيف والإحسان إليه من الأخلاق التي دعا إليها الشرع وجعلها من لوازم الإيمان بالله وموجباته، وحث الشرع على إكرام الضيف لما فيه من نشر الألفة والمحبة بين الناس، فضلاً عن أثرها في تماسك المجتمع وترابطه، وهو من سنن المرسلين وشيم الصالحين. وإكرام الضيف يكون بطلاقة الوجه في استقباله، وطيب التحدث معه، والإسراع بتقديم الطعام والشراب له، وإعداد الفراش له إن أراد المبيت، وغايته ثلاثة أيام، وبعد الثلاثة يُعَدُّ من الصدقات إن شاء فعل وإلا فلا.

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن إكرام الضيف من شعب الإيمان:

قال الله تعالى في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢﴾ فَرَأَى إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٣﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٤﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٢٧].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: «وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة؛ فإنه جاء بطعامه من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتنَّ عليهم أولاً فقال: «هل نأتىكم بطعام؟» بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتي سمين مشوي، فقربه إليهم، لم يضعه وقال: اقربوا، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق، فافعل» [تفسير ابن كثير (٧ / ٤٢١)].

وقال تعالى عن لوط عليه السلام: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزُنُوا فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ

رَشِيدٌ ﴿هُود: ٧٨﴾.

فهذا لوط عليه السلام يقف مغتمًا حزينًا لما سيصيب ضيوفه من مكروهه، بل ويفديهم ببناته بأن يتزوجوهن زواجًا شرعيًا.

وذكرت خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن النبي ﷺ يوم جاءه الوحي وخاف على نفسه، قالت له: «وَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ» [رواه البخاري: ٣]. وتقري الضيف: أي تهيب له طعامه ونزله.

قال ابن القيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تعالى: إن للضيف حقًا على من نزل به، وهو ثلاث مراتب: حق واجب، وتمام مستحب، وصدقة من الصدقات. فالحق الواجب يوم وليلة. عن أبي شريح العدوي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سمعت أذناي وأبصرت عيناي حين تكلم رسول الله ﷺ فقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته، قالوا: وما جائزته؟ قال: يومه وليلته، والضيافة ثلاثة أيام، فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه، ولا يحل له أن يثوي عنده حتى يُخْرِجَهُ» [رواه البخاري: ٦٠١٩، ومسلم: ٤٨].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه». [رواه البخاري: ٦١٣٨، ومسلم: ٤٧].

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دخل علي رسول الله ﷺ فقال: «ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار». قلت: بلى، قال: «فلا تفعل، قم ونم، وصم وأفطر، فإن لجسدك عليك حقًا، وإن لعينك عليك حقًا، وإن لزورك عليك حقًا، وإن لزوجك عليك حقًا» [رواه البخاري: ٦١٣٤، ومسلم: ١١٥٩]. «لزورك» أي: لأضيافك.

وعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا خير فيمن لا يضيف» [رواه أحمد: ١٧٤١٩].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني مجهود، فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت: والذي بعثك بالحق، ما عندي إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى،

فقلت مثل ذلك، حتى قلن كلهن مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحق، ما عندي إلا ماء، فقال: «من يضيف هذا الليلة رحمه الله؟»، فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فانطلق به إلى رحله، فقال لامرأته: هل عندك شيء؟ قالت: لا إلا قوت صبياني، قال: فعلّٰلهم بشيء، فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج، وأريه أنا نأكل، فإذا أهوى ليأكل، فقمي إلى السراج حتى تطفئي، قال: فقعدوا وأكل الضيف، فلما أصبح غدا على النبي ﷺ، فقال: «قد عجب الله من صنعكما بضيفكما الليلة»، فأنزل الله فيه: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] [رواه البخاري: ٣٧٩٨، ومسلم: ٢٠٥٤].

«إني مجهود» أي: أصابني الجهد وهو المشقة والحاجة والجوع. «رحله» أي: منزله. «قوت» أي: طعام. «علّٰلهم» أي: سكّنهم وألهمهم. ﴿وَيُؤْتِرُونَ﴾ أي: يُفَضِّلُونَ. ﴿خَصَاصَةٌ﴾ أي: حاجة.

وعن شقيق البلخي رحمه الله قال: «ليس شيء أحب إليّ من الضيف؛ لأن رزقه على الله، وأجره لي» [سير أعلام النبلاء] (٩ / ٣١٥).

ثمرات إكرام الضيف:

يتبين من خلال النصوص والآثار السابقة ثمرات إكرام الضيف ومنها:

- إكرام الضيف علامة من علامات إيمان العبد وتصديقه بما يخلفه عليه ربه.
- أنه صفة من صفات الأنبياء والصالحين من عباده، كما في قصة إبراهيم عليه السلام.

- أنه سبب للبركة وتوسعة الرزق، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «طعام الاثنين كافي الثلاثة، وطعام الثلاثة كافي الأربعة» [رواه البخاري: ٥٣٩٢، ومسلم: ٢٠٥٨].
- أنه سبب من أسباب وقاية النفس من الشح وفلاحها في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤَفِّقْ شَخْصًا فَنَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

- أنه يقوي أواصر الترابط والتآخي والمحبة والألفة بين أفراد المجتمع.
- أنه من أسباب دخول الجنة: فقد قال النبي ﷺ: «يا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا الْأَرْحَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ، وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»
[رواه ابن ماجه: ١٣٣٤].

الأسباب والوسائل المعينة على إكرام الضيف:

- الإخلاص وقصد الله تعالى بالعبادة، فعندما يتذكر المسلم أنه يقصد بإكرامه للضيف وجه الله وحده؛ يسهل ذلك عليه وينشط للقيام به.
- ابتغاء الأجر والثواب من الله سبحانه وتعالى في الآخرة، فيتذكر ما أعدّه الله تعالى لعباده المؤمنين - المتصفين بهذه الشعبة وغيرها - في الآخرة من الأجر والثواب.
- الاستعانة بالله تعالى، فلا يعين العبد على الطاعة إلا الله تعالى، وكلما وجد العبد في نفسه مشقة لأداء طاعة من الطاعات فعليه أن يتوجه إلى الله تعالى بالدعاء أن ييسر له فعل الطاعات وأن يعينه عليها.
- تقوى الله ﷻ؛ فهي سبب توفيق الله للعبد لكل عمل رشيد يرضو به رضا الله جل وعلا في دينه ودنياه.
- حسن الظن بالله وأن ما عند الله باق، وأن الله يخلف عليه ما ينفقه في إكرام ضيفه.
- تعلم خلق الإيثار ومجاهدة النفس عليه، مما يجعل المسلم يجود بما في يده لإكرام ضيفه.
- تربية النفس على الشكر، وأن يعلم أن إكرام الضيف ما هو إلا صورة من صور شكر العبد لمولاه على ما أنعم به عليه.
- الاقتداء بالنبي ﷺ والأنبياء قبله والصحابة؛ إذ كان إكرام الضيف من دأبهم وأخلاقهم.

- أن لا يتكلف المضيف لضيفه ما ليس عنده، فعن سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه دخل عليه رجل فدعا له بما كان عنده، فقال: «لَوْ لَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَانَا، أَوْ لَوْ لَا أَنَّنَا نُهَيْنَا، أَنْ يَتَكَلَّفَ أَحَدُنَا لِصَاحِبِهِ؛ لَتَكَلَّفْنَا لَكَ» [رواه أحمد: ٢٣٧٣٣].



﴿ ٦٩. الإحسان إلى الجار ﴾

اعتنى الإسلام بالجار عناية تامة، فحث على الإحسان إليه بالقول والفعل، وجعل الإحسان إليه وإكرامه من شعب الإيمان، وحرّم أذاه بالقول والفعل، ونهى عن إلحاق أي أذى به مهما صَغُرَ، ونهى عن البغي عليه أو ظلمه أو التعدي على حرمة بيوته، ونفى كمال الإيمان عن الذي لا يأمن جاره من شره وأذاه، وأخبر أن خير الجيران عند الله خيرهم لجاره.

وما تعارف عليه الناس أنه يدخل في حدود الجوار فهو الجار، فالجار هو مَنْ جاورك، سواء كان مسلماً أو كافراً. والجيران يتفاوتون من حيث مراتبهم، فهناك الجار المسلم ذو الرحم، وهناك الجار المسلم الذي ليس بذی رحم، والجار الكافر ذو الرحم، والجار الكافر الذي ليس بذی رحم، وهؤلاء جميعاً يشتركون في كثير من الحقوق ويختص بعضهم بمزيد منها بحسب حاله ورتبته.

وجملة حق الجار: أن يبدأه بالسلام إن كان مسلماً، ويعوده في المرض، ويعزيه في المصيبة، ويقف بجانبه ويشاطره الآلام والأحزان، ويشاركه في أفراحه ويهتبه بها ويظهر الفرح والسعادة، ويصفح عن زلاته، ولا يتطلع إلى عوراتها، ولا يضيق طريقه إلى الدار، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره، ويستر ما ينكشف له من عوراتها، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته، ولا يسمع عليه كلاماً في عدم حضوره، ويذُبُّ عن عرضه، ويغض بصره عن حريمه، ويتلطف بولده، ويرشده إلى ما يجهله من أمر دينه ودنياه.

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن الإحسان إلى الجار من شعب الإيمان:

قال الله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا

وَيَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ [النساء: ٣٦].

﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾: جارك الذي بينك وبينه قرابة. ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾: الذي ليس بينك وبينه قرابة، مسلماً كان أو مشركاً، يهودياً كان أو نصرانياً. ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ أي: الصاحب إلى الجنب، وقد يدخل في هذا: الرفيق في السفر، والزوجة، والمنقطع إلى الرجل الذي يلازمه رجاء نفعه؛ لأن كلهم بجنب الذي هو معه وقريب منه. وقد أوصى الله تعالى بجمعهم، لوجوب حق الصاحب على المصاحب [ينظر: «تفسير الطبري» (٨/ ٣٣٩، ٣٤٤)].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» [رواه البخاري: ٦٠١٥، ومسلم: ٢٦٢٤].
وعن أبي شريح العدوي رضي الله عنه قال: سمعت أذناي، وأبصرت عيناي، حين تكلم النبي ﷺ فقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره» [رواه البخاري: ٦٠١٩، ومسلم: ٤٨ (٧٧)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره -أو قال: لأخيه- ما يحب لنفسه» [رواه مسلم: ٤٥].
وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه» [رواه مسلم: ٤٦]. «بوائقه» أي: شروره.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره» [أخرجه الترمذي: ١٩٤٤].
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله، إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها، وصيامها، وصدقتها، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها، قال: «هي في النار». قال: يا رسول

الله، فإن فلانة يذكر من قلة صيامها، وصدقته، وصلاتها، وإنها تصدق بالأنوار من الأقط، ولا تؤذي جيرانها بلسانها، قال: «هي في الجنة» [أخرجه أحمد: ٩٦٧٥].
قوله: «الأنوار من الأقط» أي: قطع اللبن الجامد اليابس الذي صار كالحجر، وهذا إشارة إلى قلة صدقتها.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». قلت: إن ذلك لعظيم، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزني حليلة جارك» [رواه البخاري: ٤٤٧٧، ومسلم: ٨٦]. «حليلة جارك» أي: زوجته.

وعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «ما تقولون في الزنا؟». قالوا: حرمه الله ورسوله، فهو حرام إلى يوم القيامة. قال: فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لأن يزني الرجل بعشر نسوة، أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره» [رواه أحمد: ٢٣٨٥٤].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، إن لي جارين فإلى أيهما أهدي؟ قال: «إلى أقربهما منك باباً» [رواه البخاري: ٢٢٥٩].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر إذا طبخت مرقة، فأكثر ماءها، وتعاهد جيرانك» [رواه مسلم: ٢٦٢٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يا نساء المسلمات، لا تحقرن جارة لجارتها، ولو فرسن شاة» [رواه البخاري: ٢٥٦٦، ومسلم: ١٠٣٠].

قوله ﷺ: «ولو فرسن شاة» هو في الشاة مثل القدم في الإنسان، وهو عظم قليل اللحم، ومعنى الحديث: لا تمتنع جارة من الصدقة والهدية لجارتها لاستقلالها واحتقارها الموجود عندها، بل تجود بما تيسر، وإن كان قليلاً كفرسن شاة، وهو خير من العدم [ينظر: «شرح النووي على مسلم» (٧/ ١٢٠)].

ومما يُروى أن رجلاً جاء إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وقال: إن لي جاراً يؤذيني

وَيَشْتَمْنِي، وَيُضَيِّقُ عَلَيَّ. فقال ابن مسعود: «أذهب فإن هو عصي الله فيك، فأطع الله فيه» [إحياء علوم الدين] (٢ / ٢١٢).

وقد ورد عن الحسن البصري رحمته الله أنه قال: «ليس حُسْنُ الجوار كَفَّ الأذى، حُسْنُ الجوار الصبر على الأذى» [أدب الدنيا والدين] (٣٣٦).

وهذا جار لأبي حمزة السكري رحمته الله أراد أن يبيع داره فقيل له: بكم؟ قال: بألفين ثمن الدار، وبألفين لجوار أبي حمزة؛ لمنزلة هذا الرجل، وإحسانه إلى جيرانه، حَسَبَ جيرته بمثل قيمة الدار، فوجَّه إليه أبو حمزة بعدما بلغه ذلك بأربعة آلاف، وقال له: «لا تبع دارك». [سير أعلام النبلاء] (٧ / ٣٨٧).

ثمرات الإحسان إلى الجار:

من خلال النصوص السابقة من الكتاب والسنة يمكننا استخلاص ثمرات الإحسان إلى الجار، وهي:

- دخول الجنة: الإحسان إلى الجار من أعظم الأسباب التي بها ينال العبدُ الجنة.
- تحقيق الإيمان بالله تعالى: إن الإحسان إلى الجار من شعب الإيمان، وقد بين نبينا ﷺ أن الإحسان إلى الجار من أكبر الأدلة على الإيمان بالله واليوم الآخر.
- تقوية الروابط والأواصر: إن الاتصاف بهذا الخلق العظيم -الإحسان إلى الجار- يقوي روابط الألفة والمحبة بين الجيران، وبالتالي بين أفراد المجتمع.
- عموم الخير: إن الإحسان إلى الجار ينشر الخيرات ويعم البركات بين أفراد المجتمع الواحد.

- انتشار السعادة بين الناس: عندما يعلو خلق الإحسان إلى الجار بين الناس يسود بينهم الود والوئام، وتنتشر بينهم السعادة، ويزول من بينهم كل حقد وحسد وبغضاء وكراهية، ويعم الخير والسلام، ويزول من بينهم كل سوء وخصام.
- الحياة الآمنة الهنيئة: إن الإحسان إلى الجار، سواء كان هذا الجار مسلماً أو

كافراً، يهودياً كان أو نصرانياً، قريباً كان أو بعيداً، يعمل على أن يسود المجتمع حياة هادئة آمنة مطمئنة بين أفرادهِ وطبقاتهِ المختلفة.

– انتزاع روح العداوة: إن التخلق بهذا الخلق العظيم – الإحسان إلى الجار – مع كل الجيران يعمل على انتزاع روح العداوة من قلوبهم، بل يقضي على أسباب الشقاق والخلاف التي تؤدي إلى الشر والانتقام.

الأسباب والوسائل المعينة على الإحسان إلى الجار:

- الإخلاص وقصدُ الله تعالى بالعبادة، فعندما يتذكر المسلم أنه يقصد بالإحسان إلى جاره وجهَ الله وحده؛ يسهل ذلك عليه وينشط للقيام به.
- ابتغاء الأجر والثواب من الله سبحانه وتعالى في الآخرة، فيتذكر ما أعدّه الله تعالى لعباده المؤمنين – المتصفين بهذه الشعبة وغيرها – في الآخرة من الأجر والثواب.
- الاستعانة بالله تعالى، فلا يعين العبد على الطاعة إلا الله تعالى، وكلما وجد العبد في نفسه مشقة لأداء طاعة من الطاعات فعليه أن يتوجه إلى الله تعالى بالدعاء أن ييسر له فعل الطاعات وأن يعينه عليها.
- تقوى الله ﷻ؛ فهي سبب توفيق الله للعبد لكل عمل رشيد يرضو به رضا الله جل وعلا في دينه ودنياه.
- معرفة هدي النبي ﷺ وصحابته الكرام والسلف الصالح في التعامل مع الجيران والاقتداء بهم في ذلك.



٧٠. توقير الكبير

حثت الشريعة الإسلامية على مكارم الأخلاق، وأرشدت إلى جميل الأفعال، ومما حثت عليه من محاسن الأخلاق: توقير الصغير للكبير والإحسان إليه ورعاية حقوقه، بل وجعلت ترك ذلك من الآثام والذنوب؛ فإن ترك توقير كبار السن من أكبر مظاهر سوء الخلق، وهو مذموم في الشرع؛ بل ومذموم في العقل والفطرة السوية.

وتوقير الكبير: هو أن يكون للكبير منزلة في النفوس ومكانة في القلوب، وأن يكون له حسن معاملة وطيب مخاطبة، وتقديم له في كل أمر يقتضي تقديمه.

ومن صور توقير الكبير: أن يقدمه الصغير على نفسه في الجلوس عند ازدحام المجلس، وأن يقدمه في الكلام والحديث، وأن يلين له الكلام ولو أساء له الكبير، وأن يتجاوز عن هفواته وسقطاته؛ فإن الإنسان إذا كبر ضعفت حواسه فتكثر بذلك سقطاته، وأيضاً أن يمد له يد العون إذا ما دعت حاجة الكبير إلى ذلك، سواء كان ذلك بالبدن كحمل ما يعجز عن حمله أو بغيره من صور الإعانة المادية والمعنوية.

ويدخل في توقير الكبير أيضاً: توقير الكبير في علمه وفضله وشرفه ومكانته ونحو ذلك.

الأدلة من الكتاب والسنة على أن توقير الكبير من شعب الإيمان:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «من لم يرحم صغيرنا، ويعرف حق كبيرنا، فليس منا» [رواه أبو داود: ٤٩٤٣].

وعن سهل بن أبي حثمة رضي الله عنه، أن عبد الله بن سهل ومُحَيِّصَة خرجا إلى خير، فأخبر مُحَيِّصَة أن عبد الله بن سهل قد قُتل وطُرح في عين، فأتى اليهود، فقال: أنتم والله قتلتموه، قالوا: والله ما قتلناه. ثم أقبل حتى قدم على قومه، فذكر لهم ذلك، ثم أقبل هو وأخوه حُوَيْصَة وهو أكبر منه وعبد الرحمن بن سهل، فذهب مُحَيِّصَة ليتكلم وهو

الذي كان بخير، فقال رسول الله ﷺ لمُحَيِّصَة: «كَبَّرَ كَبَّرَ»، يريد السن، فتكلم حُوَيِّصَة، ثم تكلم مُحَيِّصَة... [رواه البخاري: ٧١٩٢، ومسلم: ١٦٦٩]. «عين» أي: موضع به ماء. «كَبَّرَ كَبَّرَ» أي: قدَّم كبير السن فليتكلم أولاً.

فهذا محيصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع أنه هو الذي شهد حادثة مقتل عبد الله بن سهل، إلا أن النبي ﷺ لم يأذن له في الكلام قبل أخيه حويصة؛ لأن حويصة أكبر منه، وهذا من صور توقير الكبير.

وعن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتي رسول الله ﷺ بقدح فشرب، وعن يمينه غلام هو أحدث القوم، والأشياخ عن يساره، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يا غلام، أتأذن لي أن أعطي الأشياخ». فقال: ما كنت لأوثر بنصبي منك أحداً يا رسول الله، فأعطاه إياه [رواه البخاري: ٢٣٦٦، ومسلم: ٢٠٣٠]. «قدح» أي: إناء.

فاستئذنان النبي ﷺ من الغلام -وهو أصغر القوم- أن يعطي الأشياخ، يدل على استحباب تقديم الكبير، وهو من صور توقيره.

وعن سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لقد كنت على عهد رسول الله ﷺ غلاماً، فكنت أحفظ عنه، فما يمنعني من القول إلا أن ها هنا رجلاً هم أسن مني» [رواه مسلم: ٩٦٤].

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «أخبروني بشجرة تشبه الرجل المسلم، لا يتحات ورقها، وتؤتي أكلها كل حين، قال ابن عمر: فوق في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئاً، قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة». فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه، والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة، فقال: ما منعك أن تكلم؟ قال: لم أركم تكلمون، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئاً، قال عمر: لأن تكون قلتها، أحب إلي من كذا وكذا [رواه البخاري: ٤٦٩٨، ومسلم: ٢٨١١]. «يتحات» أي: يتساقط.

فهذا ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قد ترك الكلام في حضرة كبار الصحابة لما رأهم سكتوا. وعن مالك بن مغول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: مشيت مع طلحة بن مصرف حتى انتهينا إلى زقاق

ضيق، فتخلّفت وتقدم طلحة، فالتفت إليّ وقال: لو أعلم أنك أكبر مني بيوم أو ليلة ما تقدمتك [رواه الخرائطي في «مكارم الأخلاق»: ٣٥٦].

الشمرات والآثار المترتبة على توقير الكبير:

- إن لتوقير الكبير الكثير من الآثار التي تعود بالنفع على الفرد والجماعة، فمنها:
 - أنه طاعة لله تعالى ولرسوله ﷺ.
 - أنه دليل على حسن الخلق الذي تواترت النصوص على كونه من أعظم ما يرفع درجات العبد يوم القيامة، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً». [رواه الترمذي: ٢٠١٨].
 - أنه من أسباب انتشار الألفة والمحبة بين المسلمين.
 - أنه من أسباب نزول الخيرات والبركات على العبد وإعانة الله تعالى له، فقد سبق أن ذكرنا أن من توقير الكبير إعانته عند حاجته إلى الإعانة، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» [رواه مسلم: ٢٦٩٩].
 - أنه من الأعمال التي يدخرها المرء لشيخوخته وكبره، فإن من وقرّ الكبير وعظّمه وسعى في خدمته كان ذلك من أسباب أن يقيض الله تعالى له في كبره من يوقره ويعينه على ما لا تبلغه قوته وقت ضعفه وعجزه، فقد علّم بالشرع والتجربة أن الجزاء من جنس العمل.

الوسائل المعينة على توقير الكبير:

- من أهم ما يدفع المرء لتوقير الكبير معرفة أن هذا الفعل فيه طاعة لله تعالى، وأنه طريق موصل لمرضاته ﷻ.
- أن يعلم أنه بهذا الفعل سائر على درب النبي ﷺ من تقديمه للكبير وتوقيره كما سبق في الأحاديث.

- النظر في سيرة السلف الصالح - وعلى رأسهم الصحابة رضي الله عنهم - والتأسي بهم، فقد كانوا من أشد الناس توقيراً للكبير.
- أن يعلم أنه بتركه توقير الكبير قد ارتكب ذنباً قد يعده بعض العلماء من الكبائر؛ لقول النبي ﷺ: «ليس منا».
- من أهم ما يساعد على نشر هذا الخلق في مجتمعات المسلمين هو التربية السليمة سواء من جهة الوالدين أو المعلمين في المدرسة ونحوها.
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فينبغي على المسلم إذا رأى شخصاً لا يوقر من هو أكبر منه سنّاً فضلاً عن أن يكون قد أساء إليه، أن ينكر على هذا الشخص، فبهذا يستقر في نفوس الصغار قُبْح هذا الفعل.
- تقدير ضعفهم، والحرص على عدم التثقل عليهم في أداء مهمة ما بل من الضروري مساعدتهم ومراعاة أحوالهم.



٧١. السلام

لكل أمة من الأمم طُرُقٌ يُحْيِي بها بعضهم بعضًا عند تلاقيهم، وكان للعرب قبل الإسلام ألفاظ وعبارات يحيي الواحد منهم غيره عند لقاءه، كقولهم: عِمْتُ صباحًا، وعِمْتُ مساءً، فلما جاء الإسلام شرع السلام تحيةً تميز المسلمين عن غيرهم، ويختصون بها دون من سواهم، ولذا فإن السلام من أظهر شعائر الإسلام، وشعبة مهمة من شعب الإيمان.

وحقيقة السلام: أنه دعاء من المرء لغيره بالسلامة من كل شر ومكروه، فجعل الله تحية المسلم لأخيه المسلم مشتملة على الدعاء من كل واحد منهما للآخر، وهذا من فضله سبحانه وتعالى، وصيغة السلام: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وإلقاء السلام من الأمور المستحبة التي حثَّ عليها الشرع، ورغب فيها، أما رد السلام فهو واجب على الكفاية، فمتى رد بعض القوم السلام سقط الوجوب عن البقية، أما إن كان من ألقى عليه السلام واحدًا منفردًا فإن رد السلام يكون واجبًا عينيًا عليه.

الأدلة من الكتاب والسنة على أن السلام من أهم شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٤]. وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيزٍ﴾ [هود: ٦٩].

قال السعدي رحمته الله: «فلما دخلوا عليه ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ أي: سلموا عليه، ورد عليهم السلام. ففي هذا مشروعية السلام، وأنه لم يزل من ملة إبراهيم عليه السلام، وأن السلام قبل الكلام، وأنه ينبغي أن يكون الرد أبلغ من الابتداء؛ لأن سلامهم بالجملة الفعلية الدالة على التجدد، ورده بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والاستمرار، وبينهما فرق كبير كما هو معلوم في علم العربية» [تفسير السعدي] (ص: ٣٨٥).

وقال **ﷺ**: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ ٢٤ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٤، ٢٥].

وهي تحية الملائكة لأهل الجنة، قال سبحانه: ﴿ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ ٢٣ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤].

وقال **ﷺ**: ﴿ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢].

وعن عبد الله بن عمرو **رضي الله عنه**، أن رجلاً سأل النبي **ﷺ**: أي الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف» [رواه البخاري: ١٢، ومسلم: ٣٩].

وعن أبي هريرة **رضي الله عنه** قال: قال رسول الله **ﷺ**: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» [رواه مسلم: ٥٤].

قال النووي **رحمته الله**: «قوله **ﷺ**: «ولا تؤمنوا حتى تحابوا» معناه: لا يكمل إيمانكم ولا يصلح حالكم في الإيمان إلا بالتحاب، وأما قوله **ﷺ**: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا» فهو على ظاهره وإطلاقه فلا يدخل الجنة إلا من مات مؤمناً، وإن لم يكن كامل الإيمان، فهذا هو الظاهر من الحديث. وأما قوله: «أفشوا السلام بينكم» أي: انشروه بينكم، وفيه الحث العظيم على إفشاء السلام وبذله للمسلمين كلهم من عرفت ومن لم تعرف كما تقدم في الحديث الآخر، والسلام أول أسباب التألف، ومفتاح استجلاب المودة، وفي إفشائه تمكن ألفة المسلمين بعضهم لبعض، وإظهار شعارهم المميز لهم من غيرهم من أهل الملل، مع ما فيه من رياضة النفس، ولزوم التواضع، وإعظام حرمة المسلمين، ويتضمن رفع التقاطع والتهاجر والشحناء وفساد ذات البين التي

هي الحالقة، وأن سلامه لله، لا يتبع فيه هواه، ولا يخص أصحابه وأحبابه به، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب» [شرح مسلم] (٢/ ٣٦) بتصرف واختصار.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «أفشوا السلام تسلموا» [رواه أحمد: ١٨٥٣٠].

وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، وقيل: قدم رسول الله ﷺ، فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استبنت وجه رسول الله ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، وكان أول شيء تكلم به أن قال: «يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلُّوا والناس نيام، تدخلون الجنة بسلام» [رواه الترمذي: ٢٤٨٥].

قوله: «انجفل الناس إليه» أي: ذهبوا مسرعين نحوه. «استبنت» أي: عرفت وتبينت.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «حق المسلم على المسلم ست» قيل: ما هن يا رسول الله؟ قال: «إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه» [رواه مسلم: ٢١٦٢].

وفي رواية أخرى: «حق المسلم على المسلم خمس: - وذكر منها- رد السلام...» [رواه البخاري: ١٢٤٠، ومسلم: ٢١٦٢].

وعن أبي شريح رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أخبرني بشيء يوجب لي الجنة، قال: «طيب الكلام، وبذل السلام، وإطعام الطعام» [رواه ابن حبان في «صحيحه»: ٥٠٤].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أولى الناس بالله من بدأهم بالسلام» [رواه أبو داود: ٥١٩٧].

أي: أخص الناس برحمة الله وغفرانه والقرب منه في جناته من بدأ أخاه المسلم بالسلام عند ملاقاته؛ لأنه السابق إلى ذكر الله، والسلام تحية المسلمين وسنة المرسلين.

وينبغي لكل أحد من المتلاقيين أن يحرص على أن يتدئ بالسلام لهذا الحديث [ينظر: «فيض القدير» (٢/ ٤٤١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يُسَلِّمُ الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير» [رواه البخاري: ٦٢٣٣، ومسلم: ٢١٦٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم، فإذا أراد أن يقوم فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة» [رواه أبو داود: ٥٢٠٨]. وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليكم، فرد عليه، ثم جلس، فقال النبي ﷺ: «عشر»، ثم جاء آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فرد عليه، فجلس، فقال: «عشرون»، ثم جاء آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد عليه، فجلس، فقال: «ثلاثون» [رواه أبو داود: ٥١٩٥].

قوله: «عشر» أي: كُتِبَ له عشر حسنات. «عشرون» أي: كُتِبَ له عشرون حسنة. «ثلاثون» أي: كُتِبَ له ثلاثون حسنة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لقي أخاه فليسلم عليه، وإن حالت بينهما شجرة، أو حائط، أو حجر، ثم لقيه فليسلم عليه» [رواه الطحاوي في «شرح مشكل الآثار»: ٥١٥٤].

قال الطحاوي بعد روايته لهذا الحديث: «فكان في هذا الحديث أمر من رسول الله ﷺ بتجديد السلام من الناس بعضهم على بعض، إذا غاب بعضهم عن بعض، مما ذُكر في هذا الحديث، وذلك أحسن ما يكون من الآداب، وأوصل لما يكون بين الناس، وكذلك كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون بعده».

ثم روى بإسناده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ يتماشون، فإذا لقيتهم شجرة أو أكمة تفرقوا يميناً أو شمالاً، فإذا التقوا مروراً بها سلم بعضهم على بعض» «الأكمة» أي: التل.

ثم قال الطحاوي رحمته الله: «وفي ذلك ما قد دل على تمسكهم بأداب رسول الله ﷺ، وأموره رضوان الله عليهم».

وعن الأغر المزني رحمته الله قال: كان رسول الله ﷺ أمر لي بجزء من تمر عند رجل من الأنصار فمططني به، فكلمت رسول الله ﷺ، فقال: «اغد معه يا أبا بكر فخذ له تمره»، فوعدني أبو بكر رحمته الله المسجد إذا صلينا الصبح، فوجدته حيث وعدني، فانطلقنا، فكلما رأى أبا بكر رجلاً من بعيد سلم عليه، فقال أبو بكر: أما ترى ما يصيب القوم عليك من الفضل، لا يسبقك إلى السلام أحد، فكنا إذا طلع الرجل بادرناه بالسلام قبل أن يسلم علينا [رواه الطبراني في «المعجم الكبير»: ٨٨٠].

وقال عمار بن ياسر رحمته الله: «ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار» [صحيح البخاري] (١٥ / ١).
قوله: «الإنصاف» أي: العدل وإعطاء الحق لصاحبه. «بذل السلام» أي: إلقاؤه على من يلقاه. «الإنفاق من الإقتار» أي: الإنفاق مع الفقر وقلة المال.
وقال أبو هريرة رحمته الله: «أعجز الناس من عجز في الدعاء، وأبخل الناس من بخل بالسلام» [صحيح ابن حبان] (٣٤٩ / ١٠).

الثمرات المترتبة على إفشاء السلام:

- أنه سبب لدخول الجنة، بل من موجباتها.
- أنه من أسباب النجاة من عذاب الله تعالى، فإن النبي ﷺ قد جعله مع صلاة الليل وإطعام الطعام سبب لدخول الجنة بسلام، يعني: بلا سابقة عذاب.
- أن فيه تأدية لحق المسلم على أخيه المسلم، فهو بهذا طاعة لله تعالى.
- أنه سبب لاكتساب الحسنات، فإن من قال: «السلام عليكم» كُتِبَ له عشر حسنات، ومن قال: «السلام عليكم ورحمة الله» كُتِبَ له عشرون حسنة، ومن قال: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» كُتِبَ له ثلاثون حسنة.

- أنه من أسباب السلامة في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا فيه سلامة من العداوات وما يتبعها، وفي الآخرة سلامة من النار.

- أنه من أعظم أسباب انتشار المحبة والألفة بين المسلمين.

- أن فيه تشبهاً بالملائكة، فهو تحيتهم لأهل الجنة، بل وتحية الله تعالى لعباده الصالحين يوم القيامة. قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طُبِّئَتْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿يَحْيَتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ وَسَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤].

قال ابن كثير رحمه الله: «قوله: ﴿يَحْيَتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ وَسَلَامٌ﴾ الظاهر أن المراد والله أعلم: ﴿يَحْيَتُهُمْ﴾ أي: من الله تعالى يوم يلقونه ﴿سَلَامٌ﴾ أي: يوم يسلم عليهم، كما قال تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]» [تفسير ابن كثير (٦/ ٤٣٧)].

- أن فيه اقتداء بالأنبياء والمرسلين والصحابة والصالحين من عباد الله.

- أنه من علامات الإيمان.

- ملقي السلام على غيره من أولى الناس بالله، وكفى بهذا شرفاً ومنزلة.

الأسباب والوسائل المعينة على إفشاء السلام:

- أن يعرف العبد ما في سلامه على إخوانه من الفضل العظيم، والثواب الكبير الذي سيحصله من كلمات قليلة يتفوه بها.

- أن يعلم أن تركه للسلام على إخوانه هو تركٌ لحقٍّ من حقوقهم عليه، وتقصير في جانبهم.

- أن يعلم أن تركه لرد السلام إنما هو معصية يعاقبه الله تعالى عليها.

- أن يعلم العبد أن من شرف السلام أنه تحية أهل الجنة بينهم وبين بعضهم البعض، بل وتحية الملائكة لهم عند دخولهم الجنة، وعند دخول الملائكة عليهم

وهم مقيمون في الجنة.

- أن يعلم العبد أن السلام هو تحية الله لعباده الصالحين في الآخرة، وكفى بهذا دافعاً يدفع العبد إلى إفشاء السلام، واستعمال هذا الخلق الجليل.
- الاقتداء بسنة النبي ﷺ وما كان عليه أصحابه، فقد سبق أنهم كانوا يسلم الواحد منهم على الآخر كلما فرقت بينهم شجرة وهم يسرون، وأنهم كانوا من أحرص الناس على البدء بالسلام.
- أن لا يبدأ المسلم بأي تحية قبل تحية الإسلام: (السلام عليكم، أو السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)، ثم يذكر بعدها ما شاء من الكلمات الطيبة.
- أن لا يستبدل المسلم السلام الذي جاء به الشرع بألفاظ دخيلة على المسلمين من الكفار، وعلى المسلم أن يكون معتزاً بدينه، ويعلم شرف ما أتى به الشرع على غيره.
- توعية المسلمين بأهمية إفشاء السلام؛ لنشر المحبة والألفة بينهم.
- تربية الصغار على السلام وتعوديهم عليه من صغرهم.
- نشر أحكام وآداب السلام بين المسلمين.



٧٢. تَشْمِيتُ الْعَاطِسِ

تشميت العاطس قربة من القربات، وأدب إسلامي رفيع، وهو أحد شعب الإيمان، ومن حقوق المسلم على أخيه المسلم.

ولما كان العاطس قد حصلت له بالعطاس نعمة ومنفعة بخروج الأبخرة المحتقنة في دماغه، التي لو بقيت فيه أحدثت له أمراض عسرة، شرع له أن يحمد الله على هذه النعمة، مع بقاء أعضائه على التئامها وهيئتها بعد هذه الزلزلة، وشرع لمن سمعه وهو يحمد الله أن يدعو له بالرحمة.

وسُمي الدعاء له بالرحمة تشميئاً له؛ لما يتضمن هذا الدعاء للعاطس بالثبات على طاعة الله، وأن يصرف الله عنه ما يشمت به أعداؤه، وهذا معنى لطيف إذا تنبه له العاطس والمشمت انتفعا به، وعظمت عندهما منفعة نعمة العطاس في البدن والقلب، وتبين السر في محبة الله تعالى للعطاس.

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن تشميت العاطس من شعب الإيمان:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله يحب العطاس، ويكره التثاؤب، فإذا عطس فحمد الله، فحق على كل مسلم سمعه أن يشمته، وأما التثاؤب: فإنما هو من الشيطان، فليرده ما استطاع، فإذا قال: ها، ضحك منه الشيطان» [رواه البخاري: ٦٢٢٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله، وليقل له أخوه أو صاحبه: يرحمك الله، فإذا قال له: يرحمك الله، فليقل: يهديكم الله ويصلح بالكم» [رواه البخاري: ٦٢٢٤، ومسلم: ٢٩٩٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «حق المسلم على المسلم ست». قيل: ما هن يا رسول الله؟ قال: «إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه» [رواه مسلم: ٢٩٩٢].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: عطس رجلان عند النبي ﷺ، فشمت أحدهما ولم يشمت الآخر، ف قيل له، فقال: «هذا حمد الله، وهذا لم يحمد الله» [رواه البخاري: ٦٢٢١، ومسلم: ٢٩٩٢].

وعن أبي بردة قال: دخلت على أبي موسى وهو في بيت بنت الفضل بن عباس، فعطست فلم يشمتني، وعطست فشمتها، فرجعت إلى أمي فأخبرتها، فلما جاءها قالت: عطس عندك ابني فلم تشمته، وعطست فشمتها؟! فقال: إن ابنك عطس، فلم يحمد الله، فلم أشمته، وعطست، فحمدت الله فشمتها، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا عطس أحدكم فحمد الله، فشمتوه، فإن لم يحمد الله، فلا تشمتوه» [رواه مسلم: ٢٩٩٢].

وعن أبي بردة، عن أبيه أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كانت اليهود يتعاطسون عند النبي ﷺ رجاء أن يقول لهم: يرحمكم الله، فكان يقول لهم: «يهديكم الله ويصلح بالكم» [رواه أبو داود: ٥٠٣٨].

قوله: «يتعاطسون»: أي: يطلبون العطسة من أنفسهم، وذلك بأن يفتعلوا العطاس عند النبي ﷺ يتمنون أن يقول لهم: يرحمكم الله، فيقول النبي ﷺ عند عطاسهم: «يهديكم الله ويصلح بالكم»، ولا يقول لهم: يرحمكم الله؛ لأن الرحمة مختصة بالمؤمنين، بل يدعو لهم بما يصلح بالهم من الهداية والتوفيق للإيمان [ينظر: «مراقبة المفاتيح» (٧/ ٢٩٨٩)].

ثمرات تشميت العاطس:

من خلال النصوص السابقة من الكتاب والسنة يمكننا استخلاص ثمرات تشميت العاطس، ومن أهمها:

– محبة الله: إن الله تعالى يحب العطاس لما فيه من الخير أن نجى عبده مما لحق ببدنه من الأضرار والأخلاق الداخلية، التي تخرج مع الحركة الإرادية لجسم الإنسان عندما يعتريه حدث العطاس، ولما يلحقه من حمد لله تعالى من العاطس، ثم

دعاء الحاضرين له بالرحمة، ثم رد العاطس عليهم بالدعاء لهم بالهداية وإصلاح البال.
- غيظ الشيطان: إن الشيطان الرجيم يزداد غيظًا كلما حصل للمرء المسلم من خير ديني أو دنيوي، والعطس يشمل الخيرين معًا، الدنيوي أن نجى الله عبده مما لحق بدنه من الأضرار، والديني بذكر العاطس لله ﷻ، ودعاء إخوانه له بالرحمة، ودعائه لهم بالهداية وصلاح البال.

- تحصيل المودة والتآلف بين المسلمين: إن من محاسن الشريعة الإسلامية أن شُرِعَ فيها آداب العطاس وتشميت العطاس؛ وأقرَّت بذلك لوثًا من ألوان المجاملة الاجتماعية الطيبة، التي من مدلولاتها تأكيد معاني التواصل والمودة، وزيادة معاني المحبة والرحمة، ونفي كل ما يؤدي إلى الجفوة والتقاطع والهجران بين المسلمين.
- نقض العادات الجاهلية: إن الإسلام قد جاء فيما شرعه في آداب تشميت العطاس بما أبطل به اعتقادات الجاهلية التي لم تقم على أساس من عقل أو نقل أو علم، وما نشأ عن هذه الاعتقادات الفاسدة من عادات مستقبة في الفطرة، ضارة بالحياة، فقد ذكر العلامة ابن القيم رحمه الله: أن أهل الجاهلية كانوا يتطيرون بالعطاس ويتشاءمون منه، فلما جاء الله سبحانه بالإسلام، وأبطل رسوله ﷺ ما كان عليه أهل الجاهلية من الضلالة، نهى أمته عن التشاؤم والتطير، وشرع لهم أن يجعلوا مكان الدعاء على العطاس بالمكروه الدعاء له بالرحمة. [ينظر: «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٢٦٢)].
- ذكر الله ﷻ: إن تشميت العطاس فيه ذكر لله، والدعاء للمسلم بالرحمة والمغفرة، وذكر الله تعالى من أفضل القربات.

الأسباب والوسائل المعينة على تشميت العطاس:

- أن يعلم المسلم أن تشميت العطاس حق للمسلم على أخيه المسلم، وأنه من شعب الإيمان، ومن الطاعات المأمور بها.
- الإخلاص وقصدُ الله تعالى بالعبادة، فعندما يتذكر المسلم أنه يقصد بتشميت

- العاطس وجه الله وحده؛ يسهل ذلك عليه وينشط للقيام به ولا يتهاون فيه.
- تقوى الله ﷻ؛ فهي سبب توفيق الله للعبد لكل عمل رشيد يرجو به رضا الله جل وعلا في دينه ودنياه.
- معرفة هدي النبي ﷺ وصحابته الكرام في العطاس والاعتداء بهم في ذلك.
- مصاحبة الصالحين وحضور مجالسهم، فإنها مما يعين على تشميت العاطس، فتراهم يسارعون إلى تشميت العاطس إذا حمد الله، وذلك لمعرفة حق المسلم على المسلم، وحرصهم على اتباع السنة.
- البعد عن رفقاء السوء ومجالس أهل المعاصي؛ فهم لا يذكرون الله إلا قليلاً، ولا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا، ولا يعرفون هذا الخلق القويم والأدب النبوي الكريم.



٧٣. الإصلاح بين الناس

الإصلاح بين الناس عمل عظيم، فَرَّطَ فيه كثير من المسلمين؛ لأن توثيق عُرى المحبة بين المسلمين، وتصفية القلوب من الغل والحقد والحسد، والحرص على ما يجلب المودة والتآلف والتناصر والتعاقد، وتجنب ما يوغر الصدور ويورث العداوة - واجب تقتضيه الأخوة الإيمانية، والإيمان لا يكون تاماً إلا به. والإصلاح بين الناس صفة أخلاقية فاضلة تصدر عن إنسان نبيل يحب الخير.

وحقيقة الإصلاح بين الناس هو: إزالة أسباب الخصام والعداوة والشقاق، وبث التسامح والعفو والتراضي، وسد باب الخلافات بين المسلمين.

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن الإصلاح بين الناس من شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا﴾ [النساء: ١١٤].
﴿نَجْوَاهُمْ﴾: حديثهم سراً.

وقال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفَقِّلُوا إِلَيْهِ تَبَعِي حَتَّىٰ تَقِيَّ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [النساء: ٩ - ١٠].

وقال سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلَحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟» قالوا: بلى، يا رسول الله قال: «إصلاح ذات البين، وفساد

ذات البين الحالقة» [رواه أبو داود: ٤٩١٩]. «ذات البين»: أي أحوال بينكم يعني ما بينكم من الأحوال ألفة ومحبة. «الحالقة»: أي هي الخصلة التي من شأنها أن تحلق الدين وتستأصله كما يستأصل الموسى الشعر.

عن أم كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها: أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، فينمي خيرا، أو يقول خيرا» [رواه البخاري: ٢٦٩٢، ومسلم: ٢٦٠٥]. «ليس الكذاب»: لأن هذا الكذب يؤدي إلى الخير، وهو قليل أيضا.

قال الخطابي: «فيه: الرخصة لأن يقول في الإصلاح بين المسلمين ما لم يسمعه من الذكر الجميل، والقول الحسن». [أعلام الحديث (٢/ ١٣١٥)].

وقال ابن شهاب: «ولم أسمع يرخص في شيء مما يقول الناس كذب، إلا في ثلاث: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها». [دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (٢/ ٣٢٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل سُلَامَى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس: تعدل بين الاثنين صدقة» [رواه البخاري: ٢٩٨٩، ومسلم: ١٠٠٩]. سُلَامَى: أي مفصل. تعدل: أي تصلح.

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ بلغه أن بني عمرو بن عوف كان بينهم شر، فخرج رسول الله ﷺ يصلح بينهم في أناس معه [رواه البخاري: ١٢١٨، ومسلم: ٤٢١].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «ردوا الخصوم حتى يصطلحوا، فإنَّ فَصْل القضاء يورث الضغائن بين الناس» [رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٨/ ٣٠٣)].

ثمرات الإصلاح بين الناس:

يتضح لنا من خلال نصوص الكتاب والسنة السابقة أن للإصلاح بين الناس ثمرات عديدة منها:

- الأجر العظيم والثواب الجزيل ومغفرة الذنوب.

- الصلح بين الناس يعدل أجر المجاهد في سبيل الله؛ فعن عبد الله بن حبيب بن أبي ثابت قال: كنت جالساً مع محمد بن كعب القرظي، فأتاه رجل فقال له القوم: أين كنت؟ فقال: أصلحت بين قوم، فقال محمد بن كعب: أصبت، لك مثل أجر المجاهدين، ثم قرأ: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ جَوَلُهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤] [رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٤ / ١٠٦٥)].

- يستوجب الإصلاح بين الناس الثناء الحسن؛ فقد أثنى النبي ﷺ على الحسن بن علي رضي الله عنهما بسبب هذا فقال ﷺ: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» [رواه البخاري: ٢٧٠٤].

- الإصلاح بين الناس أفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؛ فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟» قالوا: بلى، قال: «إصلاح ذات البين» [رواه أبو داود: ٤٩١٩].

- الصلح بين المسلمين يثمر الألفة والمحبة مكان الفرقة والاختلاف، كما أنه يستأصل داء النزاع قبل أن يستفحل، ويحقن الدماء التي تراق بين الطوائف المتنازعة. - أنه يحافظ على استقرار الأسرة لاسيما الإصلاح بين الزوجين، وبالتالي يستقر المجتمع بأسره.

الأسباب والوسائل المعينة على الصلح بين الناس:

- الإخلاص وقصد الله تعالى بالعبادة، فعندما يتذكر المسلم أنه يقصد بالإصلاح بين الناس وجه الله وحده؛ يسهل ذلك عليه وينشط للقيام به. - ابتغاء الأجر والثواب من الله سبحانه وتعالى في الآخرة، فيتذكر ما أعدّه الله تعالى لعباده المؤمنين - المتصفين بهذه الشعبة وغيرها - في الآخرة من الأجر والثواب.

- الاستعانة بالله تعالى، فلا يعين العبد على الطاعة إلا الله تعالى، وكلما وجد العبد في نفسه مشقة لأداء طاعة من الطاعات فعليه أن يتوجه إلى الله تعالى بالدعاء أن ييسر له فعل الطاعات وأن يعينه عليها.



٧٤. الشهادة بالحق

إن من أمانة الكلمة شهادة الحق، وقد ورد الحث على ذلك في لسان الشرع، والتحذير من شهادة الزور، وما ذلك إلا لما في الشهادة بالحق من حفظ الحقوق، ولما في كتمها فضلاً عن تغييرها من ضياع هذه الحقوق، فعلى المسلم أن يحذر من الوقوع في مثل هذا الأمر العظيم.

وحقيقة الشهادة بالحق: أن يخبر المرء بما يعلمه على وجهه، سواء كان علمه له بطريق السمع أو البصر، أو حتى بطريق إخبار غيره له، وهو ما يسمى بالشهادة على الشهادة.

فمن رأى من يسرق أو يزني أو نحو ذلك، أو أشهد على دين أو زواج، وجب عليه أن يشهد بذلك إذا ما طُلب منه ذلك؛ إقامة للحقوق ودفعاً للمظالم، بل يستحب له أن يحضر بنفسه للشهادة ولو لم يُطلب منه، خصوصاً إذا ما كان الأمر يتعلق بحقوق الناس، أما إذا كان الأمر يتعلق بحق الله تعالى كرويته من يشرب الخمر مثلاً، فإنه قد يكون الأولى أن يستر عليه.

الأدلة على أن الشهادة بالحق من شعب الإيمان:

قال تعالى بعد أمره بكتابة الدين: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُمُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجْرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ يُفْسِدُ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمُ كُفُّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

قال ابن كثير رحمته الله: «قوله ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ أمر بالإشهاد مع الكتابة لزيادة التوثيق ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ وهذا إنما يكون في الأموال وما يُقصد به المال، وإنما أقيمت المرأتان مقام الرجل لنقصان عقل المرأة. وقوله: ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ فيه دلالة على اشتراط العدالة في الشهود. وقوله: ﴿أَنْ تَصِلَ إِحْدَهُمَا﴾ يعني: المرأتين إذا نسيت الشهادة ﴿فَتَذَكَّرَ إِحْدُهُمَا الْآخَرَى﴾ أي: يحصل لها ذكرى بما وقع به الإشهاد.

وقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ أي: إذا دُعوا للأداء؛ فإذا دُعي الشاهد لأداء الشهادة فعليه الإجابة إذا تعينت، وإلا فهو فرض كفاية، والله أعلم. وقوله: ﴿وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ﴾ أي: لا تملوا أن تكتبوا الحق على أي حال كان من القلة والكثرة ﴿إِلَى أَجَلِهِ﴾. وقوله: ﴿ذَلِكَ أَمْسَ عَنْدَ اللَّهِ وَأَقُومُوا لِلشَّهَادَةِ وَأَدِّئْ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ أي: هذا الذي أمرناكم به من الكتابة للحق إذا كان مؤجلاً هو ﴿أَمْسَ عَنْدَ اللَّهِ﴾ أي: أعدل ﴿وَأَقُومُوا لِلشَّهَادَةِ﴾ أي: أثبت للشاهد إذا وضع خطه ثم رآه تذكر به الشهادة، لاحتمال أنه لو لم يكتبه أن ينساه، كما هو الواقع غالباً ﴿وَأَدِّئْ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ وأقرب إلى عدم الريبة، بل ترجعون عند التنازع إلى الكتاب الذي كتبتموه، فيفصل بينكم بلا ريبة.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ أي: إذا كان البيع بالحاضر يداً بيد، فلا بأس بعدم الكتابة لانتهاء المحذور في تركها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ يعني: أشهدوا على حقكم إذا كان فيه أجل أو لم يكن، فأشهدوا على حقكم على كل حال، وهذا الأمر محمول عند الجمهور على الإرشاد والندب، لا على الوجوب. وقوله: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ معناه: لا يضار الكاتب ولا الشاهد، فيكتب هذا خلاف ما يملئ، ويشهد هذا بخلاف ما سمع،

أو يكتم الشهادة بالكلية.

وقوله: ﴿وَأَنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ أي: إن خالفتم ما أُمِرتم به، وفعلتم ما نُهيتم عنه، فإنه فسق كائن بكم، أي: لازم لكم لا تحيدون عنه ولا تنفكون عنه» [تفسير ابن كثير] (١/ ٧٢٤ وما بعدها) بتصرف واختصار.

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

قال السعدي رحمته الله: «﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ لأن الحق مبني عليها، لا يثبت بدونها، فكتمها من أعظم الذنوب؛ لأنه يترك ما وجب عليه من الخبر الصدق ويخبر بضده وهو الكذب، ويترتب على ذلك فوات حق من له الحق، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾» [تفسير السعدي] (ص: ١٢٠).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

قال ابن كثير رحمته الله: «يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ، أي: بالعدل، فلا يعدلوا عنه يمينًا ولا شمالًا، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا يصرفهم عنه صارف، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه.

وقوله: ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ أي: ليكون أداؤها ابتغاء وجه الله، فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقًا، خالية من التحريف والتبديل والكتمان؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: أشهد الحق ولو عاد ضرره عليك، وإذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه، وإن كان مضرًا عليك، فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجًا ومخرجًا من كل أمر يضيق عليه.

وقوله: ﴿أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ أي: وإن كانت الشهادة على والديك وقرابتك، فلا تراهم فيها، بل أشهد بالحق وإن عاد ضرره عليهم، فإن الحق حاكم على كل أحد، وهو مقدم على كل أحد.

وقوله: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أي: لا ترعاه لغناه، ولا تشفق عليه لفقره، الله يتولاهما، بل هو أولى بهما منك، وأعلم بما فيه صلاحهما.

وقوله ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ أي: فلا يحملنكم الهوى والعصية وبغضة الناس إليكم، على ترك العدل في أموركم وشؤونكم، بل الزموا العدل على أي حال كان، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وقوله: ﴿وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا﴾ ﴿تَلَوُّوا﴾ أي: تحرفوا الشهادة وتغيروها.

و«الإعراض» هو: كتمان الشهادة وتركها، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، ولهذا توعدهم الله بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي: وسيجازيكم بذلك» [تفسير ابن كثير] (٢/ ٤٣٣) باختصار.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨].

وقال أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحْتُمْ مَصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الْوَصَاةِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ اَرْتَبْتُمْ لَا نُشْرِي بِهِ تَمَنَّا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّ مِنَ الْآثِمِينَ﴾ [المائدة: ١٠٦].

قال السعدي رحمته الله: «يخبر تعالى خبراً متضمناً للأمر بإشهاد اثنين على الوصية، إذا حضر الإنسان مقدمات الموت وعلاماته، فينبغي له أن يكتب وصيته، ويشهد عليها اثنين ذوي عدل ممن تعتبر شهادتهما ﴿أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي: من غير أهل دينكم، من اليهود أو النصارى أو غيرهم، وذلك عند الحاجة والضرورة وعدم غيرهما من المسلمين.

﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سافرتم فيها ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مَصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ أي: فأشهدوهما، ولم يأمر بشهادتهما إلا لأن قولهما في تلك الحال مقبول، ويؤكد عليهما

بأن يُحبسا ﴿ مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ ﴾ التي يعظمونها ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ ﴾ أنهما صدقا وما غيرا ولا بدلاً هذا ﴿ إِنِ ارْتَبْتُمْ ﴾ في شهادتهما، فإن صدقتموهما، فلا حاجة إلى القسم بذلك. ويقولان: ﴿ لَا نَشْتَرِي بِهِ ﴾ أي: بأيماننا ﴿ ثَمَنًا ﴾ بأن نكذب فيها، لأجل عرض من الدنيا. ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ فلا نراعيه لأجل قربه منا ﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ ﴾ بل نؤديها على ما سمعناها ﴿ إِنَّا إِذَا ﴾ أي: إن كتمناها ﴿ لَمِنَ الْأَثِمِينَ ﴾ « [تفسير السعدي] (ص: ٢٤٦) ».

وقال: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾ [المعارج: ٣٣].

قال الطبري رحمته الله: «يقول: والذين لا يكتُمون ما استشهدوا عليه، ولكنهم يقومون بأدائها، حيث يلزمهم أدائها، غير مغيرة ولا مبدلة» [تفسير الطبري] (٢٣ / ٢٧٧).

وعن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسألها» [رواه مسلم: ١٧١٩].

قال النووي رحمته الله: «المراد بهذا الحديث محمول على من عنده شهادة لإنسان بحق، ولا يعلم ذلك الإنسان أنه شاهد: فيأتي إليه فيخبره بأنه شاهد له» [شرح مسلم] (١٢ / ١٧).

وعن عمارة بن خزيمة أن عمه حدثه، وهو من أصحاب النبي ﷺ: أن النبي ﷺ ابتاع فرساً من أعرابي، فاستتبعه النبي ﷺ ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع النبي ﷺ المشي وأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيساومونه بالفرس، ولا يشعرون أن النبي ﷺ ابتاعه، فنادى الأعرابي رسول الله ﷺ فقال: إن كنت مبتاعاً هذا الفرس وإلا بعته، فقام النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي فقال: «أو ليس قد ابتعته منك؟» فقال الأعرابي: لا، والله ما بعته، فقال النبي ﷺ: «بلى قد ابتعته منك»، فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيداً، فقال خزيمة بن ثابت: أنا أشهد أنك قد بايعته، فأقبل النبي ﷺ على خزيمة فقال: «بم تشهد؟» فقال: بتصديقك يا رسول الله، فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين [رواه أبو داود: ٣٦٠٧]. «ابتاع» أي: اشترى. «فاستتبعه» أي: أمره

أن يتبعه إلى مكانه.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ شهادة الزور» [رواه البخاري: ٥٩٧٧، ومسلم: ٨٨].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سألت أُمِّي أبي بعض الموهبة لي من ماله، فوهبها لي، فقالت: لا أرضى حتى تشهد النبي ﷺ، فأخذ بيدي وأنا غلام، فأتى بي النبي ﷺ، فقال: إن أمه بنت رواحة سألتني بعض الموهبة لهذا، قال: «ألك ولد سواه؟»، قال: نعم، قال: «لا تشهدني على جور» [رواه البخاري: ٢٦٥٠، ومسلم: ١٦٢٣]. «جور» أي: ظلم.

الثمرات المترتبة على الشهادة بالحق:

- إقامة الشهادة من طاعة الله تعالى واستجابة أوامره، ففيها مرضاة للرب تعالى.
- أنها مخالفة للهوى والشيطان.
- أنها إقامة للعدل، وهو من أهم شعب الإيمان، وبه قامت السماوات والأرض، وبالعدل تقوى الأمم ويكتب لها البقاء.
- أنها مما يدفع الله بها كثيرًا من المظالم التي قد تقع على بعض الناس، من هضم حقوقهم ممن لا يخشون الله تعالى.
- أنها تعين على أداء الحقوق إلى أهلها.
- المسلم الذي يؤدي الشهادة على وجهها يطمئن قلبه ويرضي ربه.
- إقامة الشهادة علامة الجراءة في الحق، ودليل القوة في الدين.
- في إقامة الشهادة بالحق حفظ لحقوق الله تعالى وإقامة لحدوده التي شرعها.
- أنها سبب في حماية الأعراض والأنساب.

الأسباب والوسائل التي تعين على إقامة الشهادة بالحق:

- تقوى الله تعالى، والخوف من عقابه الذي أعده لمن كتم الشهادة، أو شهد بالزور.

- ترك خشية الناس أو الهيبة منهم؛ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قام خطيباً، فكان فيما قال: «ألا لا يمنعن رجلاً هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه» [رواه ابن ماجه: ٤٠٧]؛ إلا أنه يستثنى من ذلك إذا كانت الشهادة تضره. قال ابن قدامة رحمته الله: «إنما يَأْتُم الممتنع إذا لم يكن عليه ضرر، وكانت شهادته تنفع، فإن كان عليه ضرر في التحمل، أو الأداء... لم يلزمه؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقول النبي ﷺ: «لا ضرر، ولا ضرار» [رواه ابن ماجه: ٢٣٤٠]؛ ولأنه لا يلزمه أن يضر بنفسه لنفع غيره» [المغني: (١٣/٥)].

- عدم الاستحياء من الحق خصوصاً حين تكون الشهادة على أحد الأقرباء أو الوالدين، فينبغي على المسلم ألا يقدم رضا أحد من الخلق على رضا الله تعالى.

- أن يعلم العبد أنه إن أَرْضَى الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأَسْخَطَ عليه الناس، وأنه إن قدم رضا الله تعالى على رضى المخلوق رضى عنه وأَرْضَى عنه المخلوق؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «من التمس رضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأَرْضَى الناس عنه، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه، وأَسْخَطَ عليه الناس» [رواه أبو داود في «الزهد»: ٣١٥].

- على المسلم أن يتيقن أن الجزاء من جنس العمل، فالشهادة بالحق فيها نصره للمظلوم، وتركها خذلان له، فمن خذل مسلماً خذله الله تعالى في موطن يحب فيه نصرته.



٧٥. إمطة الأذى عن الطريق

إنَّ إمطة الأذى عن الطريق من الأخلاق الطيبة السامية، والتي تعد من محاسن التشريع الإسلامي، وهي باب من أبواب الخير التي يقصد بها المسلم طاعة الله تعالى، وبها ينال العبد المؤمن رضا الله تعالى، وفي السنة الشريفة بيانٌ لفضل من تحلَّى بهذه الخصلة الطيبة، فإمطة الأذى عن الطريق مورد من موارد الصدقات، ومن السبل الميسرة للطاعات، ومن الأسباب التي يتحصل بها العبد على رضوان الله ورحمته ومغفرته.

وإنَّ إمطة الأذى عن الطريق تشمل إزالة كل ما هو مؤذٍ من الطريق، سواء كان مؤذياً برائحته الكريهة، أو بمنظره القبيح، أو بإمكانية أن ينزلق به إنسان، أو ينجرح به أحد، أو كان معرقلاً لحركة السير في طريق المارة؛ مثل الحجارة الكبيرة أو الأشواك أو الزجاج أو الأشجار المقطوعة، أو الحفرة في وسط الطريق والتي يُخشى أن يسقط فيها أعمى أو صغير أو دابة.

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن إمطة الأذى عن الطريق من شعب الإيمان:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون - شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» [رواه مسلم: ٣٥].

وعن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ أَعْمَالُ أُمِّي حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا، فَوَجَدْتُ فِي مُحَاسِنِ أَعْمَالِهَا الْأَذَى يُمَاطُ عَنِ الطَّرِيقِ...» [رواه مسلم: ٥٥٣]. «يُمَاطُ» أي: يزال.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعون خصلة أعلاهن منيحة العنز، ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها، وتصديق موعودها، إلا أدخله

الله بها الجنة» قال حسان بن عطية رحمه الله وهو راوي الحديث: فعددنا ما دون منيحة العنز، من: رد السلام، وتشميت العاطس، وإمالة الأذنى عن الطريق، ونحوه فما استطعنا أن نبلغ خمس عشرة خصلة [رواه البخاري: ٢٦٣١].

خصلة: صفة. «منيحة العنز» أي: أنثى المعز تُعْطَى لِتُتَفَعَّ بلبنها وصوفها ثم تُرَدُّ. «تصديق موعودها» أي: مصدقاً بما وعد الله تعالى عليها من الأجر. «تشميت العاطس» أن يقول له: يرحمك الله.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخّره، فشكر الله له فغفر له» [رواه البخاري: ٦٥٢، ومسلم: ١٩١٤]. «فأخّره» أي: أزاله ونحّاه عن الطريق. «فشكر الله له» أي: رضي فعله ذلك وأثابه عليه بالمغفرة والأجر والثناء الجميل.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مر رجل بغصن شجرة على ظهر طريق فقال: والله لأنحىن هذا عن المسلمين لا يؤذيهم، فأدخل الجنة» [رواه مسلم: ١٢٨ / ١٩١٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة، في شجرة قطعها من ظهر الطريق، كانت تؤذي الناس» [رواه مسلم: ١٢٩ / ١٩١٤].

«يتقلب في الجنة» أي: يتنعم في الجنة بملاذها بسبب قطعه الشجرة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «... وتميط الأذنى عن الطريق صدقة» [رواه مسلم: ١٠٠٩].

وعن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قلت: يا نبي الله علمني شيئاً أنتفع به، قال: «اعزل الأذنى عن طريق المسلمين» [رواه مسلم: ٢٦١٨].

ثمرات إمالة الأذنى عن الطريق:

من خلال النصوص السابقة من الكتاب والسنة يمكننا استخلاص ثمرات إمالة

الأذى عن الطريق، وهي:

- إن إماطة الأذى عن طريق الناس من الوسائل التي تعين على زيادة الإيمان في قلب العبد المؤمن؛ لكونه شعبة من شعب الإيمان.
- المؤمن محب للخير للمسلمين، فهو يزيل الأذى من طريقهم حتى لا يتأذوا به، وهذا يؤدي إلى غرس مشاعر الود والمحبة بينه وبين الناس أجمعين.
- إماطة الأذى عن الطريق من أهم الأسباب التي تعمل على تقوية روابط التكاتف والتآخي بين أفراد المجتمع؛ إذ إن القيام بهذا الخلق الإسلامي العظيم من شأنه عموم روح الود والرحمة والصفاء والمحبة بين طبقات المجتمع، ويعمل على وأد بذور الشقاق والاختلاف.
- إماطة الأذى عن الطريق من أهم الأسباب التي ينال العبد بها مغفرة الله سبحانه وتعالى، ومن أسباب دخول الجنة.
- أنها من باب التعاون على البر والتقوى.
- أن إماطة الأذى عن الطريق، فيه من النظافة والجمال الذي يحث عليهما الإسلام.

الأسباب والوسائل المعينة على إماطة الأذى عن الطريق:

- أن لا يحتقر المسلم أيًا من أفعال الخير، حتى وإن كانت في أعين بعض الناس سيرة، مثل إماطة الأذى عن الطريق؛ فإن لها ثمرات جليلة من أهمها المغفرة ودخول الجنة؛ فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق» [رواه مسلم: ٢٦٢٦]. «طلق» أي: منبسط مبتسم.
- الإخلاص وقصد الله تعالى بالعبادة، فعندما يتذكر المسلم أنه يقصد بإماطة الأذى عن الطريق وجه الله وحده؛ يسهل ذلك عليه وينشط للقيام به.
- ابتغاء الأجر والثواب من الله سبحانه وتعالى في الآخرة، فيتذكر ما أعدّه الله

تعالى لعباده المؤمنين - المتصفين بهذه الشعبة وغيرها - في الآخرة من الأجر والثواب.
 - الاستعانة بالله تعالى، فلا يعين العبد على الطاعة إلا الله تعالى، وكلما وجد العبد في نفسه مشقة لأداء طاعة من الطاعات فعليه أن يتوجه إلى الله تعالى بالدعاء أن ييسر له فعل الطاعات وأن يعينه عليها.

- تقوى الله ﷻ؛ فهي سبب توفيق الله للعبد لكل عمل رشيد يرضو به رضا الله جل وعلا في دينه ودنياه.

- معرفة الأدلة الشرعية التي تحث على إمطة الأذى عن الطريق.
 - مجالسة العلماء والمصلحين والصالحين ومصاحبتهم والتعاون معهم في القيام بأعمال الخير والبر وسائر الأعمال الصالحة، ومنها إمطة الأذى عن الطريق.



٧٦. العفو عن الناس

العفو عن الناس من صفات الكرام، ومن محاسن الأخلاق، وهو دليل على حسن إسلام صاحبه، وسبيل إلى رفعة في الدنيا، ونيل الأجر والدرجات العليا في الآخرة، وهو سبب من أسباب قوة المجتمع وتآلف أفرادهِ.

والعفو عن الناس هو ترك معاقبة المخطئ منهم والتجاوز عنه مع المقدرة عليه، ومنه العفو عن بعض الحقوق وتنازل العبد عنها ابتغاء مرضاة الله، ومنه العفو عن المشركين وأهل الكتاب عند ضعف المسلمين في بعض الأوقات أو الأماكن.

ومن الأدلة الشرعية المتعلقة بالعفو عن الناس:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

قال السعدي رحمته الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ أي: لا يحلف ﴿أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ أي: أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا كان من جملة الخائضين في الإفك مسطح بن أثاثه وهو قريب لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان مسطح فقيراً من المهاجرين في سبيل الله، فحلف أبو بكر أن لا ينفق عليه لقوله الذي قال، فنزلت هذه الآية ينهاهم عن هذا الحلف المتضمن لقطع النفقة عنه، ويحثه على العفو والصفح، ويَعِدُّهُ بِمَغْفَرَةِ اللَّهِ إِنْ غَفَرَ لَهُ، فقال: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إذا عاملتم عبيده بالعفو والصفح عاملكم بذلك، فقال أبو بكر - لما سمع هذه الآية -: بلى، والله إني لأحب أن يغفر الله لي. فرجع النفقة إلى مسطح، وفي هذه الآية دليل على النفقة على القريب، وأنه لا تترك النفقة والإحسان بمعصية الإنسان، والحث على العفو والصفح، ولو جرى عليه ما جرى من أهل الجرائم [تفسير السعدي] (ص: ٥٦٤، ٥٦٥).

وقال سبحانه: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ وَالْعَافِيَتِ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿[آل عمران: ١٣٣، ١٣٤].

وقال ﷺ: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩].

قال السعدي رحمه الله: «قال تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ وهذا يشمل كل خير قلبي وفعلبي، ظاهر وباطن، من واجب ومستحب ﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ أي: عمن ساءكم في أبدانكم وأموالكم وأعراضكم، فتسمحوا عنه، فإن الجزاء من جنس العمل، فمن عفا الله عفا الله عنه، ومن أحسن أحسن الله إليه، فلهذا قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أي: يعفو عن زلات عباده وذنوبهم العظيمة فيسدل عليهم ستره، ثم يعاملهم بعفوه التام الصادر عن قدرته» [تفسير السعدي] (ص: ٢١٢).

وقال عز من قائل: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ٤٠ وَلَمَنِ اتَّصَرَ بِعَدُوِّهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ ٤١ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٤٢ وَلَمَنِ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿[الشورى: ٣٩ - ٤٣].

قال السعدي رحمه الله: «ذكر الله في هذه الآيات مراتب العقوبات، وأنها على ثلاث مراتب: عدل وفضل وظلم. فمرتبة العدل: جزاء السيئة بسيئة مثلها، لا زيادة ولا نقص، فالنفس بالنفس، وكل جارحة بالجارحة المماثلة لها، والمال يُضمن بمثله. ومرتبة الفضل: العفو والإصلاح عن المسيء، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ يجزيه أجرًا عظيمًا وثوابًا كثيرًا، وشرط الله في العفو الإصلاح فيه؛ ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق العفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته، فإنه في هذه الحال لا يكون مأمورًا به. وأما مرتبة الظلم فقد ذكرها بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

الظالمين ﴿الذين يَجْنُونَ عَلَىٰ غَيْرِهِمْ ابتداء، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايته، فالزيادة ظلم﴾ [تفسير السعدي] (ص ٧٦٠) باختصار].

وقال ﷺ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ فَطًّا غَلِظَ الْقَلْبُ لَا نَفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال سبحانه: ﴿قَالُوا أَإِذَا تَوَكَّلْنَا عَلَىٰ يُوسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنَ يَتَّىٰ وَبَصِيرٍ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَشْرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٠ - ٩٢].

قال الطبري رحمه الله: «يقول تعالى ذكره: قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ﴾ يقول: لا تعير عليكم ولا إفساد لما بيني وبينكم من الحرمة وحق الأخوة، ولكن لكم عندي الصفح والعفو» [تفسير الطبري] (١٣ / ٣٣٠).

وقال ﷺ: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ٣٤﴾ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

قال السعدي رحمه الله: «يقول تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ أي: لا يستوي فعل الحسنات والطاعات لأجل رضا الله تعالى، ولا فعل السيئات والمعاصي التي تسخطه ولا ترضيه، ولا يستوي الإحسان إلى الخلق، ولا الإساءة إليهم، لا في ذاتها، ولا في وصفها، ولا في جزائها ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾.

ثم أمر بإحسان خاص، له موقع كبير، وهو الإحسان إلى من أساء إليك، فقال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: فإذا أساء إليك مسيء من الخلق، خصوصاً من له حق كبير عليك، كالأقارب، والأصحاب، ونحوهم، إساءة بالقول أو بالفعل، فقابله بالإحسان

إليه، فإن قطعك فَصْلُهُ، وإن ظلمك فاعف عنه، وإن تكلم فيك غائبًا أو حاضراً، فلا تقابله، بل اعف عنه، وعامله بالقول اللين، وإن هجرك وترك خطابك، فطُيِّبْ له الكلام، وابذل له السلام، فإذا قابلت الإساءة بالإحسان، حصل فائدة عظيمة وهي ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ أي: كأنه قريب شفيق.

﴿وَمَا يُلْقِيهَا﴾ أي: وما يوفق لهذه الخصلة الحميدة ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ نفوسهم على ما تكره، وأجبروها على ما يحبه الله، فإن النفوس مجبولة على مقابلة المسيء بإساءته وعدم العفو عنه، فكيف بالإحسان؟

فإذا صبر الإنسان نفسه، وامثل أمر ربه، وعرف جزيل الثواب، وعلم أن مقابلته للمسيء بجنس عمله، لا يفيد شئاً، ولا يزيد العداوة إلا شدة، وأن إحسانه إليه، ليس بواضع قدره، بل من تواضع لله رفعه، هان عليه الأمر، وفعل ذلك، متلذذاً مستحلياً له. ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا دُحُوظٌ عَظِيمٌ﴾ لكونها من خصال خواص الخلق، التي ينال بها العبد الرفعة في الدنيا والآخرة، التي هي من أكبر خصال مكارم الأخلاق» [تفسير السعدي] (ص: ٧٤٩).

وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقال سبحانه عن اليهود: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِّيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فمن كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف أو في وقت هو فيه مستضعف فليعمل بآية الصبر والصفح عمن يؤذي الله ورسوله ﷺ من الذين أتوا الكتاب والمشركين، وأما أهل القوة فإنما يعملون بآية قتال أئمة الكفر

الذين يطعنون في الدين، وبآية قتال الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون» [«الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ» (ص ٢٢١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بغو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله» [رواه مسلم: ٢٥٨٨].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الأنصار كَرِشي وعَيْبتي، وإن الناس سيكثرُونَ، ويقل الأنصار، فاقبلوا من محسنهم واعفوا عن مسيئهم» [رواه البخاري: ٣٨٠١، ومسلم: ٢٥١٠]. «الأنصار كَرِشي وعَيْبتي» أي: جماعتي وخاصّتي الذين أثق بهم وأعتمد عليهم في أموري.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «كان رجل يُدّين الناس، فكان يقول لفتاه: إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه، لعل الله أن يتجاوز عنا. فلقي الله فتجاوز عنه» [رواه البخاري: ٣٤٨٠، ومسلم: ١٥٦٢].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «تعاَفُوا الحدود فيما بينكم، فما بلغني من حَدٍّ فقد وجب» [رواه أبو داود: ٤٣٧٦]. «تعاَفُوا الحدود فيما بينكم» أي: تجاوزوا عنها ولا ترفعوها إلَيَّ، فإني متى علمتها أقمتها.

وعن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة؟ قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أنت عبي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سَخَّابٌ فِي الْأَسْوَاقِ، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر [رواه البخاري: ٢١٢٥]. «حِرْزًا» أي: حِصْنًا. «لِلْأُمِّيِّينَ» أي: للعرب. «ولا سَخَّابٌ» أي: ولا يرفع صوته على الناس.

- أنه زيادة في إيمان صاحبه ودلالة على حسن إسلامه.
- أنه سبيل إلى محبة الله والحصول على عفوه سبحانه.
- أنه وسيلة إلى محبة الناس.
- أنه دليل على حسن خلق صاحبه.
- أنه من صفات المتقين.
- أنه عاصم من الزلل.
- أن من عفى عن الناس عفى الله عنه، فالجزاء من جنس العمل.
- حصول صاحبه على الأجر العظيم والثواب الكبير من الله.
- أنه سبب في عزة الإنسان ونصرتة على من عاداه.
- أنه يجعل العدو صديقاً حميماً.
- أنه يؤدي إلى قوة المجتمع وسلامة العلاقة بين الأفراد.
- أنه تأليف لغير المسلمين وسبيل لدعوتهم للإسلام.

ومن الوسائل المعينة على العفو عن الناس:

- استحضار العبد تقصيره مع ربه مع أنه سبحانه كثير الإحسان إليه، فإن هذا يقتضي من العبد أن يعفو عن المسيئين إليه ويسامحهم.
- أن يتذكر العبد ذنوبه، ويعلم أن الله تعالى إنما سلط عليه من أساء إليه بسبب ذنوبه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَرُكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، فإذا علم العبد أن جميع ما يناله من المكروه فسبب ذنوبه، اشتغل بالتوبة والاستغفار من الذنوب التي سلطهم عليه بسببها عن ذمهم ولومهم والوقعة فيهم والانتقام منهم.
- أن يعلم العبد حسن الثواب الذي وعده الله لمن عفى وصبر.
- أن يعلم أنه إذا عفى وأحسن أورثه ذلك من سلامة القلب لإخوانه، ونقائه من

الغش، والغل، وطلب الانتقام، وإرادة الشر، وحصل له من حلاوة العفو ما يزيد لذته ومنفعته عاجلاً وأجلاً على المنفعة الحاصلة له بالانتقام أضعافاً مضاعفة.

– أن يعلم أن الجزاء من جنس العمل، وأنه نفسه ظالم مذنب، وأن من عفى عن الناس عفى الله عنه، ومن غفر غفر الله له.

– التبعّد لله تعالى باسمه العفو؛ فهو سبحانه يحب العفو، فينبغي أن يحب العبدُ العفو أيضاً، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قلت: يا رسول الله، أرايت إن علمتُ أيَّ ليلةٍ ليلةُ القدر ما أقول فيها؟ قال: «قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني» [رواه الترمذي: ٣٥١٣].

– الاقتداء بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتأسي به في العفو.
– تذكر أن العفو رحمة بالمسيء، وتقدير لجانب ضعفه البشري.



٧٧. الستر على المسلمين

إن من أعظم الفضائل التي يمكن أن يتحلّى بها المسلم الستر على إخوانه في أخطائهم وذنوبهم وفيما يسوؤهم انكشافه منهم، وهو خلق لا يكون إلا في نفس نبيلة، فلا تكاد تجد لئيماً أو وضيعاً يتخلق بمثل هذا الخلق، فإن دناءته ووضاعته تدفعه دائماً إلى محاولة هتك ستر غيره، وأن يضع منه ويحقّر من شأنه، ظناً منه أنه بهذا يرفع من خسيّة نفسه، ولهذا كان الستر على المسلمين من محاسن الأخلاق، وفضائل الأعمال، ومن شعب الإيمان.

وحقيقة الستر على المسلم: تغطية عيوبه، وإخفاء أخطائه وزلاته عن مسامع وأعين الخلق.

فمن عرف من غيره معصية؛ كزنى، أو شرب خمر، أو استعمال آلات المعازف، ونحوها، فينبغي عليه أن يستر عليه.

ولكن ينبغي أن يتنبه إلى أنه ليس معنى الستر على المسلم أن يترك إنكار المنكر، ولكن يجب أن يستر عليه وفي نفس الوقت ينكر عليه فيما بينه وبينه، وهذا محله فيمن ليس معروفاً بالفساد وفيمن تُرجى توبته ورجوعه، أما من كان معروفاً بالإقامة على المنكر والتمادي والمجاهرة فيه، أو كان فعله فيه أذية للمسلمين؛ فإنه ينبغي أن يُرفع أمره إلى الحاكم.

الأدلة على أن الستر على المسلمين من شعب الإيمان:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة» [رواه مسلم: ٢٦٩٩].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا يستر عبد عبداً في الدنيا، إلا ستره الله يوم القيامة» [رواه مسلم: ٢٥٩٠].

وعن نعيم بن هزال: أن أباه هزالاً كان استأجر ماعز بن مالك، وكانت له جارية يقال لها: فاطمة، قد أُمِّلِكَت، وكانت ترعى غنماً لهم، وإن ماعزاً وقع عليها، فأخبر هزالاً فخدعه، فقال: انطلق إلى النبي ﷺ فأخبره، عسى أن ينزل فيك قرآن، فأمر به النبي ﷺ فُرْجِم، فلما عَصَّتْهُ مَس الحجارة، انطلق يسعى، فاستقبله رجل بلخي جزور، أو ساق بعير، فضربه به، فصرعه، فقال النبي ﷺ: «ويلك يا هزال، لو كنت سترته بثوبك، كان خيراً لك» [رواه أحمد: ٢١٨٩١].

«أُمِّلِكَت» يعنى: طُلِّقَتْ من زوجها. «وقع عليها»: زنى بها. «بلخي جزور» أي: العظم الذي تنبت عليه أسنان الجمل. «عَصَّتْهُ مَس الحجارة» أي: وجد ألم إصابتها في جسمه.

ويؤخذ من الحديث: أنه يستحب لمن وقع في معصية وندم أن يبادر إلى التوبة إلى الله تعالى منها، ويستتر بستر الله، ولا يذكر ذلك لأحد، وإن اتفق أنه أخبر أحداً، فيستحب أن يأمره بالتوبة وستر ذلك عن الناس، ويستحب للمخبر أيضاً أن يستر ذلك عليه، ولا يفضحه، ولا يرفعه إلى الإمام، كما جرى لماعز مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فإنهما أمراه بالتوبة وبالستر على نفسه كما في [رواه مالك في الموطأ: ٣٠٣٦].

وقوله ﷺ لهزال: «لو سترته بثوبك لكان خيراً لك»، المعنى: خير لك مما أمرته به من إظهار أمره، وكان ستره بأن يأمره بالتوبة والكتمان، كما أمره أبو بكر وعمر. وذكر الثوب مبالغة، أي: لو لم تجد السبيل إلى ستره إلا بردائك ممن علم أمره كان أفضل مما أشرت به عليه من الإظهار.

وهذا كله في غير المجاهر، فأما إذا كان متظاهراً بالفاحشة، مجاهرًا، فيستحب مكاشفته به، لينزجر هو وغيره. [ينظر: «ذخيرة العقبى في شرح المجتبى» (١٩ / ٢٣١)].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: صعد رسول الله ﷺ المنبر فنادى بصوت رفيع، فقال: «يا معشر من أسلم بلسانه ولم يُفَضِّصِ الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين، ولا تعيروهم، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته

يفضحه ولو في جوف رحله». قال: ونظر ابن عمر يومًا إلى الكعبة فقال: «ما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك» [رواه الترمذي: ٢٠٣٢].
«بصوت رفيع» أي: عالٍ. «ولم يُفَضَّ» أي: لم يصل. «ولو في جوف رحله» أي: ولو كان في وسط منزله مخفيًا من الناس.

وعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلَّى الله عليه وآله يقول: «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم، أو كدت أن تفسدهم» فقال أبو الدرداء رضي الله عنه: كلمة سمعها معاوية من رسول الله نفعه الله تعالى بها. [رواه أبو داود: ٤٨٨٨].

أي: إذا بحثت عن معائبهم وجاهرتهم بذلك، فإنه يؤدي إلى قلة حيائهم منك، فيجتريئون على ارتكاب أمثالها مجاهرة، فالذي يتتبع عورة هذا وعورة هذا ويفضحه، فإنه سوف يجاهر بالمعصية؛ لأنه لا يوجد شيء يمنعه؛ من حياء ولا من غيره. فلذلك كان معاوية يستر على الناس، وإذا سمع عن أحد شيئًا ستر عليه.

وعن المقدم بن معدي كرب وأبي أمامة رضي الله عنهما عن النبي صلَّى الله عليه وآله قال: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم» [رواه أبو داود: ٤٨٨٩].

«ابتغى» أي: طلب. «الريبة» أي: التهمة، يعني: لو طلب الأمير عيوب الناس وتجسس أحوالهم لأهلكهم، فإن الإنسان قلما سلم من صغيرة أو زلة، فلو آذاهم بكل ما يقولون ويفعلون لاشتدت عليهم الأحوال، بل ينبغي أن يستر عليهم عيوبهم، ويعفو عنهم ذنوبهم ما استطاع.

الثمرات المترتبة على الستر على المسلمين:

إن للستر على المسلمين ثمرات كثيرة وفوائد جليلة في الدنيا والآخرة، من ذلك: - أنه سبب لستر الله على العبد، فكلُّ من له زلات مهما كان صالحًا، فلا أحد غني عن ستر الله تعالى، فمن ستر على المسلمين زلاتهم ستر الله عليه زلاته وهفواته عن أعين الخلق سواء في الدنيا أو يوم القيامة يوم تُبلى السرائر وتُهتك الحُجُب.

- أنه سبب من أسباب قلة الفواحش وعدم انتشارها، فهو يطفى نار الفساد في المجتمع، فإن صاحب الذنب أو المعصية يسعى إلى الاحتجاب بذنبه عن أعين الناس، فإذا ما حصل أن هُتِكَ ستره فقد يفجر في معاصيه؛ إذ لم يعد هناك ما يخافه بعد ذلك.

- أنه من أسباب سلامة القلب تجاه المسلمين، فإن من هُتِكَ ستر أخيه فقد أوقد بينه وبينه نار العداوة، بل وصارت قلوب الناس تجاهه من انكشفت عورته فيها من عدم الاحترام ما هو معلوم لكل عاقل، فكان هذا من أسباب العداوة بينه وبين من انكشفت عورته عندهم.

- أن الستر على المسلمين خلق يُتقرب به إلى الله، فإن فيه اتصافاً بصفة يحبها الله تعالى، فعن يعلى بن أمية رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ ﻻ يَكْرَهُ حَيَّ سَتِيرَ يَحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسَّتْرَ» [رواه أبو داود: ٤٠١٢].

- أن فيه طاعة للنبي ﷺ فقد سبق أنه قال لمن دل ماعز على الاعتراف بذنبه: «لو سترته بثوبك لكان خيراً لك»، وهذا فيه إشارة إلى ما كان يمكن أن يحصله من ثواب لو ستر على ماعز ما وقع منه.

الوسائل المعينة على التخلص بخلق الستر على المسلمين:

- صحة الإيمان وسلامة العقيدة، فالقلب هو ملك الجوارح، فإذا صح القلب وسلم من الآفات، انجمع عزمه على فعل الخيرات، ومنها الستر على المسلمين رغبة في ثواب الله تعالى.

- معرفة العبد أن كشفه لستر أخيه المسلم مقتضى لأن يكشف الله عورته ويفضحه، فالجزاء من جنس العمل كما سبق في النصوص السابقة.

- أن يتذكر المرء أن كشفه لستر أخيه أو إبانته عن عورته لن تفيده شيئاً، بل إنها قد تضره.

- أن يعلم أن في هذا نوع من الغيبة، طالما لم يكن هناك مصلحة لهتك هذا الستر،

كما لو كان صاحب الذنب من المفسدين، وأما في غير ذلك فهو غيبة، والغيبة محرمة، بل عدها بعض أهل العلم من كبائر الذنوب.

- انكفاف المسلم عن مجالس اللغو التي يكثر فيها القيل والقال، ويُتكلم فيها في أعراض المسلمين وعوراتهم.

- أن يعلم أن ترك الستر على الناس فيه إشاعة للمنكر، والتحدث فيه مما يفسد الفرد والمجتمع ويجعل المعاصي مألوفة للقلوب لا تنكر ولا تستهجن.



٧٨. قضاء حوائج المسلمين

إن من محاسن الشريعة الإسلامية أنها لم تأت لتنظيم العلاقة بين الخلق وخالقهم فقط، وإنما لتنظيمها أيضًا بين الخلق وبعضهم البعض، ولذا فإن الناظر في نصوص الشرع الحنيف يجده مليئًا بالحث على حسن المعاملة مع الخلق والإحسان إليهم وقضاء حوائجهم لاسيما المسلمين منهم، بل قد جعل ذلك من شعب الإيمان، ورتب عليه جزيل الثواب.

وقضاء حوائج المسلمين: هو بذل الجهد في إيصال كل خير ومعروف إلى المسلمين، ودفع كل ضرر وأذى عنهم.

فيدخل في ذلك الإحسان إلى المحتاج منهم بالمال كأن يشتري دواء لمريض لا يجد، وكأن يشفع لهم عند ذي سلطان فيما ليس فيه أخذ ما ليس لهم، وكالمساعدة في حمل شيء، وكذا أن يشتري المسلم لأخيه شيئًا يحتاج إليه من مكان لا يصل إليه هذا المحتاج، أو يتوسط له في زواج أو عمل يحتاجه، أو يقضي عنه دينًا، أو يزيل عنه همًا، ونحو ذلك مما لا ينحصر عددًا.

الأدلة على أن قضاء حوائج المسلمين من شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

قال السعدي رحمته الله: «أي: يُعين بعضكم بعضًا على البر، وهو: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأعمال الظاهرة والباطنة، من حقوق الله وحقوق الآدميين.

والتقوى في هذا الموضع: اسم جامع لترك كل ما يكرهه الله ورسوله، من الأعمال الظاهرة والباطنة. وكلُّ خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها، أو خصلة من خصال الشر المأمور بتركها، فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه، وبمعاونة غيره من إخوانه المؤمنين عليها، بكل قول يبعث عليها وينشط لها، وبكل فعل كذلك.

﴿وَلَا تَعَاوُزُوا عَلَى الْإِثْمِ﴾ وهو التجرؤ على المعاصي التي يَأْتِمُ صاحبها ﴿وَالْعُدُونَ﴾ وهو التعدي على الخلق في دماءهم وأموالهم وأعراضهم، فكل معصية وظلم يجب على العبد كف نفسه عنه، ثم إعانة غيره على تركه» [تفسير السعدي (ص: ٢١٩)].

وقال تبارك اسمه: ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

وقال سبحانه عن موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣، ٢٤].

قال السعدي رحمته الله: «﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ مواشيهم، وكانوا أهل ماشية كثيرة ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ أي: دون تلك الأمة ﴿امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ تمنعان غنمهما عن حياض الناس، لعجزهما عن مزاحمة الرجال، وبخلهم وعدم مروءتهم عن السقي لهما.

﴿قَالَ﴾ لهما موسى ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي: ما شأنكما بهذه الحالة ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ أي: قد جرت العادة أنه لا يحصل لنا سقي حتى يصدر الرعاء مواشيهم، فإذا خلا لنا الجو سقينا ﴿وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أي: لا قوة له على السقي، فليس فينا قوة، نفتقر بها، ولا لنا رجال يزاحمون الرعاء.

فرق لهما موسى عليه السلام ورحمهما ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ غير طالب منهما الأجرة، ولا له قصد غير وجه الله تعالى» [تفسير السعدي (ص: ٦١٤) بتصرف يسير].

وقال رحمته الله عن ذي القرنين: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾

قال ابن كثير رحمته الله: «وقوله: ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أي: لا استعجام كلامهم وبعدهم عن الناس.

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ أي: أجرًا عظيمًا، يعني: أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم ما لا يعطونه إياه، حتى يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدًا. فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي: إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه، ولكن ساعدوني ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بعملكم وآلات البناء» [تفسير ابن كثير] (٥ / ١٩٥) باختصار.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يُسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة فرّج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة» [رواه البخاري: ٢٤٤٢، ومسلم: ٢٥٨٠]. «ولا يُسلمه» أي: لا يتركه مع من يؤذيه ولا فيما يؤذيه، بل ينصره ويدفع عنه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسّر على مُعْسِرٍ، يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا، ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه». [رواه مسلم: ٢٦٩٩]. «نفّس» أي: أزال. «ومن يسر على معسر» أي: سهّل على فقير، أي: من كان له دين على فقير فسهّل عليه بإمهال، أو بترك بعضه، أو كله.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من عبد أنعم الله عليه نعمة فأسبغها عليه، ثم جعل شيئًا من حوائج الناس إليه، فتبرّم، فقد عرّض تلك النعمة للزوال» [رواه الطبراني في «الأوسط»: ٧٥٢٩]. «تبرّم» أي: فتضجر.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل سُلَامَى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته

فيحمله عليها أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة» [رواه البخاري: ٢٩٨٩، ومسلم: ١٠٠٩].

«سلامي» أي: مفصل. «يعدل بين الاثنين صدقة» أي: يصلح بينهما بالعدل.

وعن الحسن البصري رحمته الله قال: «لأن أقضي لمسلم حاجة أحب إليّ من أن أصلي ألف ركعة» [قضاء الحوائج لابن أبي الدنيا (ص: ٤٨)].

الثمرات المترتبة على قضاء حوائج المسلمين:

- أنه طاعة لله تعالى، إذ قد ثبت الأمر بها واستحبابها من قبل الشرع الحنيف.
- أنه سبب لتسهيل الأمور، وإعانة الله تعالى للعبد على حوائجه.
- أنه سبب لانشرac الصدر، وراحة البال.
- أنه من أعظم أسباب نوال فضل الله تعالى في الدنيا والآخرة، فإنه ما نيل ما عند الله تعالى إلا بالإحسان في عبادة الله، والإحسان في معاملة خلقه.
- أنه سبب في مغفرة الذنوب؛ فإن الرجل الذي سقى الكلب غفر الله له، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بينا رجل يمشي، فاشتد عليه العطش، فنزل بئراً فشرب منها، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه ثم أمسكه بفيه، ثم رقي فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له، قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجراً؟ قال: في كل كبد رطبة أجر» [رواه البخاري: ٢٣٦٣]. فإذا كان هذا في الكلب فما بالك بقضاء حاجة المسلم.
- أنه سبب لثبوت النعم وعدم زوالها؛ فإن لكل نعمة شكراً تستلزمه لئلا تتعرض للزوال، ومن أعظم الشكر أن يستعمل العبد ما أنعم الله به عليه في قضاء حوائج المسلمين والسعي في مصالحهم.
- أنه من أسباب ثبوت الأقدام على الصراط يوم القيامة.
- أنه من أسباب دفع البلاء عن العبد ونزول الخيرات والبركات عليه، فإن الجزاء

من جنس العمل؛ فمن أحسن لعباد الله أحسن الله إليه، قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]. وقال ابن القيم رحمه الله: «وقد دل العقل والنقل والفطر وتجارب الأمم -على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها- على أن التقرب إلى رب العالمين وطلب مرضاته، والبر والإحسان إلى خلقه، من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر، فما استُجلبت نعمُ الله واستُدْفعتْ نِقَمُه بمثل طاعته والتقرب إليه، والإحسان إلى خلقه» [«الداء والدواء» (ص: ٣١)].

- أنه من أعظم الأسباب في إشاعة المحبة والأخوة والود بين الناس.

الوسائل المعينة على قضاء حوائج المسلمين:

- صحة الإيمان وسلامة العقيدة، فالقلب هو ملك الجوارح، فإذا صح القلب وسلم من الآفات، انجمع عزمه على فعل الخيرات، ومنها قضاء حوائج المسلمين رغبةً في ثواب الله تعالى.
- أن يستحضر العبد ثواب الله تعالى على هذه الخصلة.
- النظر في سير الأنبياء والصالحين والافتداء بهم، فقد سبق أن ذكرنا من كتاب الله ما فعله موسى مع المرأتين، وما كان من ذي القرنين من إعانة الأمة الضعيفة التي طلبت منه أن يصنع لهم سداً.
- أن يتربى المسلم على الأخوة الصادقة، وأن يعلم أن المسلمين جميعاً إخوة، لهم حقوق ينبغي أداؤها.
- الإخلاص لله تعالى، فإن من أخلص نيته لله تعالى في الإحسان إلى الخلق طلباً لثواب الله تعالى، لم يردّه عن أداء حوائجهم شيء، فربما كان المرء لا يحب شخصاً ما فتبطلت نفسه عن قضاء حاجته، فإذا استحضر الإخلاص لله، وأنه إنما يصنع ذلك ابتغاء ثواب ربه، انبعثت نفسه في قضاء حاجته بلا نظر لشخصه.
- الابتعاد عن الانغماس في الحياة المادية، فهي من أعظم ما يردُّ عن الخير وعن

الإحسان إلى الناس، فإنها تجعل المرء لا ينشغل إلا بتحصيل منفعه بأنانية لا يعرفها الإسلام أبداً.

- التَّعَوُّدُ عَلَى الْكَرَمِ وَالسَّخَاءِ، وَالِاسْتِعَاذَةُ مِنَ الْبَخْلِ وَالشَّحِّ.

- تَذَكُّرُ فَنَاءِ هَذِهِ الدُّنْيَا، وَأَنَّ الْبَاقِيَ هُوَ مَا يَقْدَمُهُ الْإِنْسَانُ لِآخِرَتِهِ، فَهَذَا يَدْفَعُهُ إِلَى بَذْلِ مَا فِي يَدِهِ إِلَى غَيْرِهِ، وَعَدَمِ انْتِظَارِ مُقَابِلٍ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، بَلْ يَتَنَظَّرُ ثَوَابَ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ.



٧٩. أكل الحلال

أحل الله تعالى لعباده الطيبات من الرزق ليتمتعوا بها أكلاً ولبساً وتلذذاً، فيعيشوا سعداء، تعود عليهم بركتها ونفعها في أنفسهم وذرياتهم، وحرّم عليهم الخبائث التي يكون أصلها محرماً، كالميتة والدم ولحم الخنزير وسائر النجاسات، أو كان كسبها محرماً من ربا أو سرقة أو اختلاس أو رشوة أو غش أو نحو ذلك، فيسلبها الخير والبركة ويحل فيها المحق والضرر؛ لكونها جاءت مخالفة لشرعه وهديه؛ ولذا كان الأكل من الحلال من أهم شعب الإيمان، ومن واجبات الإسلام.

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أن أكل الحلال من أهم شعب الإيمان:

قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

قال السعدي رحمته الله: «هذا خطاب للناس كلهم، مؤمنهم وكافرهم، فامتّن عليهم بأن أمرهم أن يأكلوا من جميع ما في الأرض، من حبوب، وثمار، وفواكه، وحيوانات، حالة كونها ﴿حَلَالًا﴾ أي: محللاً لكم تناوله، ليس بغصب ولا سرقة، ولا محصلاً بمعاملة محرمة أو على وجه محرّم، أو معيناً على محرّم. ﴿طَيِّبًا﴾ أي: ليس بخبيث، كالميتة والدم، ولحم الخنزير، والخبائث كلها» [تفسير السعدي] (ص: ٨٠).

وقال سبحانه: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ عَلَيْهِ تَعَبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وقال ﷺ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ١٥١].

قال ابن كثير رحمه الله: «يأمر تعالى عباده المرسلين، عليهم الصلاة والسلام أجمعين، بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح، فقام الأنبياء عليهم السلام بهذا أتم القيام، وجمعوا بين كل خير، قولاً وعملاً ودلالة ونصحاً، فجزأهم الله عن العباد خيراً» [تفسير ابن كثير (٥/ ٤٧٧)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربّيها لصاحبه، كما يربي أحدكم فلّوه حتى تكون مثل الجبل» [رواه البخاري: ١٤١٠، ومسلم: ١٠١٤].

«بعدل» أي: بقيمة. «طيب» أي: حلال. «يربّيها» أي: ينميها ويضاعف أجرها. «لصاحبه» أي: الذي أنفقها. «فلّوه» أي: مْهره، وهو الصغير من الخيل. «مثل الجبل» أي: يصبح ثوابها كثواب من تصدق بمقدار الجبل من المال.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء، يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟» [رواه مسلم: ١٠١٥].

قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله: «في هذا الحديث إشارة إلى أنه لا يُقبل العمل ولا يزكو إلا بأكل الحلال، وأن أكل الحرام يفسد العمل، ويمنع قبوله، وأن الرسل وأممهم مأمورون بالأكل من الطيبات التي هي الحلال، وبالعمل الصالح، فما دام الأكل حلالاً، فالعمل الصالح مقبول، فإذا كان الأكل غير حلال، فكيف يكون العمل

مقبولا؟ وما ذكره بعد ذلك من الدعاء، وأنه كيف يتقبل مع الحرام، فهو مثال لاستبعاد قبول الأعمال مع التغذية بالحرام» [«جامع العلوم والحكم» (١/ ٢٦٠)].

وعن المقدم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده» [رواه البخاري: ٢٠٧٢]. وعن كعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنه لا يربو لحم نبت من سُحتٍ إلا كانت النار أولى به» [رواه الترمذي: ٦١٤].

«لا يربو» أي: لا يزيد ولا ينمو. «نبت» أي: نشأ. «من سُحتٍ» أي: من حرام. وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كان لأبي بكر غلام يُخرج له الخراج، وكان أبو بكر يأكل من خراج، فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: أتدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية، وما أحسن الكهانة، إلا أني خدعته، فلقيني فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكلت منه. فأدخل أبو بكر يده، فقاء كل شيء في بطنه» [رواه البخاري: ٣٨٤٢].

«غلام» أي: عبد. «يُخرج له الخراج» أي: يأتي له بما يكسبه من الخراج، وهو ما كان يقرره السيد على عبده من مال يدفعه من كسبه. «الكهانة» هي الإخبار عما سيكون من غير دليل شرعي.

وعن زيد بن أسلم أنه قال: شرب عمر بن الخطاب لبناً فأعجبه، فسأل الذي سقاه، من أين هذا اللبن؟ فأخبره أنه ورد على ماء، فإذا نَعَم من نَعَم الصدقة وهم يسقون، فحلبوا لي من ألبانها، فجعلته في سقائي فهو هذا. فأدخل عمر بن الخطاب يده في فمه فاستقاه [رواه مالك في «الموطأ» (١/ ٢٦٩)].

«نَعَم الصدقة» أي: إبل أو غنم الصدقة.

وقال وهيب بن الورد: «لو قمت قيام هذه السارية ما نفعتك حتى تنظر ما يدخل بطنك حلال أم حرام» [«حلية الأولياء» (٨/ ١٥٤)].

وقد ذُكِرَ الحلال عند بكر بن عبد الله المزني فقال: «إن الحلال لو وُضع على جرح لبرئ» [«الورع» لابن أبي الدنيا (ص: ١١٧)].

وقالت رابعة العدوية لأبيها: يا أبة، لست أجعلك في حل من حرام تطعمنيه، فقال لها: أرايت إن لم أجد إلا حراما قالت: نصبر في الدنيا على الجوع خير من أن نصبر في الآخرة على النار. [وفيات الأعيان لابن خلكان (٢٨٥/ ٢)].

وقال أبو عبد الله الباجي الزاهد: «خمس خصال بها تمام العمل: الإيمان بالله ﷻ، ومعرفة الحق، وإخلاص العمل لله، والعمل على السنة، وأكل الحلال» [«جامع العلوم والحكم» (١/ ٢٦٢)].

ثمرات أكل الحلال:

يتبين لنا من خلال النصوص السابقة ما لأكل الحلال من ثمرات جليلة وفوائد عظيمة، منها:

- أن الله ﷻ لا يتقبل الصدقات إلا إذا كانت من حلال.
- أكل الحلال سبب موجب لإجابة الدعاء.
- أنه سبب من أسباب التوفيق للطاعة، وهو عون على الأعمال الصالحة.
- أنه من أسباب القوة والعافية والصحة.
- أكل الحلال سبب في تذوق حلاوة العبادة، فعن عبد الله بن المبارك قال: قيل لوهيب بن الورد: أيجد طعم العبادة من يعصي الله؟ قال: «لا، ولا من يهمل بالمعصية» [«صفة الصفوة» (١/ ٤٢٠)].

- أكل الحلال يلين القلب ويذهب عنه القسوة، كما ورد عن الإمام أحمد رحمته الله فإنه سُئِلَ عَمَّا يَلِينُ الْقَلْبَ؟ فقال: أكل الحلال. فسأل السائلُ بشر بن الحارث وعبد الوهاب الوراق رحمهما الله فقالا: ذكر الله. فذكر لهما السائل قولَ أحمد، فقالا: جاء بالأصل [«الأداب الشرعية والمنح المرعية» (٣/ ٢٧٧)].

- أن من ثمرات أكل الحلال البركة في الذرية، وصلاح الأولاد.
- ومن ثمراته أيضًا البركة في العمر، والنماء في المال.

الأسباب والوسائل المعينة على أكل الحلال:

- تقوى الله تعالى، وذلك لأن التقوى - وهي مخافة الله تعالى - تدعو الإنسان إلى الالتزام بأوامر الله واجتناب نواهيه، وهذا يدفع العبد لتحرير الرزق الحلال والبعد عن الحرام منه.
- استشعار فضل أكل الحلال وما يناله العبد من ثواب جزيل جرّاء ذلك، فإن معرفة ثمرات الأشياء، واستحضار حسن عواقبها من أكبر الدواعي إلى فعلها، والسعي إليها.
- تذكر عقوبة أكل الحرام.
- مجاهدة النفس وتعويدها على التحلي بالأخلاق الكريمة الحسنة ومنها تحرّي أكل الحلال، وهذا يحتاج إلى الكثير من الصبر.
- الاستعانة بالله تعالى، فلا يعين العبد على تحرّي أكل الحلال إلا الله تعالى، وكلما وجد العبد في نفسه مشقة لأداء طاعة من الطاعات فعليه أن يتوجه إلى الله تعالى بالدعاء أن ييسر له فعل الطاعات وأن يعينه عليها.
- الاقتداء بالنبي ﷺ والرسول من قبله؛ إذ كان أمر الله لهم جميعًا بتحرير الحلال من الطيبات.
- الاقتداء بالسلف الصالح وما كانوا عليه من تحرّي الحلال والبعد عن الحرام.
- البعد عن كل كسب فيه شبهة، فإنه من وقع في الشبهات وقع في الحرام.



٨٠. غض البصر

حرم الله تعالى الفواحش على عباده، وحثهم على اجتنابها بكل طريق، وشرع لذلك من الوسائل ما يعين على التنزه عنها، ومن أعظم ما شرعه الله لسد الطرق إلى هذه الفواحش، هو غض البصر؛ فإن النظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان، فالنظرة تولد خطرة، ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة، فيقع المحذور ولا بد ما لم يمنع منه مانع، ولهذا قيل: الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده.

وحقيقة غض البصر: أن يكف المسلم بصره عن النظر لما حُرِّم عليه، ولا ينظر إلا لما أُبيح له النظر إليه.

وهذا يدخل فيه نظر الرجل لكل امرأة لا تحل له من غير حاجة إلى النظر إليها، وكذا نظر المرأة إلى كل رجل لا يحل لها من غير حاجة إلى النظر إليه، وكذا نظر الرجل إلى عورة الرجل، ونظر المرأة إلى عورة المرأة، ونظر الرجل أو المرأة إلى الصور العارية أو مشاهدة الأفلام الإباحية، فكل هذا حرام، وغض البصر عنه واجب.

الأدلة على أن غض البصر من شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠-٣١].

قال السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية: «أي: أرشد المؤمنين، أن ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ عن النظر إلى العورات وإلى النساء الأجنبية، وإلى زينة الدنيا التي تفتن، وتوقع في المحذور.

﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ عن الوطء الحرام، في قُبُل أو دُبُر، أو ما دون ذلك، وعن

التمكين من مسها، والنظر إليها ﴿ذَلِكَ﴾ الحفظ للأبصار والفروج ﴿أَزْكَى لَهُمْ﴾ أظهر وأطيب، وأنمى لأعمالهم، فإن من حفظ فرجه وبصره، طهر من الخبث الذي يتدنس به أهل الفواحش، وزكت أعماله بسبب ترك المحرم الذي تطمع إليه النفس وتدعو إليه، فمن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، ومن غص بصره عن المحرم أنار الله بصيرته، ولأن العبد إذا حفظ فرجه وبصره عن الحرام ومقدماته مع داعي الشهوة، كان حفظه لغيره أبلغ، ولهذا سماه الله حفظاً، فالشيء المحفوظ إن لم يجتهد حافظه في مراقبته وحفظه، وعمل الأسباب الموجبة لحفظه، لم ينحفظ، كذلك البصر والفرج، إن لم يجتهد العبد في حفظهما، أوقعاه في بلایا ومحن. ثم ذكّرهم بعلمه بأعمالهم، ليجتهدوا في حفظ أنفسهم من المحرمات.

ولما أمر المؤمنين بغض الأبصار وحفظ الفروج أمر المؤمنات بذلك، فقال: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ﴾ عن النظر إلى العورات والرجال بشهوة ونحو ذلك من النظر الممنوع ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ من التمكين من جماعها، أو مسها، أو النظر المحرم إليها» [تفسير السعدي] (ص: ٥٦٦).

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: كان الفضل رديف رسول الله ﷺ، فجاءت امرأة من خثعم، فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه، وجعل النبي ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر... [رواه البخاري: ١٥١٣، ومسلم: ١٣٣٤]. «رديف» أي: ركباً وراءه. «الشق الآخر» أي: الجانب الآخر.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب على ابن آدم حظاً من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان المنطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك كله ويكذبه» [رواه البخاري: ٦٢٤٣، ومسلم: ٢٦٥٧].

ومحل الشاهد منه قوله ﷺ: «فزنا العين النظر» فإطلاق اسم الزنا على نظر العين إلى ما لا يحل دليل واضح على تحريمه والتحذير منه.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إياكم والجلوس على الطرقات»، فقالوا: ما لنا بد، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال: «إذا أبيتم إلا المجالس، فأعطوا الطريق حقها» قالوا: وما حق الطريق؟ قال: «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر» [رواه البخاري: ٢٤٦٥، ومسلم: ٢١٢١].

وعن بُريدة بن الحَصْب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لعليّ: «يا عليّ، لا تُتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى، وليست لك الآخرة» [رواه أبو داود: ٢١٤٩].

«فإن لك الأولى» أي: النظرة الأولى جائزة لك إذا كانت من غير قصد. «وليست لك الآخرة» أي: النظرة الثانية؛ لأنها باختيارك فتكون عليك.

وعن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجأة، فقال: «اصرف بصرك» [وراه أبو داود: ٢١٤٨].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تبأشر المرأة المرأة فتنتعها لزوجهها، كأنما ينظر إليها». [رواه البخاري: ٥٢٤٠].

«تبأشر» من المباشرة وهي الملامسة في الثوب الواحد، فتحس بنعومة بدنها وغير ذلك، وقد يكون المراد مطلق الاطلاع على بدنها مما يجوز للمرأة أن تراه، ولا يجوز أن يراه للرجل. «فتنتعها» أي: فتصفها. «كأنه ينظر إليها» لدقة الوصف وكثرة الإيضاح.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يُفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، ولا تُفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد» [رواه مسلم: ٣٣٨].

قال الشوكاني رحمته الله: «فيه دليل على أنه يحرم أن يضطجع الرجل مع الرجل، أو المرأة مع المرأة في ثوب واحد مع الإفضاء ببعض البدن؛ لأن ذلك مظنة لوقوع المحرم من المباشرة أو مس العورة أو غير ذلك» [نبيل الأوطار (٦/ ١٣٤)].

وعن أنس رضي الله عنه قال: «إذا مرت بك امرأة، فغمّض عينيك حتى تجاوزك» [رواه ابن أبي الدنيا في «الورع»: ٧٢].

وقال وكيع: خرجنا مع سفيان الثوري في يوم عيد فقال: «إن أول ما نبدأ به في يومنا غُضُّ أبصارنا». [رواه ابن أبي الدنيا في «الورع»: ٦٦].

الثمرات المترتبة على غض البصر:

- تخليص القلب من ألم الحسرة.
- أنه يورث نورًا وإشراقًا في القلب يظهر في العين والوجه والجوارح، وإطلاق البصر يورث ظلمة في الوجه والجوارح.
- أنه يورث صحة الفراسة.
- أنه يفتح له طرق العلم وأبوابه ويسهل عليه أسبابه، وذلك بسبب نور القلب.
- أنه يورث القلب ثباتًا وشجاعة وقوة حجة.
- أنه يورث القلب سرورًا وفرحًا وانسراحًا أعظم من اللذة والسرور الحاصل بالنظر.
- أنه يورث محبة الله للعبد.
- أنه يسد عنه بابًا من أبواب جهنم.
- أنه امتثال لأمر الله الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاذه.
- أن إطلاق البصر يشتت القلب في طلب المنظور إليه، فإذا ما ترك النظر انجمع عليه قلبه، وسهل عليه الإقبال على خالقه، فحصل له الإنس به.
- أنه يقوي القلب ويفرحه، ومعلوم أن قوة المؤمن في قلبه، فإذا قوي استتبعه قوة أفعاله كلها.
- أنه يسد على الشيطان مدخله إلى القلب، فإنه ينفذ مع النظرة أسرع من نفوذ الهواء في المكان الخالي، ليزين صورة المنظور، ثم يعده ويمنيه، ويوقد على القلب نار الشهوات.
- أنه يفرغ القلب للتفكير في مصالحه والاشتغال بها، بإطلاق البصر يشغل القلب،

وينسيه مصالحة، ويحول بينه وبينها، فينفرد عليه أمره، ويقع في اتباع الهوى والغفلة، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطْعَمَنَّ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].
- أنه من أعظم أسباب صلاح القلب؛ فإن بين العين والقلب منفذاً وطريقاً يوجب انتقال أحدهما إلى الآخر، فالقلب يصلح بصلاح العين ويفسد بفسادها.

الوسائل المعينة على غض البصر:

- معرفة العبد أن إطلاق البصر فيه معصية لله تعالى.
- الاستعانة بالصوم؛ فإن فيه إضعافاً للنفس عن طلب المحرمات، وتهذيب لها من الأدناس.
- أن يشغل المسلم نفسه بما ينفعه من أمر دينه ودنياه، حتى لا يأخذه الفراغ إلى طلب الفضول بالنظر، أو الاستئناس بالمحرمات من صور ومناظر خبيثة.
- الابتعاد ما أمكن عن مطالعة وسائل التواصل الاجتماعي مثل الفيسبوك وتويتر ونحوها؛ لما فيها من صور ومقاطع قد تظهر للمرء بلا رغبة منه.
- ترك صحبة السوء فإنها من أعظم ما يدخل على المرء ذلك، فإن كثيراً ممن ضاع دينه في مثل هذه الشهوات كان من جراء مثل هذه الصحبة، فالمرء على دين خليله.
- الزواج المبكر للشباب، وتيسير أولياء الأمور ذلك للفتيان والفتيات.
- اختيار المسلم الزوجة التي يرى أنها تكون سبباً في غضه لبصره، فلا يتزوج امرأة لا تعجبه، ثم يذهب بعد ذلك يقلب بصره فيما حرم الله تعالى عليه.
- تعدد الزوجات؛ فإن من أشبع رغبته من الحلال لم يكن له توقُّ إلى الحرام.
- تذكُّر العبد ما يجلبه عليه النظر من بلايا في الدنيا قبل الآخرة، كتعلق قلبه بالصورة، وما يتبعه من طلبه لها لقضاء وطره، وقد لا يستطيع الوصول إليها فيمتلاً حسرة وتقطع أوصاله في ذلك، وغير ذلك مما تجره عليه النظرة، بل قد تكون سبباً لضياح دينه؛ فيذكر أن مؤذناً ارتقى منارة ليؤذن، فرأى امرأة جميلة ففتن بجمالها، فترك

الأذان ونزل، وراودها عن نفسها، فامتنعت، فقال لها: أتزوجك؟ قالت: أنت مسلم وأنا نصرانية، وأبي لا يزوجني منك. قال: أنت نصر. قالت: إن فعلتَ أفعل. فتنصر الرجل ليتزوجها، وأقام معهم في الدار، فلما كان في أثناء ذلك اليوم، رقى إلى سطح كان في الدار فسقط منه فمات، فلم يظفر بها، وخسر دينه.

- عدم التواجد في الأماكن التي يكثر فيها التبرج والتعري كالشواطئ وأماكن الغناء واللهو.

- الدعاء والالتجاء إلى الله تعالى، فإنه هو العاصم، وهو الموفق سبحانه وتعالى، فردد دائماً واستعذ بالله من هذا البلاء وقل: أعوذ بك ربي من فتنة الشهوات المردية، فإنه لا حول ولا قوة إلا بك، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

- عندما تفكر نفسك بالنظر المحرم، أصرف عنك هذه الفكرة إلى فكرة أخرى تفيدك في دينك أو دنياك. فبداية الأمور خاطرة وفكرة؛ فحارب هذه الخواطر والأفكار من أجل ألا تتطور إلى عزم ففعل.

- لا تغفل عن نظر الله إليك، ولا تجعل الله أهون الناظرين إليك، واستحي منه فهو أحق من يستحي. قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، وقال سبحانه: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: ١٤].

- إذا رأيت نفسك قد ضعفت فذكرها بالله واستمع للقرآن أو للموعظة: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

- ضع لنفسك برنامجاً تملئ به وقتك بالخير، وضمن هذا البرنامج وقتاً للمباح تقضيه مع الأهل أو الأصحاب وفي جمع من الناس.

- تذكر نعمة البصر عليك وخف من الله أن يسلبك إياها.

- نعمة البصر استخدمها في التأمل في خلق الله، وقراءة القرآن والحديث النبوي وغير ذلك من الكتب المفيدة، والنظر المباح.

ومن ذلك قراءة كتاب « الجواب الكافي » لابن القيم أكثر من مرة فهو نافع في هذا الباب. وقراءة قصة نبي الله يوسف عليه السلام وتفسيرها.

- اصبر عن النظر إلى الصور المحرمة فإن الصبر - بإذن الله - هو الذي يوصلك إلى المنازل العالية والجنات الغالية.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا أَبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ عِبَادِيهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٢ - ٢٤].

- أترك النظر إلى هذه الصور وتذكر أنه من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ.



٨١. الحجاب

إن من مكارم الأخلاق التي بعث الله تعالى بها محمداً ﷺ خلق الحياء الذي جعله النبي ﷺ من الإيمان، وشعبة من شعبه، ولا ينكر أحد أن من الحياء المأمور به شرعاً وعرفاً احتشام المرأة وتخلقها بالأخلاق التي تبعتها عن مواقع الفتن ومواقع الرِّيب، وإن مما لا شك فيه أن احتجابها بتغطية جسدها لهو من أكبر احتشامٍ تفعله وتتحلى به؛ لما فيه من صونها وإبعادها عن الفتنة.

وحقيقة الحجاب أنه: ما يستر بدن المرأة المسلمة عن الرجال الأجانب، من لباسٍ واسعٍ سابغٍ يغطي جميع بدنها، أو حائل يحول بينها وبينهم، ويمنع رؤية شيء من بدنها.

فالحجاب أعم من الخمار أو النقاب اللذين تلبسهما المرأة لتغطي بهما رأسها أو وجهها، فهو يشمل ذلك ويشمل كل بدنها.

وينبغي أن يراعى في الحجاب الذي تلبسه المرأة عدة شروط وهي:

١ - أن لا يشف شيئاً من جسم المرأة، ويكون ساتراً لجميع البدن.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيزِهِنَّ ذَلِكَ أَذًى أَنْ يُعْرِفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩].

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين لا يشبهن بالعبيد من النساء في لباسهن إذا هن خرجن من بيوتهن لحاجتهن فكشفن شعورهن ووجوههن، وكان هذا عادة لهن في الأزمنة السابقة، ولكن يرخين الجلباب على رؤوسهن ووجوههن وصدورهن؛ لئلا يعرض لهن فاسق. والجلباب هو الرداء والملحفة التي تستر بدن المرأة وزينتها.

وهذه الآية تُسمى آية الحجاب؛ حيث أمر الله نبيه أن يأمر النساء عموماً، ويبدأ

بزوجاته وبناته؛ لأنهن أكد من غيرهن، ولأن الأمر لغيره ينبغي أن يبدأ بأهله قبل غيرهم [ينظر: «تفسير الطبري» (١٩ / ١٨١)، و«تفسير السعدي» (ص ٦٧٢)].

٢- أن يكون فضفاضاً غير ضيق، لا يجسّم شيئاً من جسدها. ففي حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: كساني رسول الله ﷺ قُبْطِيَّةً كثيفة كانت مما أهدى له دِحْيَةُ الكلبي فكسوتها امرأتي، فقال رسول الله ﷺ: «مالك لا تلبس القُبْطِيَّةَ؟»، فقلت: يا رسول الله! كسوتها امرأتي، فقال: «مرها أن تجعل تحتها غلالة فإني أخاف أن تصف حجم عظامها». [رواه أحمد: ٢١٧٨٦].

قال الشوكاني رحمته الله: وإنما أمر بالثوب تحته لأن القباطي ثياب رقيق لا تستر البشرة عن رؤية الناظر بل تصفها. [نيل الأوطار (٢ / ١٣٦)].

٣- أن لا يكون فيه زينة تلفت الانتباه إلى المرأة من زخارف ونحوها. قال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور ٣١]. أي: ولا يظهرن زينتهن للرجال، بل يجتهدن في إخفائها. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَبْرَجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣]. أي: ولا تظهرن محاسنكن، كما كان يفعل نساء الجاهلية الأولى في الأزمنة السابقة على الإسلام، وهو خطاب للنساء المؤمنات في كل عصر. ٤- أن لا يكون مبخرًا معطرًا.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما امرأة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا من ريحها فهي زانية» [رواه النسائي: ٥١٢٦]. قال الإمام الصنعاني: (فهي زانية) لأنها تدعوهم بعطرها إلى ذلك، فنزلت ذريعة الشيء منزله. [التنوير شرح الجامع الصغير: ٤ / ٤٤٠].

٥- أن لا يكون ثياب شهرة، تلبسه المرأة لتشتهر به وتُعرف، وتلفت الأنظار إليها. ويُقصد بلباس الشهرة: أن ترتدي المرأة ما يلفت أنظار الناس إليها؛ بهدف الشهرة بينهم والكبر والترفع على الناس.

فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لبس ثوب شهرة في الدنيا

ألبسه الله ثوبَ مَذَلَّةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ أَلْهَبَ فِيهِ نَارًا». [رواه أبو داود: ٤٠٢٩، والنسائي: ٩٥٦٠].
قال الشوكاني رحمته الله: والمراد أن ثوبه يشتهر بين الناس لمخالفة لونه لألوان ثيابهم،
فيرفع الناس إليه أبصارهم ويختال عليهم بالعجب والتكبر. [نيل الأوطار: ١١١/٢].
٦- ألا يشبه لباس الرجل.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجل يلبس لبسة المرأة، والمرأة
تلبس لبسة الرجل. [رواه أبو داود: ٤٠٩٨].

٧- ألا يشبه لباس الكافرات، وهو اللباس الخاص بغير المسلمين.
فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من تشبه بقوم فهو منهم».
[رواه أبو داود: ٤٠٣١].

قال ابن تيمية رحمته الله: وهذا الحديث أقل أحواله أنه يقتضي تحريم التشبه بهم.
[اقتضاء الصراط المستقيم: ١/ ٢٧٠].

مسألة: في تغطية المرأة وجهها عن الرجال الأجانب.

في هذه المسألة خلاف بين أهل العلم، وقد دلت الأدلة على وجوب تغطية الوجه؛
لأنه موضع الزينة والفتنة.

من ذلك عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: «كان الركبان يمرون
بنا ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم محرمات؛ فإذا حاذوا بنا سدلت إحدانا جلبابها من رأسها
على وجهها، فإذا جاوزونا كشفناه». [رواه أبو داود: ١٨٣٣، وأحمد: ٢٤٠٦٧].

ومما هو معلوم أن المرأة لا تضع شيئاً على وجهها حال إحرامها، ولكن عائشة
ومن معها من الصحابيات كن يسدن على وجوههن؛ لأن وجوب تغطية الوجه في
حال مرور الأجانب أوجب من تركها حال الإحرام.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «يرحم الله نساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ
بِحُمْرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] شققن مروطهن فاختمن بها» [رواه البخاري: ٤٧٥٨].

أي: لما نزلت هذه الآية الآمرة بالحجاب سارعت المهاجرات رضي الله عنهن بامتنال ذلك فلبسن الخمار.

قال ابن حجر رضي الله عنه: قوله: «فاختمن» أي: غطين وجوههن. [فتح الباري: ٨ / ٤٩٠]. وعن علقمة بن أبي علقمة، عن أمه قالت: رأيت حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر دخلت على عائشة وعليها خمار رقيق يشف عن جبيها، فشقته عائشة عليها وقالت: أما تعلمين ما أنزل الله في سورة النور؟ ثم دعت بخمار فكسستها [الطبقات الكبرى] لابن سعد (٨ / ٧٢). «جبيها» أي: عنقها وصدرها.

الأدلة من الكتاب والسنة على أن الحجاب من شعب الإيمان:

قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّبِيعِينَ غَيْرَ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

قال السعدي رحمه الله: «﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ﴾ عن النظر إلى العورات والرجال بشهوة ونحو ذلك من النظر الممنوع ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ من التمكين من جماعها، أو مسها، أو النظر المحرم إليها ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كالثياب الجميلة والحلي وجميع البدن كله من الزينة، ولما كانت الثياب الظاهرة، لا بد لها منها، قال: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي: الثياب الظاهرة، التي جرت العادة بلبسها إذا لم يكن في ذلك ما يدعو إلى الفتنة بها ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ وهذا لكمال الاستتار، ويدل ذلك على أن الزينة التي يحرم إبدائها يدخل فيها جميع البدن، كما ذكرنا. ثم كرر النهي عن إبداء زينتهن، ليستثني منه قوله: ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أي: أزواجهن

﴿أَوْءَابَائِهِمْ أَوْءَابَاءَ بُعُولَتِهِمْ﴾ يشمل الأب بنفسه، والجد وإن علا ﴿أَوْ أَبْنَائِهِمْ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِمْ﴾ ويدخل فيه الأبناء وأبناء البعولة مهما نزلوا ﴿أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ بَنَى إِخْوَانَهُمْ﴾ أشقاء، أو لأب، أو لأم ﴿أَوْ بَنَى أَخَوَاتِهِمْ أَوْ نِسَائِهِمْ﴾ أي: يجوز للنساء أن ينظر بعضهن إلى بعض مطلقاً، وقيل: إن المسلمة لا يجوز أن تنظر إليها الذمية.

﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ أي: أو الذين يتبعونكم، ويتعلقون بكم، من الرجال الذين لا حاجة لهم في هذه الشهوة، كالمعتوه الذي لا يدري ما هنالك، وكالعنّين الذي لم يبق له شهوة، لا في فرجه، ولا في قلبه، فإن هذا لا محذور من نظره. ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ أي: الأطفال الذين دون التمييز، فإنه يجوز نظرهم للنساء الأجانب، وعلل تعالى ذلك بأنهم ليس لهم علم بعورات النساء، ولا وجدت فيهم الشهوة بعد.

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ أي: لا يضربن الأرض بأرجلهن، ليصوت ما عليهن من حلي، كخلاخل وغيرها، فتعلم زينتها بسببه، فيكون وسيلة إلى الفتنة» [تفسير السعدي] (ص: ٥٦٦) باختصار وتصرف يسير.

وقال ﷺ: ﴿يَنْسَاءُ النِّسَاءِ لَسْتُ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيْطَمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۚ وَقرن في بَيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٢، ٣٣].

هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي ﷺ، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك، فقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ أي: في مخاطبة الرجال، فتكلمن بكلام رقيق، يدعو ويطمع ﴿الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ أي: مرض شهوة الزنا، فإنه مستعد، ينظر أقل محرّك يحركه؛ لأن قلبه غير صحيح، فإن القلب الصحيح ليس فيه شهوة لما حرم الله، ولما نهاهن عن الخضوع في القول، فربما توهّم أنهن مأمورات بإغلاظ القول، دفع هذا بقوله: ﴿وَقُلْنَ

قَوْلًا مَعْرُوفًا» أي: غير غليظ ولا جاف، كما أنه ليس بليِّن خاضع. ﴿وَقَرَنَ فِي يُوتِكَنَّ﴾ أي: اقرن فيها، لأنه أسلم وأحفظ لَكُنَّ، ﴿وَلَا تَبْرَحَنَّ تَبْرُجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ أي: لا تُكثرن الخروجَ متجملات أو متطيبات، كعادة أهل الجاهلية الأولى، الذين لا علم عندهم ولا دين [ينظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٠٨)، و«تفسير السعدي» (ص ٦٦٣)].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلَّى الله عليه وآله قال: «المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان» [رواه الترمذي: ١١٧٣].

«استشرفها الشيطان» أي: زَيَّنَّها في نظر الرجال. والمعنى أن المرأة يُستقبَح بروزها وظهورها فإذا خرجت من بيتها أمعن النظر إليها؛ ليغويها بغيرها، ويغوي غيرها بها، ليوقعهما أو أحدهما في الفتنة. [ينظر: «تحفة الأحوذى» (٤/ ٢٨٣)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وآله: «صَنَّفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات، رءوسهن كأسنمة البُخْتِ المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا» [رواه مسلم: ٢١٢٨].

«البُخْت» أي: الإبل. وهذا الحديث من معجزات النبوة؛ فقد وقع هذان الصَّنَّفَانِ وهما موجودان، وفيه ذم هذين الصَّنَفَيْنِ. وقوله: «نساء كاسيات عاريات» قيل: معناه تستر بعض بدنهن وتكشف بعضه، وقيل: معناه تلبس ثوباً رقيقاً يصف لون بدنهن. وأما «مائلات» فمعناه: يمشين متبخرات مميلات لأكتافهن، وقيل: يَمْشُطْنَ المِشْطَةَ المائلة وهي مِشْطَةُ البغايا، «مميلات»: يَمْشُطْنَ غيرهن تلك المِشْطَةَ. «رءوسهن كأسنمة البُخْت» معناه: أن يُكَبَّرْنَها ويُعْظَمْنَها بلف عمامة أو عصابة أو نحوها [ينظر: «شرح مسلم» للنووي (١٤/ ١١٠)].

قال ابن عبد البر رحمته الله: أراد صلَّى الله عليه وآله النساء اللواتي يلبسن من الثياب الشيء الخفيف الذي يصف لا يستر، فهن كاسيات بالاسم عاريات في الحقيقة. [تنوير الحوالك (٣/ ١٠٣)].

الثمرات المترتبة على الالتزام بالحجاب:

- الحجاب طاعة لله ﷻ وطاعة لرسول الله ﷺ، وهذه الطاعة عليها مدار الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة.
- أن المرأة المسلمة إذا اعتصمت بالحجاب كانت بعيدة عن النار قريبة من الجنة؛ فإنها إذا خلعت حجابها وتبرجت كانت متوعدة بدخول النار وبحرمانها من الجنة، كما سبق في الحديث.
- الحجاب طهارة للقلوب والنفوس من دخائل الشيطان، فإنَّ نَظَرَ الرجل إلى المرأة من أعظم أسباب الفتن وفساد القلوب، فمتى احتجبت المرأة اندفع هذا الفساد عن الفرد وعن الجماعة كلها.
- أنه من أسباب العفة، فإن النظرة هي حبل الشيطان الذي يجرب به الناس إلى طريق الزنا والفواحش.
- أنه من أعظم ما تصون المرأة عرضها وعرض ذويها، وتدفع به الأذى عن نفسها وعنهم، فإن المرأة المتبرجة يُظَنُّ بها غالباً مظنة السوء، وقد يتعرض لها أصحاب القلوب المريضة، وهذا فيه أعظم الإيذاء لها ولذويها، فلا تكاد تجد امرأة محتجبةً بالحجاب الشرعي يتعرض لها أحد بسوء.
- أنه ستر للعورة التي ينبغي أن تستحي كل امرأة من كشفها، بل كل من له عقل يستحي من انكشاف عورته، قال تعالى: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوْءَ تَكْمُ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦].
- أنه من أعظم ما يستعان به على محاربة الفواحش.
- أنه مما تحافظ به المرأة على حياتها، فمتى تركت المرأة الاحتجاب واعتادت كشف عورتها أمام الرجال زال حيائها، ومن لا حياء له فهو ميت في الدنيا، فالحياء من أبرز الصفات التي تنأى بالمرء عن الرذائل، وتحجزه عن السقوط في مساوئ الأخلاق.

الوسائل المعينة على الالتزام بالحجاب الشرعي:

- التزام طاعة الله تعالى والقيام بما أمر به حق القيام، فتربي المسلمة نفسها على السمع والطاعة لله ولرسوله ﷺ.
- أن تعلم المرأة أنه لا شيء أصلح لها مما أمرها به الله تعالى وأمرها به الرسول ﷺ، حتى وإن خالف هوى نفسها.
- اقتداء المسلمات بالصحابيات الفضليات رضي الله عنهن في التحجب والتستر وامثال أمر الله ورسوله ﷺ.
- أن تعتز المسلمة بدينها وتترك التشبه بالكافرات والفاسقات.
- أن يربي الوالدين بناتهن على العفة منذ نعومة أظفارهن، فلا يتحجج الأب ولا الأم بأن البنت ما زالت صغيرة، فإننا نرى كثيرًا من بنات المسلمين قد أدركت سن البلوغ وما زال والداها يلبسانها لباسًا قصيرًا مما يكشف عورتها، بحجة أنها ما زالت صغيرة.
- التربية على الحياء والعمل على غرسه في نفوس الشباب خصوصًا البنات منهن فإنهن أولى به من غيرهن، فما تركت بنتًا الحجاب إلا بعد انعدام الحياء في نفسها.
- تربية الأولاد على الغيرة، حتى ينشئوا رجالًا غيورين على أهلهم، فالرجل الغيور لا يتحمل رؤية ابنته أو زوجته وهي تسير كاشفة عن شيء من جسدها أمام الرجال، فإن من أعظم أسباب ما نحن فيه ذهاب الغيرة من الرجال.
- الدعاء؛ فتدعو المرأة أن يسترها ربُّها، ويدعو الرجل أن يستره ربُّه ويستر أهله؛ فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يمسي وحين يصبح: «اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي...» [رواه أبو داود: ٥٠٧٤].



٨٢. حفظ اللسان

خلق الله تعالى الإنسان، وجعل له لساناً يترجم به عما في نفسه من معان، فهو نعمة من الله تعالى على العبد كبقية حواسه، لكن هذا اللسان إن لم يحفظه العبد كما أمره الله ويكفه عن كل ما يخشى عاقبته كان نقمة عليه، وربما صار سبباً لهلاكه في الدنيا، ودخوله النار في الآخرة؛ لذا فإن حفظ اللسان عن الكلام المحرم وما لا فائدة فيه من أهم شعب الإيمان.

وحقيقة حفظ اللسان: هو ألا يتكلم العبد إلا بما تترجح فيه المصلحة، من ذكر الله تعالى وما كان في معناه من أمر بمعروف ونهي عن منكر ونحو ذلك، أو الكلام فيما ينفعه في أمور دنياه، فيمسك عن الكلام عما فيه مفسدة؛ ككذب وقذف وسب وشتم وغيبة ونميمة وقول زور، فهذا ونحوه من الكلام المحرم، ويمسك عما استوت مفسدته مع مصلحته؛ لأن درء المفسد مقدم على جلب المصالح، وإن كان الكلام فيما هو مباح فالأولى في هذا أيضاً الإمساك؛ لأن أقل ما فيه تضييع لحظات العمر، وهذا من أعظم الخسران عند أهل اليقظة من المؤمنين.

الأدلة على أن حفظ اللسان من أهم شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].
قال ابن كثير رحمته الله: «﴿مَا يَلْفُظُ﴾ أي: ابن آدم ﴿مِنْ قَوْلٍ﴾ أي: ما يتكلم بكلمة ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي: إلا ولها من يراقبها مُعد لذلك يكتبها، لا يترك كلمة ولا حركة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۖ كَرَامًا كَتِيبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الأنفطار: ١٠-١٢]»
[تفسير ابن كثير (٧/ ٣٩٨)].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» [رواه مسلم: ٤١].

قوله: «المسلم» أي: الكامل؛ أو المسلم الحقيقي. «من سلم المسلمون من لسانه» أي: سلموا من: السب، والشتم، واللعن، والغيبة، والبهتان، والنميمة، وقول الزور، وغير ذلك. «ويده»: أي: من: الضرب، والقتل، ونحوهما. وخُصَّ اللسان واليد بالذكر؛ لأن أكثر الأذى بهما، وقُدِّم اللسان؛ لأن الإيذاء به أكثر وأسهل، ولأنه أشد نكايته، ولأنه يعم الأحياء والأموات، وابتُلِيَ به الخاص والعام خصوصًا في هذه الأيام [ينظر: «مرفاة المفاتيح» (١/ ٧٢)].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ أي المسلمين خير؟ قال: «من سلم المسلمون من لسانه ويده» [رواه البخاري: ٦٤٨٤، ومسلم: ٤٠]. وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قالوا يا رسول الله، أي الإسلام أفضل؟ قال: «من سلم المسلمون من لسانه ويده» [رواه البخاري: ١١، ومسلم: ٤٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، لا يلقي لها بالاً، يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يُلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم» [رواه البخاري: ٦٤٧٨، ومسلم: ٢٩٨٨].

قال النووي رحمته الله: «معناه لا يتدبرها ويفكر في قبحها، ولا يخاف ما يترتب عليها، كالكلمة التي يترتب عليها إضرار مسلم ونحو ذلك، وهذا كله حث على حفظ اللسان كما قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»، وينبغي لمن أراد النطق بكلمة أو كلام أن يتدبره في نفسه قبل نطقه، فإن ظهرت مصلحته تكلم وإلا أمسك» [«شرح مسلم» (١٨/ ١١٧)].

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «من يضمن لي ما بين لحيته وما بين رجليه أضمن له الجنة» [رواه البخاري: ٦٤٧٤].

قوله: «يضمن» أي: يحفظ ويؤدي حقه. «ما بين لحيته» لحيته مثني لحي، وهو العظم في جانب الفم، والمراد: اللسان. «ما بين رجليه» أي: فرجه. وفي هذا الحديث: أن من حفظ لسانه وفرجه عن الحرام دخل الجنة.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يُكتب عند الله كذابًا» [رواه البخاري: ٦٠٩٤، ومسلم: ٢٦٠٧].

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يومًا: «هل رأى أحد منكم رؤيا؟» قلنا: لا، قال: «لكني رأيت الليلة رجلين أتياني فأخذا بيدي، فأخرجاني إلى الأرض المقدسة، فإذا رجل جالس، ورجل قائم، بيده كَلْبٌ من حديد، يُدخل ذلك الكَلْبُ في شذقه حتى يبلغ قفاه، ثم يفعل بشذقه الآخر مثل ذلك، ويلتئم شذقه هذا، فيعود فيصنع مثله، قلت: ما هذا؟... قال: أما الذي رأيته يُشق شذقه، فكذاب يُحدث بالكذبة، فتُحمل عنه حتى تبلغ الآفاق، فيُصنع به إلى يوم القيامة» [رواه البخاري: ١٣٨٦]. «شذقه» أي جانب فمه. «كلوب من حديد» أي حديدة معطوفة الرأس يعلق عليها اللحم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان» [رواه البخاري: ٣٣، ومسلم: ٥٩].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها: إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» [رواه البخاري: ٣٤، ومسلم: ٥٨] «خصلة» أي: صفة.

وعن أبي شريح الخزاعي رضي الله عنه قال: سمع أذناي ووعى قلبي النبي ﷺ يقول: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليسكت» [رواه البخاري: ٦٤٧٦، ومسلم: ٤٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت» [رواه البخاري: ٦٠١٨، ومسلم: ٤٧].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صمت نجا» [رواه الترمذي: ٢٥٠١].

قوله: «من صمت» أي: سكت عن الشر. «نجا» أي: فاز بكل خير، ونجا من مصائب الدنيا والآخرة، ومقصود الحديث: أن لا يتكلم بالحرام وفيما لا يعنيه، ويقتصر على المهم ففيه النجاة.

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير، فقلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار، قال: «لقد سألتني عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت» ثم قال: «ألا أدلك على أبواب الخير: الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل» قال: ثم تلا ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦]، حتى بلغ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] ثم قال: «ألا أخبرك برأس الأمر كله وعموده، وذروة سنامه؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد» ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه قال: «كف عليك هذا»، فقلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم» [رواه الترمذي: ٢٦١٦].

قوله: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله» يعني: أخبرك بشيء يكمل ويتم به لك ثواب هذه العبادات. «فأخذ بلسانه» يعني: أخذ رسول الله عليه السلام بلسان نفسه. «كف عليك هذا» أي: احفظ لسانك من أن يوقع عليك ضرراً وهلاكاً وخساراً في الدنيا أو في الآخرة. «ثكلتك أمك يا معاذ»، أي: فقدتك أمك بأن تموت يا معاذ، وهو دعاء على أحد من غير أن يراد وقوعه، بل يقال لتأديب الرجل وتنبهه من الغفلة وتيقظه في الأمر.

والحديث يدل على أن كف اللسان وضبطه وحبسه هو أصل الخير كله، وأن من ملك لسانه، فقد ملك أمره وأحكمه وضبطه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله، إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها، وصيامها، وصدقته، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها، قال: «هي في النار». قال: يا رسول الله، فإن فلانة يذكر من قلة صيامها، وصدقته، وصلاتها، وإنها تصدق بالأثوار من الأقط، ولا تؤذي جيرانها بلسانها، قال: «هي في الجنة» [رواه أحمد: ٩٦٧٥]. «الأثوار من الأقط» أي: اللبن الجامد المستحجر.

وعن سماك قال: قلت لجابر بن سمرة رضي الله عنه: أكنت تجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: «نعم، وكان طويل الصمت، قليل الضحك، وكان أصحابه يذكرون عنده الشعر، وأشياء من أمورهم، فيضحكون، وربما تبسم». [رواه أحمد: ٢٠٨١٠].

وعن الأحنف بن قيس قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «يا أحنف، من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قلّ حياؤه، ومن قلّ حياؤه قلّ ورعه، ومن قلّ ورعه مات قلبه» [رواه ابن حبان في «روضة العقلاء» (ص ٤٤)]. «كثر سقطه» أي: كثرت أخطاؤه وزلاته.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «إذا أصبح الرجل فإن أعضاءه تكفر اللسان تقول: اتق الله فينا؛ فإنك إن استقممت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا» [رواه أحمد في «الزهد»: ١٠٨٦]. قوله: «تكفر اللسان» أي: تذلل وتخضع له.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «والله الذي لا إله إلا هو، ما على الأرض أحق بطول سجن من اللسان» [رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٢٣)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقول: «يا لسان قل خيراً تغنم، أو اسكت عن شر تسلم، قبل أن تندم» [رواه البيهقي في «شعب الإيمان»: ٤٥٩٠].

وعن ميمون بن مهران قال: جاء رجل إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه فقال: يا أبا عبد الله، أوصني. قال: «لا تكلم». قال: ما يستطيع من عاش في الناس أن لا يتكلم. قال: «إن تكلمت فتكلم بحق أو اسكت». قال: زدني. قال: «لا تغضب». قال: أمرتني ألا

أغضب، وإنه ليغشاني ما لا أملك. قال: «فإن غضبت فاملك لسانك ويدك» [رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت»: ٦١٠].

وقال محمد بن عجلان رحمته الله: «إنما الكلام أربعة: أن تذكر الله، وتقرأ القرآن، وتسأل عن علم فتخبر به، أو تكلم فيما يعينك من أمر دنياك» [رواه ابن وهب في «الجامع»: ٤٠٩].

الثمرات المترتبة على حفظ اللسان:

إن لحفظ اللسان من الثمرات النافعة والفضائل العظيمة ما يدفع كل عاقل إلى أن يحفظ عليه لسانه، فمنها:

- شهادة النبي ﷺ له أنه من أفضل المسلمين، وأن إسلامه من أفضل الإسلام.
- أن النبي ﷺ قد ضمن الجنة لمن حفظ لسانه وفرجه.
- أنه سبب لنجاة العبد يوم القيامة من عذاب الله، فالكفر والشرك والغيبة والنميمة والكذب إنما يُعَبَّرُ عنها جميعًا باللسان، فمن أمسك لسانه سلم من جميع هذه الآفات.
- حفظ اللسان مما يزيد في إيمان العبد بالله وبلقائه، فكثرة الكلام تضعف الإيمان وتذهبه من القلب.
- أنه يثقل ميزان حسنات العبد يوم القيامة.
- حفظ اللسان من أسباب حفظ القلب من النفاق، فإن في اللسان آفات عظيمة تقود العبد إلى النفاق، كالكذب، والمدح بغير حق، وغيرها.
- أنه سبب لجمع الشمل، فمن حفظ لسانه ولزم الصمت، انجمع عليه شمله، وتفرغ لما ينفعه من أمر دينه ونياه.
- أن حفظ اللسان يحفظ على العبد وقته، فمن أطلق لسانه ضاع عمره فيما لا ينفعه، بل ربما ضره.
- أن في حفظ اللسان حفظ لهيبة المرء ووقاره بين الناس.
- أن في حفظ اللسان نجاة من كثير من الخصومات والنزاعات بين الناس.

الأسباب والوسائل المعينة على حفظ اللسان:

- أن يحرص العبد على تقوية إيمانه دائماً، فإن قوة الإيمان من أعظم ما يدفع العبد به عن نفسه الوقوع في المعاصي، ومنها إطلاق اللسان في المحرمات.
- تقوى الله ﷻ، فيعلم أن الله مطلع على جميع كلامه، وأن الملائكة يكتبون ما يتلفظ به من خير أو شر.
- أن يحرص على أن يشغل وقته فيما ينفعه من أمور دنياه وأخراه، فالنفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.
- الاقتداء بالنبي ﷺ، حيث كان كثير الصمت، قليل الكلام.
- الاقتداء بالسلف الصالح، فقد كان الواحد منهم أحرص ما يكون على الصمت وقلة الكلام، حتى كان فيهم مَنْ يُعَدُّ كلامه من الجمعة إلى الجمعة.
- أن يعلم العبد أن حفظ اللسان وقلة الكلام يُفَرِّغ القلب من الشواغل الباطلة، وتعينه على الإقبال على طاعة ربه.
- أن يعلم العبد أن إطلاق اللسان في الحرام من أكثر ما يدخل الناس النار.
- أن يعلم العبد أن كثرة الكلام تميم القلب وتذهب بالإيمان.
- أن يعلم أن من كثر كلامه، كثر خطؤه، وقل عمله ونفعه.
- أن يعلم أن كثرة الكلام مُذهبة لوقار المرء وحشمته بين الناس.
- أن يعلم أن كثرة الكلام سبب لكثير من الشحناء والخصومات والعداوات بين الناس.
- أن يعلم أنه يملك الكلمة طالما لم يتفوه بها، فإن خرجت منه لم يستطع إعادتها، وصارت هي المالكة له.



٨٣. الإعراض عن اللغو

إن من صفات المؤمنين الصالحين الإعراض عن اللغو من الكلام وغيره، والاقبال على ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، وقد مدحهم الله تعالى بهذه الخصلة في كتابه العزيز فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣]، فهي صفة الصالحين، بل وخصلة ينبغي أن يتصف بها كل لبيب لما في اللغو من آفات تضر بصاحبها، ولذا كان الإعراض عن اللغو من فضائل الأعمال ومن شعب الإيمان.

والإعراض عن اللغو: هو تجنب كل باطل ومعصية، وكل ما لا حاجة فيه وما لا يعني الإنسان، وإن كان مباحاً.

لذلك يطلق اللغو على الكلام الذي لا فائدة فيه ولم يبلغ درجة المعصية، ويطلق أيضاً على الباطل كله، فيدخل فيه الشرك والمعاصي جميعاً.

ومن صور اللغو: أن يتكلم الرجل بما لا يعنيه من أمور الناس فيفشي سرائرهم، ويهتك أستارهم، ويذكر أموالهم وأحوالهم من غير حاجة به إلى شيء من ذلك، وإنما ذلك منه عادة سوء ألفها فلا يريد أن يتزحزح عنها، ومنه: الخوض فيما لا يحل من ذكر الفجار والفجور والملاهي، ومنه: الغيبة، والنميمة، والجدال، والقليل والقال، وسماع الموسيقى والأغاني، ونحو ذلك.

الأدلة على أن الإعراض عن اللغو من شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ [المؤمنون: ١ - ٣].

قال السعدي رحمته الله: «﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ﴾ وهو الكلام الذي لا خير فيه ولا فائدة ﴿مُعْرِضُونَ﴾ رغبة عنه، وتنزيهاً لأنفسهم، وترفعاً عنه، وإذا مروا باللغو مروا كراماً، وإذا كانوا معرضين عن اللغو، فإعراضهم عن المحرم من باب أولى وأحرى، وإذا

ملك العبد لسانه وخزنه -إلا في الخير- كان مالكا لأمره، كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل حين وصّاه بوصايا قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه وقال: «كف عليك هذا» فالمؤمنون من صفاتهم الحميدة، كف ألسنتهم عن اللغو والمحرمات». [تفسير السعدي] (ص: ٥٤٨).

وقال تبارك اسمه: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

قال السعدي رحمه الله: ﴿وَأِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ وهو الكلام الذي لا خير فيه ولا فيه فائدة دينية ولا دنيوية ككلام السفهاء ونحوهم ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ أي: نزهوا أنفسهم وأكرموها عن الخوض فيه، ورأوا أن الخوض فيه وإن كان لا إثم فيه فإنه سفه ونقص للإنسانية والمروءة فربأوا بأنفسهم عنه.

وفي قوله: ﴿وَأِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ إشارة إلى أنهم لا يقصدون حضوره ولا سماعه، ولكن عند المصادفة التي من غير قصد يكرمون أنفسهم عنه» [تفسير السعدي] (ص: ٥٨٧). وقال ﷺ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

قال السعدي رحمه الله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ من جاهل خاطبهم به ﴿قَالُوا﴾ مقالة عباد الرحمن أولي الألباب: ﴿لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ أي: كُلُّ سَيِّجَازِي بعمله الذي عمله وحده، ليس عليه من وزر غيره شيء. ولزم من ذلك، أنهم يتبرءون مما عليه الجاهلون، من اللغو والباطل، والكلام الذي لا فائدة فيه.

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا تسمعون منا إلا الخير، ولا نخاطبكم بمقتضى جهلكم، فإنكم وإن رضيتم لأنفسكم هذا المرتع اللئيم، فإننا ننزه أنفسنا عنه، ونصونها عن الخوض فيه، ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ من كل وجه». [تفسير السعدي] (ص: ٦٢٠).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ» [رواه الترمذي: ٢٣١٧].

قال ابن رجب الحنبلي رحمته الله: «معنى هذا الحديث: أن مَنْ حَسُنَ إسلامه ترك ما لا يعنيه من قول وفعل، واقتصر على ما يعنيه من الأقوال والأفعال؛ ومعنى يعنيه: أنه تتعلق عنايته به، ويكون من مقصده ومطلوبه، والعناية: شدة الاهتمام بالشيء، وليس المراد أنه يترك ما لا عناية له به ولا إرادة بحكم الهوى وطلب النفس، بل بحكم الشرع والإسلام، ولهذا جعله من حسن الإسلام، فإذا حَسُنَ إسلام المرء، ترك ما لا يعنيه في الإسلام من الأقوال والأفعال، فإن الإسلام يقتضي فعل الواجبات، وإن الإسلام الكامل الممدوح يدخل فيه ترك المحرمات، كما قال رحمته الله: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» وإذا حسن الإسلام، اقتضى ترك ما لا يعني كله من المحرمات والمشتبهات والمكروهات، وفضول المباحات التي لا يحتاج إليها، فإن هذا كله لا يعني المسلم إذا كمل إسلامه، وبلغ إلى درجة الإحسان، وهو أن يعبد الله تعالى كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإن الله يراه، فمن عبد الله على استحضر قلبه ومشاهدته بقلبه، أو على استحضر قرب الله منه وإطلاعه عليه، فقد حسن إسلامه، ولزم من ذلك أن يترك كل ما لا يعنيه في الإسلام، ويشغل بما يعنيه فيه». [جامع العلوم والحكم] (١/ ٢٨٨).

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة» [رواه البخاري: ٦٤٧٤].

«يضمن» أي: يحفظ ويؤدي حقه. «ما بين لحييه» لحييه مثنى لحي، وهو العظم في جانب الفم، والمراد: اللسان. «ما بين رجليه» أي: فرجه. وفي هذا الحديث: أن من حفظ لسانه وفرجه عن الحرام دخل الجنة.

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: «أملك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك» [رواه الترمذي: ٢٤٠٦].

«أملك عليك لسانك» أي: احفظ لسانك عما ليس فيه خير. «وليسعك بيتك» أي:

امكث فيه ولا تخرج منه إلا لضرورة، ولا تضجر من الجلوس فيه، بل تجعله من باب الغنيمة فإنه سبب الخلاص من الشر والفتنة. «وابك على خطيئتك» أي: ابك إن تقدر وإلا فتباك نادماً على معصيتك فيما سبق من أيام حياتك.

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: «إن أكثر الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوفاً في الباطل» [رواه البيهقي في «شعب الإيمان»: ١٠٣١٦].

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: «من عدَّ كلامه من عمله، قلَّ كلامه إلا فيما يعنيه». قال ابن رجب الحنبلي معقّباً على هذا الكلام: «وهو كما قال، فإن كثيراً من الناس لا يعدُّ كلامه من عمله، فيجازف فيه، ولا يتحرى» [«جامع العلوم والحكم» (١/ ٢٩١)]. وقال محمد بن عجلان رضي الله عنه: «إنما الكلام أربعة: أن تذكر الله، وتقرأ القرآن، وتساءل عن علم فتخبر به، أو تتكلم فيما يعينك من أمر دنياك» [رواه ابن وهب في «الجامع»: ٤٠٩].

الثمرات المترتبة على الإعراض عن اللغو:

- أنه سبب من أسباب دخول الجنة.
- أنه سبب للفلاح في الدنيا والآخرة.
- أنه من صفات المؤمنين عباد الرحمن.
- أنه من أسباب النجاة من عذاب الله تعالى يوم القيامة.
- أنه سبب لحسن إسلام المرء، ومتانة دينه وإيمانه.
- أنه من أسباب صلاح القلوب واستقامتها على الطاعة.
- أنه مما يقي الإنسان به نفسه من سوء السمعة والطعن في عرضه؛ فإن من جلس مجالس اللغو لم يخلُ غالباً من أن يصير منبوذاً من الخلق، مستردلاً بينهم، سيء الذكر عندهم.
- أن فيه وقاية للإنسان من الذنوب التي تحصل بسبب الغيبة والنميمة والخوض

- في أعراض المسلمين والمسلمات، مما هو آكل لحسناته، موجب له الأوزار والآثام.
- أنه يحفظ على المرء عمره، الذي إذا ما ذهب منه ساعة لم تعد إلى يوم القيامة، بل وسيُسأل عنها، فعن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه» [رواه الترمذي: ٢٤١٧].
- أنه من أسباب علو الهمة، فمن ترك الخوض في اللغو والباطل انجمعت عليه همته للانكباب على ما ينفعه في آخرته، وانبعثت نفسه في أعمال الخير والتقوى.
- أن ترك اللغو وما لا يعني سبب لمحبة الله تعالى، ومحبة الناس.

الوسائل المعينة على الإعراض عن اللغو:

- من أعظم الأسباب في ذلك خوف الله تعالى، وعدم أمن عقابه، وأن يتذكر المرء أنه سيحاسب على كل كبيرة وصغيرة مهما دقت، قال تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، فمن تدبر هذه الآية حق تدبرها انكفت نفسه عن كل ما لا ينفعه حتى يخف عليه الحساب.
- الانشغال بما ينفع، فإن النفس لا بد لها من شغل، فمن شغل نفسه بالحق انكفت عن الباطل، ومن أخلاها من الحق انغمست في الباطل ولا بد، كما قيل: نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.
- قصر الأمل، فإن طول الأمل يُنسي عمل الآخرة، ويجري النفس على اللغو واللعب، طمعاً منها في أنها تعيش إلى أن تتوب وتعمل الصالحات فيما يستقبل لها من الدهر.
- مصاحبة أهل الصلاح والتقوى، وترك مصاحبة الفجار وأهل الفسق والمعاصي والبطالين.
- الخلوة وترك الخلطة مع الناس إلا فيما هو واجب أو مستحب من أمور الدين،

كصلاة الجماعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإصلاح بين الناس، وزيارة المريض، وقضاء مصالح المسلمين، ونحوها، أو ما لا بد منه من أمور الدنيا، كالسعي على الرزق.

- الابتعاد عن كثير من وسائل التواصل الاجتماعي التي ظهرت في هذا العصر، والتي لا يفيد أكثرها، وإنما يضيع بسببها أعمار الناس - وخصوصاً الشباب - فيما لا ينفعهم، بل إن الغالب عليها من خلال التجربة الضرر وإضاعة العمر وارتكاب الآثام. - أن يعرف الإنسان السبب في خلقه وهو عبادة الله تعالى، وأنه لم يُخلق ليلعب، أو ليعيش في الدنيا بلا هدف ولا غاية، كما قد غلب على كثير من الناس خاصة في عصورنا هذه، ممن تراه يعيش وليس له غاية من هذه الحياة، فحياته كلها لغو وعبث. - أن يستحضر المسلم مدح الله تعالى لمن ترك اللغو، ويعلم أنه بتركه صار داخلاً في مدح الله.



٨٤. كظم الغيظ

جاءت الشريعة الإسلامية بالحث على مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات والعادات، ومن ذلك ما ورد في الحث على كظم الغيظ، والعفو عن الجاهلين، بل وجعل ذلك من أخلاق المحسنين؛ لذا كان كظم الغيظ من محاسن الأخلاق، ومن فضائل الأعمال، وشعبة من شعب الإيمان، وهذا مما يحدو بالمسلم لأن يتخلق بهذا الخلق العظيم.

والغيظ أصل الغضب، وكثيراً ما يتلازمان، لكن الفرق بينهما، أن الغيظ لا يظهر على الجوارح بخلاف الغضب فإنه يظهر عليها.

وحقيقة كظم الغيظ: أن يسكت عليه ولا يظهره، لا بقول ولا بفعل، كأنه كتمه على امتلائه، وردّه في جوفه، فحفظ نفسه أن تمضي ما هي قادرة على إمضائه، باستمكانها ممن غاظها، وانتصارها ممن ظلمها.

وقيل: كظم الغيظ: تجرعه، واحتمال سببه، والصبر عليه، مع القدرة على إيقاع العقوبة بالمسيء؛ إلا إذا كان في إمضاء الغيظ مصلحة شرعية، كغيظ الكفار والعصاة في الأحوال التي يزيد فيها تجرؤهم وزيادة شرهم. قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَّوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ ۖ أَلَا نَمْلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلُومًا نَبْغِظُكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

قال السعدي رحمته الله في قوله تعالى: ﴿قُلُومًا نَبْغِظُكُمْ﴾ أي: سترون من عز الإسلام وذل الكفر ما يسوؤكم، وتموتون بغيظكم، فلن تدركوا شفاء ذلك بما تقصدون». [تفسير السعدي] (ص: ٩٧٣).

الأدلة من الكتاب والسنة على أن كظم الغيظ من شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۚ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ

النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٢٥﴾ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِعَمَلِهِمْ أَجْرٌ الْعَمَلِينَ ﴿١٢٦﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٦].

وقال ﷺ: ﴿وَأِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

قال الطبري رحمه الله: «يقول تعالى ذكره للمؤمنين: وإن عاقبتم أيها المؤمنون من ظلمكم واعتدى عليكم، فعاقبوه بمثل الذي نالكم به ظالمكم من العقوبة، ولئن صبرتم عن عقوبته، واحتسبتم عند الله ما نالكم به من الظلم، ووكلتم أمره إليه حتى يكون هو المتولي عقوبته ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ يقول: للصبر عن عقوبته بذلك خير لأهل الصبر احتساباً وابتغاء ثواب الله؛ لأن الله يعوضه من الذي أراد أن يناله بانتقامه من ظالمه على ظلمه إياه من لذة الانتصار» [تفسير الطبري] (١٤ / ٤٠١).

وقال سبحانه: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧].

قال السعدي رحمه الله: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ﴾ هذا الأخ، فليس هذا غريباً منه ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يعنون: يوسف عليه السلام، ومقصودهم تبرئة أنفسهم، وأن هذا وأخاه قد يصدر منهما ما يصدر من السرقة، وهما ليسا شقيقين لنا. وفي هذا من الغض عليهما ما فيه، ولهذا: أسرها يوسف في نفسه ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أي: لم يقابلهم على ما قالوه بما يكرهون، بل كظم الغيظ، وأسر الأمر في نفسه، و﴿قَالَ﴾ في نفسه ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا﴾ حيث ذمتمونا بما أنتم على أشر منه ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ منا، من وصفنا بالسرقة، يعلم الله أنا براء منها» [تفسير السعدي] (ص: ٤٠٣).

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوْسُفَ وَابْتِصَّتْ عَيْنَاهُ

مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ [يوسف: ٨٤].

قال الطبري رحمته الله: «يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ وأعرض عنهم يعقوب ﴿وَقَالَ يَأْسَفَى عَلَى يُونُسَ﴾ يعني: يا حزناً عليه ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ يقول: فهو مكظوم على الحزن، يعني أنه مملوء منه، ممسك عليه، لا يبيته، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] انظر: «تفسير الطبري» (٢٩٣/١٣).

وقال سبحانه: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٦، ٣٧].

قال الواحدي رحمته الله: «﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾» [الشورى: ٣٧] أي: يكظمون الغيظ، ويعفون عمن ظلمهم، يطلبون بذلك ثواب الله تعالى وعفوه» [«التفسير الوسيط» (٥٧/٤)]. وقال رحمته الله: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

قال الخازن رحمته الله: «قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ يعني: الصبر والغضب، والحلم والجهل، والعفو والإساءة ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ قال ابن عباس: أمره بالصبر عند الغضب، وبالحلم عند الجهل، وبالعفو عند الإساءة ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ أي: صديق قريب، ﴿وَمَا يُلْقَاهَا﴾ أي: وما يلقى هذه الخصلة والفعلة، وهي دفع السيئة بالحسنة ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي: على تحمل المكاره، وتجرع الشدائد، وكظم الغيظ، وترك الانتقام ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: من الخير والثواب، وقيل: الحظ العظيم الجنة، يعني: ما يلقاها إلا من وجبت له الجنة» [«تفسير الخازن» (٨٨/٤)].

وعن سهل بن معاذ عن أبيه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من كظم غيظاً وهو قادر

على أن ينفذه، دعاه الله ﷻ على رءوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره الله من الحور العين ما شاء» [رواه أبو داود: ٤٧٧٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الشديد بالصرعة» قالوا: فالشديد أيم هو يا رسول الله؟ قال: «الذي يملك نفسه عند الغضب» [رواه البخاري: ٦١١٤، ومسلم: ٢٦٠٩].

«الشديد» أي: القوي الحقيقي. «الصرعة» أي: الذي يغلب الرجال ويصرعهم. «يملك نفسه» أي: يكظم غيظه ويتحلم، ولا يعمل بمقتضى غضبه. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: «لا تغضب»، فردّد مراراً قال: «لا تغضب» [رواه البخاري: ٦١١٦].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ، وعليه رداء نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجبذه بردائه جبذة شديدة، نظرت إلى صفحة عنق رسول الله ﷺ وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مّر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ فضحك، ثم أمر له بعتاء. [رواه البخاري: ٣١٤٩، ومسلم: ١٠٥٧].

«الحاشية» أي: الجانب. «جبذه» أي: شدّه. «صفحة» أي: جانب وناحية. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما كان يوم حنين أثر النبي ﷺ ناساً، أعطى الأقرع مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى ناساً، فقال رجل: ما أريد بهذه القسمة وجه الله. فقلت: لأخبرن النبي ﷺ، فقال ﷺ: «رحم الله موسى، قد أودى بأكثر من هذا فصبر» [رواه البخاري: ٤٣٣٦، ومسلم: ١٠٦٢]. «آثر» أي: فضّل.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يُدنيه عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباناً، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، هل لك وجه

عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هيه يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل. فغضب عمر حتى همَّ أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وإن هذا من الجاهلين. والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله. [رواه البخاري: ٤٦٤٢].

«يدينهم» أي: يقرهم إليه في مجلسه. «كهولاً» جمع كهل، وهو الذي علاه الشيب، وقيل: هو من جاوز الثلاثين. «الجزل» أي: الكثير. «يوقع به» أي: أن يعاقبه. ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أي: اليسير وتلبس بالسهولة من غير تشديد. ﴿بِالْعُرْفِ﴾ أي: المستحسن من الأفعال. ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ لا تقابلهم بفعلهم. «ما جاوزها» أي: لم يتعد العمل بها. «وقافاً» أي: إذا سمع آياته التزم أحكامه ووقف عندها ولم يتعدّها.

الثمرات المترتبة على كظم الغيظ:

- كظم الغيظ من أسباب دخول جنة عرضها السماوات والأرض.
- أنه سبب لمغفرة الله تعالى للعبد.
- أنه دليل على قوة النفس لما في ذلك من قهر شهوة الغضب.
- من كظم غيظه كان حريّاً بأن يقع تحت حلم الله ورحمته؛ إذ الجزاء من جنس العمل، فكما لم يعجل على الناس بالعقوبة، فإن الله لا يعجل عليه أيضاً بمعاقبته على ما يصدر منه في حقه تعالى.
- أنه دليل تقوى الله وإيثار وعده بالجنة.
- أنه من أسباب محبة الناس للمرء؛ فإن صاحبه يأمنه الناس فيألفونه ويقتربون منه ولا يتحاشونه.

- أنه سبب لذهاب الشحنة والعداوات بين أفراد المجتمع، وأن يشيع بين الناس الصفاء والود والحب والإخاء.
- أنه دليل على تمكُّن ملكة الصبر والحلم في نفس العبد.
- أن فيه إغاية للشيطان ومخالفة له، فإن الشيطان يحب وقوع العداوات بين الناس، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].
- من ضيق على نفسه حين الغضب فكظم غيظه وسَّع الله في ثوابه يوم القيامة.
- من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله ﷻ على رءوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره الله من الحور العين ما شاء، كما ورد في الحديث.
- أنه سبب لرفعة المنزلة في الدنيا.
- أن فيه اقتداء بالنبي ﷺ وعباد الله الصالحين.

الوسائل المعينة على كظم الغيظ:

- تذكُّر ثواب الله تعالى في الدنيا والآخرة على هذا الفعل، وأنه يضحِّي بالدون ويربح من ربه ما هو أعظم منه.
- من أعظم ما يدفع العبد لذلك أيضاً الزهد في متاع الدنيا وحطامها الزائل.
- الاستعانة بالله تعالى؛ لأن حمل النفس على كظم الغيظ شاقٌّ عليها، ولا يمكن للعبد أن يأتي به على وجهه إلا بإعانة الله له وتوفيقه إليه.
- التربية السليمة، فإن المسلم الذي ربِّي على حسن الخلق يسهل عليه التجاوز عمن أساء إليه، بخلاف من كان في تربيته الغلظة وضيق الأفق؛ فإنه لا يكاد يتسامح مع أحد أساء إليه.
- أن يعظ المؤمن أخاه إذا ما رأى الغضب قد أوشك أن يستمكن منه، كما فعل

الحر بن قيس حينما غضب عمر رضي الله عنه، فذكره الحر بكلام الله تعالى.

- أن يعلم أنه بهذا يتأسى بأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم فقد سبق أن الأعرابي جذبه من رداءه فلم يعجل عليه بالعقوبة، بل ضحك صلى الله عليه وسلم وأمر له بعطاء.

- مجاهدة النفس، وهي من أهم وسائل كظم الغيظ، فإن ملازمته شاقة على النفس، وإذا جدَّ المرء وجاهد نفسه وألزمها كظم الغيظ، وفقه الله لذلك.



٨٥. الوفاء بالعهد

الوفاء بالعهد من أهم شعب الإيمان، وهو خلق من الأخلاق العظيمة التي حثت عليها الشريعة الإسلامية؛ لأنه يرسى دعائم الثقة في الأفراد، ويقوي أواصر التعاون في المجتمع، فهو وصية قرآنية، حيث أولى القرآن الكريم هذا الخلق عناية فائقة؛ لما له من عظيم الدلالة على تزكية النفوس، وصفاء الفطرة، وسلامة الإيمان، وقد رغب الله تعالى بالوفاء بالعهد بما أعد للمتمسكين به من الثواب العظيم، ووردت الأوامر في الكتاب والسنة بالوفاء بمختلف أنواع العهود والأمانات والحقوق.

وحقيقة الوفاء بالعهد: أن الإنسان إذا التزم بأمرٍ وجب عليه أن يتمه ولا ينقضه إلا لعذر. ويدخل فيه كل ما أمر الله به ﷻ أو نهى عنه، قال الزجاج: «كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد» [زاد المسير في علم التفسير] (٣/ ٢٤).

وينقسم الوفاء بالعهد باعتبار الموفى له إلى قسمين:

الأول: الوفاء بالعهد مع الله ﷻ.

الثاني: الوفاء بالعهد مع عباد الله.

الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على أهمية الوفاء بالعهد:

قال تعالى: ﴿يَبْنَى إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

قال السعدي رحمه الله: «﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ وهو ما عهده إليهم من الإيمان به وبرسوله وإقامة شرعه.

﴿أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ وهو المجازاة على ذلك بإدخالهم الجنة. والمراد بذلك: ما ذكره الله في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي

وَعَزَّزْتُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّا كَفْرَنَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَا دَخَلَكُمْ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿[المائدة: ١٢].

ثم أمرهم بالسبب الحامل لهم على الوفاء بعهده، وهو الرهبة منه تعالى، وخشيته وحده، فإن مَنْ خَشِيَهِ أَوْجِبَتْ لَهُ خَشِيَّتُهُ امْتِثَالَ أَمْرِهِ واجْتِنَابَ نَهْيِهِ «[تفسير السعدي (ص: ٥٠) بتصرف يسير)].

وقال ﷺ: ﴿وَالْمُؤُوفَاتُ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]. وقال سبحانه: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَلَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

قال السعدي رحمه الله: «﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ وهذا يشمل العهد الذي عاهده عليه العباد من القيام بحقوقه والوفاء بها، ومن العهد الذي يقع التعاقد به بين الخلق، فالجميع يجب الوفاء به، ويحرم نقضه والإخلال به» [تفسير السعدي (ص: ٢٨٠)].

وقال تبارك اسمه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ [النحل: ٩١].

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

قال ابن كثير رحمه الله: «﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ أي: الذي تعاهدون عليه الناس والعقود التي تعاملونهم بها، فإن العهد والعقد كل منهما يُسأل صاحبه عنه ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ أي: عنه» [تفسير ابن كثير (٧٤ / ٥)].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

وقال سبحانه في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧].

قال كثيرون من السلف: «أي قام بجميع ما أمر به، ووفى كل مقام من مقامات العبادة، فكان لا يشغله أمر جليل عن حقير، ولا كبير عن صغير» [تفسير ابن كثير] (٢/ ٤٢٢).
وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤].

قال السعدي رحمته الله: «﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ أي: لا يعدُّ وعدًا إلا وفى به، وهذا شامل للوعد الذي يعقده مع الله أو مع العباد، ولهذا لما وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه له وقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وفى بذلك ومكَّن أباه من الذبح، الذي هو أكبر مصيبة تصيب الإنسان» [تفسير السعدي] (ص: ٤٩٦).
وقال رحمته الله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿١﴾ كُذِّبَتْ عَنْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣].

وعن سليم بن عامر قال: كان بين معاوية رضي الله عنه وبين أهل الروم عهد، وكان يسير في بلادهم، حتى إذا انقضى العهد أغار عليهم، فإذا رجل على فرس، وهو يقول: الله أكبر، وفاء لا غدر، وإذا هو عمرو بن عبسة رضي الله عنه، فسأله معاوية عن ذلك، فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلنَّ عهدًا، ولا يشدنه حتى يمضي أمده أو ينبذ إليهم على سواء»، قال: فرجع معاوية بالناس [رواه الترمذي: ١٥٨٠].
قوله: «وكان يسير في بلادهم» أي: كان معاوية يسير قبل انقضاء العهد ليقرب من بلادهم حتى يهجم عليهم عند انقضاء مدة العهد. «الله أكبر وفاء لا غدر» أي: ليكن منكم وفاء لا غدر، وإنما كره عمرو بن عبسة ذلك لأنه إذا هادنهم إلى مدة وهو مقيم في وطنه فقد صارت مدة مسيره بعد انقضاء المدة المضروبة كالمشروط مع المدة في أن لا يغزوهم فيها، فإذا صار إليهم في أيام الهدنة كان إيقاعه قبل الوقت الذي يتوقعونه، فعد ذلك عمرو غدرًا، وأما إن نقض أهل الهدنة بأن ظهرت منهم خيانة فله أن يسير إليهم على غفلة منهم. «فلا يحلنَّ عهدًا ولا يشدنه» أي: لا يغيرنَّ عهدًا ولا ينقضه بوجه. «حتى يمضي أمده» أي: تنقضي مدته. «ينبذ إليهم» أي: يرمي عهدهم بأن يخبرهم بأنه

نقض العهد على تقدير خوف الخيانة منهم. «على سواء» أي: ليكون خصمه مساوياً معه في النقض كيلا يكون ذلك منه غدرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ فَلَنْبُذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨] أي: يُعلمهم أنه يريد أن يغزوهم، وأن الصلح قد ارتفع، فيكون الفريقان في علم ذلك سواء. «تحفة الأحوذى» (١٦٩ / ٥).

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: ما منعني أن أشهد بدرًا إلا أني خرجت أنا وأبي فأخذنا كفارًا قريش، قالوا: إنكم تريدون محمدًا؟ فقلنا: ما نريده، ما نريد إلا المدينة. فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفن إلى المدينة، ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرناه الخبر، فقال: «انصرفا، نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم» [رواه مسلم: ١٧٨٧]. وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» [رواه البخاري: ٣٤، ومسلم: ٥٨].

«منافقًا خالصًا» أي: قد استجمع صفات النفاق. «خصلة» أي: صفة. «يدعها» أي: يتركها ويخلص نفسه منها. «غدر» أي: ترك الوفاء بالعهد.

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اضمنوا لي ستًا من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا أؤتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم» [رواه أحمد: ٢٢٧٥٧].

وعن أبي رافع رضي الله عنه قال: بعثني قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ألقى في قلبي الإسلام. فقلت: يا رسول الله، إني والله لا أرجع إليهم أبدًا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني لا أخيس بالعهد، ولا أحبس البرد، ولكن أرجع، فإن كان في نفسك، الذي في نفسك الآن، فارجع» قال: فذهبت، ثم أتيت النبي صلى الله عليه وسلم، فأسلمت. [رواه أبو داود: ٢٧٥٨].

«لا أخيس بالعهد» أي: لا أنقضه. «ولا أحبس البرد» جمع برید، بمعنى الرسول، أي: لا أحبس الرسل الواردين عليّ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «العهود ما أحل الله وما حرم، وما فرض وما حدّ في القرآن كله، فلا تغدروا ولا تنكثوا» [رواه البيهقي في «شعب الإيمان»: ٤٠٤٧].

وعن ميمون بن مهران رضي الله عنه قال: «ثلاثة المسلم والكافر فيهن سواء: من عاهدته وفّ بعهده مسلمًا كان أو كافرًا، فإنما العهد لله ﷻ، ومن كانت بينك وبينه رحم فصلها مسلمًا كان أو كافرًا، ومن ائتمنك على أمانة فأدّها إليه مسلمًا كان أو كافرًا» [رواه البيهقي في «شعب الإيمان»: ٤٠٥٣].

ثمرات الوفاء بالعهد:

- يتبين لنا من خلال نصوص القرآن والسنة السابقة أن للوفاء بالعهد ثمرات جليلة وفوائد عظيمة منها:
- الوفاء بالعهد علامة من علامات الإيمان.
 - أنه صفة من صفات الأنبياء.
 - أنه صفة من صفات عباد الله المتقين.
 - أنه سبب من أسباب دخول الجنة.
 - من وفّى بعهده مع الله ووفّى ما عاهد عليه عباد الله، وفّى الله له، والجزاء من جنس العمل، قال تعالى لبني إسرائيل: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].
 - من وفّى بعده مع الله ومع الناس سلم من النفاق.
 - الوفاء بالعهد صفة أساسية في بنية المجتمع الإسلامي، حيث تشمل سائر المعاملات؛ إذ كل المعاملات والعلاقات الاجتماعية والعود والعهود تتوقف على الوفاء، فإذا انعدم الوفاء انعدمت الثقة، وساء التعامل، وساد التنافر.
 - المسلم المتمسك بالوفاء في كل أحواله يجد في نفسه سعادة عظيمة عندما يوفي حقوق الله ﷻ كاملة وحقوق إخوانه المسلمين، ولا ينسى حق أهله ونفسه عليه، فيعطي كل ذي حق حقه.

- حصول الأمن والاستقرار، وصيانة الدماء وحفظ الحقوق.

الأسباب والوسائل المعينة على الوفاء بالعهد:

- الإخلاص وقصد الله تعالى بالعبادة، فعندما يتذكر المسلم أنه يقصد بهذه الشعبة وجه الله وحده؛ يسهل ذلك عليه وينشط للقيام بها.
- الخوف من الله تعالى؛ فإنه قد لعن ناقضي العهد، وأوعدهم سوء العذاب في الآخرة.
- ابتغاء الأجر والثواب من الله سبحانه وتعالى في الآخرة، فيتذكر ما أعدّه الله تعالى لعباده المؤمنين الموفين بعهدهم في الآخرة من الأجر والثواب.
- التفكير في العواقب الوخيمة والآثار السيئة لنقض العهد على الفرد والمجتمع. وأن يعلم أن الوفاء بالعهد ورعايته يجلب محبة الناس ويكسب ثقتهم.
- الاستعانة بالله تعالى، فلا يعين العبد على الطاعة إلا الله تعالى، وكلما وجد العبد في نفسه مشقة لأداء طاعة من الطاعات فعليه أن يتوجه إلى الله تعالى بالدعاء أن ييسر له فعل الطاعات وأن يعينه عليها.
- الزهد في الدنيا؛ فإن من أعظم ما يجعل المرء يغدر بعهوده، هو محبته للدنيا ولمتاعها الزائل وطلبه العلو فيها على غيره.
- مجاهدة النفس ومخالفة الهوى، فهما من أعظم الأسباب المعينة على الوفاء بالعهد وترك نقضه.



٨٦. معاداة الكفار

قد أوجب الله تعالى على المؤمنين موالاة بعضهم لبعض، وأوجب عليهم معاداة الكافرين المحادين لله ورسله، وجعل ذلك من أصول الدين ودعائم الإيمان، فلا ولاء لله إلا بالبراءة من أعدائه، وهذه المعاداة تقتضي بغض لهم ولما هم عليه من الكفر. ومن صور هذه المعاداة الواجبة: أن يعتقد كفر كل من عبد غير الله تعالى وضلاله حتى يؤمن بالله وحده سبحانه وتعالى، وأن يبغضهم ويعاديهم، وأن يجاهدهم بما استطاع، وأن يترك مولاتهم أو توليهم، والموالاة: هي المعاشرة والمخالطة بدون حاجة لا لبيع ولا لشراء ولا للدعوة إلى الله، فيتخذ الكافر صديقاً وصاحباً، وأما التولي: فهو محبتهم بالقلب، وينشأ عن ذلك نصرتهم وإعانتهم على المسلمين، وهو من الذنوب العظيمة، وأما إذا زاد على ذلك بأن اعتقد أن دينهم صواب، أو أنه خير من دين المسلمين؛ فهو كافر مرتد، والعياذ بالله.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: «إن التولي التام يوجب الانتقال إلى دينهم، والتولي القليل يدعو إلى الكثير، ثم يتدرج شيئاً فشيئاً حتى يكون العبد منهم». [تفسير السعدي] (ص: ٢٣٥).

وقال أيضاً: «وذلك الظلم يكون بحسب التولي؛ فإن كان تولياً تاماً صار ذلك كفراً مخرجاً عن دائرة الإسلام، وتحت ذلك من المراتب ما هو غليظ، وما هو دون ذلك». [تفسير السعدي] (ص: ٨٥٧).

الأدلة على أن معاداة الكفار من شعب الإيمان:

قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتَ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

قال الطبري رحمه الله: «معنى ذلك: لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفار أعواناً وأنصاراً، توالونهم على دينهم، وتظاهروهم على المسلمين من دون المؤمنين، وتدّلونهم على عوراتهم، فإنه من يفعل ذلك فليس من الله في شيء؛ يعني بذلك: فقد برئ من الله، وبرئ الله منه بارتداده عن دينه، ودخوله في الكفر إلا أن تتقوا منهم تقاة، إلا أن تكونوا في سلطانهم، فتخافوهم على أنفسكم، فتظهروا لهم الولاية بألستكم، وتضمروا لهم العداوة، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر، ولا تعينوهم على مسلم بفعل. وقوله تعالى: ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨] يعني -تعالى ذكره- بذلك: ويخوفكم الله من نفسه أن تركبوا معاصيه أو توالوا أعداءه، فإن الله مرجعكم ومصيركم بعد مماتكم، ويوم حشركم لموقف الحساب، يعني بذلك: متى صرتم إليه وقد خالفتم ما أمركم به، وأتيتم ما نهاكم عنه من اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين؛ نالكم من عقاب ربكم ما لا قبل لكم به، يقول: فاتقوه واحذروه أن ينالكم ذلك منه، فإنه شديد العذاب» [تفسير الطبري] (٥ / ٣١٥).

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَنِتُّمْ قَد بَدَتْ أَلْبَعُضَاءُ مِّنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَآئِنْتُمْ أُولَآئِ حُبُونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقُوكُمُ الْقُلُوبَ قَالُوا أَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمَسَّسْكُمُ حَسَنَةٌ تَّسُوهُمْ وَإِن تَصِبْكُمُ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١١٨ - ١٢٠].

قال السعدي رحمه الله: «ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يتخذوا بطانة من المنافقين من أهل الكتاب وغيرهم، يظهر ونهم على سرائرهم، أو يولّونهم بعض الأعمال الإسلامية؛ وذلك أنهم هم الأعداء الذين امتلأت قلوبهم من العداوة والبغضاء فظهرت على أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر مما يسمع منهم، فلهذا ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي: لا يُقَصِّرون

في حصول الضرر عليكم والمشقة وعمل الأسباب التي فيها ضرركم ومساعدة الأعداء عليكم، قال الله للمؤمنين: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أي: التي فيها مصالحكم الدينية والدينية ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فتعرفونها وتفرقون بين الصديق والعدو، فليس كل أحد يُجعل بطانة، وإنما العاقل من إذا ابتلي بمخالطة العدو أن تكون مخالطة في ظاهره، ولا يُطلعه من باطنه على شيء، ولو تملق له وأقسم أنه من أوليائه.

ثم قال الله مهيباً للمؤمنين على الحذر من هؤلاء المنافقين من أهل الكتاب، ومبيناً شدة عداوتهم: ﴿هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أي: جنس الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه وهم لا يؤمنون بكتابكم، بل إذا لقوكم أظهرُوا لكم الإيمان ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ﴾ وهي أطراف الأصابع من شدة غيظهم عليكم ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وهذا فيه بشارة للمؤمنين أن هؤلاء الذين قصدوا ضرركم لا يضرون إلا أنفسهم، وأن غيظهم لا يقدرُون على تنفيذه، بل لا يزالون معذيين به حتى يموتوا فيتنقلوا من عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة.

﴿إِنْ تَمَسَّسْكُمُ حَسَنَةٌ﴾ كالنصر على الأعداء وحصول الفتح والغنائم ﴿تَسُوْهُمْ﴾ أي: تغمهم وتحزنهم ﴿وَإِنْ تُصِبْكُمُ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فإذا أتيتم بالأسباب التي وعد الله عليها النصر - وهي الصبر والتقوى - لم يضرركم مكرهم، بل يجعل الله مكرهم في نحورهم؛ لأنه محيط بهم بعلمه وقدرته، فلا منفذ لهم عن ذلك، ولا يخفى عليهم منهم شيء» [تفسير السعدي] (ص: ١٤٤).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَمِنْهُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وقال ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾

قال ابن كثير رحمه الله: «هذه صفات المؤمنين الكامل: أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه، متعزّزاً على خصمه وعدوه» [تفسير ابن كثير] (٣/ ١٣٦).

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَلَكُفَّارًا أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧].

وقال تبارك اسمه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

قال الشيخ جابر الجزائري رحمه الله: «هذا إنذار الله تعالى للمؤمنين ينهاهم فيه عن اتخاذ من كفر من آبائهم وإخوانهم أولياء لهم يوادونهم ويناصرونهم ويطلعونهم على أسرار المسلمين وبواطن أمورهم، وقوله تعالى: ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ أي: أثروا الكفر والإصرار عليه على الإيمان بالله ورسوله، ثم يهددهم إن لم يمتثلوا أمره ويفاصلوا آباءهم وإخوانهم المستحيين للكفر على الإيمان فيقول: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ووجه الظلم ظاهر، وهو أنهم وضعوا المحبة موضع البغضاء، والنصرة موضع الخذلان، والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه» [أيسر التفاسير] (٢/ ٣٥٢).

وقال سبحانه: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

قال السعدي رحمه الله: «أي: لا يجتمع هذا وهذا، فلا يكون العبد مؤمناً بالله واليوم الآخر حقيقة، إلا كان عاملاً على مقتضى الإيمان ولوازمه، من محبة من قام بالإيمان وموالاته، وبغض من لم يقم به ومعاداته، ولو كان أقرب الناس إليه.

وهذا هو الإيمان على الحقيقة، الذي وجدت ثمرته والمقصود منه، وأهل هذا الوصف هم الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان، أي: رسمه وثبته وغرسه غرساً، لا

يتزلزل، ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك، وهم الذين قواهم الله بروح منه أي: بوحيه، ومعونته، ومدده الإلهي وإحسانه الرباني.

وهم الذين لهم الحياة الطيبة في هذه الدار، ولهم جنات النعيم في دار القرار، التي فيها من كل ما تشتهي النفس، وتلد الأعين وتختار، ولهم أكبر النعيم وأفضله، وهو أن الله يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً، ويرضون عن ربهم بما يعطيهم من أنواع الكرامات، ووافر المثوبات، وجزيل الهبات، ورفع الدرجات، بحيث لا يرون فوق ما أعطاهم مولاهم غاية، ولا فوقه نهاية.

وأما من يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر، وهو مع ذلك مُوَادٌّ لأعداء الله، محب لمن ترك الإيمان وراء ظهره، فإن هذا إيمان زعمي لا حقيقة له، فإن كل أمر لا بد له من برهان يصدقه، فمجرد الدعوى، لا تفيد شيئاً، ولا يصدق صاحبها [تفسير السعدي] (ص: ٨٤٨). وقال ﷺ: ﴿فَدَكَانَتْ لَكُمْ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ [الممتحنة: ٤].

قال ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى لعباده المؤمنين الذين أمرهم بمقاطعة الكافرين وعداوتهم ومجانبتهم والتبري منهم: ﴿فَدَكَانَتْ لَكُمْ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أي: وأتباعه الذين آمنوا معه ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ﴾ أي: تبرأنا منكم ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي: بدينكم وطريقكم ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾ يعني: وقد شُرِعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم، ما دمت على كفركم فنحن أبداً نتبرأ منكم ونبغضكم ﴿حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾ أي: إلى أن توحدوا الله فتعبدوه وحده لا شريك له، وتخلعوا ما تعبدون معه من الأنداد والأوثان.

وقوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ أي: لكم في إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها، إلا في استغفار إبراهيم لأبيه، فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه [تفسير ابن كثير] (٨ / ٨٧).

وعن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، اشترط عليّ فقال: «تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتصلي الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتنصح للمسلم، وتبرأ من الكافر» [رواه أحمد: ١٩١٥٣].

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين»، قالوا: يا رسول الله، لم؟ قال: «لا تراءى ناراهما» [رواه أبو داود: ٢٦٤٥]. أي: لا يرى المسلم نارَ المشرك، ولا يرى المشرك نارَ المسلم، والمعنى: أنه يجب أن يتباعد منزل المسلم عن منزل المشرك، ولا ينزل بالموضع الذي إن أُوقدت فيه ناره تلوح وتظهر للمشرك إذا أوقدها في منزله، ولكنه ينزل مع المسلمين، فيبتعد المسلم عن المشرك ابتعاداً شديداً، ومن أجل ذلك شُرعت الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، كما كان المهاجرون الأولون يهاجرون من مكة إلى المدينة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان، وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً» [تفسير ابن رجب الحنبلي] (١/ ٥٠٤).

الثمرات المترتبة على معاداة الكفار:

- أن في ذلك طاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم.
- أن فيه إثباتاً لصحة الإيمان، فإن الله تعالى - كما سبق - ذكر: أنك لا تكاد تجد مؤمناً بالله واليوم الآخر يواؤم من حاد الله ورسوله، ولو كان ذلك الكافر أقرب قريب له.
- أن فيه تصفية لقلب المؤمن لمحبة الله ومحبة شرعه وعباده المؤمنين، فإن القلب لا يكاد يقدر على الجمع بين محبة المتناقضات، فمتى أبغض أعداء الله انتقل ولا بد إلى محبة الله ومحبة أوليائه.
- أنها من أكبر أسباب الثبات على الدين، فمن أبغض شيئاً؛ فإنه لا يدخل فيه أبداً،

فمتى أبغض المؤمنُ الكافرين وما هم عليه، كان ذلك من أكبر أسباب عدم الدخول في شيء مما هم عليه من الكفر والفسوق.

- أن في هذه المعادة تجنب معادة الله تعالى للعبد، لأن من والى أعداء الله فقد عادى أوليائه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب» [رواه البخاري: ٦٥٠٢]. وهذا الوعيد فيمن عادى ولياً واحداً، فكيف بمن عادى كل أولياء الله أو أكثرهم؟!

- أنها من أسباب عزة المسلمين، فكم رأينا من ذلة وقع فيها المسلمون بسبب ما حصل منهم من موالاته لأعداء الله وترك معاداتهم، حتى استولوا على بلاد الإسلام وحولوها إلى ديار كفر، كما حدث في بلاد المسلمين الذين اتخذوا الكفار أولياء يستعينون بهم ليقاتل بعضهم بعضاً، فكانت النهاية أن قتلوا من المسلمين أو أجبروهم على الدخول في ديانتهم، وضعف أو تلاشى حكم الإسلام في تلك الديار، والله المستعان.

الأسباب والوسائل المعينة على معادة الكفار:

من أعظم ما يعين المسلم على معادة الكفار: أن يستحضر أن في هذه المعادة طاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وليست أمراً شخصياً ولا انتصاراً لنفسه، بل هو انتصار لدينه.

- أن يعلم أن هؤلاء الكفار يُكُونون له العداوة والبغضاء، ويتربصون بالمسلمين الدوائر حتى ينقضوا عليهم، ولا يتركون باباً يمكنهم به إيذاء أهل الدين إلا وطرقوه، كما قال تعالى: ﴿لَا يَأْلُوْنَكُمْ خَبَالًا وَدُّوْا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُوْرُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨]، وقال: ﴿لَا يَرْقُبُوْنَ فِيْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ١٠].

- ترك اتباع الكفار في عاداتهم، وترك التشبه بهم في لباسهم وأكلهم، وكل ما هو من خصوصيتهم، حتى تنقطع الصلة بيننا وبينهم، ويذهب كل ما من شأنه أن يولد المودة تجاههم.

- تذكر عاقبة من تركوا هذه المعادة وما آل إليه مصيرهم؛ ليعتبر المسلم بذلك وليكون ذلك رادعاً له، فإن أكثر من ترك هذه المعادة كان هدفه في ذلك هو الانتفاع من هؤلاء الكفار في دنياه، لكنه غالباً ما عوقب مثل هؤلاء بنقيض قصدهم، فلم ينالوا شيئاً من الدنيا مما كانوا يطمحون إليه، وخسروا مع ذلك آخرتهم.



فهرس الموضوعات

المقدمة	٥
مقدمة الكتاب	٦
١. التوحيد (قول: لا إله إلا الله)	١٣
٢. الإيمان بالله تعالى	٢٠
٣. الإيمان بالملائكة	٢٥
٤. الإيمان بالكتب السماوية	٣٢
٥. الإيمان بالرسول	٣٦
٦. الإيمان باليوم الآخر	٤١
٧. الإيمان بالقدر	٤٧
٨. مراعاة حقوق النبي ﷺ	٥٥
٩. متابعة الرسول ﷺ	٦٧
١٠. محبة العبد لله ﷻ	٧٤
١١. الحب في الله والبغض في الله	٨٠
١٢. حب الصحابة رضي الله عنهم	٨٦
١٣. حب المرء لأخيه ما يحب لنفسه	٩٢
١٤. موالة المؤمنين	٩٧
١٥. الإخلاص	١٠٣
١٦. الخوف	١٠٨
١٧. الرجاء	١١٤
١٨. التوكل	١٢٠
١٩. التقوى	١٢٥

٢٠. الصدق ١٣١
٢١. طلب العلم ١٣٨
٢٢. نشر العلم ١٤٥
٢٣. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٥١
٢٤. الجهاد والرباط ١٥٩
٢٥. الدعوة إلى الله ١٦٧
٢٦. الطهارة والوضوء ١٧٣
٢٧. الأذان ١٧٩
٢٨. الصلاة ١٨٥
٢٩. صلاة الجمعة ١٩٠
٣٠. صلاة الجماعة ١٩٥
٣١. صلاة التطوع ٢٠١
٣٢. السنن الرواتب ٢٠٧
٣٣. قيام الليل ٢١٢
٣٤. صلاة الضحى ٢١٩
٣٥. الزكاة ٢٢٤
٣٦. الصدقة ٢٣٢
٣٧. الصوم ٢٣٩
٣٨. صيام التطوع ٢٤٤
٣٩. الاعتكاف ٢٥٠
٤٠. الحج ٢٥٥
٤١. العمرة ٢٦١
٤٢. التعاون على البر والتقوى ٢٦٦
٤٣. النصيحة ٢٧١

٤٤. تعظيم شعائر الله وحرماته ٢٧٦
٤٥. الزهد وقصر الأمل ٢٨٢
٤٦. بر الوالدين ٢٩٢
٤٧. صلة الرحم ٢٩٧
٤٨. التوبة ٣٠٤
٤٩. تلاوة القرآن ٣١٠
٥٠. الدعاء ٣١٧
٥١. الذكر ٣٢٣
٥٢. حسن الخلق ٣٣٠
٥٣. الإحسان إلى الخلق ٣٣٩
٥٤. الصبر ٣٤٩
٥٥. العدل ٣٥٨
٥٦. الرحمة ٣٦٥
٥٧. التواضع ٣٧٣
٥٨. الرضا ٣٨٠
٥٩. الشكر ٣٨٦
٦٠. الحياء ٣٩٢
٦١. الغيرة ٣٩٨
٦٢. مراعاة حق الزوج ٤٠٣
٦٣. مراعاة حق الزوجة ٤٠٩
٦٤. مراعاة حقوق الأولاد ٤١٦
٦٥. مراعاة حق اليتيم ٤٢٣
٦٦. عيادة المريض ٤٢٩
٦٧. أداء حق الميت ٤٣٣

٦٨. إكرام الضيف ٤٣٨
٦٩. الإحسان إلى الجار ٤٤٣
٧٠. توقير الكبير ٤٤٨
٧١. السلام ٤٥٢
٧٢. تشميت العاطس ٤٥٩
٧٣. الإصلاح بين الناس ٤٦٣
٧٤. الشهادة بالحق ٤٦٧
٧٥. إماطة الأذى عن الطريق ٤٧٤
٧٦. العفو عن الناس ٤٧٨
٧٧. الستر على المسلمين ٤٨٥
٧٨. قضاء حوائج المسلمين ٤٩٠
٧٩. أكل الحلال ٤٩٦
٨٠. غض البصر ٥٠١
٨١. الحجاب ٥٠٨
٨٢. حفظ اللسان ٥١٦
٨٣. الإعراض عن اللغو ٥٢٣
٨٤. كظم الغيظ ٥٢٩
٨٥. الوفاء بالعهد ٥٣٦
٨٦. معاداة الكفار ٥٤٢
- فهرس الموضوعات ٥٥١

